

الجمهورية العربية السورية

مركز البحوث والدراسات
البيئية
طرابلس - ليبيا



البلاغة والتطبيق

تأليف

الدكتور أحمد مطلوب

الدكتور حسن البصير

طبعة ثانية

١٩٩٩

البلاغة والتطبيق

١٩٩٩

71

اللغة
العربية

اصحح
من نرجع

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

البلاغة والتطبيق

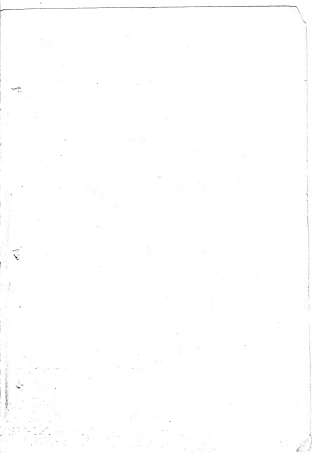
تأليف

الدكتور كامل حسن البصير

الدكتور أحمد مطلوب

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة لدى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



بسم الله الرحمن الرحيم

القدمة

البلاغة من علوم اللغة العربية، وقد كانت السبيل المقضي إلى فهم كتاب الله وكلام العرب؛ ولذلك أول القدماء هذا الفن عناية كبيرة ووضعوا فيه دراسات كثيرة اتسمت بالأصالة والتميز السديد؛ ولولا جنوح الحياة الأدبية في القرون المتأخرة إلى التقليد غلقت البلاغة نافذة بالحياة ترفد الأديب بكل بدیع، ولقيت معطى من معاني التطور والتجديد؛ ولكن ما أصاب الأدب من ذبول أورثها جموداً تشكّل في شروح التلخيص وبعض ما عرف من كتبها في تلك العهود:

وقد قامت محاولات جادة في هذا العصر لإعادة الحياة إلى البلاغة وربطها بالأدب الحديث، ولكن تلك المحاولات لم تنمر كثيراً لأنها لم تكمل ما يدها السابقون وإنما انصرفت إلى وضع المناهج من غير أن تلمس الموضوعات أو تحاول بحثها من جديد؛ وإجمالاً من أسباب ذلك أن بعض أصحاب تلك المحاولات لم يتصقوا درسها، وكان المرحوم أمين الخولي أقدرهم على التمهّوس بالبلاغة لولا وقوفه عند منهج فن القول:

وطالب اللغة العربية في الكلية لا يحتاج إلى رسم المناهج فدر حاجته إلى الأصول التي تثير سبيله وتبصره بمسالك الكلام؛ وأول ما ينبغي أن يعرفه الأسس العامة التي تقوم عليها البلاغة كما استقرت في علومها الثلاثة: اللغوي والبيان والبدیع، ومن هنا كان منهج الدراسة بكتليات الآداب في جامعات القنطر العراني، يقوم على معالجة هذه العلوم الثلاثة إلى جانب المهاد التاريخية التي يكشف عن نشأة البلاغة وتطورها ليكون الطالب على يدة من أمر هذا الفن الذي نشأ ملاحظات عامة ثم استوى علماً فإ قواعد وأصول: وهذا الكتاب أربعة أبواب:

الأول: نشأة والتطور؛ وقد شمل مقدمة في تاريخ البلاغة العربية وتطورها، ودراسة المؤثرات فيها كالقرآن الكريم وكتب التفسير واللغة والنحو والأدب والفلسفة، وما نتج عن ذلك من اتجاهين لمتلا في المدرسة الكلامية والمدرسة

الادبية: واحترى هذا الباب دراسة تاريخية لمصطلحي القصيدة والبلاغة وتطورهما خلال القرون:

الثاني : علم اللغوي، وقد ضمّ البحث في تعريفه ودراسة أهم موضوعاته كالخبر والانشاء والتقديم والتأخير والفصل والوصل والقصص والابهام والاختلاف والملازمة:

الثالث : علم البيان، وقد شمل تعريفه ودراسة تشبيه والحقيقة والمجاز والاستعارة والكتابة والتعريف:

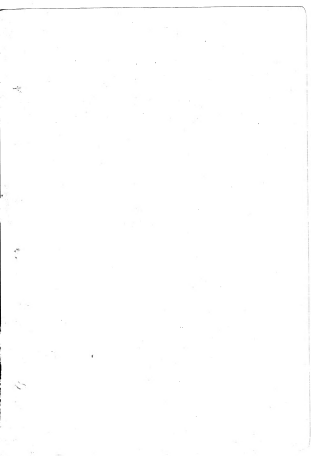
الرابع : علم البديع، وقد تضمن نشأته وأهم المحسنات المقننة والمنعوية وتوزعت هذه الأبواب على ثلاثة فصول دراسية ليكون للطلبة متسع يتصرفون فيه إلى استيعاب الأصول وتلوق النصوص ومعرفة ما فيها من غن:

كسيت البابين : الأول والثاني، وحرر زميلي الدكتور كامل البصير البابين: الثالث والرابع، وكان الالتزام واضعاً بالنتائج التحليلية واعتماد النصوص البليغة ووضع التطبيقات والتعريفات في نهاية كل باب ليكون ذلك عوناً للطلبة على فهم الأصول وتلوق النصوص: ولم يقلل الكتاب بالتعريفات الكثيرة وإنما كان الاكتفاء بما يقرب الصورة ويخدم الهدف لينطلق الطلبة بعد ذلك إلى رحاب أوسع بعد أن يتزوّدوا بالمعرفة ويأثثوا أساليب العرب ويتلوّقوا فن القول:

لقد أنطقت أبواب هذا الكتاب من تقديم أصولها، لأن المنهج المقرر يلزم ذلك، ولأنّ فنّ التقديم فهما أول خطوات التجديد، وهذا ما تسمى إليه الدراسة العلمية، حتى إذا ما تقدّم الطلبة هذا التقديم ووجدوا في نفوسهم القدرة على المعطاء سلّوا في طريق البناء وفي تقويمهم نور من ثمرات وفي نفوسهم قيس من الجديد: وبعد لهذا كتاب فيه من التقديم أصوله ومن الجديد تطبيقاته، ولن يكون ناقصاً إلاّ بعد أن يحسن الطلبة الانتفاع به، وبعد أن يتزوّدوا بالأسئلة ما فيه من أود، وما للكمال إلاّ لله تعالى:

الأول من كانون الثاني ١٩٨١م
الخامس والمثرون من صفر ١٤٠١هـ

الباب الاول
النشأة والتطور



فصل الأول
تاريخ
المبحث الأول
نشأة المؤلفات

النشأة :

ان الباحث حينما يتلمس البلور الأول لبلاغة العربية قبل عهد التنوين والتأليف يجد أن العرب عرفوا كثيراً من الاحكام التقفية التي أعانهم على فهم الشعر وتلقوه ونقدوه : والامة التي أنجبت للشعر النحول والخطباء المصانع لابد أن تعرف العالم التي يستعطاها الشعراء ويترسمها الخطباء، وإذا كان كثير من الاحكام التقفية قبل الاسلام لم يصل اليها مع ما وصل من شعر وعطوب وأمثال ، فان بعض تلك الاحكام تناولتها الالسن وتداولتها الكتب، وقد وصف القرآن للكرم العرب بأنهم أصحاب بيان فقال سبحانه وتعالى : **والرحمن : عليم القرآن : خلق الانسان** : **علمه البيان** (١) : وقال عن حسن كلامهم وشدة أسرته وتأثيره في القلوب : **ومن الناس من ينجبك قوله في الحياة الدنيا** (٢) : ووصف الوليد بن المغيرة **القرآن وقال : هواله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له خلابة** ، **وان عليه لخلابة** ، **وان آلاءه لشعر** ، **وان أسفله لخلق** (٣) :

ويمكن ان يستدل الباحث على ان العرب عرفوا كثيراً من الاحكام التقفية قبل الاسلام بأمرين :

الأول : عتلي لا يمكن إنكاره ، وهو انه لا يصدق ان الشعر وصل إلى ما وصل اليه في ذلك العهد ، وان الخطابة بلغت ذروتها ، وان اللغة اعلنت صورتها

(١) سورة الرحمن ، الآيات ١ - ٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٠٤ .

(٣) في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٠ : **هواله ان قوله خلابة ، وان أسفله لخلق ، وان غرمة لجناته** .

من غير ان يكون هناك عقل مدبر لكل ذلك، ومن غير ان تكون هناك اصول عامة
 معارف عليها لشعراء والمتكلمون وساروا عليها فيما نظفوا أو قالوا؛ ومهما تحدثت
 الباحثون عن السليقة الصافية والذوق السليم، ومهما وصفوهم بالقطعة والذكاء،
 فان العقل ليحكر ان يكون ما كان من غير ثقافة ودُرْبة، وقواعد تضيء لهم الطريق
 وتفتح أمامهم سبل القول:

الثاني : قلبي وهو ما أثر عنهم وما جاء عن خطباتهم ووصف خطيبهم: وقد
 كان الخطباء يحثون ببياتهم ويفخرون بأنفسهم، ولما دخل ضمرة بن ضمرة على
 النعمان بن النضر رزى عليه الذي رأى من صماته وقصره وقلة، فقال النعمان:
 «تسمع بالعدي لأن تراه»، فقال : «أبيت المن، ان الرجال لا تكال بالقفران (١)
 ولا توزن باليزان، وليست بمسوك يستقى بها (٢)، وإنما المرء بأصغره : بقلبه
 ولسانه، ان صال صال بجهنم، وان قال قال ببيان (٣) : وكان ضمرة عطيباً
 فارساً شاعراً شريفاً سيداً، وكان يحكم وينفر بالاسجاع:

واستدل الجاحظ من الفاظ «الحي» و«البي» و«الحصر» و«اللقم» و«الخطل»
 و«السهب» على ان العرب قبل الاسلام عرفوا كثيراً من عيوب البلاغة والخطابة،
 وقال : «وكلام الناس في طبقات كما ان الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام
 الجزل والخفيف، والمليح والحسن، والقيح والسمح، والخفيف والفتيل، وكلمة
 عربي، ويكل قد تكلموا، ويكل قد تهادوا وتعايوا، فان زعم زاعم انه لم يكن
 في كلامهم تناقض ولا يتهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا الحي والبي»، والحصر
 واللقم، والخطل والسهب، والشدق والصفيق، والهمار والثرثار، والكتار
 والمسار؟ ولم ذكروا المجر والمقر، والمذبان والتمليط، وقالوا تلقأمة، وفلان

(١) القفران : جمع قفاز، وهو مكاب.

(٢) الشك : بالفتح وسكون الشين : الجهد، وسي بذلك لانه يسلك فيه الشيء إذا

جهد سقلاً.

(٣) البيان والبيان ج ١ ص ١٧١، ٢٢٧.

يتلوه في خطبه (١)؟ وقالوا فلان بخطبه في جوابه ويحمل في كلامه ويتناقض في غيره؟ ولولا ان هذه الامور قد كانت تكون في بعضهم دين بعض لا سمي ذلك البعض البعض الآخر بهذه الاسماء (٢).

ووصفوا كلامهم في اشعارهم فحسبوا كبرود العصب، وكاخلل والماعطف والديباج والوشى واشباه ذلك. (٣) ووصفوا شعرهم واصفوا عليهم القبا كاللهلhel والرقش والتقب والتخل والتخل والأقود والثابطة، وهذه الاوصاف تتصل بأحكامهم التقفية ويلوقهم لذي ميزوا به بين شاعر وشاعر:

وكان بعض الشعراء يعنون بأشعارهم وينسحبونها ليل أن يذهبوا بين الناس، واشتهر زهير بن أبي سلمى بالغزليات وتبعه في ذلك الخطبة وغيره ممن اعتصموا بتقريب الشعر ونجودته، وكان الخطبة يقول: «خير الشعر الخولي المحككة وقال الاصمعي: زهير بن أبي سلمى والخطبة واشباههما عبيد الشعر لانهم لم يحرموا ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين» (٤). وقال الجاحظ: «وكذلك كل من جود في جميع شعره ووقف عند كل بيت قائلة وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة» (٥). وقال واصفا هؤلاء الشعراء: «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كثرنا (٦) وزمنا طويلا، ويرده فيها نظره، ويجعل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه انهماما لعقله وتبعها على نفسه فيجعل عقله زماما على رأيه، ورأيه حياراً على شعره، اشفاقاً على أدبه واحرازاً لما يحرك الله تعالى من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد: الخزليات، والمقلدات، والمضغعات، والمحكمات، ليصير قائلها قسماً ختيداً وشاعراً مقلداً» (٧). وقال: «ومن تكب

(١) النخل: ذو النخل وهو الكلام القاصد الكثير. المسهب: كثير الكلام.

رجل مهيار: كثير الكلام الطليقة والطلاع: كثير الكلام.

(٢) البيان ج ١ ص ١١٤ - ١١٥.

(٣) البيان ج ١ ص ٢٢٢.

(٤) الشعر والشعراء ج ١ ص ٧٨.

(٥) البيان ج ٢ ص ١٢.

(٦) كثرنا: تارة.

(٧) البيان ج ٢ ص ٩.

بشعره واتسم به صلات الاشراف والقادة وجوائز الملوك والسادة في فصائد
السياسين وبالطوال التي تشدد يوم الحفل لم يجد بدا من صنع زهبرو الحظيئة
وتشابههما، فإذا قالوا في غير ذلك أخذوا حقو الكلام وتركوا الجهور، ولم ترهم
مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب، بل
كان للكلام البائت عندهم كاللغضب القنداراً عليه والله يحسن عادة الله عندهم
تب: وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في منظم التدبير ومهمات الأمور
ميتوه (١) في صدورهم ويقولون على انفسهم فإذا قومه لثقاف وأدغل الفكر، وقام
على الخلاص أبرزوه محككا متقحا، ومعنى من الأداس مهلباه (٢):

إن وقوف الشعراء عند فصائلهم لينقحوها ويعيدوا النظر فيها بدل على الروح
اللقينية التي كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقله السامعون، وما يتصل بالقد
قبل الاسلام ما كان شائعا من أحكام يتناقلها الشعراء وما كان يدور في أسواق العرب:
وفي كتب الادب والقد كثير منها يتصل بالعالي واللغة والقافية.

فمن النوع الاول - المتصل بالعالي - ماروي عن حكومة أم جندب الطائفة
بين امرئ القيس وعلقة الفحل، فقد فضلت علقمة حينما قال في وصف فرسه:
سأدر كهن النساء من عسلاته - بمر كسر - الرائح المتحلب (٣)
عن زوجها امرئ القيس الذي قال:

فلنجزر الهوب والساق درة - وللوط منه وقع أنرج مهلب (٤)

وقد سأل امرؤ القيس أم جندب: بم فضلت علي؟ فقالت: فرس علقمة أجود
من فرسك، قال: وبماذا؟ قالت: انك زجرت وحركت سائبك وضربت بسوطك،
أما علقمة فقد اشرك فرسه ثانيا من عتاله لم يضربه بسوط ولم يبعه (٥):

١٠٠ : ميتوه : قالوا.

(١) البيان ج ٢ ص ١٢ - ١٤.

(٢) الرائح : السحاب. المتحلب : البائل مره.

(٣) أنرج : ذكر النعام. مهلب : سرع.

(٤) للرشيع ص ٢٨ - ٢٩.

وما جرى بين الثانية وحسان بن ثابت والخنساء، فقد روي أنهم كانوا يفرزون الثانية قبة حمراء من آدم بنوق عكاظ فتأتيه الشعراء وتعرض عليه أشعارها وكان أول من أنشدته ذات يوم الأعمش، قال قصيدته التي مطلعها:

ما بكاه الكبر بالأطلال وسسولي وماترد سسولي
ثم أنشده حسان بن ثابت:

لسنا الجففات الفرّ يلعن بالضحى وأماينا يشقرون من نجة دما
ولدتا بني العطاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما
فقال الثانية: أنت شاعر ولكنك أثقلت جفائك وأسأفك، وقهرت بمن ولدت
ولم تنخر بمن أنجيك (١). وأنشدته الخنساء في هذا المجلس قصيدتها:

قلبي يمينك أم بالعين عسوك أم القرت مذ خلت من أهلها القدار
فقال لها الثانية: لا والله، لولا أن سبقتك أبو بصير، أنشدني ألفا قلت: انك
أشعر الجن والانس: فقال حسان: والله، لأنا أشعر منك ومن أهلك وجنتك:
تقبض الثانية على يده ثم قال: يا ابن أخي، انك لا تحسن أن تقول مثل قولي:
فأنتك كالسبل الذي هو مفركي وان خلت ان المتأني عنك واسع
ثم قال للخنساء: أنشدني، فأنشده، فقال: «والله ما رأيت أثنى أشعر منك»،
فأثارت الخنساء: «والله، ولا رجلا» (٢).

وما يتصل بالثقة كلمة «الصغيرة» في بيت السيب بن علس:
وقد أنشأني لهم عند أدكاره بنجر عليه الصغيرة مكتم (٣)
فلما سمع طرفة هذا البيت قال: واستنوق الجمل لأن «الصغيرة» سنة في عنق
الثقة لا الجمل (٤):

(١) الموضح ص ٨٢. والقصيدة في الإصحاح ص ٣.
(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٤٤.
(٣) القاضي: الجمل، الصغيرة: سنة في عنق الثقة. المكتم: الغليظ أو السحاب.
(٤) ١١٠ - ١٢٢.

ربما ينطق بالفواي مذكروه من الثابتة، فقد قالوا: انه لم يقنو أحد من شعراء
حبيقة الأولى الأهو في قوله :

نسن آل مئة راتح أو مفتدي حجلان ذا زاد وغير مزود
زعم الجوارح أن رحلتنا وبذاك عبرنا للفراب الأسود
وفي قوله :

سقط الشيف ولم ترد امقاطه فتناولته وانقضا باليسد
بمضيق رخص كان بنائه عتتم بكاد من القاطة يعقده
القدم اللينة فعب عليه ولم يابه، وجعلوا يظرونه وهو لا يفهم ما يريدون، قالوا
جارية : اذا صرت إلى القافية غزلي، قلنا قالت : «الفراب الأسود» و«يعقده»
وهاليد، و«مزود» علم فاقبه فلم يعد إليه، وقال : «لنمت الحجاز وفي شعري
سعة» ورحلت عنها وأنا أشعر الناس (١) : وقال عمرو بن العلاء : «حجلان
من الشعراء كانوا يقويان : ثابتة ويشربن أبي خازم» فأما ثابتة فدخل يثرب
فشفي شعره فتغفل فلم يعد للاقواء، وأما بشر بن أبي خازم فقال له
شعره سواة : «ألك تقوي» قال : وما الاقواء؟ قال : فلوك :

د شران طول الشعر بسلي وبني مظلما شيت جدام
ثم قلت :

رناوا قومنا نبقوا علينا فسقناهم إلى البلد قسار
قال : ثبت خطي، ولست بعائد (٢) :

وذكر أبو حلال العسكري أن القدماء أشاروا إلى الفصل والوصل في الكلام،
قال : «وكان أكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكاتبه : انفصلا بين
كاتب مني مقضي، وصلوا إذا كان الكلام معبرنا بعنقه يعنى : وكان الخارث

(١) اللوح ص ١٥-١٦.

(٢) الشعر والشعر ج ١ ص ٢٧٠، واللوح ص ٨٠.

ابن أبي شمر الساسي يقول لكاتبه المرفئ: إذا فرغ بك الكلام إلى الاستبداء ببعض غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيته من الألفاظ ، فالتك إذا حذف الألفاظ غير ما يحسن أن تحذف به تفرقت القلوب عن وعيها ، ومكته الاسماع ، واستغفرتة الرواة (١) :

وشك بعض الباحثين في هذه الروايات (٢) ، ولكننا مع هذا الشك نقرر ان هذه الروايات تمكس جانباً من فهم العرب للنقد في مرحلة التنوير الأولى ، وليس بعيداً أن تصدر مثل هذه الأحكام قبل الإسلام عندما رأينا كثيراً من الدلائل التي تؤيد ما ذهبنا إليه: يضاف إلى ذلك أن هذه الروايات ليس فيها تحليل للقائم على النظرية العلمية لكي نكرها وإنما هي أحكام عابرة أطلقها الشعراء والمحكمون ، معتمدين على اللوق القطري الذي عرف به العرب: وكان شعراء اليونان بعد أن انتهى عصر اللامع وازدهر الشعر اللغوي في القرن السادس قبل الميلاد يصعدون بعض الأحكام التي تعبّر عن رأي ذاتي أبعد ما يكون عن القاعدة العلمية. ومعنى ذلك أن الشعراء شاركوا في حركة النقد القديم: علم لا يتطابق ذلك على العرب وهم أهل علم وفراية وفوق ورواية ، ولهم عطف رائعة وشعر بدعي؟

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الإسلامي رأينا إيمان العربي بالقرآن الكريم واعتناقه الإسلام كان حكماً قلبياً أدركه ببلوقه السليم وفطرته الصافية ، ورأينا الرسول الكريم محمداً - صلى الله عليه وسلم - يعني عبارة عظيمة بأخلاقه وخطبه: وقد أثر عنه الله كان يقول "لا يقولون" أحدكم: حبست نفسي ، ولكن ليقل: فحست نفسي ، كراهية أن يضيف المسلم الحبست إلى نفسه (٣) ، وكان يستمع إلى الشعر ويقول: "إن من البيان لسحراء" وكان للخطباء الراشدين والصحابية يستمعون إلى الشعر ويلبسون رأيهم فيه:

(١) كتاب الصائين ص ٤١٠ .

(٢) ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٤١٩ ، ودروس في البلاغة وتطورها ص ٦٠ .

(٣) الجوان ج ١ ص ٢٢٥ .

وإذا ما نظرنا إلى العصر الأموي وأبنا الحياة الأدبية تزدهر، وكان الخلفاء يعتقدون
الجناس ويستحسنون إلى الشراء ويطلقون على بعض ما يسمونه، ومن ذلك أن ابن
ليس الرقيات أنشد عبد الملك بن مروان قصيدته التي يقول فيها:

بأنسج شاج فوق مسرقه على جبين كآته الشعب
فلما سمع عبد الملك ذلك غضب وقال له: وقد قلت في مصعب بن الزبير:

ألمأ مصعب شهاب من الله تجلثت عن وجهه الظلماء
فأعطيت اللدح بكشف الغم وجلاء الظلم، وأعطيتي من اللدح مالا فخر فيه وهو
اعتدال الشاج فوق جيني الذي هو كالكذب في التنفارة (١).

وكان المؤدبون يقومون بدور عظيم في تعليم اللغة وأدبها ورسم القواعد العامة
التي تنفي إلى افان اللغة وتلوثها: وكان هؤلاء المؤدبون يخوضون في موضوعات
كثيرة، وليس من شك في أن القصص والبالغة كانت من تلك الموضوعات:
وشهد القرن الثاني للهجرة حركة أدبية واسعة، وكانت الخواصر تزخر بالعلماء،
وبلغت حركة التدوين والتأليف ذروتها في العصر العباسي الأول، وشهرت كتب
التفسير واللغة والأدب والتاريخ لتحمل تراثاً ضخماً حافلاً بكل طريف، وكانت
البالغة أحد العلوم التي اهتم بها العرب منذ عهد مبكر، وقد دلفتهم إلى العناية
بها أهداف ومؤثرات كثيرة:

الأهداف:

إن الحياة الجديدة التي عاشها العرب بعد أن خرجوا من جزيرتهم دفعتهم إلى
العناية باللغة والأدب، لأنهم وجئوا تحديات كثيرة تعرضت لها العربية بعد أن
دخل في الإسلام قوم أرادوا هدمه وتوبيخ دولة العرب. وكانت الجهود العظيمة
التي بذلها المخلصون ابداً يظهر علوم اللغة التي انضمت تتطور جيلاً بعد جيل حتى
أصبحت سائقة لا تقدر عليها هرج الأعاصير:

(١) لك الشعر ص ٢١٤.

وقد تظافرت أسباب وأهداف كثيرة دفعت العرب إلى الخوض في الدراسات
البلاغية ، ويمكن تلخيصها في :
١ - الغرض الديني :

وهو علمة القرآن الكريم الذي كان معجزة تحدث الألسن واللين ، ولكي
يرعوا على إعجازه ويضموا آياته واسلوبه ليستنبوا الأحكام منه اتجهوا إلى
البلاغة باحثين فنونها وموضحين أقسامها لتكون لهم عوناً على فهم القرآن ،
وكان هذا الغرض من أهم الأهداف التي دفعتهم إلى البحث وتأليف فيها ، وقد
أشار أبو حلال العسكري إلى هذا الهدف السامي بقوله : « اعلم - عمالك الله الخير
ودقق عليه وقبضه لك وجعلك من أهله - أن أحسن العلوم بالتعلم وأولاهها
بالتحفظ بعد المعرفة بالله - جلّ تبارك - علم البلاغة وسرعة الفصاحة الذي به
يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الشاطن بالحق ، الهادي إلى سبيل الرشاد ، المدلول به
على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت اعلام الحق وأقامت منار الدين ،
وإزالت شبه الكفر ببراهينها ، وعتكت حجب الشك بيقينها . وقد علمنا أن الإنسان
إذا اغفل علم الشرية وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم ينفع علمه بإعجاز القرآن من جهة
مناصحة الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وماشته من الإعجاز البديع
والاختصار الطيف ، ووضعت من الحلاوة ، وجلته من رونق الطلاوة ، مع سهولة
كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسن التي عجز الخلق عنها
وغيرت عقولهم فيها ، وإنما يُعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه وقصورهم
عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته وسلاسته ونصاعته وكال معاليه وصفاء ألفاظه
وقيح لعمري بالقبية غلظت به ، والقارء المتهتدى بهديه ، والشكلم المشار إليه
في حسن مظهره ونظام آله في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه ، وبالغربي الصليب
والقرشي المصريح أن لا يعرف إعجاز كتاب الله - تعالى - إلا من الجهة التي
يعرفه منها القرني والنبطي ، أو الله يستدل عليه بما استدل به الجاهل القبي - فينبغي
من هذه الجهة أن يقدم التماس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله - تعالى -

ومعرفة عداه والخصم الذي يوعده ووعيدته إذ كانت المعرفة بصحة الثبوت تثلو المعرفة بالله حل" اسمه (١).

٢ - الغرض التعليمي :

وهو تعلم الناشئة اللغة العربية ومعرفة أساليبها بعد أن اتصل العرب بأسم شئ وأدى ذلك الاتصال إلى غساة اللغة ودخول اللحن فيها. يضاف إلى ذلك أن كثيراً من المسلمين كانوا بحاجة إلى تعلم العربية وبلاغتها ليفهموا القرآن الكريم وليعيشوا في ظل دولة لغتها العربية. وكانت القدرة الكتابية في كثير من الأحيان السبيل الموصل إلى المناصب الرفيعة وكان على من يسعى إلى تسنها أن يكون كاتباً له في الأدب وقوته يد طولى وله أسلوب رفيع. قلبي يتعلم العربي الناشئ في بيئة امتزجت فيها اللغات ببلته ويصبح قادراً على التعبير الحسن والنظم الرائق واتقاء الرسائل، ولكي يتعلم المسلم لغة دينه ولغة الدولة التي يعيش في ظلها، ولكي يصل الناس إلى أرتى المناصب وأهل الثرب - كان عليهم جميعاً أن يتقنوا العربية، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة لغاتها وتراكيبها ومعانيها وأساليبها، وبالإضافة إلى السبل التي توصل إلى هذه الغاية وتعلمها.

٣ - الغرض التقدي :

وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء والمؤثرة بين القصائد والمنظوم والرسائل : وبالإضافة تعين الناقد كثيراً لأنها تقدم له الآلة التي تعينه على فهم والحكم ، ولذلك نجد القدماء يحنون عناية كبيرة بها ، ويؤلفون الكتب فيها : وقد أشار العسكري إلى الهدفين التعليمي والتقدي بقوله : «ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة ، منها أن صاحب العربية إذا أعزل يطلبه وفرط في تشامه فقامته تفصيله وحلفت به وذلة قوته حتى على جميع محاسنه وعسى صغر فضائله ، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ولطف حسن وآخر قبيح ،

(١) كتاب الصناعات ص ١ - ٢

وشعرنا در وآثر بارد ، بأن جهله وظهر قصصه : وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة
أو ينشيء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكثير وخطأ الضرر بالمرور واستعمل
الوحش في العكر : فجعل نفسه مهازلة للجاهل وعبارة للعاقل كقائل ابن جحرل في قوله :

حلفت بما أرقلت حولي همرجلة غلغلها شيطم

وما شبرقت من تنقيبها بها من وحى الجن زيزيم (١)

والشده ابن الأعرابي فقال : ان كنت كاذبا قلله حبيك : وكما ترجم بعضهم
كتابه إلى بعض الرؤساء : مكركة تريوتا ومحيومة بمرينا ، فدل على سخافة
عقله واستحكام جهله ، وشعره الغريب الذي اتقته ولم يتقعه ، وحله ولم يرفعه ،
لما فاته هذا العلم وتختلف عن هذا الفن :

وإذا أراد أيضا تصنيف كلام مثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذا العلم
سواء اختياره وقبحت آثاره فيه ، فأخذ الرديء المردول وترك الجيد المقبول ، فدل
على تصور فهمه وتأثر معرفته وعلمه (٢) :

ويتصل بهذا الفرع رواية الأدب وبمعرفة الجيد الذي يروى والرديء الذي
يلغى أن يطرح : وقد أشار العسكري إلى ذلك بقوله : هوذا قيل : اختيار الرجل
قطعة من عقله ، كما أن شعره قطعة من علمه : وما أكثر من وقع من علماء القرية
في هذه الرذيلة ، منهم الأصمعي في اختياره قصيدة للرقش :

هل بالديار أن تجيب صمم لو أن حيا فأنطقا كلسم

ولا اعرف على أي وجه صرف اختياره إليها وما هي بمسئمة الوزن ولا موقن بالروي
ولا سلة اللفظ ولا جودة السبك ولا ملائمة التسج ، وكان للمفضل يختار من الشعر

(١) أرقلت : أسرع. المهرجلة : الناقة. الترويق : الطويل الجسم. شبرقت : حدث.
التنقيب : المغارة والأرض الواسعة. الرحي : الصوت الخفيف.
زيزيم : صوت الجن.

(٢) كتاب المصنفين ص ٢-٣.

ما يقل تداول الرواة له ويكثر الغريب فيه ، وهذا خطأ من الاختيار ، لان الغريب لم يكثر في كلام الا أفسده وفيه دلالة الاستكراه والتكلف (١) :

وكانت هذه الأهداف دافعا قويا حفزهم إلى الخوض في دراسة البلاغة والتأليف فيها ، وكانت هذه الأهداف غرض المؤلفين جميعا ، ولانكاد نجد كتابا من كتب البلاغة واعجاز القرآن يخلو من الاشارة اليها ، ولعل ما قلناه من مقدمة كتاب الصناعتين ، لا يبي هلال العسكري يوضح الغرض ويخدم الفكرة ويعين على تصور الدوافع الكثيرة التي كان لها الفضل الكبير في ظهور كتب البلاغة .

وقد نظافت جهود كثيرة على وضع أسس البلاغة وأصولها ، ويمكن ان نلمس ذلك في المفسرين والاصوليين ، والمفتوين والحنابلة ، والشعراء والكتاب ، والفلاسفة والمكلمين . وكانت كل طبقة من هؤلاء تتفق في كثير من الاسس وتلتقي في أهداف واضحة المعالم ، وإن كان رجالها يختلفون في تصورهم للبلاغة المؤثرات :

أثرت في نشأت البلاغة وتطورها عدة عوامل أهمها :

القرآن الكريم :

كان للقرآن الكريم ذا أثر عظيم في البلاغة ، وقد شغل الناس به وأعطوا يتدارسونه ويوضحون معانيه ويتحدثون عن ألفاظه وتركيبه ومعانيه من فنون وقف العرب أمامها مبهورين . وكانت البلاغة من العلوم التي أولوها عناية كبيرة وجعلوها أحق العلوم بالتعلم وأولاهها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - لانه الانسان اذا الخلل علم البلاغة وأصل " بمعرفة النصيحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما نصحه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شجته به من الايجاز البديع (٢) وذهبوا أبعد من ذلك فقال عمرو بن عبيد عن البلاغة أنها وما يبلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما يصركم بوسائل رشدك وعواقب خيلك (٣) :

(١) كتاب الصناعتين ص ٤ .

(٢) كتاب الصناعتين ص ١٠ .

(٣) لسان المتيقن ج ١٠ ص ١١٦ .

وكان تأثير القرآن واضحاً في التحاذق مدار الدراسات البلاغية ، وكانت آياته
 هيئات الشاهد البلاغي الرفيع . وكانت إحدى آياته مدعاة إلى أن يؤلف أبو عبيدة
 معجزة القرآن . يقول : وأرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج
 إليه سنة ١٨٨هـ ، فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه فأتاني ، فدخلت عليه وهو
 في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ، وفي صدره فرش عالية
 لا يمرقني إليها إلا على كرسي وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة ، فردّ
 وضحك واستدعاني حتى جلست إليه على فرشه ، ثم سألني والعقني وبسطني
 وقال : أئشني ، فأنشدته قطرب وضحك ، وزاد نشاطه . ثم دخل رجل في
 ردى الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جاني وقال له : أئشني هذا ؟ قال : لا .
 قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة ، أقدمته لتسفيد من علمه : فدعا له
 الرجل وفرطه لنعلم هذا ، وقال لي : لني كنت إليك مشتاقاً ، وقد حلت عن
 صائت ، أتأذن لي أن أعرفك لها ؟ فقلت : هات . قال :

قال الله - عز وجل - : « تَلَّهَا كَالَّذِي هُوَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ أَلْفَاظَهُمْ » (١) ، وإنما يقع
 التلويح والابحار بما عرف مثله وهذا لم يعرف . فقلت : إنما كُلم الله تعالى العرب
 على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أبشني والشرقي مضاجعي ومسننة زرق كاتبا أغوا
 وهم لم يروا أغوا قط ، ولكنهم لما كان أمر القول يبولهم أوعلوا به : فاستحسن
 الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك أن أضع كتاباً في القرآن
 في مثل هذا وأشياه وما يحتاج إليه من علمه . فلما رجعت إلى البصرة عملت
 كتابي الذي سميت «المجاز» (٢).

واللهي ابن خلدون إلى أن نعمة علم البلاغة وإنما هي في فهم الاعجاز من
 القرآن ، لأن اعجازه في وفاء الدلالة منه يجمع مقتضيات الأحوال متطورة ومفهومة ،

(١) سورة الصافات، الآية ٦٤.

(٢) مجمع الأدباء ج ٧ ص ١٦٦ - ١٦٧.

وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في اتقانها وجودة وصفها ، وهذا هو الإعجاز الذي تلخص الإلهام عن إدراكه (١) .

وكانت لمسألة إعجاز القرآن أثر كبير في تطور البلاغة العربية ، وكان المتكلمون أول من بحثوا في الإعجاز ، واعتقدت جهات النظر في ذلك وتشعبت ميل القول ، لأن الوصول إلى ذلك صعب ، وتحديد البلاغة في كتاب الله أصعب ، ولكنهم - مع ذلك - مضوا يظلمون بلاغة القرآن وبينون إعجازه ، فكانت دراساتهم أحسن مصدر لبلاغة وأجل مورد لمن أراد أن يتشوق للكتاب لتعزيز ويلهم البيان : ومن أشهر الذين عتوا بهذه المسألة أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (- ٨٣٦) الذي ألف كتاب وإعجاز القرآن في نظم وتأليفه ، ولم يصل هذا الكتاب لتعرف الموضوعات التي عالجها وإن كان يبدو من العنوان أنه يتحدث عن أسلوب كتاب الله وإعجازه في النظم وتأليف :

ومنهم أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (- ٨٣٨٦) صاحب رسالة «الفتك في إعجاز القرآن» وقد ذهب إلى أن للقرآن معجز بيلغته ، وهو أعلى طبقات الكلام ، وأبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (- ٨٣٨٨) مؤلف رسالة «بيان إعجاز القرآن» ، وقد رأى أن لبلاغة ترجع إلى جمال لفاظ للقرآن وحسن نظم وسمو معاني وتأثيره في النفوس :

ومنهم أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (- ٨٤٠٣) الذي ألف كتاب «إعجاز القرآن» وهو من الكتب للهمة ، وقد ذهب الباقلائي إلى أن كتاب الله معجز لأنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب .

والمفاتيح أبو الحسن عبد الجبار الاسد آبادي (- ٨٤١٥) الذي كان الخزم السامع عشر من كتابه والمفاتيح في أبواب التوحيد والعدل ، خاصة بإعجاز القرآن ، وقد ذهب إلى أن للقرآن معجز بنظمه ، وهي الفكرة التي بني عليها عبد القاهر الجرجاني كتابه «دلائل الإعجاز» .

وهذه الكتب وغيرها تعد من أهم مصادر دراسة البلاغة ، لأنها تعرضت لأسلوب القرآن الكريم وتكلمت على أساليب العرب في الكلام وقد كان أثرها عظيماً في تطور البلاغة واستقلالها عن الدراسات الأدبية والنقدية :

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .

المفسرون :

ويتصل بالقرآن وأثره المفسرون، وهم الذين ينظرون في كتاب الله تعالى ويفسرون ألفاظه ويوضحون معانيه ويبينون مقاصده وأهدافه ، ويشرحون مآله من قيم رفيعة ونظرات عميقة، ويظهرون قنوت القول فيه وروعة البيان ، ولكي يستطيع المفسر أن يقوم بهذا كله لابد من أن يطلع على علوم اللغة العربية ليتفادى أضرار القول ويتوصل على معانيه: والبلاغة إحدى الوسائل المهمة التي تكشف أسرار الإعجاز وتوجه الآيات التي لا يمكن حملها على الظاهر، وقد شعر المفسرون بهذا العمل العظيم فأخذوا يضعون لدراساتهم للقرآنية مقدمات بلاغية أو بغوصون في مهاجلتها حينما يتحدثون عن الآيات وبلاغتها، وصاروا ينبهون إلى أهمية ذلك ويتضح ذلك في مقدمة تفسير الطبري وتفسير الكشاف للزمخشري، فقد أشارا إلى أهمية معرفة البلاغة لأن القرآن عربي وأسلوبه عربي، ولكي تكون آياته واضحة ينبغي معرفة أساليب العرب وقنوت القول عندهم : وقد نعى السكاكي على المفسر الذي لا يعرف من البلاغة شيئاً، قال: «الوقوف على تمام مراد الحكيم - تعالى وتقدس - من كلامه مفتقر إلى هذين للعلمين - اللغائي والبيان - كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل» (١).

وأصبحت كتب البلاغة ميلاً تفضي إلى رحاب القرآن، ومعالم يتهدى بها القارئون ويستعين بها فيها من مضامير مشرقة ولحاحات بديعة المفسرون ومن هنا كانت البلاغة مقدمة للدراسة كتاب الله وتفسيره وإدراك فصاحته وبلاغته، وصار الأساتذة لا يقتسمون على تدريس كتب التفسير إلا بعد أن يلم طلابهم بطرف من البلاغة وفنونها كما فعل يحيى بن حمزة العلوي حينما ألف كتابه والطرز المنظم لأمرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليكون عوناً لمن شرع في قراءة تفسير للكشاف عليه :

(١) محتاج العلوم ص ٧٧.

وكتب التفسير كلها تتصل بالبلغة، ولعل أهم تفسير عني بالبلغة «الكشاف»
 لخاز الله محمود بن عمر الرمضاني (٨٥٢٨) الذي جمع فيه كثيراً من فنون
 البلغة واستعان بها في فهم كلام الله وإظهار ما فيه من روعة وجمال.
 ويتصل بالقرآن الكريم الأصوليون وهم أصحاب الصناعة اللغوية في فهمهم
 للشرع الإسلامي من كتاب الله وحديث الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -
 واستخراج أصول التشريع. وقد أثر هؤلاء في البلغة، وفي كتبهم بحوث مستفيضة
 عن التعبير والإنشاء، والحقيقة والمجاز، وهي بحوث تدل على امتياز علم أصول
 اللغة بها.

ومن الكتب التي عنت بالبلغة وأثرت فيها كتاب «الرسالة» للإمام محمد بن
 أعرس الشافعي (٨٢٠٤)، وكتاب «العمد» في أصول اللغة لأبي الحسين
 محمد بن علي بن الغيب البصري المتزلي (٨٤٣٦) وكتاب «المُستقصى» من علوم
 الأصول للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٨٥٠٥)، وكتاب «الاحكام»
 في أصول الأحكام لأبي الحسن علي بن أبي علي سيف الدين الأمدني (٨٦٣١).
الفويون والنحاة :

ومن الذين أثروا في نشأة البلغة وطورها الفويون والنحاة، وقد كانت لهم
 يد طول في ذلك، وظل دورهم مشهوراً منذ عهد التتويين واستطاعوا أن يسطروا
 على مناهج للدرس ويرفعوا لواء المحافظة على اللغة ويردوا الحديث وما ذهبوا
 إليه. وأخبار الخصومة بين الشعراء والفويين والنحاة مستفيضة، من ذلك أن ابن

أبي اسحاق اعترض على الفرزدق لرفع (مجلد) في قوله:
 وعش زمان يا ابن مروان لم يندع من لال إلا مسحاً أو مجلف
 فقال: علام رفعت ومجلد؟ فرد الفرزدق: على مايسوؤك وينوؤك، علينا أن
 نقول وعليكم أن تتأولوا (١) وكان الخليل بن أحمد يقول لابن منافر: «إنما أنتم
 معشر للشعراء تبع لي وأنا سكان السفينة، إن قرظتكم ورضيت فلوكم تنقصتم

(١) خلاص قول الشعر ج ١ ص ١٦ وما بعدها.

ولاً كسدم وقال ابن مناذر: ووافقه لأقولان في الخليفة قصيدة استسحه بها ولا
أحتاج اليك فيها عنده ولا إلى غيرك (١).

وكانوا يستهينون بالتحاة ولا يقبلون أحكامهم، قال أبو أحمد العسكري:
والشعرنا أبو بكر محمد بن يحيى قال: حدثني علي بن العباس قال: رأيته البحرى
ومعي دفتر فقال: ماهذا؟ قلت: شعر الشغرى. قال: وللى ابن تحفي: قلت
أمره على أبي العباس أحمد بن يحيى: قال: رأيته أباه عابكم هذا منذ أيام فلم
أز له علماً بالشعر مرضياً ولا تقدراً له ورأيت به نشد أبياتاً صالحة ويعيدها إلا أنها
لا تستوجب التردد والاعجاب بها (٢). ووقف بعض القلائص بوجه القويين
والتحاة أيضاً وسخروا منهم كابن الأثير الذي قال وهو يتحدث عن ابن جني
ولكن الفصاحة والبلاغة غير فن الشعر والإعراب (٣).

إن هذا الصراع بين القويين والتحاة والشعراء أفاد الأدب ودفع الجميع إلى
البحث والتفكير فكانت الكتب العظيمة والآراء السليمة: وإذا كان موقف الشعراء
يتم بالغلظة، فإن القويين والتحاة أثروا في البلاغة، وكانت لهم وقفات عمودة
والفتايات بارعة دخلت كتب البلاغة فيما بعد: ومن أقدم الذين اعتنوا باللغة
وشواردها والنظر في الشعر واستخلاص قواعده معمر بن اللقي (٢٠٨-٢٠٨) المعروف
بأبي عبيدة، وفي كتابه وبياز لفرانه كثير من الإشارات إلى فنون البلاغة وأساليب
الشعر.

ومنهم أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (٢١٦-٢١٦) الذي كانت له
آراء للشدة وبلاغية تحمل ذوقه وذوق عصره، ويتضح ذلك في كتابه ولسونة الشعراء:
وفي الآراء الكثيرة التي تناولتها كتب البلاغة والنقد.

(١) الألفاني ج ١٨ ص ١٨١.

(٢) المصون في الأدب ص ٤.

(٣) اللؤلؤ السراج ١ ص ٢٨٢.

وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥هـ - ٣٢٨هـ) الذي ذكر كثيراً من فنون البلاغة في كتابه «الكامل»، وكان كلامه على التشبيه من أوسع ما عرف في عهده، وإن صار عمدة البلاغيين حينما درسوا هذا الفن وقسموه ومثلوا له :
 وأبو الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ - ٤٦١هـ) الذي كان كتابه «المصاحبي» من أهم كتب القرويين التي عرضت لموضوعات البلاغة، ولعله أول من تحدث بوضوح عن الخبر والانشاء حينما قسم الكلام إلى: خبر واستخبار، وأمر ونهي، ودعاء وطلب، وعرض وتحضيض، ونحوه وتعب (١). وتحدث عن موضوعات كثيرة أخرى كالخليفة والمجاز، والحلف والاختصار، والزيادة والتكرار، والتقديم والتأخير، والإعراض والإعلاء، والتحكم، والكتابة، والإفراط، والإسطراد، والتأكيد وغيرها.

ومن النحاة الذين كانت كتبهم مادة غصبة للبلاغيين أبو بشر عمرو بن عثمان ابن قنبر (١٨٠هـ - ٢١٨هـ) صاحب الكتاب المشهور.
 وأبو زكريا يحيى بن زباد القرطبي (٢٠٧هـ - ٢٦٧هـ)، مؤلف «معاني القرآن».
 وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢٩١هـ - ٣٢٩هـ) صاحب «قواعد الشعر».
 وعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ - ٥٤٧هـ أو ٥٤٧هـ) صاحب «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة».

وقد كانت كتب هؤلاء النحاة أثر في البلاغة لأنها عنت بالأساليب العربية وذكرت كثيراً من المصطلحات التي دخلت في كتب البلاغة وأصبحت مصطلحات علمية :

الشعراء والكتاب :

وأثر «الشعراء» في البلاغة، وقد كانوا يبنون بالقول ويعودون أشعارهم ويتقنونها منذ عهدهم الأول، وقد دلت الملاحظات اليابانية على أنهم كانوا أصحاب ذوق وسرعة بيب الشعر وورديه : ونما ذوقهم حينما تقدم بهم الزمن وكثرت ملاحظاتهم حتى إذا ما جاء العصر العباسي ودخل للعرب حياة جديدة تطورت نظرتهم إلى

(١) ينظر المصاحبي ص ١٧٩ وما بعدها.

للشعر وإعراكمهم لما فيه من روعة وجمال أو تصنع وتطبع: وقد روي أن بشر
ابن برد كان ينقد الشعر ويشير إلى جيده ورديته، وأشد قول الشاعر:

وقد جعل الأعداء يتقصوننا وتطمع قينا السن وعيون
ألا إنا ليلي، عصا خيزرانة إذا غزوها بالأكف تسلي
قَالَ: والله لو زعم لها عصا مخ أو عصا زيد، لقد كان جعلها جالية خشنة بعد
أن جعلها عصا، ألا قال كما قلت:

ودعجاء المحاجر من معد* كان حديثها نمر الإنسان
إذا قامت شئتها لتنس* كان عظامها من خيزران (١)

وقال: ولم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس في تشبيه شيتين بشيتين في بيت
واحد حيث يقول:

كان قلوب الطير رطباً وبابساً لدى وكرها العناب والخشف اليابس
أعمل نفسي في تشبيه شيتين بشيتين في بيت واحد حتى قلت:

كان مزار الضع فوق رؤوسنا وأسافنا ليل نهائى كواكب* (٢)
وفي كتب الأدب كثير من هذه الأحكام التي تدل على مكانة الشعراء في العصر
العباسي وتوجيههم النقد والبيان. قال ابن المعتز: واليديع اسم موضوع لقرون من
الشعر يذكرها الشعراء ونقاد النقادين منهم، فلما العلماء بالغة والشعر القديم فلا
يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماعوه (٣). وقال ابن رشيق القيرواني: أهل صناعة
الشعر أبصر به من العلماء بآفته من نحو وغريب ومثل وغير وما أشبه ذلك، ولو
كانوا هونهم بدرجات، وكيف وأن قاربهم أو كانوا منهم بسبب؟ وقد كان
أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خاف الأحمر حلبة هذه الصناعة، أعني
النقد، ولا يشقون له خياراً لثقافتهم فيها وحذقهم بها وإجادته لها (٤).

(١) الاثني ج ٢٠ ص ١٥٥.

(٢) الاثني ج ٣ ص ١٩٦.

(٣) البدیع ص ٥٨.

(٤) السدة ج ١ ص ١١٧.

وكان ابن المعتز (- ٢٩٦هـ) الشاعر العباسي أكثر شعراء تأثيراً في البلاغة، فقد وضع كتابه «البدیع» الذي تحدث فيه عن خمسة فنون من البدیع هي: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اصحار الكلام على ماقلدها والمذهب الكلامي: وتكلم على ثلاثة عشر فماً وسماها «محاسن الكلام» وهي: الالفاظ، والاعتراس، والارجوع، وحسن الخروج، وتأکید المدح، ونجاعة العارف، والهزل يراد به الجذ، وحسن التضمين، والتعريض والكتابة، والأفراط في الصفة، وحسن التشبيه، ولزوم مالا يترزم، وحسن الابتداء، وكانت هذه الفنون عمدة البلاغين فبنوا عليها كتبهم وذكروا مقالته ابن المعتز وأضافوا اليها فتوات كثيرة.

ومن الشعراء الذين كانت لهم مشاركة في البلاغة الشريف الرضي (- ٤٠٦هـ) صاحب «تلخيص البيان في معاني القرآن» و «المجازات النبوية» وابن رشيق القيرواني (- ٤٦٣هـ) مؤلف «العمدة في محاسن الشعر وآدابه وقلده» و «فراصة الذهب»:

و ابن سنان الخفاجي (- ٤٩٦هـ) مؤلف «سر القصيدة»:

واسامة بن منقذ (- ٥٨٤هـ) صاحب «البدیع في نقد الشعر»:

و ابن أبي الاصب المصري (- ٦٥٤هـ) مؤلف «تحرير التخيير» و «بدیع القرآن»، وكان للكتاب أثر واضح في البلاغة، فقد صيغوا كثيراً من بحوثها بصيغة أدبية لما امتازوا به من أدب رفيع وفوق سابع. وهم الذين قال الجاحظ عنهم: «ولما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فإنهم قد اتسموا من الألفاظ ما لم يكن معروفاً وحشياً ولا سافلاً سوقياً» (١). وقال ابن رشيق: «الكتاب أرق الناس في الشعر طبعاً وأملحهم تصنيفاً وأحلامهم ألفاظاً وأظنهم معاني وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف وقد قيل: الكتاب دعاة في الكلام» (٢).

(١) البيان ج ١ ص ١٣٧.

(٢) السند ج ٢ ص ١٠٦.

وأخذت الكتابة مكانة مرموقة منذ العصر الأموي وكان عهد الحفيد للكتاب
(- ٨١٣٢) من انتهت إليهم رئاسة الكتابة في ذلك العهد. وكان ابن القطيع (- ٨١١٣)
من أثر في البلاغة ونقلت عنه كثير من الأقوال فيها. ولكن أبا عثمان جهم بن
بحر الجاحظ (- ٨٢٥٥) من أكثر الكتاب تأثيراً في البلاغة، وفقدت به ذكره
في كتبه ولا سيما «البيان والبيان» و «الحيوان» من فنون بلاغية وأساليب بلاغية
وأصبحت دراسته لمساتها أساس البلاغين وإن كان لم يبحثها بحثاً عنها يقوم على
التحليل الدقيق والتقسيم المنطقي الذي عرفته كتب الآخرين.
ومن الكتاب الذين أثروا في البلاغة قدامة بن جعفر (- ٨٣٣٧) مؤلف
«نقد الشعر».

وإبن وهب الكاتب صاحب «البرهان في وجوه البيان» وهو الكتاب الذي طبع
قسم منه باسم «نقد الشعر» ونسب إلى معاصره قدامة بن جعفر.
وأبو حلال العسكري (- ٨٣٩٥) مؤلف «كتاب الصناعات» أي : صناعة
للشعر والنثر.

وإبن نلقا البغدادي (- ٨٤٨٥) مؤلف «الجمال في تشبيهات القرآن»
وغياث الدين بن الأثير (- ٨٦٣٧) صاحب «المثل السائر في أدب الكتاب
والشاعر» و «الجامع الكبير» و «الاستبصار».

وشهاب الدين محمود الحلبي (- ٨٧٢٥) صاحب «حسن الترميل إلى صناعة
الترسل».

الشكليون :

وأثر الشكليون في نشأة البلاغة وتطورها، والشكليون أصحاب الصناعات الكلامية
في بحثهم لقرآن الكريم وتدلّيلهم على إعجازها واستنباط المعاني منها والبيان بوجه:
وقد ظهر أثرهم مبكراً، وكان المصنّعة أظهر فرقة أثرت في البيان والتجويد في فن

القول: ولعل صحيفة بشر بن العنبر (- ٢١٠هـ) من أقدم الآثار في ذلك (١)، وقد تحدث فيها عن فن القول وأوضح فيها كثيراً من القضايا التي أصبحت صفة البلاغيين والتقاد، من ذلك كلامه على الاستعداد للإنتاج الأدبي والاهتمام بتخفيف اللفظ والمعاني، وتحديد النازل التي يمر بها الأديب، وأولها منزلة البليغ الشام الذي يكسو عباراته جمالاً يرجع إلى رشاقة الألفاظ وعذوبتها وجزالتها وسهولتها ووضوح المعاني والتجانس. وثانيها منزلة من لم تسغه طيعة بالألفاظ الثلاثة والقوافي الجيدة والمعاني الرائعة، وعليه أن يتأني ويؤجل الكتابة إلى وقت نشاطه وفراغ ياله، فإن كان له في الأدب طيعة حقاً وإتقان للكلام والتأني عليه الألفاظ والمعاني، ثالثها: منزلة من شغ طيعة ونضبت بتأني القول عنده، وهذا لا يأتي بجيد الكلام مهما حاول أو تكلف، وجرى به أن يترك صناعة الأدب ويتحول إلى غيرها. وفي الصحيفة حديث عن مطابقة الكلام للمتغنى الحال، والمطابقة من أهم شروط البلاغة. ومن المتكلمين الذين شاركوا في البلاغة وفن القول وأصل بن عطاء (- ١٣٩هـ) وعمرو بن عبيد (- ١٤٤هـ) وسهل بن هارون (- ١٧٣هـ) والجاحظ الأديب المميز. وقد طبع هؤلاء وغيرهم البلاغة بطابع عقلي يعتمد على الاستدلال والدقة في التحديد والتقسيم.

وألّف بعض فلاسفة المسلمين في البلاغة والتقد، ولكنهم كانوا يفرقون من بحر أرسطو طاليس، ويلخصون كتابه الشعر، وخطابه. فقد انحصر كتاب الشعر للكندي (- ٢٥٢هـ) ولخصه أبو نصر الفارابي (- ٣٣٩هـ)، ولابن مينا (- ٤٢٨هـ) رسالة في معاني الشعر، ولابن الهيثم (- ٤٣٠هـ أو ٤٣٢هـ) رسالة في صناعة الشعر، ولابن رشد (- ٥٩٥هـ) تلخيص شعر أرسطو. ولكن اللوق العربي رفض مثل هذه الدراسات لأنها لا تحكم القول في الأدب وقد صرح البحراني بذلك فقال:

(١) الصحيفة في البيان ج ١ ص ٣٥ وكتاب الصائين ص ١٣٤.

كلتمونا حدود منطقكم في الشر يكتفي عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالنطق ماتوه وما —————
والشر لمنح تكفي اشارته وليس بالهذو طوكت خطبه
ونار ابن الأثير (٨٦٣٧) على أساليب الفلسفة ورأى في أيمانها من أمثال القاراني
وإن سبنا رجالا أضلهم أرسطو وأفلاطون (١).

(١) ينظر نقل الفرج ١ ص ٢١٠

المبحث الثاني المدارس البلاغية

كانت العوامل المؤثرة في البلاغة كثيرة منها الأدبية ومنها الكلامية ، وقد أدى هذا الاختلاف في التأثيرات إلى أن تنجم البلاغة الاتباعية أطلق عليها اسم المدرسة الكلامية أو المدرسة الأدبية. وأمر هذين الاتباعين أو المدرستين قديم ، وقد نبه أبو حلال العسكري إلى منهجين في دراسة البلاغة ، فقال :

«وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب التشكليم وإنما قصدت فيه قصد صانع الكلام من الشعراء والكتاب ، فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل» (١) . وقال السيوطي وهو يترجم لنفسه : «وردت الشجر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والشعر والمأاني والبيان والديع على طريقة العرب والبلاء لا على طريقة المعجم وأهل الفلسفة» (٢) . ولو لم تكن معالم هذين الاتباعين واضحة ما وجدنا العسكري يصرح بها في عهد مبكر ، ورأينا السيوطي بعده يفرق بغير تأنيء حرم البلاغة على طريقة العرب والبلاء لا على طريقة المعجم وأهل الفلسفة. فما خصائص كل مدرسة؟ ومن أشهر أعلامها؟

المدرسة الكلامية :

كان للفلسفة وعلم الكلام أثر في الفكر العربي والإسلامي ، ولم يسلم علم من العلوم من الأثر الفلسفي والكلامي ، وكان للبلاغة نصيب عظيم من ذلك الأثر. فتركت الصلة منذ عهد مبكر بينها وبين المنطق والفلسفة ، وأخذت هذه الصلة تزدهر مرة بعد قرن حتى بلغت أوجها في القرن السادس للهجرة وما بعده. وقد انعكس ذلك في العلوم البلاغية ، فكانت المدرسة الكلامية التي اهتمت بالتعريف الدقيق والتمييز الضيق ، وجعل التعريف جامعا مانعا ، واستعمال أساليب التشكليم

(١) كتاب الصنائع ص ٩.

(٢) الحسن الصائغ ج ١ ص ١٥٥ وما بعده.

في بحث الموضوعات وحصرها، والاكتثار من الالفاظ الفلسفية والمنطقية، وقد ساق البلاغيون كثيراً من المقولات (١) عند القول في الملثة حين وردت في تعريف الفصاحة والبلاغة، وما صدرُوا به البيان من بحث الدلالات الوضعية والعقلية. وأدخلوا فيها بعض مسائل الفلسفة الطبيعية والالهية والخلفية كالإكلام في الألوان والطبوع والروائع والغواص الإنسانية ومقرها، والوهم والخيال والفكرة والحس المشترك والأسباب والسيات وغيرها. وأدخلوا فيها من الالفاظ الفلسفية والكلامية الشيء الكثير، مما لا صلة له بالبحث البلاغي الذي يعتمد أول ما يعتمد على القنوق السليم.

ومن شواهد الأثر الفلسفي في هذه المدرسة الإقلال من الأمثلة الأدبية، لأن رجالها اعتسوا بالتحديد المنطقي والخصر والتقسيم، فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاعداً واحداً أو مثالا قصيراً. وليتهم وقفوا عند ذلك، فهم كثيراً ما يذكرون أمثلة لأجمال فيها، لأن صحة الشاهد أو المثال عندهم أصل كل شيء، أما جماله وما يبعث في النفس من احساس أو شعور فني فلم يوجهوا عنايتهم إليه. ولعل اهتمام المتأخرين منهم بالاختصار وتلخيص الكتب المتقدمة كان سبب الإقلال من الأمثلة والشواهد والاكتفاء بالقلها وأقصرها وبما ينسجم مع أدواتهم التي سيطرت عليها النزعة العقلية، وغير مثال على ذلك ككتاب «التلخيص» للخطيب القزويني (٥٧٣٩هـ) الذي أوجز فيه مباحث البلاغة التي ذكرها السكاكي (٥٦٢٦هـ) في كتابه «مفتاح العلوم» فأصبحت جافة لا تنفع كثيراً مما اضطره إلى شرح كتابه بالإيضاح ودفع الآخرين كالفتناراني وبهاء الدين السبكي وعصام الدين الأسفراييني وغيرهم إلى شرحه أيضاً.

وشاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولة الإسلامية حيث يظن خليط من القرمس والترك والفرس، وكانت غولارزم أكبر الليثات التي ظهر فيها

(١) المقولة : صلة من الصفات تحمل على الشيء، كالمقولات السبع : الكتب والفكرية . والاشارة والاكثار والتزيين والوضع والمثلك والتعليل والافتعال .

انقلاب هذه المدرسة كمنظر الدين الرازي (- ٨٦٠٦) صاحب «نهاية الايجاز في آراية الاعجاز» والسكاكي صاحب «مفتاح العلوم».

وأهم كتبها «دلائل الاعجاز» لعبد القاهر الجرجاني و«نهاية الايجاز في دراية الاعجاز» للرازي و«مفتاح العلوم» للسكاكي و«النصائح في اختصار المفاتيح» لبيد الدين بن مالك و«تلخيص المفاتيح» و«الايضاح» للزويني و«عروس الافراح في شرح تلخيص المفاتيح» لبهاء الدين السبكي و«المطول على التلخيص» و«الختصر» لسعد الدين التفتازاني و«مواهب المفاتيح في شرح تلخيص المفاتيح» لابن يعقوب المغربي، وغيرها من شروح التلخيص الأخرى.

المدرسة الأدبية :

كان القرآن الكريم من أهم العوامل التي طبعت بحوث البلاغة بطابع أدبي يعتمد على الدق الرفيع قبل اعتماده على التحديد والتقسيم. وكان للكاتب والشعراء أثر واضح في البلاغة، فقد صنفوا كثيراً من موضوعاتها بصيغة أدبية لما امتازوا به من أدب غزير وفوق سليم. وكانت نتيجة تلك العوامل ان اتجهت البلاغة منذ عهد مبكر اتجاها أدبيا وسلكت طريقاً بعيداً عن المدرسة الكلامية، وكانت لها خصائص واضحة تميزها عن المدرسة الأخرى، ومن ذلك انها لم تهتم كثيراً بالتحديد والتقسيم وان جنت إلى ذلك فعل غير تعمق وتغالى والتمزق لتصحيح الثام للأصول المنطقية ولم تهتم بتأسيس المنطقيات ومسائل الفلسفة بل ليلتها وحملت عليها وحاربتها، وكان ابن الأثير أحد أقطابها من الذين أنكروا ادخال الاساليب الفلسفية في البحث، قال: «اعلم ان ذلك أخصر كلي لا جزئي، ومحال ان تحصر جزئيات المعاني وما يفرغ عليها من التفريعات التي لا نهاية لها: لا جرم ان ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفة صاحب هذا العلم ولا ينظر اليه فان اليهودي للبادي راعي الأبل ما كان يمر

شيء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله، ومع هذا فانه كان يأتي بالسر الخليل إن قال شعراً أو تكلم نثراً (١).

ومن خصائص المدرسة الأدبية استعمال القياس الفنية في الحكم على الادب وللكلجدهامة تستطيع التعليل ومرة لا تستطيع ذلك، وترجمه إلى اللوق والاحساس الفني. ومن ذلك ان أسلوب كتبها سهل لا يحتاج إلى عناء كبير في فهمه كما يحتاج في قراءة كتب المدرسة الأخرى، وسبب ذلك ان معظم رجالها عاشوا في بيئات عربية كالعراق والشام ومصر، وكانوا إلى جانب ذلك شعراء أو كتاباً. أما رجال المدرسة الكلامية فقد عاشوا في بيئات أعجمية فغلبت على كتبهم العجمة ولم يكونوا أدياء بل كانوا من الفلاسفة والتكلمين:

وأشرف رجال المدرسة الأدبية في ذكر الشواهد والأمثلة، وكانوا يذكرون القاعدة أو التعريف ثم يأتون بالأمثلة الكثيرة. ولم تكن الأمثلة مقصورة على الجملة أو بيت الشعر وإنما تعدتها إلى القطعة الشعرية والرسالة الأدبية. وينضج هذا في جميع كتب المدرسة، فابن المعتز - مثلاً - يذكر تعريف الاستعارة أو التجنيس ويورد بعد ذلك أمثلة كثيرة ويفرق بين الحسن والرديء: وتبعه البلاغيون الآخرون في هذا النهج كأبي حلال العسكري في «كتاب الصنائع» وابن رشيق في «العمدة» وأسماء ابن منقذ في «البدیع في نقد الشعر» وابن الأثير في «الثلث السائر» و«الجامع الكبير» وابن أبي الأصمبب النصري في «تحرير التحرير».

وقد سادت هذه المدرسة في المناطق الوسطى من العالم الإسلامي كالعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا.

وأهم كتبها التي تضمنت خصائصها كتاب «البدیع» لابن المعتز و«كتاب الصنائع» لعسكري و«العمدة» لابن رشيق و«سر النفاضة» لابن سنان الخطابي و«أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني و«البدیع في نقد الشعر» لابن منقذ، و«الثلث السائر» و«الجامع الكبير» لابن الأثير و«البدیع للقرآن» و«تحرير التحرير».

(١) الثلث السائر ج ١ ص ٢١٠.

لابن أبي الأصمح و حسن التومل إلى صناعة التومل لشهاب الدين الحلبي .
هذان هما المدرستان البلاغيان ، وقد كانت لكل واحدة منهما خصائص عامة ،
ولكن هل يمكن وضع فاصل بين الذين اتجهوا اتجاها عقليا والذين اتجهوا لهجا
ادبيا ؟ ليس من الممكن ذلك لأن البلاغي الواحد كثيراً ما يمزج بين الطريقتين
ويستفيد من الاتجاهين ، فالجاحظ مثلاً - وهو رأس فرقة اعتزالية سميت
الجاحظية - نراه يميل إلى الفن ويحكم النوق في كثير من الأحيان ، وأبو هلال
المسكري مع تأكيده أنه لن يتبع طريقة المتكلمين نراه يتبعه نحوهم في تقسيماته
وتبويبه ويجري في مضمارهم ويخدم أغراضهم . وكان عبد القاهر الجرجاني يميل
مرة إلى المدرسة الكلامية في كتابه «دلائل الإعجاز» ويتجه إلى المدرسة الأدبية في
كتابه «أسرار البلاغة» ، وهو في كتابه الأول يجادل جدلاً منطقياً فيكرر أساليب
أهل الجدل كقولهِ : «إن قلتم قلنا...» و «كيف لا يكون الأمر كذلك...» و
«ما هو إلا كذا وكذا...» وهو في كتابه الثاني أدب يعمد إلى التحليل الفني وإبراز
ما في الكلام من بلاغة وجمال لأنه لا يريد أن يدافع دفاعاً عقلياً كما دافع عن القرآن
في كتابه «دلائل الإعجاز» .

ومن جمعوا بين الطريقتين في كتاب واحد يحيى بن حمزة الملوحي (- ٧٤٩هـ)
صاحب «العراز للتفنن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز» ، فهو في القسم الأول
منه يسير على منهج أدبي واضح فيه التحليل والاكتار من الأمثلة ، وهو في القسم
الثاني من الكتاب يتبع طريقة المدرسة الكلامية في تصنيف موضوعات البلاغة وعرضها ،
وفي الجدل وتقديم الأدلة ، وقد يكون سبب ذلك أنه في هذا القسم تعرض لأعجاز
القرآن ، وهو مما يدفع الباحث إلى النظر العقلي وردّ الشبهات بالأدلة والبراهين .
هذا ما كان من أمر البلاغة العربية قديماً ، أما اليوم فإن المنهج الحديث يتطلب
الاستفادة مما سبق لبناء بلاغة جديدة تعتمد على فوق العصر وتستند إلى ما ظهر من
ادب وفنون :

الفصل الثاني
القصاحة والبلاغة
البحث الأول
القصاحة

لفظة «القصاحة» مما شاع وعرفه العرب بمفهومه القوي قبل أن تأخذ الالتقاط دلالتها الفنية : ونجد لها في المعاجم دلاتين :

الأولى : لغوية تقوم على المعنى الأول الذي وضعه العرب واستعملوه قبل أن تظهر علوم البلاغة والتشديد . ففي لسان العرب : «يوم مفصح : لا غيم فيه ولا قر» .

أنصح ابن : ذهب المأبأة . فصيح ابن : إذا أخذت عنه الرغبة : قال لفضلة السلمي :

رأوه فاستزدوه وهو عسوق ويتبع أهله الرجل القبيح فلم يمشوا مصالته عليهم وتحت الرغبة ابن القصيح أنصح الشاة والناقة : غلص لينا . أنصح الصبح : بدا ضوءه واستبان ، وكل ما وضع فقد أنصح ، وكل واضح مفصح . ويقال : قد فصحك الصبح ، أي بان لك وعلبك ضوءه . فصحه الصبح : هجم عليه .

الثانية : دلالة تقرب من المعنى الاصطلاحي الذي تعارف عليه البلاغيون ، ففي لسان : والقصاحة : البيان ، فصَحَّ الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فصحاء وفصاح وفُصح ، وامرأة فصيحة من نسوة فصاح وفصائح : رجل فصيح وكلام فصيح ، أي : بليغ .

لسان فصيح ، أي : طلق . وقد جاء في الشعر في وصف المعجم : أنصح ، يريد به بيان القول وإن كان بغير العربية ، كقول أبي نعيم :
أنصح في آذانها فصيحاً

يحي : صوت الحمار انه اصبح ، وهو في آذان الأذن فصيح يَحِين :

وتفصح الاصحبي فصاحة : تكلم بالعربية وفهم عنه . وقيل : جادت
اللسنة حتى لا يلمن . أفصح كلامه فصاحا وأفصح تكلم بالفصاحة وكذلك الصبي .
يقال : أفصح الصبي في منطقته الفصاحا اذا فهمت ما يقول في أول ما يتكلم .
أفصح الاغتم : اذا فهمت كلامه بعد غتمته . أفصح عن الشيء الفصاحا اذا بينه
وكشفه . فصَحَّ الرجل وتَفَصَّح اذا كان عربي اللسان فلزاد فصاحة . وقيل
تَفَصَّح في كلامه وتَفَصَّح : تكلف الفصاحة . يقال :

ما كان فصيحاً ولقد فصَح وهو الين في اللسان والبلاغة : والتفصح استعمال
الفصاحة وقيل : تشبه بالفصحاء .

وقيل : جميع الحيوان ضربان : أعجم وفصح ، فالفصح كل تاطق ،
والاعجم كل ما لا يتطق .

الفصح في اللغة للتطيق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديه :
أفصح للكلام وأفصح به وأفصح عن الامر : الفصح في كلام العامة : المغرب .
وفي هذا يتضح معنى البيان والظهور في كلمة «الفصاحة» ، ليس هذا المعنى
بعيداً عن الدلالة الاولى ولا عن المعنى الذي اصطلح عليه علماء البلاغة ، وهو
رقة الالفاظ وجمالها ، وبيان التعبير ووضوحه .

في القرآن والحديث :

لو مفينا تبحث من لفظة «الفصاحة» في ثرائنا لرأيناها في قوله تعالى حكاية
عن نبيه موسى - عليه السلام - : «وَأَنبِئْ هِرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا» (١)
وفي الحديث النبوي الشريف : «أَنَا أفصح العرب بيد أبي من قریش» (٢) و«ففر

(١) القصص ٢٤ .

(٢) قال عبد الله بن ربيعة في مدح الرسول - صل الله عليه وسلم - :
لو لم تكن فداً أباه مينةً كانت فصاحته تنيك بالخير

له بعد ذلك فصيح وأعجم :، وفسره أصحاب الحديث بأن النبي محمداً - صل الله عليه وسلم - أراد بالقصيح بني آدم ، وبالأعجم البهائم (١) :

ولا تخرج لفظة «القصاحة» في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عن معناها القوي وهو الظهور والبيان . حينما دخلت هذه اللفظة للدراسات البلاغية والتقديرية ارتبطت بلفظة البلاغة وصارت صنوعاً ، وأصبح رجال البلاغة الأوائل لا يفرقون بينهما ، بل لم يروا بأساً في أن يستعملوا أحدهما مكان الآخر كما فعل أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (- ٢٥٥هـ) الذي لم يضع حداً فاصلاً بين القنطين وإنما اجراءهما بمعنى واحد في مواضع كثيرة من كتابه « البيان والتبيين » ، الجاحظ :

عرف الجاحظ البلاغة بقوله : «وقال بعضهم - وهو أحسن ما أجيبناه ودوناه : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظة ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظة إلى سمك أسبق من معناه إلى قلبك» (٢) : وفي هذا التعريف القفاة القصاحة بالبلاغة ، والنص على امتزاجهما .

والقصاحة - عنده - واسعة المعنى ، ولذلك نراه يتحدث عنها وعن الالتقاط كثيراً ، وتعدّ إشارات في كتابه «البيان والتبيين» من أوسع ما وصل إلينا من عهد التصون الأول . ويرى أن الالتقاط جذيرة بالرعاية والاعتناء ، يقول : «وقد يستخف الناس القاطا ويستعملونها وغيرها أسبق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر : وناس لا يذكرون السخب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر الطمر ، لأنك لا تجد القرآن بلفظ به إلا في موضع الانتقام : العامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر الطمر وبين ذكر القيث ، ولفظ القرآن الذي عليه نزل

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٢ ص ١٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٥ .

انه اذا ذكر الابصار لم يقل الاسماع ، واذا ذكر سبع سموات لم يقل الارضين :
 ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السبع أسماعا . والجاري على ألفاء العامة
 غير ذلك لا يتفقون من الالفاظ ما هو أحق بالذكر وتوكل بالاستعمال (١).
 وتكلم على تناثر الحروف فقال : وقاما في التران الحروف فان الجيم لا تثارن
 الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الدال بتقديم ولا بتأخير ، وفراي لا تثارن الظاء ولا
 السين ولا الصاد ولا الدال بتقديم ولا بتأخير . وهذا باب كبير وقد يكفى بذكر
 القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجرى (٢).

وتحدث عن تناثر الالفاظ فقال : ومن ألقاظ العرب ألقاظ تناثر وان كانت
 مجموعة في بيت شعر لم يستلغ النشد الشاعرا إلا ببعض الاستكراه ، فمن ذلك قول
 الشاعر :

وقبر حرب بمكان غسر وليس قسرب قبر حرب قبر
 ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن يشتد هذا البيت ثلاث مرات
 في نسق واحد فلا يتنعج ولا يتجلعج ، وقبل ثم : ان ذلك انما اعتراه اذا كان من
 اشعار الجن ، صدقوا بذلك .

ومن ذلك قول ابن سبير :

لم يفرها والحمد لله شبي وانثت نحو عزتت نكمتت ذهول
 فلفظ الصف الأخير من هذا البيت فالتك مستجد بعض لقائه يتبرأ من بعض (٣)
 وينبغي أن تكون الالفاظ متعائلة متلازمة كي لا يقع بينها التناثر فتصبح كأولاد
 علة ، يقول : وانشدني أبو العاصي ، قال : انشدني خلف الأحمر في هذا
 اللحن :

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٩ .

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٥ .

وبعض فريض القوم أولاد عكَّة بكدة لسان للتخلف (١)
وقال أبو العاصي : وأشدني في ذلك أبو اليبداء الرباعي :

وشمر كبير الكيش فرق بينه لسانٌ دعسي في القريض دخیل
فانه يقول : اذا كان الشعر مستكرها وكانت القاط البيت من الشعر لا يقع بعضها
مثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين اولاد العكلات . وانما كانت الكلمة ليس
موقعها الى جنب أختها مترجماً مؤلفاً كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر
مؤودة .

قال : وأجود الشعر ما رأته متلاحم الاجزاء سهل للخارج ، فتعلم بذلك أنه
قد أفرغ فراغا واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري
على اللسان .

وأما قوله : كبير الكيش ، فانا نعب الى أن يمر الكيش يقع متفرقا غير مؤلف
ولا متجاور ، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفكة متسا
وليت اللطيف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان
وتكدّه ، والآخرى تراها سهلة لينة ورطبة موائية ، تسلس النظام خفيفة على
السان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف
واحد ، (٢) .

ويرى أن اللفظ كما لا ينبغي أن يكون حاديا وسائطا موزنا ، فكذلك لا ينبغي
أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أمريايا ، فان الوحشي من الكلام
يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوق رطانة السوق (٣) .
لقد اهتم الملاحظ بالاتفاظ اهتماما عظيما وأولاه عناية كبيرة ، وقد دفعه
هذا الاهتمام الى أن يقول : واللعاني مطروحة في الطريق يعرفها المجمي والعربي

(١) أولاد عكة : هم بنو رجل واحد من أمهات شمر .

(٢) البيان ج ١ ص ٦٦ .

(٣) ينظر البيان ج ١ ص ١٤٤ .

واليدوي والقروي والندبي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخفيف القف ، وسهولة
الخرج ، وكثرة اللام ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، لأنما الشعر صناعة وضرب
من النسيج وجنس من التصوير (١) :

وعن بعض الباحثين أنه يميل إلى القف كل الليل ، وأنه لا يرى للمعنى كبير
أهمية ، والواقع أنه حتى بالقف وأعطاه نصيبه من الاهتمام ، وشغل بالمعنى
والتصوير الأدبي الذي يقول عنه : ولأنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من
التصوير ، وهذه نظريته التي شرحها عبد القاهر الجرجاني وسماها « نظرية
النظم » ، فلاحظ أهم بالانفاذ والمعاني والتصوير مع أنه يرى أن بعضهم لا ينفصل
إلا بالمعنى وحده كأبي عمرو الشيباني الذي يرى أن المعنى متى كان رافعا حسنا
ظل كذلك في أية عبارة وضع قائلان :

لاتحسبن الموت موت البلى قالما الموت سؤال الرجال
كلامها موت ولكن ذاك أنطق من ذاك لذل السؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين ليست عليهما مسحة من جمال سوى الوزن ؛
وهذه الجاحظ ورأى أنه مرف في تقديرهما ، وقال : « وأنا رأيت أبا عمرو
الشيباني وقد بلغ من استجافته لذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلف
رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين
البيتين لا يقول شعرا أبدا ، ولولا أن أدخل في الحكم بعض القفك
لزعمت أن ابنه لا يقول شعرا أبدا » (٢) .

لقد اعتمد الجاحظ بالقف ولكنه لم يهمل المعنى ، ولذلك ليس صحيحا ماذهب
إليه بعضهم وهو أن الجاحظ كرم جهوده لخدمة الالفاظ ، ولاجله غاضى عبد
القاهر الجرجاني غمار هذا البحث : ويرى الدكتور محمد متلوران كل آراء معبد
القاهر تنحصر في مسألتين :

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٢١ .

(٢) الحيوان ج ٣ ص ١٢١ .

الأولى : انكاره لما رآه الجاحظ من أهمية فصاحة الالفاظ باعتبار تلك الفصاحة صنعة في اللفظ ذاته ، ثم ثورته على مذهب أبي حلال العسكري الذي يرد جودة الكلام إلى عسرات لفظية تقف عند الشكل.

الثانية : تعليقه جودة الكلام بخصائص في النظم (١).

وعبرة الجاحظ واثما للشعر صناعة وضرب من التسج وجنس من التصوير ، وما نقله عبد القاهر من اهتمامه بالصياغة والصناعة ، غير ما يفند هذا الرأي ، لأن عبد القاهر سار على خطا الجاحظ ونقل مصطلحه في التصوير وقال : وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدعناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور في كلام العرب ويكتفيك قول الجاحظ واثما الشعر صناعة وضرب من التصوير (٢) : فالجاحظ من أصحاب الصياغة ، ولذلك تسقط عنه مهمة الاهتمام بالشكلية والالفاظ ، وإن كان كثير الاهتمام باللفظ واختيار ما يؤدي المعنى أداء حسنا ، وهذه مهمة الأديب الذي يقدّر قيمة الكلام ويبدّل في سبيله أعظم الجهود ، وقد كان الجاحظ أديبا كبيرا وعالما قديرا ، فعني بالالفاظ كما عني بالمعاني وكان له الفضل في تصوير نظم الكلام.

ابن قتيبة :

وتحدث ابن قتيبة (- ٢٧٦هـ) عن الالفاظ ، وذكر أن الشعر أربعة أصرب :

١ - ضرب منه حسن للفظ وجاد معناه ، كقول لقال في بعض بني أمية (٣) :
في كفته عيزوان ويحه عني من كفت أروع في عرته ششم
يخفي حياه ويخفي من مهابته فما يكلم إلا حسن يشم
وكقول أوس بن حجر :

(١) ينظر في الميزان الجديد ص ١٢٩.

(٢) دلائل الإحصاء ص ٢٨٩.

(٣) كلما في الشعر والشعراء ، وفي الحاشي العزيم الكنا من أبيات يمدح بها عبد الله بن

عبد الله بن مروان ، والبيتان في ديوان العزيم ج ٢ ص ١٧٨ (طبعة مكتبة صادر) .

وحاشا في مدح زين العابدين رضي الله عنه .

أبنا النفس أجملي جزءا إن الذي تحلرين قد ولما
٢- وضرب منه حسن لفظه وحلا فلما أتت فثنته نجد هناك قائمة في
المعنى كقول القائل :

ولما قضيتا من منى كل حاجة ومضى بالاركان من هو ماسح
وشدت على حذوب المهاري رحالنا ولم ينظر القادي الذي هوارع
اعظنا بأطراف الاحاديث بينا وصالت بأعناق الطلي الاباطح
يقول ابن قتيبة : وهذه الالفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن
نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الاركان وعالينا
أبنا الانقاء ، ومضى الناس لا ينتظر القادي الرائع ابتدأ في الحديث وسارت
الطلي في الاباطح (١).

وتحرو قول الملوط :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وكسلا بعينك لا يزال مجيئا
لجفن من عبراتهم وقل لي : ماذا لقيت من الهوى ولقيتها (٢)

٣- وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه عنه كقول ليلى بن ربيعة :
ما عاتب المرأة الكريم كفسه والرمه يصلحه الجليس الصالح
٤- وضرب منه تأثر معناه وتأثر لفظه ، كقول الاعشى في امرأة :

وفدوها كأفحسي غذاء دائم الهطل
كما شيبا برائح يسا رد من غسل التحلل
ولم يشر ابن قتيبة إلى لفظة «الفصاحة» في كتابه الشعر والشعراء ولكنه استعمل
كلمة «الالفاظ» ، ويرى أن المحدث ليس له أن يبيع التقدم في استعمال وحشي
الكلام ككثير من أئمة مبيوه ، ولا أن يسلك فيما يقول الأساليب التي لا تصح

(١) الشعر والنحو ج ١ ص ٦٦. ومجد الشعر الجاهلي غير هذا الرئي فهو يراد
من أبداع الشعر وأخذه وقد عطاها تحليلا جميلا. (ينظر دلائل الإعجاز ص ٥٨).
(٢) البيت في ديوان جرير ص ٥٧٨. وهذا من قصيدة في صباه الاخطل.

في الوزن ولا تحلو في الاسماع. يقول : «وهذا يكثر، وفيما ذكرت منه ما ذلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروي وأسهل الالفاظ وأبعدا من التعقيد والاشتراك والقرىبا من أفهام العوام وكذلك اختار للخطيب اذا خطب والكتاب اذا كتب فانه يقال : «أسير الشعر والكلام للطبع» يراد الذي يطلع في «له من سمعه وهو مكان النجم من يد المتأوله» (١).

وفي كتابه «أدب الكتاب» حديث عن الالفاظ والابنية، ولكنه لا يسميها «فصاحة» وإنما هي قواعد يستعين بها الكتاب. وعقد في كتابه «عيون الاخبار» بابا سماه «كتاب العلم والبيان» تحدث فيه عن الاعراب والمحسن والشاذق والغريب والبيان والالفاظ التي تقع في كتب الامان والمهود والخطب. وهو في هذه الابواب والقصول ليس كالجاحظ الذي أرسى كثيراً من قواعد الفصاحة ووضع أمثلتها التي تتردد في كتب البلاغة والتلذذ.

الميرد :

وليس فيما كتب الميرد (- ٢٨٥هـ) إشارة إلى الفصاحة وإن كان يفضل أن تكون الالفاظ جزلة (٢).

لعلي :

ولا فيما كتب أبو العباس لعلي (- ٢٩١هـ) الذي أشار إلى جزالة الالفاظ (٣).

ابن المعتز :

ولا فيما ألف ابن المعتز (- ٢٩٦هـ) صاحب كتاب البديع.

قدامة :

وتحدث قدامة بن جعفر (- ٣٣٧هـ) عن لغت اللفظ، وقال ينبغي أن يكون سمحا، سهل متطابق الحروف من مواضعها، عليه رونق فصاحة مع الخلو من

(١) الشعر والشعر ج ١ ص ١٠٢.

(٢) الكامل ج ١ ص ١٢.

(٣) قواعد الشعر ص ٥٩.

البشاعة (١): وذكر صوب اللفظ وهي :

١ - أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الأعراب والفتنة:

٢ - وأن يركب الشاعر منه ما ليس يستعمل إلا في القسوة:

٣ - ولا يتكلم به إلا شاذاً، وذلك هو الوحشي الذي مدح عمر بن الخطاب

- رضي الله عنه - زهيراً بمجانته له وتكبه أياه فقال : « لا يتبع حوشي الكلام »:

٤ - ومن صوب اللفظ المماثلة، وهي التي وصف عمر بن الخطاب زهيراً

بمجانته لما فقال : « وكان لا يعاقل بين الكلام ». وهي ليست مماثلة الشيء في الشيء

لأنه محال أن ينكر مماثلة بعض الكلام فيما يشبهه من بعض أو فيما كان من جنسه ،

وأما يكون الإنكار فيما يدخل بعضه فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق به (٢) :

ابن وهب :

وفي كتاب البرهان في وجوه البيان (٣) لأبي الحسين اسحاق بن إبراهيم بن

سليمان بن وهب الكاتب اشارات إلى جزالة اللفظ وسخافته وركاكته : ولم يحذف

معاني هذه المصطلحات واكتفى بالتشثيل وقال : « وأما جزالة اللفظ فكنزوله :

وال مدوك يا ابن عم محمد رحمان : غوة الشمس والاعلام

فإذا تبت رعتة وإذا غسفا سأت عليه سيوفك الأحلام

وأما سخافة اللفظ وركاكته فمثل قول الآخر :

يا عتب سبني أما لك ديسن حتى متى قلبي لديك دهمين

فأنا الصبور لكل ما حملتني وأنا الشقي بالأس للسكين (٤)

(١) نقد الشعر ص ٢٦ .

(٢) نقد الشعر ص ٢٠٦-١٩٦ .

(٣) هو النص الكامل لكتاب الطبري باسم ياقدة الشراء للنسوب إلى قدامة بن جعفر .

(٤) البرهان في وجوه البيان ص ١٧٧ .

وقال عن القصص : «وأما التصحيح من الكلام ، فهو ما وافق لغة العرب ولم يخرج عما عليه أهل الأدب ، ولتصحيح ذلك وضع النحو ، ولجمعه وضعت الكتب في اللغة ، وذكر المستعمل منها والشاذ والهمل : وحق من ينشأ في العرب أن يستعمل الاقتداء بليغتهم ، ولا يخرج عن جملة القاطنهم ، ولا يقع من نفسه بمخالفتهم فيخطئوه ويلعنوه » (١).

وليس في هذه الإشارات ما يوضح رأى صاحب البرهان في القصص كما عرفنا الجاحظ ومعاذروه.

المسكوي :

وذكر أبو حلال المسكوي (- ٨٣٩٥) رأيه في القصص :
 الأول : أن القصص والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلفت أصلاهما لأن كل واحد منهما هو الآيات من المعنى والإظهار له . يقول : «فأما القصص فقد قال قوم : إنها من قولهم : أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره ، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب : أفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوة فظهر ، وفصح أيضا . وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح وبين ، وفصح اللسان إذا عير عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ . وإذا كان الأمر على هذا فالقصص والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلفت أصلاهما » (٢).

الثاني : هما مختلفان ، وذلك أن القصص تمام آلة البيان فهي مقصورة على القبط ، لأن الآلة تتعلق بالقبط دون المعنى ، والبلاغة إنما هي انتهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى . يقول : «وقال بعض علمائنا : القصص تمام آلة البيان ، ولهذا لا يجوز أن يُسمى الله تعالى فصيحاً إذ كانت القصص تتضمن الآلة ، ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة ويوصف كلامه بالقصص لما يتضمن من تمام البيان»

(١) البرهان ص ٢٥٢.

(٢) كتاب المناقب ص ٧.

والدليل على ذلك أن الالف والنون لا يسميان فصيحين لنقصان كلهما عن أقامة الحروف.

وقيل : فزياد الاعجم لنقصان آلة نطقه عن أقامة الحروف ، وكان يغير عن الحمار بالمار ، فهو أعجم وشعره فصيح لتنام بيانه (١).

ووضح الأمر بقوله : فومن الدليل على أن الفصاحة تنقسم اللفظ والبلاغة تتناول للمعنى ، أن اللفظ يسمى فصيحاً ولا يسمى بليغاً إذ هو مقم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه ، وقد يجوز مع هذا أن يسمى للكلام الواحد فصيحاً بليغاً إذا كان واضح للمعنى ، سهل اللفظ ، جيد السبك ، غير مستكره فح ولا متكلف وعجم ، ولا يمنع من أحد الاسمين شيء لما فيه من إضاح المعنى وتقوم الحروف (٢) . وهذا هو رأيي ، أما الرأي الأول فقد عرّضه ، لأن بعضهم يذهب إلى ذلك ، وعقد فصلاً في تمييز الكلام تحدث فيه عن صفات الالتقاط الحسنة ، وانتهى إلى أن "الكلام إذا جمع العلوية والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من الخيف في التأليف ، وبعد عن سماعة التركيب ، وورد على لقمهم الثاقب - قريحته ولم يردء ، وعمل السمع للصعب استوعبه ولم يسجه ، وانفس قبل اللطيف وتنبو عن اللطيف (٣) .

وأعطي الالتقاط أهمية كبيرة ، لأنه ليس الشأن في إبراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها الثري والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفاته ، وحسنه وبهاؤه ، وزاخرته وقلقه ، وكثرة طلاوته وماله مع صحة السبك والتركيب ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون على هذه الأوصاف ، وهو ما أشار إليه الجاحظ من قبل ، ولكنه جعل التصوير أساس البيان :

(١) كتاب الصناعات ص ٧.

(٢) كتاب الصناعات ص ٨.

(٣) كتاب الصناعات ص ٥٧.

ابن سنان :

وعقد ابن سنان البخاجي (- ٥٦٦ هـ) في كتابه «سر الفصاحة» فصولا إضافية تحدث فيها عن صفات الحروف ومخارجها ، وفصاحة النقطة المردة والالفاظ المؤلفة :

والفصاحة عنده - : «تظهر والبيان» (١) والفرق بينها وبين البلاغة «أن الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ والبلاغة لا تكون الا وصفاً للالفاظ مع المعاني . لا يقال في كلمة واحدة لاندل على معنى يفضل عن مثلها بلغة وان قيل فيها فصيحة ، وكل كلام يبلغ فصيح . وليس كل فصيح بلغة» (٢) .

ولكي تكون النقطة الواحدة فصيحة ينبغي ان تتوفر فيها بعض الشروط ، قال «ان الفصاحة على ما قلنا نعت للالفاظ اذا وجدت على شروط عدة ، وهي تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الالفاظ ويعسب الوجود منها تأخذ القسط من الوصف ويوجد أصدادها تستحق الاطراح والذم . وتلك الشروط تنقسم قسمين فالاول منها : يوجد في النقطة الواحدة على افرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الالفاظ وتؤلف معه .

والقسم الثاني : يوجد في الالفاظ المنظومة بعضها مع بعض» (٣) .
فاما الذي يوجد في النقطة الواحدة فثمانية أشياء :

الاول : أن يكون تأليف تلك النقطة من حروف متبادعة المخارج ، وعلة ذلك أن الحروف التي هي اصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولا شك في أن الألوان للثبانية اذا جمعت كانت في النظر أحسن من الألوان المتغيرة ، ولهذا كان البيضاء مع السواد احسن منه مع الصفرة .

(١) سر الفصاحة ص ٥٩ .

(٢) سر الفصاحة ص ٦٠ .

(٣) سر الفصاحة ص ٦١ .

ومثال التأليف من الحروف المتباعدة كثير جل "كلام العرب عليه ، فلما تأليف الحروف المتقابلة قمثل والمضجع" ، وقد روى أن الخليل بن أحمد القرامشي قال : « سمعت كلمة شعاء هي المضجع » وانكرنا تأليفها : وقيل : ان امرأيا سئل عن نائحه فقال : تركتها ترعى المضجع ، (١) . وقال ابن سنان : « والحروف الحلق مزبة في التبيح اذا كان التأليف منها غلط ، وأنت تذكر هذا وتستقيحه كما يفتح عندك بعض الامزجة من الالوان وبعض النغم من الاصوات » (٢) . الثاني : ان يكون لتأليف اللقطة في السمع حسن ومزية على غيرها وان تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة كما نجد لبعض النغم والالوان حسنا يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره من جنسه . ومثاله في الحروف : ع. ذ. ب. فان السامع يجد لقولهم « العذيب » - اسم موضع - « عذيب » - اسم امرأة - « عذيب وعذاب » - « عذوب » وعذبات ، مالا يجد فيها يقارب هذه الالفاظ في التأليف . وليس سبب ذلك بعد الحروف في المخرج فقط ولكنه تأليف مخصوص مع اليد ، ولو قد تمت اللال أو الباء لم نجد الحسن على الصفة الاولى في تقديم العين على اللال لضرب من التأليف في النغم يساهم التقديم والتأخير . وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية للنغم غصنا أو فنتاً أحسن من تسميته عسوجاً ، وان أغصان لبنان أحسن من صاليج للشوحط (٣) : ومن الكلمات العلمية الجميلة « نفاوح » وقد استعملها المتنبي فقال :

إذا سارت الاحداج فوق نباله نفاوح مسك اللقيات ورنده (٤)
وهي في غاية من الحسن ، وقيل : ان المتنبي أول من نطق بها على هذا اللال ، ومثال ما يكره قول المتنبي :

(١) سر القضاة ص ٤٧ .

(٢) سر القضاة ص ٦٧ .

(٣) الشوحط : شجر يتخذ منه القسي .

(٤) الرند : العيد ، نو الأس ، أو شجر طيب الرائحة .

مبارك الاسم أخسر القلب كريم الجرشي شريف النسب (١)
فألك نجد في الجرشي، تأليفاً يكرهه السمع وينبو عنه ، وأين كلمة «الفس» من
هذه القطة القليلة ؟

الثالث : أن تكون غير متوعدة وحشية كقول أبي تمام :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طائر سحدر ولا طائر كهل
فإن «كهلاء» هنا من غريب اللغة ، ورؤي أن الاصمعي لم يعرف هذه الكلمات
ليست موجودة إلا في شعر بعض الهذليين وهو قوله :

فلو أن ملهى جواره أو أجازاه رباح بن سعد رده طائر كهل
وقيل : إن الكهل الضخم ، وهي القطة ليست قبيحة فكيف فكيف لكنها وحشية
غريبة لا يعرفها مثل الاصمعي ولهذا اعتمد الخفاق من الشعراء على اختيار اسمه
المتأثر والنساء في القول وتجنبوا مالا يحسن لفظه ، وعادوا على جرير قوله :

وقول «بوزع» قد دبت على العصا هالاً حزت بغيرتا بابسوزع
وذكروا أن الوليد بن عبد الملك قال له : أفسدت شعرك ؛ «بوزع» :

وقد قال ابن سنان : «وأنا أكره من قول كثير بن عبد الرحمن صاحب حزة :
وما دوعة بالخزن طيبة ترى يمحج القدي جشائها وعسرارها
ذكر «الجشأ» لأنه اسم غير مختار ، ولو لم تكن ذكر غيره كان عندي أليق وأوفق ؛
ولا أحب أيضاً تسمية أبي تمام صاحبه - علاقة - وقداء ، بالترخم في قوله :
قف بالظلول الدارسات علاقا أصبحت حبال قطبتين رقائبا
وإن كان الروي قاده إلى ذلك ، فليت شعري من حذر عليه القوافي واقتصر به على
ثلاث دون غيرها من الحروف» (٢).

(١) كريم الجرشي : كريم النفس.

(٢) سر القصيدة ص ٧٩.

الرابع : أن تكون الكلمة غير سائقة عامية ، ومثال العامية قول أبي تمام :
جلبت والموت مبد حُرُ صفحت وقد تَنَزَّعْنَ في أفعال الأَجَلِ
لأن «نزع» مشتق من أَسَم «فرعون» وهو من ألفاظ العامية ، وعادتهم أن يقولوا :
«نزع» فلان إذا وصفوه بالخيرية .

ومع قول أبي نصر عبد العزيز بن نباتة :

أقام قوام اللين زبيح قتاله وأنسج كسي المسرح وهو فطير
لقطة وطيره عامية مبتذلة .

ومع قول أبي تمام :

قد قلت لسالمج في صدد أعطف على عبك يا قابري
لأن «قابري» من ألفاظ عوام النساء .

ومن ذلك لقطة وأوجنتها في قول ابن نباتة :

فقد رفعت أبصارها كل بلدة من الشوق حتى أوجنتها الاضداد
واللقطة «الجورب» في قول اللثني :

تسترق الكف فؤديه ومنكبه وتكتفي منه ربح الجورب المخلق
الخاص : أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ، ويخلل
في هذا القسم ما يتركه أهل اللغة ويردّه علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة ، وقد
يكون ذلك لاجل أن اللقطة بعينها غير عربية كما أنكروا على أبي القيس قوله :
وجنح مفصوص تحيك ريشه ريب الزمان تحيك القراض
وقالوا : ليس «القراض» من كلام العرب ، ولم يسمع عنهم إلا «مشق» .

وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عُرِّبَت عن غير ما وضعت له في عرف اللغة ،
كما قال البحري :

يشق عليه الريح كل عشية جوب الفمام بين بكر وأيم
فوضع «الأي» مكان «اليب» وليس الأمر كذلك ، ليس الأيتم «اليتيم» في
كلام العرب ، إنما «الأي» التي لازوج لها بكراً كانت أو لياً .

ومن ذلك قول البحرى:

شُرْطِيّ الاَصافُ اِنْ قَبِلَ الشَّرْطُ وصيدى مَنْ اذا صالَى قَسَطَا
وأراد بوقطه عدل ، لأن الامر عليه ، وليس الامر كذلك ، وانما يقال وقطه
اذا عدل وقطه اذا جار ، ومنه قوله تعالى : وَأَمَّا الْقَائِمُونَ فَكَانُوا لِهَيْبَتِهِمْ
حَقِيقَةً (١) .

وقد يكون على جهة الخلف من الكلمة كقول روية بن العجاج:
قواظاً مَكَّةَ من ورقِ الحَمَا

يريد الحمام .

وقد يكون على وجه الزيادة في الكلمة مثل أن تشيع الحركة فيها فتصير حرفاً ،
كما قال الشاعر .

وأنت على التواية حين ترمى وعن عَيْبِ السجاك يستزاج
أي : يسترح .

وقد يكون إيراد الكلمة على الوجه الشاذ قليلاً ، كقظة «باهت» التي جاءت
رديئة شاذة في قول البحرى .

متحيرين فبباهت متصجب مما يرى أو ناظر متسائل
والعربي المتصل «بُهت» الرجل يَبْهَتُ فهو مبهُوت .

ويدخل في هذا القسم ما يسمي الضرورة الشعرية من اظهار التضعيف ، أو مد
التقصير ، أو قصر الممدود ، أو تأنيث المذكر على بعض التأويل ، أو صرف مالا
ينصرف وغير ذلك .

الفاصل: أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر أكثر يكره ذكره ، فإذا أوردت وهي
غير مقصود بها ذلك المعنى بحثت وإن كملت فيها الصفات ، كقول الشريف الرضي:
أعز علي بأن أراك وقد غسلت من جانبك مقاعد العوكد
فايراد «مقاعد» في هذا البيت صحيح ، إلا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا

(١) البين ١٥ .

الثان، لاسيما اضافته إلى من يحتمل اضافته إليهم وهم «العوائد»؛ ولو افترد لكان الأمر سهلا فاما اضافته إلى مذكره فبها فبح لاخطاء به.

الساج: أن تكون الكلمة معتلة غير كثيرة الحروف لأنها متى زادت على الامة العتادة المروقة فبحت وخرجت عن وجه من وجوه القصاحة. ومن ذلك قول أبي نصر بن نياه:

فياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم ألا أن مضاطيهن اللواتب
فمضاطيهن كلمة غير مرضية لطولها.
ومنه قول أبي تمام:

فلا فريجان انجبال بمصلا كانت مرس عبرة ونكبال
سمجت وتبها على استمالها ماحولها من تفسر وجمال
قوله واستمالها رديء لكثرة الحروف وغروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الالفاظ إلى الشاذ القادر.

ومنه قول المتنبي:

إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها (١)
ة سويداواتها كلمة طويلة جدا.

الثامن: أن تكون الكلمة مصفرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك، فأنها تحسن به. ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:
وغاب قمير كنت أرجو طلوعه وروح رعيان ونوم سر
وهذا تصغير مختار في موضعه، فأما الاسماء التي لم ينطق بها إلا مصفرة كالجبين والثرى فليس للتصغير فيها حسن يذكر؛ لانه غير مقصود بها ما ذهب إليه ابن سنان؛ ومعظم هذه الشروط تدخل في فصاحة الالفاظ المألولة، والاعلال بها قد يؤدي إلى زيادة القبح والتنافر في الكلام، لانه حين تكون الالفاظ مجتمعة يحتاج إلى دقة

(١) سويداء القلب: حبه، وجدها سويداوات.

في التركيب واعتبار اللطيف منها . يقول ابن سنان متحدثا عن الشرط الاول :
 وأن الاول منها أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وهذا
 يمينه في التأليف ، ويبيانه أن يجنب التأليف تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام
 كما أمرناه بجنب ذلك في اللفظة الواحدة ، بل هذا في التأليف المتبع ، وذلك ان
 اللفظة المفردة لا يستمر فيها من تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثلما
 يستمر الكلام المؤلف إذا طال واتسع (١) .

ومما قبح قول أبي تمام :

فلجيد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك الا بالرضى
 ومنه قول الآخر :

وقبر حرب بمكان قصير وليس قرب قبر حرب قبر
 ومنه قول المتنبي :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد
 وأما الثاني من شروط اللفظة المفردة فيكون في التأليف إذا ترادفت الكلمات
 المتخارة فيوجد الحسن فيها أكثر وتزيد طلاوته على ما لا يجمع من تلك الكلمات
 الا القليل ، وهذا يرجع الى اللفظة بالترادف وليس للتأليف فيه الا ما أثاره القوافي
 والترادف .

وكذلك الثالث والرابع من الأقسام لاهلقة للتأليف بهما ، وإنما يفتح إذا كثرت
 في الكلام الوحشي أو العامي .

وأما الخامس فالتأليف به علة وكيدة ، لأن اعراب اللفظة تبع لتأليفها من
 الكلام وعلى حكم الموضع الذي وردت فيه :

وأما السادس فالتأليف فيه تعلق بحسب إضافة الكلمة إلى غيرها ، فإن التعلق
 يختلف بحسب ذلك .

(١) سر الصناعة ص ١٠٧ .

وأما السابع فلا علاقة لتأليف به، إلا أن ظهور قبحه أبطل إذا ترادفت فيه الكلمات الطوال

وأما الثامن فلا علاقة لتأليف به إذ كان لا يعتدى الكلمة بانفرادها .
ودراسة ابن سنان لفصاحة من أخصب الدراسات، ولا يكاد للتأخرون يخرجون عنها في كل ما ألفوا أو اختصروا أو شرحوا.
عبد القاهر .

وكانت الفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان ألقاظاً مترادفة عند عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ)، وكلها يعبر بها عن أفضل بعض التاليفين على بعض من حيث نظفوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأعراس والمقاصد، ورواها أن يملوهم ماني نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (١).

والألقاظ عنده خديم للمعاني وأوعية لها تنبها في حسناتها وجمالها أو قبحها ورداءتها، يقول: «ولن نجد أين طائرنا، وأحسن أولاً وآخرنا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاحتسان من أن ترسل العالي على سجيته وتدعها تطلب لأنفسها الألقاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها .
فإذا أن تنفع في نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت تعرض الاستكراه وعلى غطر من الخطأ والوقوع في الذم. فإن ساعدك الجحد كما ساعد في قوله .

أودعائي أميت بما أودعائي

وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله .

وأجندتم من بعد انهمام داركم فبا دمع أجدني على ساكني تجند
وقوله .

هنّ الحسام فإن كسرت عياله من حالهن فإلهن حيام

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٥ .

نذلك ولا اطلقت ألسنة العيب (١):

إنّ القصداحة تكون في المعنى وليس للكلمة المفردة كبير قيمة، وكثيراً ما تستعمل القطة في موضع فتكون حلوة بالحرص عذبة، وتستعمل في موضع آخر تفقد تلك الزينة، وإنما كان ذلك لأن الزينة التي من أجلها تصيغ اللفظ في شأننا هذا بأنه لصيغ مزية تحدث بعد أن لا تكون وتظهر في العلم من بعد أن يدخلها النظم. وهذا شيء إن أنت طلبته فيها وقد جئت بها إفراداً لم ترم فيها نظماً ولم تحدث لها تأليفاً طلبت محلاً. وإذا كان كذلك وجب أن تعلم نظماً أن تلك الزينة في المعنى دون اللفظ (٢).

فالألفاظ عند عبد القاهر لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها التفصيل واختلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا يتعلق له بصريح اللفظ: وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها يمينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ «الأخضر» في بيت الحماسة:

تلفت نحو المحي حتى وجدنتني وجعت من الاصغاء أيتها وأخمدنا (٣)
وبيت الجعفر:

وإني وإن بلغتني شرف الدنيا وأعظت من رقي الطامع لأدعي
لأن لها في هذين البيتين ما لا يخفى من الحسن، ثم أنك تتأملها في بيت أبي تمام:
يادهم قوم من أعديك فقد أضجبت هذا الاتام من غررك
فتجد لها من القل على النفس ومن التنصيص والتكثير أضعاف ما وجدت هناك من
الروح والخفة والابتناس والبهجة.

(١) اسرار البلاغة ص ١٩، وينظر دلائل الإعجاز ص ١٠١.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٠٧.

(٣) الأعدمان: مرقان في جاني البيت قد غلبا وبطنا، واليت: صفحة البيت.

ومن أحبب ذلك لفظة الشيء فأنك تراها مقبولة حسنة في موضع وضعيلة
مستكرهة في موضع، وإن اردت أن تعرف ذلك فأنظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة:
ومن مالي عيني من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى
وإلى قول أبي حنيفة التميمي:

إذا ما نفاض المرء يسوم وليلة نقاضه شيء لا يهمل النقاضيا
فأنك تعرف حسنها ومكانها من القبول، ثم النظر في بيت المتنبي:
لو أنك الدوكر أبغضت سعيه لموكة شيء عن السدوران
فأنك تراها تلي وتضول بحسب نيلها وحسنها فيما تقدم.

ومن سر هذا الباب أنك ترى اللفظة المستكرهة قد استعيرت في عدة مواضع ثم
ترى لها في بعض ذلك ملاحظة لا تجعلها في الباقي، مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة
والجره في قول أبي تمام:

لا يطبع المرء أن يجتأب لجسه بالقول ما لم يكن جسرا له العمل
وقوله:

يَصْرُفُ بالراحة العظمى فلم ترها ثنال لإجل جسر من الأعب
فترى لها في الثاني حسنا لا تراه في الأول، ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرقي:
قولي: نعم، ونعم إن قلت واجبة

قالت: عسى عسى جسر إلى نعم

فترى لها لفظا وعلاوة وحسنا ليس الفضل فيه بقليل.
ويتهى عبد القاهر إلى أن الكلمة لو كانت إذا حسنت من حيث هي لفظ وإذا
استحقت المزية والشرف، استحقت ذلك في ذاتها وعلى الترادف دون أن يكون
السبب في ذلك حال لها مع انصافها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت
أما أن تحسن أبدا أولا تحسن أبدا. (١)

ولعل القرض الديني كان دافعا إلى هذا الرأي، لأن كلمات القرآن الكريم عربية
نطق بها الشعراء والخطباء وتداولها الناس، وليس لها مزية وهي مفردة لا يطمها

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٨، ١٢٩.

سلك يوحّد بينها ويجمع متفرقها ، ولكي يظهر عبد القاهر إعجاز القرآن ويرد ما كان يشيع في البيئات الخلفية اتجه إلى نظرية النظم ليسد بها السالك ويتذكّراه للخططين ويوقف طعنات الحاقدين.

ولم يقف عند الاهتمام بالنظم وإنما اعتم بالتصوير الأدبي الذي لا يكون إلا بتريب اللفاظ والتأليف بينها، يقول: «ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل لتصوير والصياغة وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل للشيء الذي يقع للتصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محلاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل وردائه أن تنظر إلى فضة الحاملة لذلك الصورة أو للذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه. وكما أن لو فضلتا خاتماً على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود أو فضة أنفس لم يكن ذلك تفضيلاً له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضلتا بيتاً على بيت من أجل معناه أن لا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعر وكلام» (١).

فبعد القاهر يرى أن للتصوير الأدبي قيمة كبيرة، ولذلك أطال الكلام في وأسرار البلاغة على الوسائل التي تجعل الصورة حسنة مقبولة، وفصل القول في نظرية النظم، وذهب إلى أبعد من ذلك ورأى أن في الاستعارة ما لم يمكن بيانه إلا بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته. يقول متحدثاً عن الاستعارة في بيت الشاعر: «سألت عليه شعابُ الهوى حين دعا أنصاره بوجوه كالسدنات يسر» ولذلك ترى هذه الاستعارة على لفظها وغرابها إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهت بما توشح في وضع الكلام من التقديم والتأخير، ونجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة تلك ومؤازرته لها. وإن شككت فاعمد إلى الجازين والظرف فلنزل كلاماً منها عن مكانه الذي وضعه للشاعر فيه قتل وسألت شعاب الهوى بوجوه كالسدنات يسر عليه حين دعا أنصاره ثم انتظر كيف يكون الحسب وكيف يذهب الحسن

(١) دلائل الإعجاز ص ١٩٦.

والحلاوة وكيف لعدم أريحيتك التي كانت وكيف تذهب للشوق التي كنت تجددها (١).
 إن القصاحة عنه لا تكون إلا بتوخي معاني النحو ، أي النظم ، والألفاظ لا تزيد
 حتى تؤول ضرباً خاصاً من التأليف ويعد بها إلى وجه في التركيب . فلو أنك
 عدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدداً كيف جاء وافق وأبطلت
 نفسه ونقائه الذي عليه بني وفيه أفرغ المعنى وأجري ، ولغيرت ترتيبه الذي
 بخصوصيته أماد كما أفاد ، وينسقه المخصوص أيان المراد نحو أن تقول في وقفا نيك
 من ذكرى حبيب ومزله : « منزل قفا ذكرى من نيك حبيب » أخرجته من كمال
 البيان إلى حال الهذيان ، وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين
 منته ، بل أحلت أن يكون له الحاقة إلى قاتل ونسب بخصم بمكلم (٢) :

واللهي إلى الحكم بالخطأ على من قصر القصاحة على الكلمات من حيث هي
 ألفاظ منطوقة وأصوات مسروعة ، والأديب لا يطلب القفط بحال ، وإنما يطلب المعنى
 فإذا ظفر به فالقفط معه وإزاء الظفر ، ولذلك لم تكن القصاحة عنه من صفات
 القردات من غير اعتبار التركيب .

إن عبد القاهر ربط بين القصاحة والنظم ولذلك لم يخل الكلام على شروط
 القصاحة كما فعل معاصره ابن سنان الخفاجي ، ولكنه مع ذلك لا ينكرها كل الإنكار ،
 ونراه يقول في غائمه كتابه «دلائل الاعجاز» : «واعلم أن لا تأتي أن تكون مذلة
 الحروف وسلامتها مما يفل على اللسان دلحلاً فيما يوجب القسيلة ، وأن تكون مما
 يؤكد أمر الاعجاز ، وإنما الذي ننكره ونتميل رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به
 وحده ويحمله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من شذاعات (٣) ، فهو لم ينكر
 فصاحة الألفاظ ونعمها ولكنه لم يرد أن يفسر الاعجاز بها ، ولذلك لم يدرسها كما

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٨.

(٢) أسرار البلاغة ص ٨.

(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٠١ ، غل - يشديد الياء - ربه : فجه وخطأه .

فعل الآخرون ولم يُعَنَّ بها عناية تظهر ميزتها وتأثيرها في الكلام (١).
المرآزي .

عرف فخر الدين المرآزي (٨٦٠-٨٦٦) النقصانية بأنها «مخلص الكلام من التصديق» (٢) وهي - عنده - تتصل بالمتن ، لأن الإفادة النقطية يستحيل تطرق الكمال والنقصان إليها ، فإن السامع للفظ إما أن يكون علماً بكونه موضوعاً لسماء أو لا يكون ، فإن كان علماً به عرف مفهومه بتمامه ، وإن لم يكن علماً به لم يعرف منه شيئاً أصلاً .

وحصر البحوث المتعلقة بالدلالة النقطية في امرين .

الأول : أن النقصانية والبلاغة لا يجوز عودهما إلى الدلالة النقطية .

الثاني : أن النقصانية وإن كانت غير عائدة إلى الدلالة النقطية ، لكن من الأمور لعائدة إلى جوهر اللفظ وإلى دلالاته الوضعية ما يفيد الكلام كمالاً وزيعة وجمالاً (٣) . وهذه فكرة عبد القاهر التي بنى عليها نظريته في النظم ، ويرى بها للدين السبكي أن المرآزي يحيل إلى أن النقصانية راجعة إلى الالتفات والمعاني (٤) .
ابن الأثير :

وكان ضياء الدين بن الأثير (٨٦٣٧ -) أوضح من السابقين تصوراً وفهماً للنقصانية ، وقد اهتم بها اهتماماً عظيماً وصحح كثيراً من الآراء في كتابيه «الشرح» و«المعاني» في أدب الكاتب والشاعر ، و«الجامع الكبير» . يقول عن النقصانية : «أعلم أن هذا باب متعلو على الواقع ومسلك متعر على الشاهج ، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكتفون القول فيه والبحث عنه ، ولم أجِد من ذلك ما يكون

(١) ينظر الفصل الثالث «اللفظ والمعنى» في كتابه «عبد القاهر المرحلي» - بلاغة وقواعد ص ٨٧ - ١١٨ .

(٢) نهاية الأثر ص ٩ .

(٣) نهاية الأثر ص ١١ .

(٤) عروض الأفراح - شروح المخلص ج ١ ص ١٣٥ .

عليه الا القليل . وغاية ما يقال في هذا الباب : ان النصيحة هي الظهور والبيان
في أصل الوضع القوي ، يقال : أفصح الصبح اذا ظهر . ثم انهم يقولون عند
ذلك ولا يكشفون عن السر فيه (١) . ولا تبين النصيحة بهذا القول لانه يعترض
عليه بوجوه من الاعراضات :

الاول : انه اذا لم يكن اللفظ ظاهراً يبيناً لم يكن فصيحاً ، ثم اذا ظهر وبيان صار
فصيحاً .

الثاني : انه اذا كان اللفظ للفصح هو الظاهر اليقين فقد صار ذلك بالنسب
والاضافات الى الاشخاص ، فان اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد ولا يكون ظاهراً
لعمره ، فهو اذن فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا . وليس كذلك ، بل
الفصح هو فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الاحوال ، لانه اذا تحقق
حد النصيحة وعرف ما هي لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف :

الثالث : انه اذا جيء بلفظ فيصح ينبو عنه السمع وهو مع ذلك ظاهر بين ، ينبغي
أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لان النصيحة وصف حسن اللفظ لا وصف فيصح
فهذه الاعراضات الثلاثة واردة على قول القائل : ان اللفظ للفصح هو الظاهر
اليقين . ومعنى ذلك ان ابن الاثير لا يأخذ بهذا القول الذي اثار حيرة فمضي يبحث عن
تعريف للنصيحة ، ويحقق القول فيها . وقد شرح المسألة بوضوح فقال ان المقصود
: ان الكلام الفصح هو الظاهر اليقين ، ان تكون القاطعة مفهومة لا يحتاج فهمها
إلى استخراج من كتاب لغة ، وانما كانت بهذه الصفة لانها تكون مألوفة الاستعمال
بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ، وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة
في الكلام دون غيرها من الالفاظ لمكان حسناتها ، وذلك أن أرباب النظم والنثر
غربوا اللغة باعتبار القاطعة وسبوا وفسدوا واعتادوا الحسن من الالفاظ فاستعملوه
وقبوا للتيقن منها فلم يستعملوه ، فحسن الالفاظ بسبب استعمالها دون غيرها

(١) انظر السراج ١ ص ٦٤ .

واستعمالاً دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ، فالقصيح من الالفاظ هو الحسن .
قال قيل : من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعمالوه
وعلموا القبيح منها حتى تقوه ولم يستعملوه ؟

قيل لهم : إن هذا من الأمور المحسوسة التي شاهدها في نفسها ، لأن الالفاظ داعلة
في حيز الأصوات ، فالذي يستلذه السمع منها وبميل إليه هو الحسن ، والذي
يكرهه وينفر عنه هو القبيح . ألا ترى أن السمع يستلذ صوت الجبل من الطير
وصوت الشحرور وبميل إليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره
تهيق الحمار ولا يبعد ذلك في صهيل الفرس ، والالفاظ جارية هذا المنجى فانه
لا خلاف في أن لفظة « الزنة » و « الدببة » حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة « البعاق »
قبيحة يكرهها السمع . وهذه القظات الثلاثة من صفة الطير ، وهي تدل على معنى واحد ،
ومع هذا فالتك ترى لفظي « الزنة » و « الدببة » وما جرى مجراها مألوفة الاستعمال
وترى لفظ « البعاق » وما جرى مجراه مثروكاً لا يستعمل ، وإن استعمل قلنا
يستعمله جاهل بحقيقة القصاحة أو من فوقه غير سليم .

لقد ثبت أن القصيح من الالفاظ هو « الظاهر القبيح » ، وإنما كان ظاهراً بيننا
لأنه مألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنة ، وحسنه ملوك
بالسمع ، والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ لأنه صوت بألف عن مخارج الحروف ،
فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف
بالقصاحة والقبيح غير موصوف بالقصاحة لأنه خدعاً لمكان قبحه . ولو كانت
القصاحة لأمر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الالفاظ في الدلالة عليه سواء ليس
منها حسن ومنها قبيح ، وثلاً لم يكن كذلك علم أنها تخص اللفظ دون المعنى .
وإن الأثير لم يتصل بين اللفظ والمعنى في هذا القول وإنما خص اللفظ بصفة هي له
والعنى يحى فيه ضمناً وتبعاً .

وأشار إلى القصاحة عند المتقدمين فقال : « وقد ذكر من تقدمني من علماء
البيان للالفاظ المردة خصائص وحيات تصف بها ، واستنقروا في ذلك ، واستحسن

احدهم شيئا فخرولف فيه وكذلك استبح الآخر شيئا فخرولف فيه ، ولو حققوا النظر ووقفوا على السر في اتصاف بعض الالفاظ بالحسن وبعضها بالقيح لما كان بينهم خلاف في شيء منها ، (١) .

ورد رأي من ذهب الى ان كل الالفاظ حسن وقال : « ومن يبلغ جهله الى ان لا يفرق بين لفظة والنصن ، ولفظة والعروج ، وبين لفظة والمدامة ، ولفظة الاسفط ، وبين لفظة السيف ولفظة الخشليل ، وبين لفظة الاسد ولفظة القدوكس ، فلا ينبغي ان يخاطب ولا يخاطب بخواب ، بل يترك وشأنه كما قيل :
« اتركوا الجاهل بجهله ولو اتى البحر (٢) في رحله : وما مثاله في هذا المقام الا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق ذات عين حمرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قشط (٣) كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات غد اسيل وطرف كحيل ، ويسم كأنها نظم من اقحاح ، وطرة كأنها ليل على صباح .
فاذا كان بانسان من مقام النظر ان يسوي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد ان يكون به من مقام النظر ان يسوي بين هذه الالفاظ وهذه . ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام فان هذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب » . ثم قال : « ومن له ادنى بصيرة يعلم أن للالفاظ في الاذن قيمة للذبة كقصة أوتار ، وصوتا منكرا كصوت حمار ، وأن لها في القم ايضا حلوة كحلوة العمل ومرارة كمرارة الخنثال ، وهي على ذلك تجري مجرى اللغات والعلوم » (٤) .

وذكر ان ابن سنان قد تحدث عما يشتمل باللفظة الواحدة من الاوصاف وقسمها عدة القسم — كما مر — وفيما قاله ابن سنان لا حاجة اليه ، لان ناعه المخرج

(١) اللؤلؤ السائر ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) البحر : مايس من القدرة في البحر أي الفبر : أو تاجر كل ذات منسوب من السباع

(٣) الشعر القشط : القصير البعد .

(٤) اللؤلؤ السائر ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٠ .

يشمل معظم اللغة العربية ، وإن جريان القطة على العرف العربي ليس مما يوجب لها حسنا ولا قبحا ، وإنما يندرج في معرفة مستعملها بما ينقله من الالتفات ، وإن تغيير للكلمة مما لا حاجة إلى ذكره لأن المعنى يسوق إليه . أما الأوصاف الأخرى التي ذكرها ابن سنان فقد التزم عليها ابن الأثير بحثه في الالتفات قليل منها ما قبل ورفض ما رفض ، وشرح تلك الأوصاف بما يغني عن كثير من الكتب ، وكانت دراسته من أوسع الدراسات وأصفها ولم يأت بعده من أضاف إليها ، واتجهت الكتب إلى التلخيص والقضاء على الفرقة الأدبية التي اتسمت بها دراسة ابن الأثير .

السكاكي :

وعندما قسم السكاكي (- ٦٢٦هـ) البلاغة إلى علومها لم يعقد للتصاحبة فصلا وإنما تكلم عليها بعد أن انتهى من علم البيان ، وذكر أنها قسمان : -
الأول : راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد .

وشرح تعقيد الكلام وقال : هو أن يعثر صاحبه الفكر في متصرفه ويشبك الطريق إلى المعنى ، كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مُسْلَكاً أبو أمه حسيّ أيوه يقاربه
وكقول أبي تمام :

تلقبه في كيد السماء ولم يكن كائنين لأن إذ هما في المسار
أما غير المقيد فهو أن يفتح صاحبه الفكرة الطريق ويمهده (١) .

الثاني : راجع إلى اللفظ ، وهو :

١ - أن تكون الكلمة عربية أصيلة ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة القضاة من العرب الوثوق بعريتهم أدوّروا واستعملهم لها أكثر ، لا بما أحدثها المولدون ولا بما أخطأت به العامة .

٢ - وأن تكون أجري على قوانين اللغة .

٣ - وأن تكون سليمة من التناثر .

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٦ - ١٩٧ .

وجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة التي حصر مرجعها في المعالي والبيان، ولم يجعل لفصاحة مرجعاً في شيء منهما، وهو في ذلك يتابع عبد القاهر والرازي الذين نظرا إلى النظم ولم يوليا القفط المفرد أهمية كبيرة.
ابن مالك :

واعصر بندر الدين بن مالك (٨٦٨٦) القسم الثالث من «مفتاح العلوم» وتكلم على الفصاحة وأطلق عليها اسم البديع الذي قال عنه وهو معرفة توابيع الفصاحة وعرف الفصاحة بأنها «صوغ الكلام على وجه له توفيق بتمام الألفاظ لمعناه وتبيين المراد منه» (١). وقسمها إلى معنوية ولغوية، وذكر ما في «مفتاح العلوم» من صفاتها، ثم قسم المعنوية إلى مستحصنة بالألفاظ والتبيين ومستحصنة بالتزيين والتحسين. وهذه الأنواع الثلاثة هي علم البديع عند المتأخرين:
القزويني :

وحينما جاء الخطيب القزويني (٨٧٣٩) وجد الطريق ممهداً فأخذ عن علماء البلاغة المتقدمين وربب بحث الألفاظ ترتيباً علمياً خالف فيه السكاكي وبندر الدين، لأنه اتخذها مقدمة للبلاغة، وفي هذه المقدمة التي كانت كشفاً عن معنى الفصاحة والبلاغة والتحصيل علم البلاغة في المعالي والبيان - تكلم على صفات الألفاظ وما ينبغي أن تكون عليه. وكان بحثه إلهاماً باتخاذ الفصاحة مقدمة لعلوم البلاغة بعد أن كانت موضوعاً تشيع فيه الحياة (٢).

بدأ القزويني مقدمته بقوله : «لأن في تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة لم أجد - فيما بلغتني منها - ما يصلح لتعريفهما به - ولا ما يشير إلى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما التكلم، فالأولى أن تقتصر

(١) الصباح ص ٧٥.

(٢) بنظر القزويني وشرح النخعي ص ٢٤٩-٢٨٣.

على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين (١). وهذا غير صحيح ، لان البلاغيين اعتصموا بهما وولعوا لهما حلوفاً وفرقوا بينهما ، وكانت بحوث الجاحظ وقدامة وأبي حلال وعبد القاهر وابن سنان وابن الأثير من أروع ما كتب وأبعد ما عظمه يد بلاغي نافذ ، وما مقدمة القزويني إلا خلاصة هذه الدراسات ، فكيف لم يترك القدماء تعريفاً للقصة أو البلاغة يمكن التوكلن إليه ، ولعله في ذلك متأثر بدعوى عبد القاهر الذي يقول : « لم أزل منذ علمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى القصة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المعنى من هذه العبارات وتفسير المراد بها فأجد بعض ذلك كالرمز والاشارة في غطاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الحقيقة ليعلم موضع الدلن ليجت عنه فيخرج » (٢) ويقول : « انا لم تر القلاء قد رغبوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاماً للاولين ويتدارسوه ، ويحكم به بعضهم بعضاً من غير أن يعرفوا له معنى ويقنوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم أن يسألوا عن بيان له وتفسير ، الا علم القصة فالتك ترى طيفاً من الناس يتداولون فيما بينهم القصة القصة وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً أو يستنبطوا ان يسألوا عنها أن يذكرها لها تفسيراً يصح » (٣).

وهذا صحيح في عهد التأليف الاول وعند عبد القاهر الذي لم يفرق بين المصطلحين ، لانهما عنده يعبر بهما عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نظروا وتكلموا واغبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد وراسوا أن يعلمهم ماني نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (٤) ، اما القزويني فالامر عنده مختلف ، لان مصطلحات البلاغة استقرت في عهده وأصبح للقصة والبلاغة محتوى واضح . والقصة والبلاغة عند القزويني تقع كل واحدة منهما صفة لمعنيين :

الاول : الكلام كما في « قصيدة فصيحة أو بليغة » و « رسالة فصيحة أو بليغة »

(١) الايضاح ص ٢.

(٢) دلائل الامجاز ص ٢٨.

(٣) دلائل الامجاز ص ٣٥.

(٤) دلائل الامجاز ص ٣٥.

أو يخرج له وجه بعيد كما في قول العجاج :

وفاحشاً ومترسناً مُسرجساً

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرجاً » حتى اختلف في تخريجه ، فقبل : هو من قولهم للبيوت « مريجة » منسوبة إلى قين يقال له مريج ، يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السرجي . وقيل من السراج ، يريد أنه في البريق كالسراج ، وهذا يقرب من قولهم : « سرج وجهه » أي : حسن ، و « سرج الله وجهه » أي : بهجه وحسنه .

وهذا بحث أهم به النقاد والبالغيون كابن سنان الذي عاب القئين يكثر من الوحشي الغريب في كلامهم وذكر ما وقع فيه بعضهم فخرج كلامه عن النقصا بعد عن القهم (١) . وكابن الأثير الذي يرى أن الوحشي ليس للمستصح من الالفاظ وإنما هو قسمان : غريب حسن ، وغريب قبيح (٢) .

٢- مخالفة القياس اللغوي : كنول الراجز :

الحمد لله العليّ الأجلّ الوهاب المتفضل الكريم للجنّ والانس
فان القياس « الأجل » ، بالأدغام .

ولم يوضح مخالفة القياس ، وكان ابن سنان قد تكلم عليه ووضحه وأدخل فيه كل ما ينكره أهل اللغة ويردّه علماء النحو من التصرف القاسد في الكلمة (٣) . ووضع القزويني قاعدة لفظة النصيحة فقال : « ثم علامة كون الكلمة نصيحة أن يكون استعمال العرب المثلوق يربطهم لها كثيراً أو أكثر من استعمالها بما يستلزمها » (٤) . وبعد أن انتهى من شروط اللفظة النصيحة تحدث عن فصاحة الكلام وهي :
١- خلوصه من ضعف التأليف : ومثل له بقوله : « ضرب غلاماً زبداء » لأن رجوع الضمير إلى المفعول المتأخر لفظاً يمنع عند الجمهور لتلا يلزم رجوعه إلى ما هو متأخر لفظاً ورتبة ، وقيل يجوز لقول الشاعر :

(١) سر القضاة ص ٧٥ .

(٢) النحل المأرجح ص ٥٧ ، ١٥٥ ، ١٦٣ .

(٣) سر القضاة ص ٨٢-٩١ .

(٤) الأيضاح ص ٤ .

جزى ربه عني عدي بن حاتم - جزاه الكلاب العاويات وقد فعل
٢ - التنافر : وهو أن تكون الالفاظ بسببه متناهية في القل على اللسان متتابعة كما
في البيت الذي انشده الجاحظ :

وليس حسرب بمسكين فسر وليس قسرب فسر حرب فسر
ومنه ما دون ذلك كقول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى
معي وإذا ما لته لته وحدي
وسبب التنافر في « أمدحه » ما بين الحاء والفاء من تنافر لانهما حلقيان ، وتكرار
الكلمة في الشرط والجزاء .

٣ - التعقيد : وهو أن لا يكون ظاهر الدلالة على المراد به وله سببان :
الاول : ما يرجع إلى اللفظ وهو أن يختل الكلام ولا يدري السامع كيف يتوصل
منه إلى معناه كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملوكاً أبو أمه حمي أبوه بنساريسه
ووضع الفرزدقي قاعدة للكلام الخالي من التعقيد اللفظي وقال انه : « عما سلم نظمه
من الخلل قلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو اضممار أو غير
ذلك الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية (١) . وهذا ما تكلم عليه
عبدالقاهر وسماه « التعقيد » أو « فساد النظم » (٢) وادخله ابن سنان في بحث
التقديم والتأخير (٣) ، وعدّه ابن الاثير من المعاطلة المعنوية التي يسببها التقديم
والتأخير (٤) .

ثاني : ما يرجع إلى المعنى وهو أن لا يكون في انتقال الذهن من المعنى الاول
إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به ظاهراً كقول العباس بن الاحنف :
سأطلب بعدد الدار حنكم لتفروا وتسكب عيناى الدموع لتجسدا

(١) الايضاح ص ٦٠ .

(٢) اسرار البلاغة ص ١٦٢ .

(٣) سر الصنعة ص ١٢٥ .

(٤) النكت السائرة ص ٢٩٨ ، ج ٢ ص ٤٤ وما بعدها .

كأن يسكب الدموع عما يوجهه القرائ من الحزن ، وأصاب ، لأن من شأن
البكاء أن يكون كتابة عنه كقولهم : أبكاني وأضحكني ، أي : أسامني وسرني ،
كما قال :

أبكاني الدهر وبا ريسا أضحكني الدهر بما يسرني
ثم طرد ذلك في نقضه فأراد أن يكفى عما يوجهه دوام التلاقي من السرور بالجمود
لأنه أن الجمود يخلو العين من البكاء مطلقاً من غير اعتبار شيء آخر ، وانطناً لأن
الجمود يخلو العين من البكاء في حال إرادة البكاء منها فلا يكون كتابة عن السرور
والما يكون كتابة عن البخل كما قال الشاعر :

ألا أن عينا لم تجب يوم واسط عليك بجاري دمعها لجمود
وضبط القزويني الكلام الخالي من التعقيد وقال عنه : « ما كان الانتقال من معناه
الأول إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهراً حتى يخيل إلى السامع أنه فهمه
من حاقّ النقص » (١) .

وأضاف إلى ذلك خلوص الكلام من كثرة التكرار ، كقول المتنبي :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لما منها عليها شواهد
وخلوه من تتابع الإضافات ، كقول ابن بابك :

حمامة جرعاً حومة الجنك اسجعي قالت بمرأى من سعاد وسميع
وكان الصاحب بن عباد قد أشار إليه بقوله : « بابك والإضافات المتعاقبة فإنها
لا تحسن ، ويرى القزويني أن هذا الشرط لا يؤخذ به دائماً ، لأن ذلك أن أغشى
باللفظ إلى النقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه وإلا فلا تخل بالتصاحبة ،
وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف
ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » . وهذا رأي عبد القاهر الذي قال : « ولكنه إذا
سلم من الاستكراه ملح ولطف » :

وما حسن فيه قول ابن المعتز :

(١) الإيضاح ص ٦٩ .

وظائف تدبير الراح الجدي جاكز عناق ذئاب الوجود مرسلا
وتعا جدي فيه حسا جميلا قول الخالدي يصف غلاما له :

ويعرف الشعر مثل جرد عسي وهو على أن يزيد مجتهد
وعبرني السريخ وزان دينا ر المائي السفاق منشقد (١)
وما يتصل باللفاظ المركبة : لقنوت التي سماها البلاغيون « الحسنات اللفظية »
وهي عظمة الأهمية في دراسة اللفاظ ، وينبغي أن نوضح في بحث القصاحة لأن
هذا نأيرا في الكلام . ولما تابع نظريتي صاحب « مفتاح العلوم » فتحدث عنها في
البدع كان دراستها هذا البدي وأكرر نقا . وقد سبق إلى ذلك علماء البلاغة كابن
الثير الذي قسم الصناعة اللفظية قسمين :

الأول : في اللفظة المفردة .

الثاني : في اللفاظ المركبة ، وهي السجع ، والتصريح ، والتجنيس ، والترصيع
والمعاني ، واللازم ، والوقوف ، والاعتلاف صيغ اللفاظ ، وتكرار الحروف .
هذه دراسة البلاغيين للقصاحة أما النقاد فقد تحدثوا عن دقة اللفاظ وإيجازها
وسهولتها وجزالتها وقنتها وغرابتها وغير ذلك مما نجده في كتب البلاغة والنقد ،
وهو حديث فيه طرافة وجدة يسهم مذكره البلاغيون عن القصاحة وأوصافها .

(١) الأيضاح ص ٨٥ ودلائل الإيجاز ص ٨٢ .

وطبقاً للمعنى المقصود، وصدقاً في نفسه: ومنى اعترم وصف من ذلك وكان ناقصاً في البلاغة.

والثاني: أن يكون بليغاً باعتبار القائل والقول له وهو أن يقصد القائل أمراً فيردّه على وجه حقيق أن يقبله القول له. وفعله تعالى: «وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً» يصح حمله على اللعينين» (١).

وذهب الزمخشري ملعباً نفسياً في تفسيرها، وأشار إلى تأثيرها رمزاً في قوله: «قل لهم قولاً بليغاً مؤثراً في قلوبهم يقتضون به انضماماً ويستشعرون من الخوف استعماراً» (٢).

في الحديث:

وليس في أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يشير إلى هذا المعنى مع كثرة ما جاء من مشقاتها في كلامه (٣). فقد ورد عنه قوله: «أن الله ينفخ البليغ الذي يخلل بلسانه». وجاء عنه أنه حاب فيه للتشاكفين والثرثارين والذي يخلل بلسانه يخلل الباقرة بلساتها (٤).

في التراث:

ولا تكاد نعر على بعثتنا في فترة صدر الاسلام، وحينما جاء العصر الأموي تجد معاوية بن أبي سفيان يسأل صحار بن عياش: «ما هذه البلاغة التي فيكم؟» قال: «شيء نجيب به صلورتنا فقلده على ألسنتنا». وقال له معاوية: «ما تدعون البلاغة فيكم؟» قال: «الايجاز». قال له معاوية: «وما الايجاز؟» قال صحار: «إن نجيب فلا تبطله، ونقول فلا نخفي» (٥).

وفي كتاب «البيان والبيان» تعريقات كثيرة لبلاغة عند العرب وغيرهم، فقد قيل للقارمي: «ما البلاغة؟» قال معرفة الفصل من الوصل: وقيل ليوناني: «ما البلاغة؟»

(١) انقذت في غريب القرآن ص ٦٠.
(٢) الكشف ج ١ ص ٤٠٧.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ج ١ ص ١٥٢.
(٤) البيان والبيان ج ١ ص ١٧١.
(٥) البيان ج ١ ص ٩٦.

قال : حسن الاقتضاب عند البداية ، والقرارة يوم الاطاعة . وقيل للهندي : ما البلاغة ؟
قال : وضوح الدلالة والتهاز للقرصة وحسن الاشارة . وقال بعض أهل الفن :
« جماع البلاغة البصر بالخجة ، والفرقة بمواضع القرصة » (١) .

وقد رواها عمرو بن عبيد (- ١٤٤ هـ) في أول الامر تفسيراً فبينما حين قيل
له ما البلاغة ؟ قال : ما بلغ بك الجنة ، وعدك بك عن النار ، وما يصرك مواقع
رشدك ومواقب غيبك . قال السائل : ليس هذا أريد . قال : من لم يحسن أن
يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال :
ليس هذا أريد . قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن معشر الانبياء
بكاهم أي قلبوا الكلام ، ومنه قيل « رجل يكي » . وكانوا يكرهون أن يزيد معاني
الرجل على عقله . قال السائل : ليس هذا أريد . قال كانوا يخافون من فتنة القول
ومن مقطعات الكلام مالا يخافون من فتنة السكوت ومن مقطعات الصمت . قال
السائل : ليس هذا أريد . قال عمرو : فكأنك تريد تخير اللفظ في حسن الافهام ؟
قال : نعم . قال : انك اذا لوئيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف
اللزومة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالانفاذ المستحسنة
في الأذان ، المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم وتفي الشواغل عن
قلوبهم بالمروعة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد لوئيت فصل الخطاب
واستحققت على الله جزيل الثواب (٢) .

وقال الاصمعي (- ٢١٦ هـ) عن البلخي أنه : « من طوى الفصل واختاك عن
المسور » (٣) :

وقال العياشي (- ٢٢٠ هـ) أن « كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا
« حجة فإظهار ما غرض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق » (٤) :

(١) البيان ج ١ ص ٨٨ .

(٢) البيان ج ١ ص ١١٤ ، وعظميون الانصار ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) البيان ج ١ ص ١٠٦ .

(٤) البيان ج ١ ص ١١٣ .

الجاحظ :

ولم يعرفها الجاحظ (- ٢٥٥هـ) بعد أن ذكر كثيراً من تعريفاتها ، واكتفى بأن اختار قولاً أعجبه . يقول : « وقال بعضهم - وهو من أحسن ما قيلت فيه ودوناه - لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك » (١) .

وليس في هذا التعريف ما يشير إلى المعنى الاصطلاحي الذي حددته البلاغيون والباحثون في كل ما ذكر لا يفسح بين الفصاحة والبلاغة حتماً ، فكثيراً ما كان مرادفيتين ، وهما عند البيان بمعناه الواسع قبل أن يتبدل للأعزود .

البرد :

والبرد (- ٢٨٥هـ) رسالة صغيرة سماها « البلاغة » أجاب فيها عن رسالة ابن الواثق الذي سأله : « أي البلاغتين أبلغ ؟ » بلاغة الشعر أم بلاغة الخطيب والكلام للشعر والسجع وأيهما عندك - أعزك الله - أبلغ ؟ » .

وأجاب البرد : « إن حتى البلاغة أحاطة القول بالمعنى واعتبار الكلام وحسن النظر حتى تكون الكلمة مقاربة اختها ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها الهميد ، ويخلف منها الفضول » (٢) .

ومصطلح « البلاغة » في هذه الرسالة لا يعني العلم المعروف ، وإنما هو تحريك لبعض معانيها . وإذا لم نجد فيها ما نطمح إليه فإنا نستطيع القول أن البرد أول من أطلق « البلاغة » على بعض رسائله .

العسكري :

ويظهر مصطلح « البلاغة » بوضوح في « كتاب الصناعين » لأبي حلال العسكري (- ٣٩٥هـ) الذي قال : « إن أحق العلول بالتعلم ولولادها بالتحفظ بعد المعرفة بالله - جل ثناؤه - علم البلاغة ومعرفة الفصاحة » (٣) وقال : « البلاغة من لولهم

(١) البيان ج ١ ص ١١٥ .

(٢) البلاغة ص ٥٩ .

(٣) كتاب الصناعين ص ١ .

بلغت المكان ، اذا انتهت اليها وبلغتها غيري ، وبلغ الشيء متناه والبالغة في الشيء :-
 الانتهاء الى غاية ، فسميت البلاغة ، بلاغة ، لانها تنهي المعنى الى قلب السامع ،
 فيلهمه . وسميت البلاغة بلغة لانك تبلغ بها فتتبي بك الى ما فوقها وهي البلاغ
 ايضا (١) وأبدى رأيه في تعريفها ، وحدها بقوله : «البلاغة : كل ما تبلغ
 به قلب السامع فتسكنه في نفسه كتسكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض
 حسن » (٢) .

والبلاغة - عنه - من صفة الكلام لا من صفة التكلم ، ولذلك لا يجوز
 ان يسمى الله بليغاً ، إذ لا يجوز ان يوصف بصفة موضوعها الكلام . وتسمية التكلم
 بانه بليغ توسع وحقيقته ان كلامه بليغ كما نقول : «رجل محكم» ونعني
 ان اقواله محكمة . قال تعالى وحكمة «بالغة» (٣) فجعل البلاغة من صفة المحكمة
 ولم يجعلها من صفة الحكميم ، الا ان كثرة الاستعمال جعلت تسمية التكلم بانه
 بليغ كالحقيقة .

وفي كتاب الصائتين ربيان :

الأول : أن «القصاحة والبلاغة ترجمان الى معنى واحد وان اختلف اصلاهما ،
 لان كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى والاظهار له .

والثاني : ان القصاحة والبلاغة مختلفتان ، ذلك ان القصاحة تمام آلة البيان فهي
 مقصورة على اللفظ لان الالة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة انما هي
 انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى (٤) .

ابن سنان :

وحول ابن سنان المتفاجي (- ٤٦٦هـ) ان يحذف البلاغة ويرسم معانيها غير
 انه لم يأت بالكلمة الفاصلة والتعريف الجامع للمانع : ولم يك وحده الذي فعل ذلك

(١) كتاب الصائتين ص ٦

(٢) كتاب الصائتين ص ١٠

(٣) القمر ٥

(٤) كتاب الصائتين ص ٧

فقد سرت بالبلاغة ثمرات كثيرة نقلها الجاحظ في البيان والبيان ، وأبو هلال في كتاب الصنائع ، ، ولذلك أشار إلى اضطراب القوم في حدّها والوقوف على كتبها وقال : « وقد حدّ الثامن البلاغة بحدود إذا حققت كانت كالرسوم والعلامات وليست بالحدود الصحيحة . فمن ذلك قول بعضهم دلحة دالة ، وهذا وصف من صفاتها فأما أن يكون حاصراً لها وحدّاً يحيط فليس ذلك بممكن للدخول الإشارة من غير كلام يلفظ به تحت هذا الحد » (١) .

ولم يعرف البلاغة ، وإنما فرق بينها وبين الفصاحة وقال : « والفرق بين الفصاحة والبلاغة ، أن الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للالفاظ مع المعاني : لا يقال في كلمة واحدة لا تتدل على معنى بفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام يبلغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغ » (٢) . لقد وضع ابن سنان حدّاً فاصلاً بين المصطلحين ، وحصر الفصاحة في الالفاظ والبلاغة في المعاني والالفاظ ، وأصبحت الفصاحة شرطاً للبلاغة وأحد جزئيهما . وهذه القفانة حسنة ، ولكنه أطلق والفصاحة على موضوعات البلاغة وسمى كتابه سر الفصاحة ومعنى ذلك أنها تشمل الالفاظ والمعاني . وقد أوضح ذلك بقوله : « هو في البلاغة اقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو وإذا كانت الفصاحة شرطاً وأحد جزئيهما فكلامه على المقصود - وهو الفصاحة - غير متميز إلا في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره ، فأما ما سوى ذلك فعام لا يختص ، وعليل لا ينقسم » (٣) :

وابن سنان حينما ينتقل إلى تأليف الكلام يظل مرتبطاً بالحديث عن الالفاظ ، لأن البلاغة أن توضع الالفاظ موضعها حقيقة أو مجازاً ، تقديم أو تأخيراً ، قلباً أو حشواً ، وغير ذلك مما فصل القول فيه :

(١) سر الفصاحة ص ١٠

(٢) سر الفصاحة ص ١٠

(٣) سر الفصاحة ص ١١

عبد القاهر :

ولم يفرق عبد القاهر (٨٤٧١هـ) أو (٨٤٧٤هـ) بين المصطلحين ، لانهما يعبر بهما عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث لفظوا أو تكلموا واعتبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في قلوبهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (١) .

والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان تأتي مترادفة عنده ، ومعنى ذلك أن الحدود بينها لم تتضح ، وأن هذه المصطلحات لم تستقل وتأخذ معناها الدقيق .

الرازي :

ولم تأخذ لفظة البلاغة دلالتها المعروفة عند فخر الدين الرازي (٨٦٠٦هـ) وهي عنده : «بلغ الرجل بعبارة كنه ما في قلبه مع الاختراز عن الإيجاز للخل والاطالة للملأ» (٢) ولكنه ربط الفصاحة والبلاغة بالمعنى ، ونحنا منحى عبد القاهر في فهمها .

ابن الأثير :

وقال ابن الأثير (٨٦٣٧هـ) أن الكلام يسمى بليفاً لانه يبلغ الاوصاف الحقيقية والمعنوية ، والبلاغة شاملة للتقاط والمعاني وهي أخص من الفصاحة كالإنسان من الحيوان وليس كل حيوان البصا ، وكذلك يقال : « كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغ » وفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهي انها لا تكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة المفردة لا تنتم بالبلاغة وتنتم بالفصاحة اذ يوجد فيها الموصف المخصص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم كلاماً (٣) .

السكاكي :

وحينما قسم السكاكي (٦٢٦هـ) البلاغة ووضع معالمها في كتابه « مفتاح العلوم » عرفها تعريفاً دقيقاً وقال : « هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص

(١) دلائل الإيجاز ص ٢٥ .

(٢) نهاية الإيجاز ص ٩ .

(٣) لليل السراج ١ ص ٦٩ .

بحرفية خواص التراكيب حفاها ، وإيراد التشبيه والمجاز والكتابة على وجهها (١) :
وهذا التعريف أدغل مباحث علم المعاني وعلم البيان ، وأخرج مباحث البيان
لأنه وجوه يأتى بها تحسين الكلام وهي ليست من مرجعي البلاغة .

وللبلاغة طرفان : أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يترامى لأحد لاراهما وبينهما
مراتب متفاوتة تكاد تقوت الحصر ، فمن الأسفل تبتدىء البلاغة ، وهو القدر
الذي إذا نقص منه شيء انحل ذلك الكلام بأصوات الحيوانات ثم تأخذ في التزايد
متصاعدة إلى أن تبلغ حد الاصحار ، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه .

ولم يعرف الفصاحة واكتفى بتقسيمها إلى قسمين : قسم راجع إلى المعنى ،
وقسم راجع إلى اللفظ ، ولم يجعلها لازمة للبلاغة التي وحصر مرجعها في المعاني
والبيان . وقد أشار القزويني إلى ذلك بقوله : « وجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة ،
وحصر مرجع البلاغة في القتين ، ولم يجعل الفصاحة مرجعاً لشيء منهما » (٢)
وقال الشاذلي : « لم يجعل البلاغة مستلزماً للفصاحة ، وحصر مرجعها في
المعاني والبيان دون اللغة والصرف والنحو » (٣) ، ورأى أن مرجعها إلى هذه العلوم
جميعاً لا إلى مجرد المعاني والبيان .

ولكن السكاكي - مع ذلك كله - رأى أن البلاغة يبرمجها والفصاحة بتوجيهها
« مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين » (٤) ، ولذلك
نراه حينما حلل بعض الآيات القرآنية اخذ من مرجعي البلاغة ومن الفصاحة مقياساً
لإظهار ما فيها من صور بيانية ، ومن روعة وتأثير في النفوس .

القزويني :

وكان الخطيب القزويني (٨٧٣٩ -) آخر من وقف عند البلاغة من المتأخرين
وميز بين بلاغة الكلام وبلاغة للكلم فقال عن الأول : « أما بلاغة الكلام فهي
مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته ، ومقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٦ .

(٢) الألبان ص ٢١٠ .

(٣) اللؤلؤ ص ٣ .

(٤) مفتاح العلوم ص ٢٠٠ .

"مبنية" ، ، فمقام التشكيك يبين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يبين مقام التقييد ، ومقام التقديم يبين مقام التأخير ، ومقام الذكر يبين مقام الحذف ومقام التقصير يبين مقام خلافة ، ومقام الفصل يبين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يبين مقام الاستطاب والمساواة ، وكذا خطاب الذكي يبين خطاب الغبي ، وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام . وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه عبد القاهر بالتنظيم (١) .

وقال عن الكلية : هو لما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ (٢) .

وقرر أن كل بليغ - كلاماً كان أم متكلماً - فصيح ، وليس كل فصيح - بليغاً ، وأن البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الكلام التصحيح من غيره .

ولسم البلاغة إلى ثلاثة أقسام ، فكان ما يمتاز به من الخطأ علم المعالي ، وما يمتاز به من التقييد للعنوي علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته علم البديع . فالبلاغة - عنده - ثلاثة :

١. علم المعالي

٢. علم البيان

٣. علم البديع

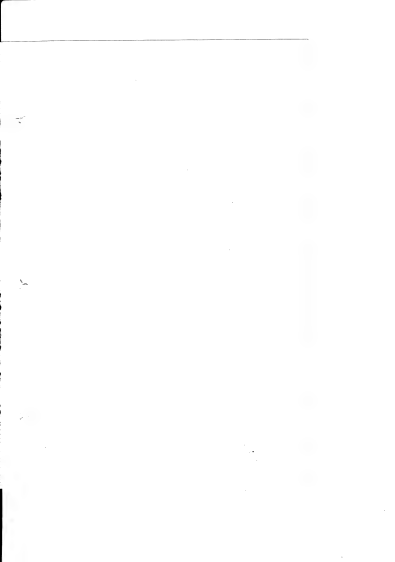
ولم يخرج البلاغيون المتأخرون عن هذا التعريف والتقسيم ، وأصبح مصطلح البلاغة يضم هذه العلوم الثلاثة .

(١) الإيضاح ص ٩ ، والتلخيص ص ٣٣ . ٢٢ .

(٢) الإيضاح ص ١١ .

الباب الثاني

علم المعاني



الفصل الأول

المعاني

علم المعاني من المصطلحات التي اطلقها البلاغيون على مباحث بلاغية تتصل بالجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير ، أو ذكر وحذف ، أو تعريف وتنكير ، أو قصر ، أو فصل ووصل ، أو إيجاز وإطناب ومسواة .

وليس في كتب البلاغة الأولى إشارة الى هذا العلم ، ولا تعرف احداً استعماله وسمى به قسماً من موضوعات البلاغة قبل السكاكي (١٠٢٦هـ) . وكان الأوائل يستعملون مصطلح «المعاني» في دراساتهم القرآنية والشعرية ، فيقولون : «معاني القرآن» أو «معاني الشعر» ، ويختلون من ذلك أسماء لكتبهم ، وليس في هذه المصطلحات ما يتصل بالبلاغة أو أحد علومها .

ولعل عبارة «معاني النحو» والتي وردت في المناظرة التي جرت بين الحسن بن عبد الله بن الرزبان المعروف بأبي سعيد السيرافي (١٠٣٨هـ) والتي يشرى بن يونس في مجلس الوزير أبي الفتح بن جعفر بن القرات كانت من أقدم الإشارات الى هذا المصطلح بمعناه القريب من البلاغة . قال السيرافي : «معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ ومكاناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المنقضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك ، وإن زاح شيء عن هذا التمت فانه لا يغلو من أن يكون سائفاً بالاستعمال النادر والتأويل الجيد أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم البخارية على فطرتهم » (١) .

وعقد أحمد بن فارس (١٠٢٥هـ) في كتابه «الصحاح» باباً سماه «معاني الكلام» (٢) وهي عند أهل العلم عشرة : خبر واستخيار ، وأمر ونهي ، ودعاء ومطلب ، وعرض وتحضيض ، وتغن وتعجب : وبذلك يكون ابن فارس أول من أطلق مصطلح «معاني الكلام» على مباحث الخبر والافتاء التي أصبحت فيما بعد أهم فصول علم المعاني .

(١) الانتاع والثالثة ج ١ ص ١٢١ ، وسيم الادب ج ٣ ص ١١٧ .

(٢) الصحاح ص ١٢٩ وما بعدها .

المبحث الأول نظرية النظم

وكان لنظرية النظم اثر كبير في ظهور هذا اللون من الدراسات ، وللتحاة العرب يد طويل في دراسة الكلام وتحليله والوقوف عند الجملة وما بطراً عليها من تدرج وتأخير ، أو ذكر وحذف . ولعل سيويه (- ١٨٠هـ) كان من القدم الذين وقفوا عند هذه الجوانب ودرسها بعض في فصول كتابه الشهير وأبو به ، ولكن سيويه والتحاة لم يسموا هذه البحوث نظماً وإنما هي قواعد تدير عليها العرب في كلامها أو انشائها . ولا نستطيع ان نسب اليهم بعد ذلك نظرية النظم التي حاول بعض المعاصرين أن يربطها ببلاء التحاة ربعا وثيقاً ليجرد البلاغيين الأصالة والتجديد ، مع إيماننا بأن الموضوعات التي بنيت عليها هذه الفكرة كانت تحوية محضة ، وقد استفاد منها البلاغيون وطوروها وصوروها احسن تصوير .

وإذا اردنا ان نلمس فكرة النظم فينبغي ان نلتمسها في كتب اخرى بعد ان رأينا ارتباطها بكتب النحو . واقدم اشارة حثرتا عليها في الكتب العربية عبارة ابن القنق (- ١٤٤٣هـ) التي اشار فيها الى صياغة الكلام . قال : وفاذا خرج الثامن من أن يكون لهم عمل وأن يقولوا قولاً بديعاً ، فليعلم الواصفون الخبرون ان احدهم وان احسن والمبلغ ليس زائلاً على ان يكون كصاحب قصص وجد بالقولاً ووزير جناً ومرجلاً فنظمه ثلاثه وسموهاً واكاليلاً ووضع كل قصص موضعها وجمع الى كل لون شبه مما يزيد به ذلك حسناً فسمي بذلك صائفاً رقيقاً ، وكصاغة الذهب والفضة صنعوا فيها ما يوجب الثامن من الحلى والآلية ، وكان التحل وجدت ثمرات اخرجها الله طيبة وسلكت سبلاً جعلها الله ذللاً فعصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً اليها مذكوراً به امرها وصنعها : فمن جري على لسانه كلام يستحسن او يستحسن منه فلا يعجب به اعجاب الخرج للبتنع ، فانه انما اجتياه كما وصلنا (١) ،

(١) الادب الصغير - آثار ابن القنق من ٣١٩ ، رسائل البلاء من ١ - ٥

وانط البلاغيون هذا الكلام واداروه في كتاباتهم من غير أن يشيروا إلى ابن القلق : فقال الجاحظ (- ٢٥٥هـ) : « فلما الشعر صناعة وشرب من النسخ وجنس من التصوير » (١). وتحدث عن النظم في كتبه وسمى أحدها «نظم القرآن» ، قال : « كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه » (٢). وقال : « وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق : نظمته البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ماسوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به » (٣) : والجاحظ في هذين النصين وغيرهما يؤمن بأن القرآن الكريم معجز بنظمه وبنافيه من بلاغة تأسر القلوب .

وكان لمسألة إعجاز القرآن أثر في بلورة فكرة النظم ، وقد ذهب قوم من المتكلمين إلى أن وجه الإعجاز هو ما تشتمل عليه القرآن من النظم الغريب المخالف للنظم العرب ونثرهم في مقالته ومقاطعته وفرواصله . وذهبت جماعة منهم إلى أن وجه الإعجاز في مجموع الأمرين : النظم ، وكونه في أعلى درجات البلاغة .

ولأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (- ٣٠٦هـ) كتاب في إعجاز القرآن سماه « إعجاز القرآن في نظمته وتأليفه » ، ولا تعرف عنه شيئا مع أن عبد القاهر الجرجاني شرحه مرتين ، لأن الأصل وشرحيه لم تصل وإن كان العنوان يدل على أنه عالج مسألة النظم وأقام عليها إعجاز كتاب الله .

وفي كتب الإعجاز التي وصلت حديث عن النظم ، ولكنه لا يجلو الصورة ولا يوضح الهدف ، وإنما هو ومضات في الطريق سار عليها البلاغيون ، فابو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (- ٣٨٨هـ) يرى أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح اللفاظ في أحسن نظوم التأليف ففهمنا أصبح الداعي ، ويقول إن « صمود هذه البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من اللفاظ

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٢٢ .

(٢) الحيوان ج ١ ص ٩ .

(٣) الحيوان ج ٤ ص ٩٠ .

التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه اما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، واما ذهاب الرواق الذي يكون معه سقوط البلاغة (١). ويرى ابو الحسن علي بن عيسى الرمائي (٢٨٦هـ) ان اعلی مرتبة في حسن البيان ما جمع اسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتنقيه النفس قليل الورد (٣). ويرى أبو بكر محمد بن الطيب البافلي (٤٠٣هـ) أن كتاب الله معجز بالنظم ، لانه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، يقول : «فاما شأؤ نظم القرآن فليس له مثال يُحتذى عليه ولا امام يُقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله كما يتفق الشاعر البيت النادر ، والكلمة الشاردة ، والمعنى القدر الغريب ، والشئ القليل العجيب (٣)» ويقول : «ليس الاصحاح في نفس الحروف وانما هو في نظمها واحكام رصفها ، وكونها على وزن ما أتى به الذي - صل الله عليه وسلم - وليس نظمها أكثر من وجودها منقمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود ، وليس لها نظم سواها (٤)». ويقول عن القرآن : «وهو معجزة الرسول - عليه السلام - دال على نبوته من ثلاثة أوجه : أحدها ما فيه من عجب النظم وينبع الرصف ، والله لا قدرة لاحد من المخلوق على تأليف مثله ولا تأليف صورة منه أو آية بقدر سورة (٥)».

وكان كلام القاضي عبد الجبار الاسدي (٤١٥هـ) أكثر وضوحاً حينما رأى أن القصاحة والبلاغة تقومان على ضم الكلمات وتطابقها ، قال : «اعلم أن القصاحة لا تظهر في أفراد الكلام بالقسمة على طريقة خصوصية ، ولا بد مع القسم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالواضحة التي

(١) بيان اعجاز القرآن - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٢٦.

(٢) التكت في اعجاز القرآن - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٩٨.

(٣) اعجاز القرآن ص ١٦٩.

(٤) كتاب التمهيد ص ١٥١.

(٥) تكت الانتصار نقل القرآن ص ٥٩.

تتاول النغم ، وقد تكون بالإحراب الذي له مدخل فيه ، وقد تكون بالوقع . وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها ، ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صلة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها . فمثل هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية القصاصة بهذه الوجوه دون غيرها .

فإن قال : فقد قلنا إن في جملة ما يدخل في القصاصة حسن المعنى ، فهذا اعتبر نحوه ؟ قيل له : إن المعاني وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها الزيادة ، ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق . هل أن نعلم أن المعاني لا يتبع فيها تزايد فاذن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عنده اللفاظ التي يعبر بها عنها . فإذا صححت هذه الجملة فالذي تظهر به الزيادة ليس إلا الأبدال - الاختيار - الذي يختص الكلمات أو التقديم والتأخر الذي يختص الموضع أو الحركات التي تختص الإحراب ، فبذلك تقع المباشرة . ولابد في الكلامين الذين أحدهما أفصح من الآخر أن يكون إنما زاد عليه بكل ذلك أو يعضه ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره ، وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها . وكذلك القول في جملة من الكلام . ثم قال : وهذا بين أن المعبر في الزيادة ليس بنية اللفظة ، وإن المعبر فيه ما ذكرناه من الوجوه . فلما حسن النغم وعدوية القول فلما يزيد الكلام حسناً على السمع لأنه يوجد فضلاً في القصاصة (١) .

فذلك ما كانت عليه نظرية النظم قبل القرن الخامس للهجرة ، وليس في أحوال المباحث ومن جاء بعده فكرة والصفة عنها إلا ما كان من كلام للقاضي عبد الجبار الذي ربط القصاصة بالنظم وبني عليه رأيه في اعتبار القرآن .

(١) للمصنف ج ١ ص ١٩٩ وما بعدها .

تطور النظرية :

لقد وضحت هذه النظرية وبلفت مداها على يد عبدالقاهر الجرجاني (١٧١هـ - ٨٧٤هـ) الذي أمثال الكلام عليها ، وسمى موضوعات التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتقصير ، والفصل والوصل ، والتعريف والتكثير : معاني النحو أو النظم .
والنظم - عنده - تعليق للكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض (١) ،
أو هو نوعي معاني النحو . وقد حصر موضوعاته بقوله : « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف متابعه التي تهتج فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ، وذلك أن لا تعلم شيئاً يتغيه النظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : « زيد منطلق » و « زيد ينطلق » و « زيد زبد » و « منطلق زبد » و « زيد المنطلق » و « المنطلق زبد » و « زيد هو المنطلق » و « زيد هو منطلق » .

وفي القسوط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : « إن تخرج أخرج » ،
و « إن خرجت خرجت » ، و « إن تخرج فأنا خارج » ، و « أنا خارج إن خرجت » ،
و « أنا إن خرجت خارج » .

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك : « جامدي زيد مسرعاً » و « جامدي يسرع » و « جامدي وهو مسرع » أو « هو يسرع » و « جامدي قد أسرع » و « جامدي وقد أسرع » ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويحيى به حيث ينبغي له .

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى ، فيضع كلاماً من ذلك في عاصم معناه نحو أن يجيء : « ما » في نفي الحال ،
و « لا » إذا أراد نفي الاستقبال ، و « إن » فيما يرجع بين أن يكون وأن لا يكون ،
و « وإذا » فيما علم أنه كائن .

(١) دلائل الإعجاز ص (ص) .

وينظر في الجمل التي ارد ف يعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو ، من موضع القاء موضع القاء ، من موضع «ثم» ، وموضع «أو» ، من موضع «أم» ، وموضع «لكن» من موضع «بل» .
ويتصرف في التعريف والتكبير ، والتقديم والتأخير في الكلام كله ، وفي الحذف والتكرار ، والاضمار والاعظهار ، فيضع كلاما من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له .

هذا هو السبيل ، فليست يراعى شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وعطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويتصل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له . فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمنزلة وقيل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وتلك الفساد وتلك الترتيب وذلك الفصل إلى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يتصل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه . (١)

فمعاني النحو أو النظم تشمل : الخبر ، وأركان الجملة وما يتعلق بالسند والسند فيه من شرط وحال ، وتشمل النظم والوصل ومعرفة مواضعهما ومعاني الواو والقاء و ثم وبل ولكن ، وتشمل التعريف والتكبير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار والاضمار والإظهار والفرق بين هذه الأساليب ليس فرقا في الحركات وما يطرا على الكلمات ، وإنما في معاني العبارات التي يحدتها ذلك الوضع والنظم الدقيق ، ولذلك فليست العدة في معرفة قواعد النحو وحدها ولكن فيما تؤدي إليه هذه القواعد والاصول . وقد يكون أحدا لا يعرف التسميات الدقيقة لموضوعات النحو ، ولكنه يعرف القروى بينها ويحس بمعانيها حينئذ يسميها ، شانه في ذلك شأن البدوي الذي عاش بعيدا عن المصطلحات وما يعني به كتب النحو ، غير أنه كان يفهم ما يسمع ويميز بين أسلوب وآخر .

(١) دلائل الإسماعيل من ٦٤ - ٦٥ .

ولست المزية بالغة ومعرفتها ، لان ذلك لا يؤدي إلى التفات بين الكلام ، ولا من أجل العلم بأنفس الترويق والوجوه فنستند إلى اللغة ، ولكن العلم بمواضعها وما ينبغي أن يصنع فيها . وليست بسلامة الحروف ، وإنما بالنظم الذي يعطي للكلمات والإعراب معنى دقيقا .

والنظم مراتب ، فمنه ما لا ترى الزينة فيه الا بعد قراءة القطعة الشعرية كقول البحري :

بلولنا ضرائب من قد نرى فما إن رأينا القبح غريبا
هو السر أبعد له الخادلا ثُ عزماً وشكاً ورأياً صليبا
تفضل في خلقتي مسؤدد سماحا مرجسي ولباً ميبيا
فكالسيف إن جنته صارحاً وكالبحر إن جنته مشيا
ففي هذه الأبيات تلاشت الصور وضُم بعضها إلى بعض .

ومنه ما يهجم الحسن عليك منه دفعة واحدة حتى يعرف من البيت الواحد مكان الشاعر من القفل وموضعه من الخلق ، ويشهد له بالفضل حتى يعلم أن البيت من قبل شاعر فحل وأنه خرج من تحت يد صناع .

ومن النظم ما يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع ، وذلك أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشد ارتباطاً ثانياً منها بأول ، وأن يحتاج في الجملة إلى أن توضع في النفس وضماً واحداً أو أن يكون الخلال فيها حال الباني يضع يمينه على حال ما يضع يساره هناك . ومنه ما لا يحتاج إلى فكر وروية لكي ينظم ، بل سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرها في سلك لا ينبغي أكثر من أن يمنحها التفرق ولكن نفد أشباه بعضها إلى بعض لا يريد في نفد ذلك أن نجسم له منه هيئة أو صورة بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين ، وذلك إذا كان المعنى لا يحتاج أن يصنع فيه شيء غير عطف لفظ على مثله . ولا بد أن يتغير المعنى إذا تغير النظم ، وفي ذلك مجال رحب يعول فيه المشؤون (١) .

(١) للتصديق في نظرية النظم يرجع الفصل الثاني من كتاب «جد القاصر البحراني» - بلاتة وقلند» من ٢٩ - ٨٧ .

لقد وضح عبد القاهر أصول « علم المعاني » في كتابه « دلائل الإعجاز » وسمّاها « النظم » أو « معاني النحو » . وليست معاني النحو الا علم المعاني الذي عرفه السكاكي بقوله : « هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره » (١) .

جمود النظرية :

كان للسكاكي (- ٥٦٢٦) أول من أطلق مصطلح « علم المعاني » على الموضوعات التي سماها عبد القاهر النظم أو معاني النحو . ومع أنه لم يطلق ذلك على بعض مباحث البلاغة أحد غيره الا أن الباحث ليحار حينما يجد مصطلحي « المعاني » و « البيان » قبله . فالرحماني (- ٥٥٣٨) يشير إليها في الكشف ويقول وهو يتحدث عن التفسير : « ولا يخصص على شيء من تلك الحقائق الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وعما : علم المعاني وعلم البيان » (٢) . وكلامه غير واضح ، لانه كثيراً ما يردد هذين المصطلحين وكثيراً ما يطلق مصطلح « البيان » على البلاغة كلها ، يضاف إلى ذلك أنه لم يضع حدّاً بين موضوعات المعاني والبيان . وعلة ذلك أنه لم يكن يبحث في البلاغة حينما ألف « الكشف » وانما كان يفسر القرآن الكريم ويوضح مآله من معاني رفيعة ومن روعة وجمال وتأثير في النفوس . وكان يستخدم مصطلحات البلاغة برفقته في الوصول إلى هذه الغاية ، ولذلك توزعت في الكتاب ولم يجمعها جامع أو يحددها منهج واضح وفرادى . أحياناً يسمي البلاغة « بديعاً » ففي تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما رآهحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (٣) يقول : « هذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز التلوذ العليا ، وهي أن تساق كلمة مناسق المجاز » (٤) .

(١) منتخب العلوم ص ٧٧ .

(٢) الكشف ج ١ ص (٤) .

(٣) البقرة ١٦ .

(٤) الكشف ج ١ ص ٥٢ .

ويختلف أحياناً ماعارف عليه البلاغيون فيجعل الالفاظ من البيان ويقول في العلول من لفظ الثانية إلى لفظ الخطاب : « قلت : هذا يسمى الالفاظ في علم البيان » (١) . وذكر الدكتور شوقي خيف أن الرغشري أول من ميز بين المصطلحين وقسم البلاغة إلى معاني وبيان ، وأن السكاكي تأثر به في هذا التقسيم (٢) ، ولكن ماذكرناه ومايقسمه تفسير للكشاف لا يؤيد هذا القول ، وإن كانت عبارة الرغشري توحى بذلك قبل البحث والتدقيق .

وذكر فخر الدين الرزازي (٨٦٠٦) مصطلحي « علم البيان » و « علم المعاني » ولكنه لم يعرفهما أو يوضحهما ولم يحدد موضوعاتهما . يقول وهو يتحدث عن الخبر : « ولكن الخبر هو الذي يتصور بالصور الكثيرة ، وتظهر فيه الدقائق العجيبة والاسرار الغريبة من علم المعاني والبيان » (٣) . وعبرة « من علم المعاني والبيان » غامضة لا يفهم منها إلا معنى عام هو البلاغة ، أما معانيهما التي حصرتها السكاكي فلم يشر إليها ، وهو في ذلك يتابع الرغشري الذي ذكر المصطلحين من غير أن يعرفهما أو يفصل بينهما .

ويكرر السكاكي بعض العبارات مثل « صناعة علم المعاني » و « علماء علم المعاني » و « أذهان الراعية من علماء المعاني » و « آفة علم المعاني » (٤) ، ولكنه لم يحدد معانيها أو يذكر علماء علم المعاني وآفته . ولم نعر في تاريخ البلاغة على علماء اختصوا بهذا العلم وبحرفا فيه كما فعل السكاكي في « مفتاح العلوم » إلا ما نلاحظه من وقوف عبد القاهر الجرجاني على « معاني النحو » في كتابه « دلائل الإعجاز » و « البيان » في كتابه « أسرار البلاغة » ولكن هذا الوقوف لا يعني أنه ميز بينهما ، لأن موضوعات البلاغة ظلت تختلط في الكتابين ، وإن كان الأول أقرب إلى علم المعاني والثاني أقرب إلى علم البيان :

(١) الكشاف ج ١ ص ١١ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٢١ ١٢٧٠ ٢٨٨ .

(٣) نهاية الإيجاز ص ٣٦ .

(٤) مفتاح العلوم ص ٤٨١ ٤٩٥ ٤٩٦ ٥٢١ .

ولأننا لم نستطع أن نبيِّن مفهوم اللغائي قبل السكاسي مع ما جاء في «الكشاف»
 و«نهاية الإيجاز» نقرر أنه أول من قسم البلاغة إلى معانٍ وبيانٍ ومحسناتٍ، وحدّدَ
 موضوعاتها وأرأسى قواعدها، وأنه أول من أطلق على الموضوعات المتعلقة بالنظم
 مصطلح «علم اللغائي» وعلى الموضوعات التي تبحث في الصورة والخيال - التشبيه
 والمجاز والكتابة - مصطلح «علم البيان»، وأنه أول من سمّى غير هذه البحوث
 محسنات أو وجودها مخصوصة بصر إليها لتقصد تحسين الكلام، وقسمها إلى ما يختص
 بالمتن وما يتعلق بالقلم. ولم يُسمها بلغة، وكان بدر الدين بن مالك (٦٨٦هـ)
 صاحب «النصائح» هو الذي أطلق عليها هذا المصطلح وتابعه الخطيب التبريزي
 والمتأخرون.

وكان للسكاسي منهج في بحث موضوعات «علم اللغائي» اختلف عن كل ما
 ألفناه في كتب البلاغة الأولى، وقد قرر - كما قرر غيره - أن كلام العرب قسمان:
 الخبر والطلب، ولذلك قسم اللغائي إلى قانونين...

الأول : يتعلق بالخبر:

والثاني : يتصل بالطلب:

وقسم القانون الأول إلى أربعة فصول:

الأول : في تفصيل اعتبارات الاستدلال الخيري، تكلم فيه على أنواع الخبر واغراضه
 ومؤكده ومخرجه على مقتضى الظاهر.

الثاني : في تفصيل اعتبارات الاستدلال البه، تكلم فيه على حذفه وذكره، وتبريده
 وتكثيره، والاضمار، وكونه معرفة سواء أكان موصولا أم اسم إشارة أم معرفة
 بالالف واللام أم بالإضافة. وتحدث عن ثبوت اللغز، وتأكيده للاستدلال، وبيان
 وتفسيره، وبذلك، والحالة التي تقتضي الحذف والتفصيل وتكثيره، وتقليده على الاستدلال
 وتأخير، وقصره، ومخرجه على مقتضى الظاهر، والالفاظ.

الثالث : في تفصيل اعتبارات الاستدلال، تكلم فيه على حذفه وذكره، وإفراجه،
 وكونه فعلا، وتقليده وترك تقليده، وكونه متكررا، ثم تحدث عن تخصيصه وتركه.

وكونه اسماً معروفاً، وكونه جملة فعلية واسمية وظرفية، وتكلم على تقديمه وتأخير.
وعقد في هذا الفن فصلاً تحدث فيه عن الفعل، وتركه والياته، وترك مفعوله
والياته، واخصار الفاعل واظهاره. وتحدث عن اعتبار التقديم والتأخير مع الفعل،
والحالات للقطعية لتقييد الفعل بالشرط.

الرابع : في التفصيل اعتبارات الفصل والوصل، والابتداء والاطلاق، والتعريف
وقسم القانون الثاني إلى خمسة فصول هي: المعنى، والاستفهام، والأمر، والتمني،
والنداء.

ويعد أن أكل بحث الخبر والطلب تحدث عن استعمال الخبر. موضع الطلب
واستعمال الطلب موضع الخبر، وذكر أسلوب الحكم في خاتمة البحث (١).

(١) ينظر البلاغة عند السكاكي ص ١٤٠ وما بعدها.

البحث الثاني للسد المنهج

لقد بحث السكاكي وعلم المعاني بهذا المنهج وقسمه هذا التقسيم ، ويوه هذا التريب الذي تصفح فيه الترتبة المنطقية . ويلاحظ أنه قدّم البحث في الخير مع أن كثيراً من الموضوعات التي تحدث عنها فيه لائنخص الخير وحده وإنما هي مشتركة بينه وبين الطلب . وقد حلل سعد الدين التفتازاني (٥٧٩٢هـ) ذلك بقوله : « وإنما اجتبا بأبحاث الخير لكونه أعظم شأنًا وأهم فائدة ، لأنه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة وفيه تقع الصيغيات المعجبية ، وبه تقع غالباً - المزايا التي بها التفاضل ، ولكونه أصلاً في الكلام ، لأن الإنشاء إنما يحصل منه بإشتقاق كالأمر والنهي ، أو نقل ك«يس» و«نعم» و«بعث» و«اشترت» ، أو زيادة أدلة كالاستفهام والتسبيح وما أشبه ذلك .

ثم قدّم بحث أحوال الاسناد على أحوال المسند إليه والمستند مع أن النسبة متأخرة عن الطرفين ، لأن علم المعاني يبحث عن أحوال فقط الموصوف بكونه مستنداً إليه ومستنداً . وهذا الوصف إنما يتحقق بعد تحقيق الاسناد ، لأنه ما لم يستند أحد الطرفين إلى الآخر لم يصير أحدهما مستنداً إليه والآخر مستنداً . والتقدم على النسبة إنما هو ذات الطرفين ولا يبحث لنا عنها ، (١) .

ومهما حاول النصار هذا المنهج أن يوجهوه فإن البلاغة التي تقيس بها الأدب وتحكم بها عليه لا يمكن أن يعالج منهج بحثها هذا التعليل ، وإن يصطنع لها اصطفاً يبعدها عن روحها الأدبية . ولكن هل يجح السكاكي في هذا المنهج ؟ وهل استطاع أن يحصر موضوعات علم المعاني حصراً دقيقاً ؟

الواقع أنه لم ينجح في هذا التقسيم الذي بناء على المنطق وحده ، فحصر به موضوعات المعاني حصراً مزقها تمزيقاً أفقدها كل حياة ، وباعد بينها وبين ما يتطلبه الفن الأدبي الذي ينبغي أن يعتمد - أول ما يعتمد - على اللوق الرفيع .

(١) القول من ١٣ .

ولتوضيح ذلك نقول أن السكاكي قسم مباحث المعالي حسب ركني الجملة -
 المسند اليه والمسند - وعلى هذا الأساس ذكر التقديم - مثلاً - في المسند اليه
 مرة وفي المسند ثارة أخرى . وقيل مثل هذا بال موضوعات الأخرى كالتأخير ،
 والخلف والذكر ، والتعريف والتفكير وكان من الدقة أن يبحث كل موضوع بحثاً
 مستقلاً فيشكل على التقديم والتأخير في فصل والذكر والخلف في ثلث ، والتعريف
 والتفكير في ثالث ، وبذلك تجمع أوصال الموضوع الواحد في بحث يستوفي أجزائه
 ويجمع شتاته . أما أن يوزع أقسام الموضوع الواحد هذا التوزيع ويذكر عنه في كل
 باب نقلاً بسيرة لأشجدي نقلاً ، فما لا يمكن الأخذ به والتعويل عليه . وبالمقارنة بين
 ما كتبه السكاكي وما كتبه عبد القاهر أو ابن الأثير يتضح جلياً اقتضاه هذه المباحث
 وجوره عليها . فبعد أن كنا نقرأ في دلائل الإعجاز ، لؤلؤ المسائر ، موضوعات
 فيها عرض وتحليل وجمع لأطراف الموضوع الواحد جميعاً نخرج المدارس منه بفكرة
 واضحة وفائدة كبيرة - بعد هذا كله - نقرأ في مفتاح العلوم ، موضوعات
 تناثرت أطرافها في عدة أبواب لا يخرج المدارس منها إلا بصورة حائلة ، وتواعد
 جامدة ، وأمثلة مبسرة . وقد يلجأ لكي يكون فكرة صحيحة إلى أن يلم شتات
 الموضوع الواحد ويضم بعضها إلى بعض ، وفي هذا اضاعة للجهود والساد لليلة
 والذوق .

وكانت ثمرة ذلك أن يثمر السكاكي الموضوعات والتقديم وتلقاها ، وأصبحت
 لأشجدي نقلاً إلا بالرجوع إلى عدة فصول يجمع شتاتها وتوحيد أجزائها .
 أما بحث خروج الكلام على مقتضى الظاهر كوضع المضمر موضع المظهر ، ووضع
 المظهر موضع المضمر ، والاتفات في المسند اليه فليس دقيقاً ، لأن هذه القنون لا تخصه
 وحده وإنما تشمل المسند أيضاً . وقد أشار السكاكي إلى ذلك بقوله : فواعلم أن هذا
 فنوع أخى نقل الكلام عن الحكاية إلى القية لا يخص المسند اليه (١) وكان ينبغي
 أن يضع لكل لون من هذه القنون بحثاً يفصل القنون فيه تفصيلاً .

وتكلم على استعمال المضارع مكان الماضي في الحالات اللغوية لتفيد الفعل بالشرط مع أن الاختيار عن الفعل المضارع أو بالمستقبل نوع من الالتفات كما صرح به البلاغيون .

وعقد فصلاً لفعل وما يتعلق به من ترك واليات، وإظهار وإخفاء، وتقديم وتأخير مع أن الفعل مستد وكان ينبغي أن يبحث في باب المستد ويذكر أنه يأتي فعلاً وإسماً وجملة :

ولكننا لابد أن نحمد السكاكي انتباهه إلى اشتراك كثير من الباحث التي ذكرها في المستد والمستد إليه، فقد أشار - وهو يتحدث عن الحالة اللغوية لتقصر المستد إليه على المستد - إلى أن التقصر لا يختص بالمستد إليه وإنما يدخل المستد أيضاً ، ويجري بين الفاعل والمفعول ، وبين المفعولين ، وبين الحال وذو الحال ، وبين كل طرفين ؛ يقول «وأعلم أن التقصر كما يكون للمستد إليه على المستد يكون للمستد على المستد إليه ، ثم هو ليس مختصاً بهذا اليمين بل له شيوخ وله تفرعات ، فالأول أن نقرده للكلام في ذلك فصلاً وتؤخره إلى تمام العرض لا سواء في قانوننا هذا ليكون إلى الوقوف عليه أقرب» (١).

هذا ما يتعلق بالقواعد وكفي الجملة أساساً في تقسيم مباحث علم اللغوي ، أما ما يتصل بالوضعيات نفسها فقد ذكر التقديم والتأخير ، والخلف والذكر ، والفصل والوصل ، والإيماز والإطناب ، والتعريف ، والتكثير ، والتقصير ، في القانون الأول أي في باب الخبر . وليس في هذا دقة ، لأن هذه الوضعيات تدخل الطلب كما تدخل الخبر وقد أشار عبد القاهر إلى ذلك بقوله : «أنه لا يجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه في الاستفهام معنى لا يكون له ذلك المعنى في الخبر ، وذلك أن الاستفهام استخبار ، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك . فإذا كان كذلك كان محلاً أن يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام فيكون المعنى إذا قلت : «أريد قام» غيره إذا قلت : «تمام زيد ؟» ثم لا يكون هذا الافتراق في الخبر .

(١) مفتاح العلوم ص ٩٤

ويكون قولك « زيد قام » و « قام زيد » سواء ، ذلك لأنه يؤدي إلى أن تستعمله
 امرأ لا سبيل فيه إلى جواب ، وإن تستثني المعنى على وجه ليس عنده عبارة يشته
 لك بها على ذلك الوجه : (١) ويقول : « وإذا قد عرفت الحكم في الابتداء
 بالنكرة في الاستفهام فابتنر الخبر عليه » (٢) .

ولم يأخذ السكاكي برأي عبد القاهر مع أنه اعتمد على كتابه وجردها من
 التمرة الأدبية وأحالهما هياكل بتضيقاته المنطقية :

والعجيب أن الخطيب القزويني وسعد الدين التفتازاني وغيرهما من الشراح
 تابعوا السكاكي في هذا التضم مع أنهم ذكروا أن الموضوعات التي بحثت في الخبر
 تدخل الطلب أيضاً . يقول القزويني بعد أن ذكر أحوال السند : « كثير مما ذكر
 في هذا الباب والذي قبله غير مختص بهما كالذكر والحذف وغيرهما : والقطن إذا
 اتفق اعتبار ذلك فيهما لا يفتى عليه اعتباره في غيرهما » (٣) . وأعاد هذا القول في
 كتابه « الإيضاح » بعد أن ذكر أحوال الاستناد والسند إليه والمستند وأحوال متعلقات
 الفصل والقصر ، وقال : « ما ذكرناه في هذه الأبواب الخمسة السابقة ليس كله
 مختصاً بالخبر بل كثير منه حكم الانشاء فيه حكم الخبر ، يظهر ذلك بآدنى تأمل » (٤)
 وقال التفتازاني : « إن الاستناد الانشائي أيضاً أما مؤكداً أو مجرد عن التأكيد ، وكذا
 السند إليه أما مذكور أو مخوف ، مقدم أو مؤخر ، معرف أو منكر ، إلى غير ذلك ،
 وكذا السند اسم أو فعل ، مطلق أو مقيد بمنعول أو بشرط أو غير » والمتعلقات
 أما متعلقة أو متأخرة ، مذكورة أو مملوكة ، واستاده وتعلقه أيضاً أما بقصر أو
 بغير قصر : والاعتبارات المناسبة في ذلك مثل ما مر في الخبر ، ولا يخفى عليك
 اعتباره بعد الإحاطة بما سبق » (٥) .

ولكن البلاغيين سحروا بمنهج السكاكي وساروا عليه من غير أن يحاولوا إصلاحه
 إلا ما صدر عنهم من ملاحظات لا تبعد البلاغة عن جوهره كثيراً ، ونرى - إذا

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٨

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٠٩

(٣) التلخيص ص ١٢٥

(٤) الإيضاح ص ١٠٩

(٥) القول ص ٢٤٦

مأثراً أن نعيد ترتيب مباحث علم المعاني في كتاب «مفتاح العلوم» - أن يبحث
الخبر والإنشاء في باب مستقل وتذكر أنواعهما وأساليبهما، ثم تبحث الجملة في
باب آخر. يجمع أجزاءها، ويكون للتقديم والتأخير فصل، وللذكر والحذف فصل
ثاني، وللتذكير والتعريف فصل ثالث، وللقصر وأنواعه وطرقه فصل رابع، ولتقييد
السند والمستدل به فصل خامس. ولابد من بحث الفصل والوصل، والابتداء والاختتام
في بابين مستقلين. وبهذه الطريقة يجمع ما فرقه السكاكي ونبعث الحياة في هذا الفن
ليكون صالحاً للدراسات الأدبية.

وليس بغريب أن ندعو إلى هذا النهج فقد بحث المتقدمون البلاغة بما هو قريب
منه وكان لأعلامهم كتابي هلال وابن رشيق وابن سنان وعبد القاهر وابن الأثير
مناهج سليمة وبحوث طريفة ذات نفع عظيم وأثر كبير، لأنهم لم يبحثوا الموضوعات
في فصول كثيرة وإنما جمعوها جمعاً دقيقاً، وبذلك جاءت كتبهم آية في الإبداع،
وكانت محورهم غاية في الوضوح والجلال.

وكان الخطيب القزويني (٥٧٣٩) أوضح منهجاً من السكاكي، والمعاني عنده
«علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال» (١). وقد رفض
تعريف السكاكي وهو «تنوع خواص تراكييب الكلام في اللفظة وما يتصل بها من
الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي
الحال ذكره» (٢)، لأن النتيجة ليس بعلم ولا صادق فلا يصح تعريف شيء
من العلوم به.

وحصر علم المعاني في ثمانية أبواب :

الأول : أحوال الاستاد الخبيري :

الثاني : أحوال المستدل به :

الثالث : أحوال السند :

الرابع : أحوال متعلقات الفعل :

(١) الألبانج ص ١٢

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧

الخامس : القصر .

السادس : الانشاء .

السابع : الفصل والوصل .

الثامن : الإيجاز والإطناب (١) .

وجه القصر أن الكلام إما خير أو انشاء ، لأنه إما أن يكون نسبته خارج تعاطفه أو لا تعاطفه أو لا يكون لها خارج ، الأول الخير ، والثاني الإنشاء . ثم الخير لابد له من اسناد ومستند إليه ومستند ، وأحوال هذه الثلاثة هي الأبواب الثلاثة الأولى . ثم المستند يكون له متعلقات إذا كان فعلاً أو متصلاً به أو في معناه كاسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو الباب الرابع ، ثم الاسناد ، والتعلق كل واحد منهما يكون إما بقصر أو بغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس . والانشاء هو الباب السادس . ثم الجملة إذا قرئت بأخرى فتكون ثنائية إما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البالغ إما زائد على أصل المراد فثلاثة أو غير زائد عليه ، وهذا هو الباب الثامن .

وهذا المنهج يختلف قليلاً عن منهج السكاكي ، وهو أقرب إلى الكمال ، لأن القزويني ضم الموضوعات المتشابهة في فصول مستقلة ، وكان في بحثه ألصق بالبالغة وروحها من صاحب مفتاح العلوم الذي مزقها كل ممزق . وسيطر هذا المنهج على البلاغيين وقلت كتبهم تقسم علم المعاني هذا التقسيم ، ولم يخرج عنه معظم المتأخرين والمحدثين .

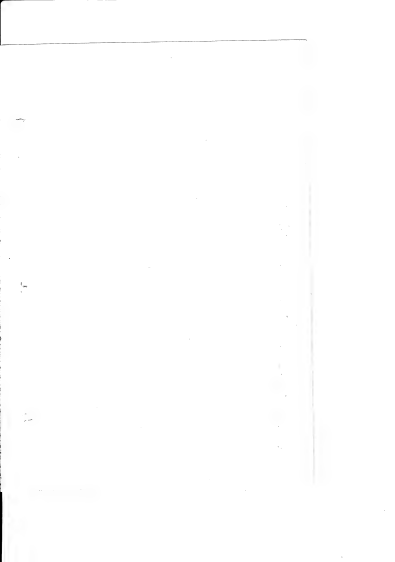
وإذا كان علم المعاني قريباً من النحو أو هو نوعي معاني النحو فإنه يختلف عنه في معالجة الموضوعات ، وقد قصدت القول في ذلك عند القاهر وانتهى إلى أننا لا نريد للمعاني الأول وإنما للمعاني الثواني وهي عتده معنى المعنى ؛ ولخص المتأخرون فائدة علم المعاني فقال بهاء الدين السبكي : ولهذه القول . أي فائدة تعلم المعاني فإن القدرات والمركبات علمت بالعلوم الثلاثة - اللغة والنحو والصرف - وعلم

(١) ينظر كتاب (القزويني وشرح التلخيص ص ٢٨٧) وما يشع .

المعاني غالباً من علم النحو؟ كلا أن غاية التحوي أن يترك المفردات على ما وضعت له ويركبها عليها ووراء ذلك مقاصد لا تتعلق بالوضع مما تفلوت به أغراض التكلم على أوجه لا تنهاى وتلك الأسرار لا تعلم إلا بعلم المعاني، والنحو - وإن ذكرها - فهو على وجه إجمالي يتصرف فيه اليلاني تصرفاً خاصاً لا يوصل إليه التحوي؛ وهذا كما أن معظم أصول الفقه من علم اللغة والنحو والحديث وإن كان مستغلاً بنفسه. وأعلم أن علمي أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل فإن الخير والإنشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الأصول وإن كان ما يتكلم عليه الأصولي من كون الأمر لتوجب والنهي لتحريم ومسائل الإخبار والقوم والخصوص والاملاق والتقييد والاجمال والتفصيل والتراجع كلها ترجع إلى موضوع علم المعاني، وليس في أصول الفقه ما يفرد به كلام الشارع عن غيره إلا الحكم الشرعي والقياس وأشباه سيرة (١).

وهذا ما أمثال الكلام عليه عبد القاهر الذي قال إن الصحة في الكلام هي الخطوة الأولى، أما الخطوة الثانية فهي فهم الكلام واستخلاص ما فيه من المعاني الثواني التي يدل عليها، ولذلك كان علم المعاني ضرورياً في فهم الأساليب البلاغية بعد أن فقد النحو رونقه وبهائه وأصبح قواعد لا تعنى إلا بالأعراب والبناء، والحوامل، والجدل اللغوي الذي لا يخدم اللغة بقدر ما يعوقها عن النحو والأزدهار.

(١) عروض الاقوال - شرح الشفيع ج ١ ص ٥١ - ٥٢.



الفصل الثاني

الخير

المبحث الأول

أهمه

ظهرت دراسات هذا الموضوع في رحاب الكلام ، وكان لمسألة خلق القرآن أثر في ذلك ، وقد بنى المعتزلة وأتباعهم على أساس أن القرآن أمر ولهي وغير ذلك مما ينفي عنه صفة القدم التي ذهب إليها معظم المسلمين .
وظهر في بيئة الاعتزال رأيان في صدقه وكذبه :

الرأي الأول : ينسب إلى أبي إسحاق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام (- ٨٢٢١هـ) وخلاصة هذا الرأي أن صدق الخير مطابقة حكمه لاعتقاد المخير صواباً كان أو خطأ ، وكذبه مطابقة حكمه له . واحتج بوجهين :

أحدهما : أن من اعتقد أمراً فاعبر به ثم ظهر غيره بخلاف الواقع يقال : ما كذب ، ولكنه أخطأ . كما روي عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت فبين شأه كذلك ما كذب ولكنه وهم .

الثاني : قوله تعالى : « والله يشهد أن للنافقين الكاذبون » (١) كذبهم في قولهم « أنك لرسول الله » وإن كان مطابقاً للواقع لأنهم لم يعتقدوه ورد الخطيب القزويني على الوجه الأول بأن المضي لعدم الكذب لا الكذب بدليل تكذيب الكافر إذا قال : « الإسلام باطل » وتصديقه إذا قال : « الإسلام حق » : فنقول للسيدة عائشة « ما كذب » متأول بما كذب عمداً .

وأجاب عن الوجه الأول بوجه .

أحدها : أن المعنى نشهد شهادة وأطاعت فيها قلوبنا ألسنتنا ، كما يترجم عنه « أن ،

(١) الشافعيون ١ ، والاية : « وأما جماعة الشافعيون قالوا : تشهد أنك لرسول الله » وأنه يعلم أنك لرسوله ، والله يشهد أن الشافعيين لكاذبون » .

وواللام ، وكون الجملة اسمية في قولهم : « انك لرسول الله » فالتكذيب في قولهم
« نشهد » وأدعائهم فيه الموائمة لاني قولهم « انك لرسول الله » .

ثانيها : أن التكذيب في تسميتهم إخباره شهادة ، لان الاخبار اذا خلا عن
الموائمة لم يكن شهادة في الحقيقة .

ثالثها : ان المعنى لكاذبون في قولهم : « انك لرسول الله » عند انفسهم لاعتقادهم
انه غير على خلاف ما عليه حال المخبر عنه ؛

الرأي الثاني : ينسب إلى أبي عثمان الجاحظ (- ٢٥٥هـ) وفيه انكر التحصار
الخبر في الصدق والكذب ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغير
صادق ، ولا كاذب ، فالخبر الصادق هو المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق ،
والخبر الكاذب هو الذي لا يطابق الواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق . أما الخبر
الذي ليس بصادق ولا كاذب فهو أربعة أنواع :

١. الخبر المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق .
٢. الخبر المطابق للواقع بلا اعتقاد .
٣. الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق .
٤. الخبر غير المطابق للواقع بلا اعتقاد (١) .

وانطلقت هذه للباحث إلى كتب البلاغة والادب ، فقال ابن قتيبة (- ٢٧٦هـ)
وهو يتحدث عما كان في زمانه من معارف اذعلت بعضهم : « والكلام أربعة :
أمر ، وغير ، واستخبار ، ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي : الأمر ،
والاستخبار ، والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر » (٢) .
وقسم ثعلب (- ٢٩١هـ) قواعد الشعر إلى أمر ، ونهي ، وغير ، واستخبار (٣) .

(١) ينظر الايضاح ص ١٣ - ١٥ ، وشروح التلخيص ج ١ ص ١٧٦ وما بعدها .

(٢) أدب الكاتب ص ٤ .

(٣) قواعد الشعر ص ٢٥ وما بعدها .

أبو الحسين اسحاق بن إبراهيم بن وهب الكلام إلى خير وطلب، وقال:
 بر كل قول أفتت به مستمعه ما لم يكن عنده، كقولك: «قام زيد» فقد أفتت
 به بقيامه: «والطلب: كل ما طلبته من غيرك» (١).
 وعقد أحمد بن فارس (٨٣٩٥) في كتابه «الصحاح» باباً سماه «معاني
 الكلام» وهي عند أهل العلم عشرة: خير واستخبار، وأمر ونهي، ودعاء وطلب
 عرض وتحريض، وتمن وتجنب. وقال في تعريف الخير: «أما أهل اللغة فلا
 يقولون في الخير أكثر من أنه إعلم: تقول أخبرته أخبره والخبر هو العلم. وأهل
 النظر يقولون الخير ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه وهو إقادة المخاطب أمراً في
 ما فيه من زمان أو مستقبل، أو دائم» (٢).

تعريفه:

وكان البلاغيين المتأخرين وقفة عند الخير ودلالته، وقد عادوا في بحثه إلى منبع
 المثلثة وأدخلوا فيه المباحث الفلسفية والمغالطية فقال فخر الدين الرازي (٨٠٦-٨٤٦)
 أنه «القول القنضي بتصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالثبوت أو بالانقضاء ومن حده
 بأنه المحتمل للصدق والكذب المخلوطين بالصدق والكذب واقع في الدور مرتين» (٣)
 وعرض السكاكي (٨٦٢٦) أقوال السابقين في تعريف الخير وناقشها وذهب
 إلى أن الخير والطلب مستقيمان عن التعريف الحديث (٤). أما الخطيب القزويني
 (٨٧٣٩) فقد ذكر آراء السابقين كالنظام والملاحظ ولكنه أشد برأي الجمهور
 وقال في بداية بحثه للخير: «استلطف الناس في انحصار الخير في الصادق والكاذب
 فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما، ثم استلطفوا فقال الأكثر منهم صدقه مطابقة
 حكمه الواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له. هذا هو المشهور وعليه التصويل» (٥).
 وإلى ذلك ذهب معظم شراح التلخيص (٦).

- (١) أبرهان في وجوه البيان ص ١١٣.
- (٢) الصحاح ص ١٧٩.
- (٣) نهاية الإيجاز ص ٣٧.
- (٤) ملتحاح العلوم ص ٧٨-٧٩.
- (٥) الأيضاح ص ١٣.
- (٦) شروح التلخيص ج ١ ص ١٨٢.

وصفة القول أن الخير كل كلام يحتمل الصدق والكذب المات ، وهذا التعريف يصدق على كل كلام يؤخذ من غير النظر إلى قائله : والأخبار التي وردت في القرآن الكريم وأحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - والحقائق العلمية والبدهييات التي لا يشك فيها ، لا يمكن أن تحمل الكذب مع أنها أخبار عن شيء ، ولذلك تخرج من هذا التعريف ، أما غيرها من الأخبار ، فهي قابلة للتصديق والتكذيب من أي إنسان صدرت لأنها ينظر إليها ، لا لذات القائمين :
أجابه :

لجملة الخبرية معنى يحدده تركيبها ، فإذا أطلقت خالية من أي تأكيد كانت لها دلالة ، وإذا أكدت بمؤكد واحد ، أو أكثر كانت لها دلالة أخرى . وقد اتجه العرب إلى ذلك في إطلاقهم للخبر ، وأشار عبد القاهر إلى هذه الاختلافات فقال : «واعلم أن مما أغضى الطريق إلى معرفة مانحن بصدده أن ههنا فروقا خفية تجهلها العامة وكثير من الخاصة ، ليس أنهم يجهلون في موضع ويرفونها في آخر ، بل لا يدرون أنها هي ولا يعلمونها في جملة ولا تفصيل . روى ابن الأثير أنه قال : ركب الكندي للفلسف إلى أبي العباس (١) وقال له : اني لأجد في كلام العرب حشواً . فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : «عبد الله قائم» ثم يقولون : «إن عبد الله قائم» ثم يقولون : «أن عبد الله قائم» فالألفاظ متكررة والمعنى واحد . فقال أبو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ . فتوهم «عبد الله قائم» أخبار عن قيامه ، وقولهم : «إن عبد الله قائم» جواب عن سؤال سائل وقولهم : «إن عبد الله قائم» جواب عن النكار منكر قيامه : فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني . قال : فما أخبار المتفلسف جواباً :

وإن كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستظهم أو معترض فما ظنك بالعامة ومن هو في عداد العامة ممن لا ينظر شبه هذا بهالة (٢) :

(١) يريد به المبرد .

(٢) دلائل الإيجاز ص ٢٤٢ .

فالتخبر ثلاثة أشرب :

الأول : الابتدائي ، وهو الخبر الذي يكون غالباً من التوكيدات لأن المخاطب غالي
للذهن من الحكم الذي تضمنته. ومن ذلك قوله تعالى : وقال بل فعله كبيرهم هذا (١) .
وقوله : ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ، ثم يقول فريق منهم من بعد
ذلك (٢) ومنه قول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعشى إلى أدبي واستعت كلماتي من به صتم
أنام مله جفوني عن شواردها وبهر الخلق جرأها وبغصم
ففي هذه الأمثلة إلقاء للخبر إلى مخاطب غالي للذهن من حكمه ، ولذلك جاءت
من غير توكيد .

الثاني : الطلي ، وهو الخبر الذي يتردد المخاطب فيه ولا يعرف مدى صحته ، أو هو
كما قال السكاكي : «إذا ألقاها إلى طالب لها متحير طرفاها عنده دون الاستاد
فهو منه بين بين ليقظه عن ورطها الخيرة استحسن تقوية المنطق بإدخال اللام في الجملة أو
«إن» (٣) ومن ذلك قوله تعالى : «وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال
ياموسى إن اللام يأتون بك ليقنوك فاعرج إلىك من الناصحين» (٤) وقوله :
«إذ قالوا: يا يوسف وأعوذ أحب إلى أئمتنا مناه» (٥) .

ومنه قول جرير :

إن العمون التي لي طرفها حنوز
وقول البحري :

هل يلبس إلي عطفك موقف
تبت لئيك أقول فيه وتسمع

(١) الأنبياء ، ٦٣ .

(٢) النسر ، ٤٧ .

(٣) مفتاح العلوم ص ٨١ .

(٤) القصص ، ٢٠ .

(٥) يوسف ، ٨ .

في هذه الأمثلة أكد الخبر بإحدى أدوات التأكيد، مثل «إن» في الآية الأولى والبيت الأول، واللام في الآية الثانية «ليوسف» والثون في «يحيى» وللتوكيد في كل منها واحد.

الثالث : الإنكاري ، وهو الخبر الذي ينكره المخاطب إنكاراً يحتاج إلى أن يؤكد بأكثر من مؤكد : ففي قوله تعالى : «وأضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا: انا اليكم مرسلون. قالوا ماأنتم إلا بشر، مثلنا ،وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا: ربنا يسمك أننا اليكم لمرسلون» (١) . حيث قال أولاً : «أنا اليكم مرسلون» وقال ثانياً «انا اليكم مرسلون» حينما ازداد الإنكارهم ولذلك أكد «إن» أولاً وباللام ثانياً ليزيل عنهم ذلك الشك والإنكار ومنه قوله : والنجم للظفر العذاب الأكبر (٢) . ومنه قول الحماسي :

إن لنصفح من مجاهل قومنا وتليم سائلة العدو الأصميد (٣)
ومنى نجد يوماً فساد عشيرة نصلح وإن نر صالحاً لا تنفسد
وفي هذه الأمثلة مؤكّدان «إن» و«اللام» .

مؤكداته :

لخبر مؤكّدات كثيرة منها :

١. «إن» وهي التي تنصب الاسم وترفع الخبر ، ومنها قوله تعالى : «ياأيها الناس إن وعد الله حق» (٤) ، وقوله : «ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زكركم الساعة شيء عظيم» (٥) وقول الشاعر :

(١) يس ١٢-١٦ .

(٢) الصفات ٣٨ .

(٣) الساقية : صفحة العنق . الأصميد : النكين .

(٤) فاطر ٥ .

(٥) الحج ١ .

إنَّ التي زعمت لمؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
وقول البحري:

شرفاً بني العباس إنَّ أباكم عمٌ لثني وعيصه الشفيع
إنَّ التفصيل الذي استغنى به عمر وشفيع إذ غدا يستشفيع
وإذن "الثر في العبارة غير التوكيد، وفي "دلائل الإعجاز" (١) أشارت إلى مواقعها
في الكلام، ولكن الذي يتصل بالموضوع، التأكيد كما في بيت أبي نواس:

عليك بالباس من الناس إنَّ غنى تفكك في اليأس
يقول عبد القاهر معلقاً عليه: "وقد ترى حسن موقعها وكيف قبول النفس لها،
وليس ذلك إلا لأن الغالب على الناس أنهم لا يحملون انقضاءهم على اليأس ولا يدعون
الرجاء والطمع ولا يحترف كل أحد ولا يسلّم أن الغنى في اليأس، فلما كان كذلك
كان الموضوع موضع قفر إلى التأكيد فلذلك كان من حسنهما ترى. ومثل سواه قول محمد
ابن وهيب:

أجارتنا إنَّ الشفيع بالباس وصبر على استنار دنيا بالباس (٢)
حريان أن لا يسلّم (٣) بطله كريماً وأن لا يحوجاه إلى الناس
أجارتنا إنَّ القداح كواذب (٤) وأكثر أسباب التجاج من اليأس
هو كما لا يخفى كلام مع من لا يرى أن الأمر كما قال بل يتكره ويعتقد خلافاً لمعطوم
أنه لم يلقه إلا والمرأة تحلوه وبعثه على التعرض للناس وعلى الطلب (٥).
٢: أن: وهي التي تنصب الاسم وترفع الخبر، كقوله تعالى قل: إنما يؤمن

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٣، وما بعدها، وينظر نهاية الإجاز ص ١٣٧ وما بعدها، والطرز ج ٢ ص ٢٢٠.

(٢) الأساس: هو التصويت عند الطلب ليسند ليدل على الثقة وبأنهها.

(٣) أي: اليأس والصبر حريان.

(٤) القداح: جمع قذح - بالكسر فيها - وهي الأقدام التي يستلصق بها في الجماعية الخط.

(٥) دلائل الإعجاز ص ٢٥٠.

إلى أنما إلهكم إله واحد (١) وقوله: «فلأن لم يستجبوا لك فأعلم أنما لا يتبعون
أمرهم» ومن أمثل من اتبع هواه بغير هدى من الله، «إن الله لا يهدي
القوم الظالين» (٢).

وكم بعد بعضهم وأن من المؤكيدات لأن ما يشعها في حكم الفرد والتأكيد المقصود
هو تأكيد النسبة لا المسند ولا المستد إليه، ولكن ابن هشام يقول: «أن تكون حرف
توكيد تنصب الاسم وترفع الخبر، والأصح أنها قرع عن «إن» المكسورة» (٣).
٣. كأن: وفيها تشبيه المؤكدين كأنت بسيطة وإن كانت مركبة من كاف التشبيه
وأن في متضمنة لأن فيها ماسبق وزيادة. كقوله تعالى: «وأصبح الذين آمنوا
مكاثرة بالآمن يقولون ويكأن الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر
لولا أن من الله علينا لحسف بنا، ويكأنه لا يسلح الكافرون» (٤) وقول بكر
ابن الطلاح:

نراهم ينظرون إلى المعالي كما نظرت إلى الشيب الملاح
يحدثون البيوت إلى شزراً كأنني في عيونهم السباح
٤. لكن: لتأكيد الجمل، وقيل: لتأكيد مع الاستدراك، وقيل: أنها لتوكيد
دائما مثل وأن (٥): ومنه قوله تعالى: «ذلك لانهدي من أحببت ولكن الله
يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» (٦).

وقول الثعني:
فلا تعجبا إن السيف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

(١) الأبيات ١٠٨.

(٢) القصص ٥٠.

(٣) مني السيب ج ١ ص ٣٩.

(٤) القصص ٨٢.

(٥) مني السيب ج ١ ص ٢٩١، والبرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٥٠٨.

(٦) القصص ٥٦.

٥: لام الابتداء؛ وتفيد تأكيد مضمون الجملة، ولهذا زحلقوها في باب «إن» من صدر الجملة كراهية ابتداء الكلام بمؤكدتين. ومنه قوله تعالى: «إن ربي لسبح الدعاة» (١) .

٦: الفصل؛ وهو من مؤكدات الجملة، وقد نص سيويه على أنه يفيد التأكيد وقال في قوله تعالى: «إن قرتني أنا أقول منك مالا وولدا» (٢) «إن» ضمير الفصل «أنا» وصف لبياء في «قرتني» يزيد تأكيداً (٣) .

٧: أمّا؛ وهي حرف شرط وتفصيل وتوكيد، ومنه قوله تعالى: «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما تعرض» فما فوقها، فلما الذين آمنوا فاعلمون أنه الحق من ربه، ولما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً (٤) .

ولكن ابن هشام قال: «ولما التوكيد قل» من ذكره ولم أر من أحكم شرحه غير القزويني فإنه قال: «فائدة وأما» في الكلام أن تعطيه فضل توكيد تقول: «زيد ذاهب» فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب وأنه يصدد الدعاب وأنه من حزمة قلت: «لما زيد فذاهب» ولذلك قال سيويه في تفسيره: «مهما يكن من شيء فزيد ذاهب». وهذا التفسير مذكور عند الذين كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط (٥) ومنه قول الشاعر:

ولم أرَ كالتعرف أما مذاقهُ فحُكِّمُوا ولَمَّا وَجْهُهُ فنجسِلُ
٨. قد؛ وهي حرف تحقيق، ومنه قوله تعالى: «ومن يتعصب بالله فقد هدر إلى صراط مستقيم» (٦). وقوله: «قد أطلع للؤمنين» الذين هم في صلاتهم عاشقون (٧). وقول الفصح الكندي:

(١) إبراهيم ٢٩ .

(٢) الكهف ٢٩ .

(٣) الكتاب ج ١ ص ٣٩٥، وينظر البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٠٩ .

(٤) البقرة ٢٦ .

(٥) معنى اللبيب ج ١ ص ٥٧ .

(٦) آل عمران ١٠١ .

(٧) المؤمنون ١-٢ .

يأبيني في الدين قومي وإنما
أسدّ به مائد أُنلّوا وضيّعوا
ديوني في لثابة تكسهم حشدا
تغور حقوق ما طاقوا لها سدا

٩ - العين : وهي حرف يختص بالقضارع ويطلعه للاستقبال . كقوله تعالى :
وأولئك سيبرحهم الله (١) فالعين تفيد وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكد الوعد
كما تؤكد الوعيد في قوله : وسأنتقم منك يوماء (٢) .
ومنه قول المتنبي :

سيلم الجَمْعُ من غَسَمَ جَلَسُهُ بأنّي غيرُ من تمشي به قدَمُ
١٠ - القسم : وهو عند النحاة جملة يؤكد بها الخبر ، حتى أنهم جعلوا قوله
تعالى : والله يشهد إنّ الثاقفين لكاذبون ، (٣) قسماً وإن كان فيه إخبار لأنّه
لما جاء توكيداً للخبر سمي قسماً (٤) :

ولقسم أحرف هي : لباء والواء والثاء ، والياء هي الأصل لدخولها على كل مقسم به .
ومنه قوله تعالى : والفضى والليل إذا سجاء (٥) ، وقوله : والقيين والزينون ،
وطور سين ، وهذا لئلا الأمين (٦) وقوله : وقالوا لله نفضاً نذكر يوسف
حتى تكون حراً صاعاً أو تكون من الهالكين (٧) ، وقوله : والله لأكيدن
أصلكم بعد أن قولوا مذبذبين (٨) .

ومنه قول ابن أبي ربيعة :
فوالله لا أدري وإن كنت دارياً بسج رمين البعير أم بضمسان

(١) التوبة ٧١ .

(٢) مئتي ألف ج ١ ص ١٣٤ ، والبرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ١١٨ .

(٣) النافقون ١ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ١٠ .

(٥) القصص ١ - ٢ .

(٦) التين ١ - ٣ .

(٧) يوسف ٨٥ .

(٨) الأنبياء ٥٧ .

١١- قولاً لتوكيد : وهما التثنية والتخيلة، ومن ذلك قوله تعالى: «ولئن لم
يتفعل ماقره ليجتنبن» وليكونن من الصاغرين» (١)، وقوله: «لتستغفرن»
بالناحية (٢) ومنه قول الشاعر:

لأستغفرن الصعب أو أدرك للنسي فلما انقادت الامال الالصابر
١٢- لن : يؤي بها التأكيد التني، كقوله تعالى: «ولما جاء موسى ليقاينا
وكنهه به» قال: رب لربي أنظر إليك، قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبكر
فان اسفر مكانه فسوف تراني» (٣) :
ومنه قول الطرماح :

لسقد زادني حباً لنفسي أنسي بنيس إلى كل امرئ غير طائل
وأني شقي بالانام ولن تسرى شقياً بهم الاكريم الشمال
١٣- الحروف الثلاثة : وهي كثيرة منها الباء كما في قوله تعالى: «وما أنا بقلام
للعبيد» (٤).

وقول ممن بن لوس :

ولست بعاشر ماحييت لمنكر من الأمر لايشي إلى مشله مثل
وهو من كقوله تعالى: «وما تسقط من ورقه إلا أعلمها» (٥) ، وقوله: «ما ترى
في خلقك الرحمن من تفاوت» (٦).
ومنها قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خلقه وإن خالها تخفى على الناس تعلم

- (١) يوسف ٢٢.
- (٢) تلاق ١٥.
- (٣) الامرات ١٤٣.
- (٤) ق ٢٩.
- (٥) الانعام ٥٩.
- (٦) تلك ٣.

١٤ - حروف التثنية : ومنها وأما حرف استفتاح وتكثر قبل القسم ، كقول أبي
صخر الهذلي :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمان وأحيا والذي أرمى الأثر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى

اليلين مشها لا يروعهما أنفسن
وهؤلاء الاستفتاحية ، كقوله تعالى : **وَالَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** (١) ، وقوله :
وَالَا إِنَّ لَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَاخْفَاءَ عَلَيْهِمْ ولا هم يحزنون (٢) :

ومنه قول المعري :

ألا في سبيل الجسد ما أنا فاعل عفاف وإقدام ومجد وتنازل

(١) البقرة ١٧

(٢) يونس ٦٢

البحث الثاني

المقدمة

للخير غرضان أصليان هما:

الأول: فائدة الخير، ومعناه الفائدة المخاطب المحكم الذي تضمنته الجملة أو الكلام، وهذا هو الأصل في كل خير، لأن فائدته تقديم المعرفة أو العلم إلى الآخر. ومن ذلك قوله تعالى: «الله نور السموات والأرض، مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ» ولو لم تَمَسَّه نَارُ نُورِهِ عَلَى نُورِ بَهْشَدِي اللهُ نُورٌ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١). وقوله: «تبارك الذي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا. الَّذِي لَهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَغَلَتِ كُلُّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بَلَدِيرٍ. وَاتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ خَرًّا وَلَا يَتَّقُوا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُفُورًا» (٢).

ومنه قول الشاعر:

فَلَا الْجُودُ يُغْنِي الْمَالَ وَالْجِدُّ مُغْنِيْلٌ وَلَا الْبَخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجِدُّ مُدْخِرٌ
وقول أبي نواس:

كَتَرُ الْكَرْخِ نَزْحُ الْأَوْطَانِ نَصْبًا صَبْرًا وَلَا تِ لَوَانِ
لَيْسَ لِي مُسْتَعِدٌّ بِمَصْرٍ عَلَى الشُّوْ قَدْ إِلِ أَوْجِعَ هَسَاكَ بِحَسَانِ

الثاني: لازم الفائدة، وهذا الغرض لا يقدم جديداً للمخاطب وإنما يفيد أن التكلم عالم بالخير، ومن ذلك قولنا لصديق: «فلو كنتم محمد» أسس، فللمخاطب يعلم ذلك

(١) التور ٢٠

(٢) الفرقان ١-٣

ولكن الغرض من هذه الجملة اختياره أن المتحدث عارف بذلك : ومنه قول للشبي
مخاطباً سيف الدولة الحمداني ومادحاً شجاعته ويقول له :

تدوس بك الخيل الكور على الرى وقد كثرت حول الكور المطامير
وسيف الدولة يعلم ذلك.

وقول أحد الشعراء معالياً :

وتفتاني في كل نادٍ تحسبه وترعم أني لست كفه لملكنا
ولكن الخبر كثيراً ما يخرج على خلاف مقتضى الظاهر ، يقول السكاكي : وهذا
م أنك ترى الملقين السحرة في هذا الفن يفتنون الكلام لأهل مقتضى الظاهر
كثيراً (١).

ومن ذلك :

١ - أن يتزل غير السائل منزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح له بحكم الخبر
فيستشف له استشفاف التردد الطالب ، كقوله تعالى : ولا تخاطبني في الدين
ظلموا أنفسهم مفرقون (٢) ، وقوله : وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة
بالسوئ (٣) . قال القزويني : وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة
وغوص ، وروي عن الأصمعي أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وحلف الأحمر
بأريان يشارا فيسلمان عليه بغاية الاحترام ثم يقولان : يا أبا معاذ ما حدثت فيخيرهما
ويتشلهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأيام
يوماً قالوا : ما هذه القصيدة التي أحداها في ابن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكما :
قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب . قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتناصر بالغريب ،
فلحيت أن أورد عليه ما لا يعرف : قالوا : فأنشدنا ما يا أبا معاذ ، فأنشدنا :
بكتيرا صاحبي قبل الهجير إن ذلك التجاح في التكير
حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان وإن ذلك التجاح :

(١) مفتاح العلوم ص ٨٢ ، ونظر الإيضاح ص ١٩ .

(٢) مود ٢٩ .

(٣) يوسف ٥٢ .

«بكرًا فالنجاح» كان أحسن: فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، قلت: «إن ذلك النجاح» كما يقول الأعراب البديون، ولو قلت: «بكرًا فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة، فقام خلف فقبل بين عيني؟

فهل كان ماجرى بين خلف وبشار يحضر من أبي عمرو بن العلاء - وهم من فحولة هذا الفن - إلا لفظ المعنى في ذلك وعفائه؟ (١) ؟

٢ - أن ينزل غير المنكر إذا ظهر شيء عظيم من إمارات الانكسار، ومنه قوله تعالى: «ثم إنكم بعد ذلك ليئون» (٢)، وقد أكد اليات الموت تأكيدين - وإن كان مما لا ينكر - لتزليل المخاطبين منزلة من يبلغ في انكسار الموت لتعاديتهم في اللفظة والأعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل: «ميتون» دون «تموتون» ومنه قول حبل بن نضلة:

جاء شقيقس عارضاً رمحاً إن بني عمك فيهم رماح
فإن محيته هكذا مد لا يشجاعة قد وضع رمحاً عارضاً، دليل على اصحاب شديد منه واعتقاد أنه لا يقوم إليه من بني عمه أحد، كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح.

٣ - أن ينزل المنكر منزلة غير المنكر، إذا كان معه ما أن ثلثه ارتفع عن الانكسار، كما يقال لمنكر الإسلام: «الاسلام حق»، وعليه قوله تعالى: «لأريه فيه» (٣) وقوله: «ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» (٤). وقد أكد اليات اليات تأكيداً واحداً - وإن كان مما ينكر - لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جليداً بأن لا ينكر.

(١) الأيضاح ص ١٩، وينظر دلائل الإيجاز ص ٢١١، ومفتاح العلوم ص ٨٢.

(٢) المؤمنون ١٥.

(٣) البقرة ٢.

(٤) المؤمنون ١٦.

الافراض المجازية :

الاصل في الخير أن يلقى لفرشين هما : فائدة الخير ، ولازم الفائدة ، غير انه كثيراً ما يخرج على خلاف مقتضى الظاهر : ولكنه لا يقتصر على ذلك ، وإنما يخرج مجازاً إلى افراض كثيرة تفهم من السياق وقرائن الاحوال ، ومن ذلك :
١ - اظهار الضعف : ومنه قوله تعالى : « قال رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئاً » (١٦) ، وقول الشاعر :

إِنْ لَمَّا لَيْتَ - وَبُاعَتْهَا - قد أخرجت سمي إلى تَرْجُمَانٍ
وقول أبي نواس :

دَبَّ لِي السَّامُ مَكَلًا وَعَلَاوا وَلِزَلِّي أَمُوتَ عُضُشُوا لِعُضَا
٢ - الاسترحام : ومنه قول ابراهيم بن المهدي مخاطباً للمؤمن :

أَبَيْتُ جُرْماً شَيْعاً وَأَنْتَ لِمَنْفُؤِ أَهْلٍ
فَإِنْ عَفَوْتَ فَمَنْ وَأَنْ قَتَلْتَ فَعَدْلٌ
وقول الآخر :

فَمَا لِي حَبْلَةٌ إِلَّا رَجَائِي لِمَنْفُؤِكَ إِنْ عَفَوْتَ وَحَسَنُ ظَنِّي
٣ - تحريك الفم : ومنه قوله تعالى : « الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَى وَزِيَادَتُهَا » (٧)

٤ - اظهار التحسر : ومنه قول امرئ القيس يري ولده :
وَأَيُّ دَعْوَةٍ الصَّبْرَ بِهَذَا وَالْأَسَى أَجَلِبَ الْأَسَى طَوْعاً وَلَمْ يُجِبِ الصَّبْرُ
وقول المتنبي :

تَجِبْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلَا وَدَائِي تَجِبْتُ لِي الرِّكَابُ وَلَا أَمَلِي
وقوله في الزلاء :

الْحُزْنَ يُغْلِقُ وَلَتَجْمَلُ يَرُدُّ وَلِلْقَلْبِ بَيْنَهُمَا عَصِي طَبْعُ
يَتَزَعَّجَانِ دَمْعٌ عَيْنٍ مَسْدُورٌ هَذَا يَجِي بِهَا وَهَذَا يَتَزَجَّجُ

(١) سيم ٤

(٢) بولس ٢٦

- ٥ - المدح : ومنه قول النابغة الذبياني :
فأنتك شمسٌ والملكُ كواكبٌ إذا طلعت لم يمتدَّ منهنَّ كوكبٌ
- ٦ - القحط : ومنه قول عمرو بن كلثوم :
إذا بلغ القحطُ لنا صبيُّ وقول أبي فراس الحمداني :
نُ ونب شطْبُ زادهم ألفيت حول بيوتنا لنا العدا يسقى لبو هذا وهذا دأبنا وقول الشريف الرضي :
لغير العلى مني القلى والتجنبُ ولولا العلى ما كنت في العيش أرغبُ وقول فلا الهانُ تأسر عزمي ولا أعرف القحشاء إلا بوصفها ولا أنطقُ للعورة والقلب مغضبُ
- ٧ - التوبيخ : ومن ذلك قولنا لترك الصلاة : « الصلاة ركن من أركان الإسلام ».
- ٨ - التحليل : ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أبيضُ الحلال إلى الله الطلاق ».
- ٩ - الأمر : ومنه قوله تعالى : « وللمطلقاتِ بِرِئسِهنَّ » (١) وقوله : « والوالداتُ بِرِئسِهنَّ » (٢) ، فإن السياق يدل على أن الله تعالى أمر بذلك لآفته غير :
- ١٠ - النهي : ومنه قوله تعالى : « لا يَتَّبِعُهُ إِلَّا الْغَاظُونَ » (٣) :

(١) البقرة : ٢٢٨.

(٢) البقرة : ٢٣٣.

(٣) الواقعة : ٧٩.

- ١١ - الوعد : ومنه قوله تعالى : «سُئِرَ بِهِمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ» (١) :
- ١٢ - الوعيد : ومنه قوله تعالى : «وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مَثَقَلٍ يَقْبَلُونَهُ» (٢).
- ١٣ - الدعاء : ومنه قوله تعالى : «إِنَّا نَعْبُدُكَ وَإِنَّا نَكْتُمُكَ» (٣) ، أي : «أعنا على عبادتك» وقرئنا : «عفا الله عنه» :
- ١٤ - الإنكار والتوبيخ : ومنه قوله تعالى : «لَقَدْ أَتَيْتُكَ بِكَرِيمٍ» (٤) :
- ١٥ - التوبيخ : ومنه قولنا : «وددتك عتقنا» :
- ١٦ - الإنكار : ومنه : «ماله عليّ حق» .
- ١٧ - التوبيخ : ومنه : «لا بأس عليك» .
- ١٨ - التعظيم : ومنه : «صبحان الله» :
- وربما كان اللفظ خيرا والمعنى شرطا وجزاء ، كقوله تعالى : «إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» (٥) ، فظاهره خير ، والمعنى أنّ إن كشف عنكم العذاب تعودوا ، ومنه قوله : «الطلاق» مرتين (٦) ، والمعنى : من طلق امرأته مرتين قلبسكتها بملعها بمعروف أو يسرحها باحسان (٧).

(١) فصل ٥٣ .

(٢) الشعراء ٢٢٧ .

(٣) القابلة ٥ .

(٤) الدعاء ٤٩ .

(٥) الدعاء ٦٥ .

(٦) البقرة ٢٢٩ .

(٧) تنظر أفراس الخير للجارية في الصحابي لابن فارس ص ١٢٩ ، والبرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٢٠ .

الفصل الثالث

الإنشاء

البحث الأول

الأمر والنهي

الإنشاء :

الإنشاء كل كلام لا يحتمل الصدق والكلب لذاته لانه ليس لدلول نقطه قبل التعلق به واقع خارجي يعاقبه أو لا يعاقبه : وهذا ما اعتمد عليه القدماء حينما فصلوا بين الخير والانشاء فقال القزويني : « وجه الحصر أن الكلام إما غير أو إنشاء ، لانه إما أن يكون لتسببه خلع تعاقبه أولا تعاقبه ، أولا يكون لها خلع ، الاول للخير ، والثاني الانشاء (١) » .

أقسامه :

والإنشاء قسمان :

الاول : الانشاء الطلبي ، وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل رتت الطلب ، وهو خمسة أنواع : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والتمني ، والتداء .

الثاني : الانشاء غير الطلبي : وهو ما لا يستدعي مطلوباً ، وله أساليب مختلفة منها :

١ - صيغ المدح والذم : ومنها « نعم وبش » كقوله تعالى : « إن شئبنوا الصلوات فعمامي وإن تخلفوها ولأزوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير » (٢) ، وقوله : « ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » (٣) ، وقوله : « يدعو كن ضربه أقرب من نفعه ليس المولى وبش العشير » (٤) .

وقول زهير في مدح هرم بن سنان :

نعم امرأً هرم لم تمر ثالثة إلا وكان لمرتاح لها ورا

ومنها : « حبلاً ولا حبلاً كقول جرير :

(١) الإنشاع ص ١٢ .

(٢) البقرة ٢٧١ .

(٣) البقرة ٣٠ .

(٤) الملح ١٣ .

باجلدا جبل الربان من جبل وحيدا ساكن الريان من كانا
وحيدا انفحات من يمالية ثاثيك من قير الربان احياها
ومنها الاكلال المحولة إلى «قمل» مثل: «كبرت كلمة تخرج من أفواههم» (١)؛
٢ - الصليب: وله صيغتان فياسيان هما: «مالله» كقولته تعالى: «قتل»
الانسان ما أكثر» (٢)؛ وقوله: «فما أصبرهم على النار» (٣). وقول الشاعر:
فما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في الثابتات لليبس
وقول الآخر:

بفسي تلك الأرض ما طيبة الربى وما أحسن المصطفى والمقر ما
و «أقبل» به كقولته تعالى: «أشجع» يوم وأبصر يوم باتونك (٤) وباني سماعيا
كقولهم: «له دره علماء».

٣ - القسم: فيكون بالواو والياء والياء كقولته تعالى: «والله» والياء
إثنا سجا (٥) وقوله: «فألف لند أترك الله» عليه (٦). ولولنا: «أقسم بالله
الذي يرى»:

ومن صبح القسم التي تأتي كثيرا «لعمر» كقولته تعالى: «لعمرك إنهم هم
سكتولهم يعمهون» (٧)؛
وقول الآخر:

لعمرك ما أبري في كؤنجل على أينما تداد النية أوله
٤ - الرجاء: وهو طلب حصول أمر محبوب قريب الوقوع. والحرف الموضوع
له «لعل» كقولته تعالى: «فلملك تارك بفسى ما يوحي إليك ولهايق» به

(١) الكهف: ٥.

(٢) عبس: ١٢.

(٣) البقرة: ١٧٤.

(٤) مريم: ٢٨.

(٥) القصص: ٢٠-٢١.

(٦) يوسف: ٩١.

(٧) الحجر: ٩٢.

صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَكَلٌّ، إِنَّمَا أَنْتَ ظَلِيمٌ، وَاللَّهُ
عَلَّ سَكْرَتُهُ شَيْئًا وَكَيْلًا (١) ؛
وقوله، ذي الرمة :

لعلَّ اعتدازَ التَّمَعُّعَ يُعْطِبُ رَاحَةً من الوجعِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ الْبَلَابِلِ (٢)
لما الأفعال التي تستعمل في هذا الأسلوب فهي : «عسى» ، كقوله تعالى : «عسى
اللهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ الْفَتْحُ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ» (٣) ، وقول الشاعر
عسى الكرب الذي أسببت فيه يكون وراءه فَرَجٌ قَرِيبٌ
و«حرى» مثل : «حرى محمدٌ أَنْ يقومَ»
و«اخْلُوقِي» مثل : «اخْلُوقِي السَّمَاءُ أَنْ تَطْرُقَ»
وتسمى هذه الثلاثة «أفعال الرجاء» ؛

٥ - صيغ العقود : مثل : «يبت» و«اشترت» و«وعيت» و«قلت» ؛

وهذه أساليب غير ؛ لكنها لا يراد بها الأخبار لأنها لا تحتمل الصدق والكذب ،
ولذلك لم توضع مع الخبر ، ولا يهتم البلاغيون بهذه الأساليب الإنشائية لقلة الإغراض
للتعلقة بها ، ولأن معظمها أخبار نقلت من معانيها الأصلية ، أما الإنشاء الذي يعنون
به فهو العقلي لما فيه من تفنن في القول لخروجه عن أغراضه الحقيقية إلى أغراض
مجازية تفهم من سياق الكلام .

وأساليب الإنشاء العقلي خمسة هي : الأمر والتخييل والاستفهام والتعجب والتنداء ،
الأمر :

وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والألزام ، أو كما قال اللطوي :

(١) هــ ١٢ .

(٢) البلال : جمع بلباك ، وهو لهم

(٣) الآية ٥٢ .

«هو صيغة تستدعي الفعل، أو قول بني» عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء (١) : وله أربع صيغ هي:

١ - فعل الأمر : كقوله تعالى : «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» (٢) ، وقول الخطيب :

«دَعِ الْمَكَارِمَ لِأَثَرِهَا» ليرحل لبغيتها واقعد فإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

٢ - المضارع المقرون بالأمر : كقوله تعالى : «لِيُنْفِزْ قُسُوفًا مِنْ سَعَتِهِ» (٣) ، وقول أبي تمام :

كَلَّا فَيَجِلُّ الْخَطْبُ وَيَفْدَحُ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لَعِينٌ لَمْ يَغْضُ مَا زَاها عِلْدًا

٣ - اسم فعل الأمر : كقوله تعالى : «عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا تَمْسَسْكُم مِّنْ فَتَنِ» إذا اعتدبت (٤) أي : الزموا أنفسكم :

ومنه «صه» بمعنى اسكت ، ومنه «كفف» و«آمين» بمعنى : «استجب» و«بله» بمعنى «دع» و«رويه» بمعنى «امهله» و«زال» بمعنى «الز» ، و«أرك» بمعنى «أرك» :

٤ - المصغر النائب عن فعل الأمر : كقوله تعالى : «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» (٥) وقول قطري بن النجماء :

فَصَبِرَا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا تَبِيلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعٍ

وقد يخرج الأمر عن معناه الأصلي : - وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والالتزام إلى معاني أخرى تفهم من سياق الكلام ، ومن هذه الأغراض المجازية :

١ - الدعاء : وهو الطلب على سبيل التضرع ، كقوله تعالى : «رَبِّ اغْفِرْ لِي

(١) الفراء ج ٣ ص ٢٨١ .

(٢) النور ٥٦ .

(٣) الطلاق ٧ .

(٤) الثالثة ١٠٥ .

(٥) البقرة ٨٣ .

ولو الذي (١). ويسميه ابن فارس «المسألة» (٢). ومنه قوله تعالى : «ربنا
إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا» ، «ربنا فاغفر لنا ذنوبنا
وَكثِّرْ عَلَيْنَا مِثْقَالَ الْإِيمَانِ» (٣). وقوله : «اعدوا الصراط المستقيم» (٤).
ومنه قول المتنبي :

أَزِلْ حَسَدَ الْحَسَادِ عَنِّي بِكَيْفِهِمْ فَأَتَى الَّذِي صَبَّرَهُمْ لِي حُسْنِيَا
٢- الألفاس : وهو الطلب الصادر عن المتساوين قدرًا ومترلةً على ميل
القلوب كقول ابن زيدون :

دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَا دَنَا بِحَافِظَةٍ فَالْحَرْجُ مِنْ دَانِ الصَّلَاةِ كَمَا دَنَسَا
٣- الضمني : وهو الطلب الذي لا يُبرجى وقوعه ، كقول حنيفة :
يَادَارُ عَيْلَةً بِالْجَوْلِ تَكَلِّمُ وَعَيْمِي صَبَاحًا دَارَ عَيْلَةٍ وَسَلَمِي
وقول امرئ القيس :

أَلَا أَيُّهَا الْبَيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا الْبَحْلُ بِصَبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مَتَكُ بِأَمْثَلِ
وقول النمرى :
لَمَّا مَوْتُ زُرُّ إِنْ الْحَيَاةُ فَعِيَّةٌ وَيَانْقُصُ جَدْيِي إِنْ دَهْرُكَ هَازِلٌ
وقول ابن زيدون :

وَيَا نَسِيمَ الْعَصَا بَلِّغْ نَحْيَنَا مِنْ لَوْ عَلَى الْبَعْدِ حَيْثُ كَانَ بِحْيُنَا
٤- الصَّحُّ وَالْإِشَادَةُ : وهو الطلب الذي لا إلزام فيه وإنما النصيحة الخالصة
كقوله تعالى : «وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَ أَلْأَجَلِ مُسِيءٌ فَاصْتَبُوا» وليكتب
بينكم كتابٌ بالعُدَّة» (٥) ، وقوله «واستشهدوا شهيدين من رجالكم» (٦)
وقول المتنبي في مدح سيف الدولة :

- (١) نوح ٢٨.
- (٢) السامعي ١٨٤.
- (٣) آل عمران ١٩٣.
- (٤) القاسم ٦.
- (٥) البقرة ٢٨٢.
- (٦) البقرة ٢٨٢.

كفاً فليست من طلب الاعادي ومثل مرآة فليكن للطلاب

٥ - التعبير : وهو الطلب بان يختار المخاطب بين امرين أو أكثر ، كقول بشار :

فعرش واحد أوصل أخاك فانه مقارن ذكبي مرة وعجائبه

٦ - الإباحة : كقوله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَبَطُ الْأَبْيَضُ

من الخيط الأسود من الفجر » (١) وقال القزويني : ومن احسن ما جاء فيه

قول كثير :

أميتي بنا أو أحسن لا ملومة لدينا ، ولا مقلية إن تفلت (٢)

أي : لا أنت ملومة ولا مقلية .

ووجه حصة اظهار الرضا بوقوع الدخول تحت لفظ الامر حتى كانه مطلوب أي

مهما اخبرتني حتى من الاساءة والاحسان ، فلما راض به غاية الرضا فعامليني

بها ، وانظري هل تفاوتت حالتي معك في الحالين » (٣) .

٧ - التعبير : وهو الطلب بما لا يقتدر عليه المخاطب كقوله تعالى : « يا معشر

أهلين والانس إن استطعتم ان تصفدوا من أقطار السموات والارض فأفقدوا

لا تصفدوا » (٤) ، وقوله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا

فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » (٥)

وقول الشاعر :

أروني بخيلا طال عسراً ييخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

٨ - التهديد : كقوله تعالى : « واصلوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » (٦) وقوله :

(١) البقرة ١٨٧ .

(٢) مقلية مكروبة بلهية تفلت : تكومت ويخفت

(٣) الأيضاح ص ١٤٢ .

(٤) الرحمن ٣٣ .

(٥) البقرة ٢٣ .

(٦) فصلت ١٠ .

وقل لستموا لأن مصيركم إلى النار. (١)

ومنه قول الشاعر :

إذا لم تخلص عافية البالي ولم تستحيي قاصع ماشاء

٩ - الصوبة: كقوله تعالى: «واصبروا ولا تنصبروا» (٢)، ومنه قول المتنبي:

عش عزيزاً لو مت وأنت كريم بين طعن الثنا وعنف البؤس

١٠ - الأهالة: كقوله تعالى: «ذئ إنك أنت العزيز الكريم» (٣)، وقوله:

«كوتوا حجارة أو حديد» (٤).

١١ - الصغير: كقوله تعالى: «كوتوا فرقة لعائنين» (٥) ويسميه ابن فارس

«الكوين» (٦).

١٢ - الاحتقر: كقوله تعالى: «ألقوا ما أنتم ملكئون» (٧)، ويضمهم يجمع

الأهالة والاحتقر في غرض واحد.

١٣ - الصليم: كقوله تعالى: «والصبر مائة قلبي» (٨)

١٤ - التلب: كقوله تعالى: «فالتسروا في الأرض» (٩)

١٥ - العجب: كقوله تعالى: «فالتسبج بهم وأبصر» (١٠)، ومنه قول كعب

ابن زهير :

أحسن بها علة لو أنها صفت موعودها ولو أن النصح مقبول

(١) إبراهيم ٣٠.

(٢) الطور ١٦.

(٣) الدعاء ٤٩.

(٤) الأنزل ٥٠.

(٥) الأعراف ١٦٦، عائنين: مبدئين مطروحين لا يسبح لكم بالقرب من الرأس.

(٦) الصحاح ص ١٨٥.

(٧) يونس ٨٠، أو الشعراء ٤٣.

(٨) طه ٧٢.

(٩) الجمعة ١٠.

(١٠) مريم ٣٨.

١٦ - التلخيص والتحسر : كقولہ تعالیٰ : «قلْ مُوتُوا بِفِطْرَتِكُمْ» (١) ومنہ قول جریر :

موتوا من الفطیض غمّاً فی جریرتکم ان تقطعوا بطن وادّ دُونہ مُقَسَّرٌ
١٧ - الوجوب : وذلك أن يكون أمراً وهو واجب كقوله تعالى : «واقيموا الصلوة» وآتوا الزكاة» واركعوا مع الراكعين» (٢).

١٨ - الخیر : ويكون أمراً وللمعنى غير كقوله تعالى : «فليضحكوا قليلاً» وليكوا كثيراً» (٣). والمعنى : انهم سيفضحون قليلاً ويكون كثيراً.

١٩ - الامتنان : كقوله تعالى : «فكفوا عما رزقكم الله» (٤)، والظاهر انه قسم من الاباحة لكن معه امتنان.

٢٠ - الاكرام : مثل قوله تعالى : «ادخلوها بسلام» (٥)، وهو من الاباحة أيضاً.

٢١ - التكوين : كقوله تعالى : «كُنْ فيكون» (٦)، وهو قريب من التسخير ، إلا أن هذا أعم.

٢٢ - التوقيف كقوله تعالى : «فانظر ما أنت قاض» (٧)

٢٣ - الكذب : كقوله تعالى : «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها» (٨) وقوله : «قلْ مَكُكُمْ شَهِدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا» (٩).

٢٤ - اللزوم : كقوله تعالى : «فانظر ما أنا ترى» (١٠).

(١) آل عمران ١١٩.

(٢) البقرة ٤٣.

(٣) التوبة ٨٢.

(٤) النحل ١١٤.

(٥) الخیر ٤٦.

(٦) البقرة ٢٩٧، وغيرها.

(٧) طه ٧٢.

(٨) آل عمران ٩٣.

(٩) الانعام ١٥٠.

(١٠) الصافات ١٠٢.

٢٥ - الاعتبار : كقولہ تعالیٰ : وَأَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ (١) . ويرى السبكي أن في غالب هذه اللعاني نظراً (٢) .

التهي :

هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والالزام . ويتفق مع الأمر في :

- ١ - أن يكون كل واحد منهما لا بد فيه من اعتبار الاستعلاء .
- ٢ - أنهما يتعلقان بالغير ، فلا يمكن أن يكون الإنسان أمراً لنفسه أو ناهياً لها .
- ٣ - أنهما لا بد من اعتبار حال فاعلهما في كونه مريداً لهما . ويختلفان في :
 - ١ - أن كل واحد منهما مختص بصيغة تخالف الآخر .
 - ٢ - أن الأمر دال على الطلب ، والتهي دال على المنع .
 - ٣ - أن الأمر لا بد فيه من إرادة مأمورة ، وأن التهي لا بد فيه من كراهية منهي (٣) .

ولكن صيغة واحدة هي المضارع القرون بدلاء الناهية إلزامية ، كقولہ تعالیٰ : قُولُوا لِمَنْ كُنْتُمْ يَتَّقُونَ وَلَا يَتَّقُوا بَعْضُكُمْ يَتَّقُ بَعْضًا (٤) :

وقد تخرج هذه الصيغة إلى معانٍ مجازية كثيرة منها :

- ١ - الدعاء : ويكون صائراً من الأدنى إلى الأعلى ، كقولہ تعالیٰ : رَبَّنَا لَا تُؤَلِّمْنَا إِنَّا نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا (٥) وقوله : رَبَّنَا لَا تُؤَلِّمْنَا قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا (٦) .

وقوله كعب بن زهير :

- لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ لِي الْأَقْوَالُ
- ٢ - الاتعاس : ويكون صائراً من أخ إلى أخيه أو صديق إلى صديقه ، كقولہ

(١) الانعام ٩٩ .

(٢) تنظر هذه الأبحاث في النحوي ص ١٨١ ومفتاح العلوم ص ١٥٢ ، والإيضاح ص ١٤٢ ، وشروح الخليل ص ٢ من ٢١٣ .

(٣) الطراز ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٤) الحجرات ١٢ .

(٥) البقرة ٢٨٦ .

(٦) آل عمران ٨ .

تعال على لسان هارون يخاطب أخاه موسى : «قال : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي» (١) .

وقول العري :

لا تطوي السر عني يوم تأتيه فإن ذلك ذنب غير مختصر
٣. قمعي : ويكون النهي موجهاً إلى مالا يعقل ، كقول الخساء :

أعيش جوداً ولا تجحد
ألا يكيان لصخر الندي

٤. الصبح : كقولته تعالى : «ولا يأتى كاتب أن يكتب كما علمه الله» (٢)

وكقول الشاعر :

لا تحذفن على صدقي ولا كذب فما يهيك إلا للالم الحليف

٥. التهديد : كقولنا لمن لا يمثل للامر : «لا تمثل أمري» :

٦. التوبيخ : كقول الشاعر :

لا تش عن حكني وثأني مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

٧. التحقير : كقول الحطيئة :

دع للكلام لترحل ليبتها والحد فالك أنت الطاعم الكاسي

وقول المتنبي :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبد لأجاس منكبد

٨. التيسير : ومنه قوله تعالى : لا تعجلوا فقد كفرتم بعد إيمانكم» (٣) وقول

المتنبي في مدح سيف الدولة :

لا تطين كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم بدأ ختموا

٩. بيان العقوبة : كقولته تعالى : «ولا تحسبن الله غافلاً» (٤) ، أي عاقبة

الظلم للعذاب لا الغفلة (٥)

(١) س ٩٤ .

(٢) البقرة ٢٨٢ .

(٣) التوبة ٦٦ .

(٤) إبراهيم ٤٢ .

(٥) تنظر هذه الأقسام الجزائية في مفتاح العلوم ص ١١٥٢ ، والإيضاح ص ١١٤٥ .

وشروح التلخيص ج ٢ ص ٣٢٥ .

المبحث الثاني

الاستفهام

الاستفهام طلب العلم بشئ لم يكن معلوما من قبل ، وهو الاستخبار ، الذي قالوا فيه انه طلب خير ما ليس عندك أي طلب الفهم : ومنهم من فرق بينهما وقال ان الاستخبار ما سبق أولا ولم يفهم حق الفهم ، فإذا سألت عنه ثانيا كان استفهاما (١) ولكن المستعمل في الدراسات البلاغية مصطلح «الاستفهام» وللإستفهام أدوات كثيرة وهي نوعان :

الأول : حرقان ، وهما الهمزة وهل : وتستعمل الهمزة لطلب التصديق وهو ادراك النسبة أي تعيينها مثل : « أقام محمد ؟ » الجواب يكون عنها « نعم » أو لا : والتصور وهو ادراك المفرد أي تعيينه مثل : « أقام محمد أم قعد ؟ » والجواب عنها يكون بتحديد المفرد :

أما وهل ، فلا يطلب بها غير التصديق مثل :

هل قام محمد ؟ والجواب عنها يكون به «نعم» أو «لا» :

الثاني : أسماء ، ولا يطلب بها إلا التصور ، وهي :

١. ما : يطلب بها شرح الشئ ، مثل : « ما البلاغة ؟ » :

٢. من : للسؤال عن الجنس مثل : « من هذا ؟ »

٣. أي : للسؤال عما يميز احد المشاركين في أمر يعمهما ، مثل : « أي ثياب عندك ؟ »

٤. كم : للسؤال عن العدد ، مثل : « كم كتابا عندك ؟ » :

٥. كيف : للسؤال عن الحال ، مثل : « كيف محمد ؟ » :

٦. أين : للسؤال عن المكان ، مثل : « أين كنت ؟ » :

(١) العاصمي ص ١٨١ ، والبرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٢٦ .

٧. أَنَّى : تستعمل تارة بمعنى «كيف»، كقوله تعالى : « أَنَّى يُخْبِي هذه آفة بَعْدَ مَوْتِهَا » (١).

وتارة بمعنى «من أين» كقوله تعالى : « يا عِزُّمُ أَنَّى لك هذا ؟ » (٢) ،
وتارة بمعنى «متى» ، مثل : « أَنَّى تسافر ؟ » .

٨. مَتَى : للسؤال عن الزمان ، مثل : «متى جئت ؟ » .

٩. أَيَّانَ : للسؤال عن الزمان ، كقوله تعالى : «بِسْأَلِ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؟» (٣)
وقوله : «بِسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ » (٤)

ولكن الاستظام قد يخرج عن معانيه الأصلية إلى معاني كثيرة منها :

١. التضي : كقوله تعالى : «عل جزاءُ الاحسانِ إِلَّا الاحسانُ» (٥)
وقول البحري :

هل الدهر إِلَّا غمرةٌ وانجلاؤها وشيكاٌ وإلا ضيقةٌ وانقراجها

٢. التعجب : كقوله تعالى على لسان سليمان - عليه السلام - :

«مَالِي لَا أَرَى الْهَيْدَ هَيْدًا؟» (٦) وقوله : «ما هذا الرسولُ بِأَكْثَلُ
الْعُلَمَاءِ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ» (٧)

وقول الثعني :

أَبْنَتْ الدَّهْرُ عِنْدِي كَلِّ بَسْت فكيف وصلت أنت من الزحام؟

(١) البقرة ٢٥٩ .

(٢) آل عمران ٣٧ .

(٣) القيامة ٩ .

(٤) الفاتحة ١٢ .

(٥) الرحمن ٦٠ .

(٦) همل ٢٠ .

(٧) الفرقان ٧ .

٣. الصبي : كقولك تعالى : «فهل لنا من شفعاء فشفعوا لنا؟» (١)

وقول النبي :

أبدي الربيع أي دم أراقسا وأي قلوب هذا الركب شافسا

٤. الظهير : كقولك تعالى : «ألم يجدهك يتيماً فأوى، ووجدك ضالاً فهدى» (٢)،

وقوله : «ألم نشرح لك صدرك؟ ووضعنا عنك وزرك» (٣)، وقوله : «ألم يجعل

كبدك هم في الغليل؟» (٤).

وقول ابن الرومي :

أنت المرأة تجبي كلَّ حَمْدٍ إذا سالم يكنَّ لِحَمْدٍ جانبٍ

٥. العظيم : كقول النبي في الرثاء :

مَنْ لِلْمَحَالِّ وَالْمَحَالِّ وَالسَّيِّ

فقدت بقصدك نَيْسراً لا يَطْلُعُ

ومن التخلُّدِ على الصيِّفِ خَلْفَةً ضاعوا ومثلك لا يكاد يَضِيحُ

وقول الآخر :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كبريهم وسداد نغسراً

٦. التحفيز : كقولك تعالى على لسان الكفار : «ألعذا الذي بعث الله رسولا؟» (٥).

وقول الشاعر :

قد دُعِ الوعيد فما وعيدك ضالري أطنين أجنحة الدُّبابِ بضمير؟

٧. الاستيقاظ : كقولك تعالى : «حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه من

نصر الله؟» (٦).

(١) الأعراف ٥٢ .

(٢) هـن ٦ - ٧ .

(٣) الأنشراح ١ - ٢ .

(٤) قلم ٢ .

(٥) هود ٤١ .

(٦) هود ٢١٤ .

وقول الشاعر :

حتى متى أنت في التبر وفي الحب واللوث تحرك يهوي فافراً فساه
٨ - الاستبعاد : كقوله تعالى : «أنتي لهم الذكري وقد جاءهم رسول مبين :
ثم تولوا عنه ، وقالوا : مسلم جهن ؟» (١) أي يستبعد ذلك منهم بعد أن جاءهم
الرسول ثم تولوا عنه .

وقول أبي تمام :

من لي بإنسان إذا أقشبه وجهك كان الخلم ردّ جوابه ؟
وقول المتنبي :

وما قتلت الأحرار كالغفر عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليد ؟
٩ - الأكل : وهو على وجهين :

١ - أكل التوبيخ ، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون ، مثل : «أعصيت ربك ؟» :
٢ - وإما للتكليب بمعنى ولم يكن ، كقوله تعالى : «أفأصفاكم ربكم
بالبين واتخذ من اللائكة إنايا؟» (٢) ، وقوله : «اصطفى البين على البين ؟» (٣) :
أو بمعنى «لا يكون» كقوله تعالى : «أنلثرك مكموها وأنتم لها كارهون ؟» (٤) :
وعليه بيت امرئ القيس :

أيقظني وللشرف مضاجعي ومستوتة زرق كآباب أخوال ؟
وقول الآخر :

أترك إن قلت دراهم خالدي زيارته ؟ إني إذن للثبم
١٠ - التهمك : كقوله تعالى : «أصلحك فأمرك أن تترك ما بعد آهولنا أو أن
تتكل في أمواتنا ما نشاء ؟» (٥) :

(١) البعث ١٢ - ١٤ .

(٢) الأحرار ٤٠ .

(٣) الصفات ١٥٢ .

(٤) هود ٢٨ .

(٥) هود ٨٧ .

وقول للتني :

أني كل يوم ذا القمسطُ قادمٌ فعاه على الاقدام للوجه لآلمُ
١١ - الصوية : كقولہ تعالیٰ : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» (١) : وقوله : « وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ؟ » (٢) :
وقول للتني :

ولست أبالي بعد إدراكي العمل أكان ثراً ما تناولت أم كسباً
١٢ - الوعيد : كقولہ تعالیٰ : «أَلَمْ تُهْلِكْ الْأُولَيْنَ ؟ » (٣) :

١٣ - التهويل : كقولہ تعالیٰ : «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ :
من فرعون إنه كان عالياً من السرفين» (٤) ، بلفظ الاستفهام وهي قراءة ابن عباس
- رضي الله عنهما - . لما وصف الله تعالى العذاب بأنه مهين لشدة وقفاعة شأنه
أراد أن يصور كنهه فقال : «مَنْ» فرعون ؟ أي أتعرفون من هو في فرط عتوه
وتجبره ؟ ما ظنكم بعذاب يكون هو للعذب به ؟ .

١٤ - التنبيه : كقولہ تعالیٰ : «فَإِنْ تُلَاحِظُونَ» (٥) ، وقوله : «أَلَمْ تَرِ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ
مَدَّ الظِّلَّ؟» (٦) ، وقوله : «أَلَمْ تَرِ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ؟» (٧) ، وقوله :
« أَلَمْ تَرِ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخَسَّبُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ؟ » (٨) :
١٥ - التشويق : كقولہ تعالیٰ : «وَابْأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ
من عذاب أليم ؟ تَوَكَّمُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ،
ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٩) ، وقوله : « قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ

(١) البقرة ٦ .

(٢) الأنبياء ١٠٩ .

(٣) الرسلات ١٩ .

(٤) المدثر ٣٠ - ٣١ .

(٥) التكاوير ٢٦ .

(٦) الفرقان ١٥ .

(٧) القيل ١ .

(٨) الحج ٦٣ .

(٩) الصف ١٠ - ١١ .

عل شجرة الخُلْد ومثلك لايل؟ (١).

١٦ - الأمر : كقوله تعالى: وهب أنتم مسلمون؟ (٢) وقوله: وهب أنتم مسلمون؟ (٣) وقوله: وهب أنتم مسلمون؟ (٤).

١٧ - النهي : كقوله تعالى: وما فرَكه بربك الكريم؟ (٥) وقوله: أنتخسئونهم قاله: أنتخسئونهم؟ (٦) بدل قوله: فلا تخسروا الناس (٧).

١٨ - العرض : كقوله تعالى: ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ (٨) وقوله تعالى: ألا تقاتلون قوماً نكروا آياتهم؟ (٩).

١٩ - التحضيض : كقوله تعالى: وأن اتب القوم الظالين. قوم فرعون ألا يتفكرون؟ (١٠) أي: انهم وامرهم بالانقضاء.

٢٠ - التجميع : كقوله تعالى: وعلقنا الكتاب لا يبادر صغيرة ولا كبيرة؟ (١١) : البكيث : كقوله تعالى: وأنت قلت للناس اتخذوني ولياً من دون الله؟ (١٢).

٢١ - الإرشاد : كقوله تعالى: وأجعل فيها من يفسد فيها؟ (١٣).

٢٢ - الإلهام : كقوله تعالى: وما تلك بيمينك؟ (١٤).

(١) طه ١٢٠.

(٢) هود ١٤.

(٣) المائدة ٩١.

(٤) النساء ٧٥.

(٥) الانقطار ٩.

(٦) النوبة ١٣.

(٧) المائدة ٤٤.

(٨) النور ٢٢.

(٩) النوبة ١٣.

(١٠) الشعراء ١٠-١١.

(١١) النكهة ٤٩.

(١٢) المائدة ١١٦.

(١٣) البقرة ٣٠.

(١٤) طه ١٧.

٢٤ - التكميل : كقوله تعالى : « وكنم من قرية أهلكناها ٢ » (١) وقوله : « وكآين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أهدئناها وإليّ المصير » (٢) ومنه قول الشاعر :

كسم من دليّ لما قد صرت أنعمه ؟ ولو صحا قلباً عنها كان لي نعا
٢٥ - الاختيار والتحليل : كقوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حيناً من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » (٣) .

هذه أهم الأغراض التي يخرج إليها الاستفهام عن معناه الحقيقي (٤) ، وهي كثيرة وقد يتداخل بعضها ببعض ، ولكن للدق السليم وقرائن الأحوال تشير إلى الغرض وتحدده .

وهذا التقسيم الذي قام عليه بحث الاستفهام عمدة البلاغيين غير أن الذين عنوانا بعلوم القرآن يبحثونه بصورة أخرى ويقسمونه تقسيماً آخر ، فالزركشي (٥) يقسمه إلى : الاستفهام بمعنى الخير وهو ضربان :

أحدهما : نقي ، ويسمى استفهام النكار ، والمعنى فيه هل إن ما بعد الأداة منفي ، ولذلك نصحه « إلا » كقوله تعالى : « فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » (٦) والثاني : اثبات ، ويسمى استفهام تقرير ، كقوله تعالى : « أأنت الذي تكذب بالبرية » (٧) أي : أنا ربكم . وبأني هذا على وجوه كثير منها : مجرد الاثبات ، والاثبات

(١) الأعراف ١ .

(٢) الحج ٢٨ .

(٣) الإنسان ١ .

(٤) ينظر الصاحي ص ١٨١ ، وفتح الماعز ص ١٥٠ ، والمصباح ص ٤٢ ، والامتناع ص ١٢٧ ، وشروح الفخر ص ٢٩٠ .

(٥) ينظر كتاب البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٣٢٦ وما بعدها .

(٦) الأعراف ٣٥ .

(٧) الأعراف ١٧٢ .

مع الافتخار ، والتوبيخ ، والعتاب ، والبيكيت ، والتسوية ، والتعظيم ، والتحويل ،
والتسهيل والتخفيف ، والتفجع ، والتكبير ، والاسترشاد .

والقسم الثاني : الاستفهام المراد به الاتشاء ، وهو على شروب : مجرد الطلب ،
والنهي ، والتحليل ، والتذكير ، والتنبيه ، والترغيب ، والتمني ، والدعاء ،
والعرض ، والتعطيل ، والاستعطاف ، والاياس ، والايئاس ، والتهكم
والاستهزاء والتحقير ، والتعجب ، والاستبعاد ، والتوبيخ .

وهذا القسم أكثر دقة غير ان التمييز بين اغراض النوعين صعب ، ولذلك كان
الجمع بين النوعين أكثر سهولة وأقرب إلى المدارك كما فعل علماء البلاغة .

المبحث الثالث

الشمي والثناء

الشمي: الشمي توقع أمر محروب في المستقبل ، والفرق بينه وبين التربي ، أنه يدخل المستحيلات والتربي لا يكون إلا في المكثات (١) : ولكن البلاغيين يميزون بين توقعين في الشمي :

الأول : توقع الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه مستحيلاً ، كقوله تعالى : « يا أيها كُنتُ معهم فَأَلَوْزَ فوزاً عظيماً » (٢) : وقول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فلتعبره بما فعل للشبيب

الثاني : توقع الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه ممكناً غير مطمئع في نيله ، كقوله تعالى : « وإليت لنا ميشلٌ ما آؤني قارون » (٣) :

والأداة الموضوعة للشمي «إليت» وقد تستعمل ثلاثة أحرف للدلالة عليه :

أحدها : هل ، كقوله تعالى : « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا » (٤) :

والثاني : لو ، سواء كانت مع فود ، كقوله تعالى « فودوا لو تدعوا فيبدعون » (٥) أو لم تكن كقوله تعالى : « ولو أن في يكم قوة » (٦) ، وقوله : « ولو أن لنا كرة » فترأ منهم » (٧) :

(١) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) النساء ٧٣ .

(٣) القصص ٧٩ .

(٤) الامرات ٥٣ .

(٥) سورة ٩٥ .

(٦) هود ٨٠ .

(٧) البقرة ١٦٧ .

الثالث: لعل ، كقولہ تعالیٰ : وَلَعَلِّيْ أُنَبِّئُكَ الْاَسْبَابَ اَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ
فَأُطَّلِعَ إِلَىٰ اِلٰهِ مُوسًى (١) .

ومعقول الشاعر

أَسْرِبُ الْقَطَا هَلْ مِنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ لَعَلِّيْ أَلِىَ مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ (٢)

التداء :

التداء التصويت بالمشادي ليقبل ، أو هو طلب القبال للدعو على لداعي ، وله
أدوات هي :

- ١ - الهمزة : وتكون لتداء القريب ، كقول امرئ القيس :
أَطَافُ مَهَلًا بِعَظْمٍ هَذَا التَّدَاوُلُ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ صِرْمِي جَمَلِي
- ٢ - آ - حرف لتداء البعيد ، وهو مسجوع لم يذكره سيبويه ، وذكره غيره (٣) .
- ٣ - أيا : وتكون لتداء البعيد ، وقيل : لتداء القريب والبعيد ، كقول الشاعر :
أَيَا جَبَلِيْ لَعَمَانَ بِاللَّهِ عُلَّيْهَا نَسِيمُ الصَّبَا بِخَلْعِي إِلَىٰ نَسِيمِهَا
- ٤ - أي : لتداء البعيد .
- ٥ - أي : لتداء البعيد .
- ٦ - هيا : لتداء البعيد .
- ٧ - وا : لتداء البعيد ، وهي في الأصل حرف لتداء مخصص بباب التدة نحو فواحمدها ،
وأجاز بعضهم استعماله في التداء الحقيقي (٤) .
- ٨ - يا : لتداء البعيد ، وقد ينادي به القريب تأكيداً ، وقيل : هي مشتركة بين
القريب والبعيد ، وهي أكثر أحرف التداء استعمالاً ، كقولہ تعالیٰ : يَا آدَمُ اسْكُنْ

(١) غافر ٣٦-٣٧ .

(٢) ينظر التي في مفاتيح العلوم ص ٢٤٧ ، والأيضاح ص ١٣١ ، وشرح التلخيص ج ٢ ص ٢٣٨ ،
والطراز ج ٣ ص ٣٩١ ، والبرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٣٢١ .

(٣) مفتي اليب ج ١ ص ٢٠ .

(٤) مفتي اليب ج ٢ ص ٣٦ .

أَنْتَ وَزَوَّجُكَ الْجَنَّةَ (١) وقد تحذف كما في قوله تعالى: «يُؤَسِّفُ الْأَرْضَ»
عن هذا (٢).

ومنه قول ابن زيدون :

باساري البرق غامٍ القصر واستريحه من كان حيرت الهوى والود يسقينا
ويانسيم الصبا بطخٍ تحسبنا من لو حل البعد حيناً كان يحينا
وقد اشار سيويه إلى استعمال حروف النداء القريب مرة ولبعيد نارة اخرى،
وقال: «فلما الاسم غير المتبوع بفتحة بخمسة اشياء: (يا، وه، آيا، وهيا، وهأ، وه)
وبالالف نحو قولك: وأحار بن عمرو، إلا ان الاربعة غير الالف قد يستعملونها
إذا أرادوا أن يعدوا أصواتهم لشيء المتراخي عنهم أو الانسان المعرض عنهم
الذي يروونه أنه لا يقبل عليهم إلا باجتهاد، أو التائب المستل. وقد يستعملون هذه
التي لمد في موضع الالف ولا يستعملون الالف في هذه المواضع التي يمدون فيها.
وقد يجوز لك ان تستعمل هذه وان شئت حذفتهن كلهن استثناء (٣).
وقد يخرج النداء إلى أغراض مختلفة منها :

١ - الإغراء والتحذير: وقد اجتمعا في قوله تعالى: «تَأْتِيكَ الْأُمُّ وَسَيِّهَا» (٤)
وقول المتنبي :

يَأْتِيكَ النَّاسُ إِلَّا فِي مَعَامِلِي فيك الخصام وأنت الخصم والخكم
٢ - الاستعانة : مثل : «يا ناصر الدين».

٣ - التلوية: كقول المتنبي :

واحر قلباه بمن قلبه شبيب ومن جسمي وحالي عنده سقيم
٤ - التعجب : كقوله تعالى: «يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادَةِ» (٥)، لان الحسرة لانادي

(١) البقرة ٢٥.

(٢) يوسف ٢٩.

(٣) كتاب سيويه ج ١ ص ٢٢٥.

(٤) الشمس ١٣.

(٥) يس ٣٠.

وانما تنادي الأشخاص لأن فائدته التيه ولكن للمنى على التعجب كقوله :
«يا صبيبا ليم قلت» (١) .

٥ - الاعصاص: مثل: «علي أيبأ الرجل يُعتمد» ، و«اغفر اللهم لنا أيتها
العصاة» ، أي: مخصصاً به ذنوب الرجال ، و«اغفر لنا مخصصين من بين العصاة» .

٦ - التيه : كقوله تعالى: «ويايتي ميت قبل هذا» (٢) ، لأن حرف التاء يختص
بالأسماء:

٧ - المحصر : كقول ابن الرومي :

يا صبيبا وأين مني شبابي آذنتني حباله بياض شهاب
لتهب نفسي على نيسي ولهوي تحت أمانه الدخان الرطاب
وقول الآخر:

أيا قبيرو متعبر كيف وارت جوده وقد كان منه البر والجرم متعرا
هذه أساليب الخير والانشاء المختلفة ، وقد اتضح أن لكل أسلوب دلالة ،
وهي غير الإعراب وحركاته ، بل ماوراء ذلك من المعاني التي تحملها الجمل
والعبارات: وإذا كان لكل من الخير والانشاء دلالة فإن احدهما قد يقع موقع
الآخر لأغراض بلاغية (٣) : والعمدة في ذلك اللوق الملهذ والاطلاع الواسع
وقرائن الأحوال:

وأساليب الخير والانشاء مدى رحب يجرول فيه الأدباء ويتصرف فيه الشعراء
وقد أخذ بها القدماء فأحسنوا وأضافوا ، وهي من وسائل التعبير وطرقه التشعبة:
ويقدر الأديب على أن يتوسع فيها وأن يأتي بما لم يسبق إليه إذا أحسن استخدامها
وكان له فوق رفيع .

(١) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) مريم ٢٢ .

(٣) ينظر مفتاح العلوم ص ١٥٤ ، والأبصار ص ١٤٦ ، وشرح التلخيص ج ٢ ص ٢٢٨
والبرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، والطراز ج ٢ ص ٢٩٢ .

الفصل الرابع أحوال الجملة البحث الأول التقديم والتأخير

الجملة كلمات تألفت لتدل على معنى ، أو هي — كما يقول النحاة — : «اللفظ للقبيل فائدة بحسن السكوت عليها» (١). ولا تكون الجملة تامة إلا إذا استوفت ركبتين هما: السند اليه والسند ، وإذا ما حذف منها أحد هذين الركبتين فإن للنحاة يلجأون إلى التقديم ليستقيم الكلام.

واستعمل القدماء هذين المصطلحين فقال سيوريه : «هذا باب السند والسنداليه وهما ما لا يستغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد التشكك منه بَدْءاً ، فمن ذلك الأسم البتداء والمبني عليه وهو قولك : «عبدالله اخوك» وهذا أخوك» ومثل ذلك قولك : «يذهب زيد» . فلا بد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدءاً من الآخر في الابتداء. ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك «كان عبدالله متطلقاً» وليت زيدا متطلقاً» لأن هنا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج البتداء إلى ما بعده» (٢).

ولم يأخذ النحاة بهذين المصطلحين بعد سيوريه وإن اثاروها في كتبهم ، ولما اضمحلوا ما يقابلهما من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل وغيرها ، ولكن علماء البلاغة اغلوهما ونوا عليهما دراستهم في علم المعاني ، فالتحصرت في السند والسنداليه وما بينهما من ذكر وحذف ، وتقديم وتأخير ، وقصر : ولا يتجاوز ذلك إلا حينما يتحدثون عن الفصل والوصل ، والساواة والإيجاز والاطناب ، وهو يتجاوز لا يبعد عن الجملتين في أكثر الأحيان . وكان أكثر البلاغيين تمسكاً بهذا المنهج رجال المدرسة الكلامية كالسكاكي والقزويني وشرائح التلخيص ، أما عبد القاهر الجرجاني وضياء الدين بن الأثير وغيرهما من أعلام المدرسة الأدبية فلم ينتهجوا هذا الاتجاه ولم ينتهوا هذا المنهج ، وإنما كانوا يحكمون اللوق ويتحسون مواطن الجمال

(١) شرح ابن عثيمين ج ١ ص ١١١.

(٢) كتاب سيوريه ج ١ ص ٧.

في الكلام. وينتج عن ذلك أن مزقت البلاغة شراً ممزق فكان الخذف في عدة مواضع ،
والذكر في ابواب منفردة ، لانهما درساً في السند اليه مرة وفي السند تارة وفي
متعلقات الفعل تارة ثالثة . ومثل هذا يقال في الموضوعات التي بحثها عبد القاهر
وابن الاثير في فصول موحدة جمعت الروعة والشفق وإنارة السيل وهذيب اللؤلؤ
ونجمة اللذة الادبية .

وتتصل بأحوال الجملة موضوعات كثيرة ، غير ان الاختصار على أهمها وعلى ماله
علاقة بالاساليب المنفردة أقرب إلى الدراسات البلاغية ، ولذلك سيكون الوقوف على
التقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والقصر .

التقديم والتأخير باب تبارى فيه الاساليب وتظهر الواهب والقدرات ، وهو
دلالة على التمكن في القصاصة وحسن التصرف في الكلام ووضع الوضع الذي
يتناسبه المعنى . يقول الزركشي : وهو أحد أساليب البلاغة ، فأنهم أثروا به دلالة على
تمكنهم في القصاصة وملكتهم في الكلام والقيادة لهم ، وله في القلوب أحسن موقع
وأعذب ملأى (١) .

واستقروا في عدة من المجاز ، فمنهم من عدّه مهلاً في تقديم ماريته التأخير كالقصور
وتأخير ماريته التقديم كالفاعل ، نقل كل واحد منهما عن رأيته وحقه . وقال الزركشي :
والصحيح انه ليس منه ، فإن المجاز نقل ما وضع له إلى ما لم يوضع (٢) :
والعاني لها في التقديم خمسة أحوال :

الاولى : تقدم العلة على معلولها عند القائلين بها كتقدم الكون على الكائنة والعلم
على العالمة .

الثانية : التقدم بالذات ، كتقدم الواحد على الاثنين ، على معنى ان الوحدة لا يمكن
تحقق الاثنينية إلا بعد سبقها :

(١) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٢٢ .

(٢) البرهان ج ٣ ص ٢٢٢ ، وينظر القواعد ص ٨٢ .

الثالثة: التقديم بالشرف كتقديم الأنبياء على الاتباع والعلماء على الجهال،
الرابعة: التقديم بالمكان كتقديم الإمام على المأموم وتقدم من يقرب إلى الحافظون
من تأخر عنه.

الخامسة: التقديم بالزمان كتقديم الشيخ على الشباب والاب على الابن (١)، وهذه المعاني
لا يفتي معروفة عتلاً ولذلك لا يقع فيها تفاوت أو تفنن في التعبير:
وتقديم الشيء على وجهين:

الأول: تقديم على نية التأخير، وذلك في كل شيء اقر مع التقديم على حكمه الذي
كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ اذا قدم على المبتدأ، والمفعول
اذا قدم على الفاعل: والتقديم لا يخرج الخبر أو المفعول عما كانا عليه قبل التقديم.
الثاني: تقديم لاعتق نية التأخير، ولكن على أن يفتل الشيء عن حكمه إلى حكم
ويجعل باباً غير بابيه وأمرأياً غير أمرأيه، وذلك أن يعدل إلى اسمين يحتمل كل
واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خيراً له فيقدم تارة على ذلك والآخرى
ذاك على هذا: ومثاله: «زيد المنطلق» و«المتعلق زيدة» فالتقديم والتأخير يؤثران
في معنى الجملة، لأن ما يقدم هو المبتدأ أو المسند إليه وما يؤخر هو الخبر أو المسند،
وكذلك «ضربت محمداً» و«محمداً ضربته» ف«محمداً» في الجملة الأولى مفعول به،
وفي الثانية «مبتدأ». وهذا يختلف عن النوع الأول الذي لا يخير فيه حكم التقديم
أو التأخير، ففي «منطلق زيدة» و«زيد منطلق» علل «زيد» مستنداً إليه و«منطلق»
مستنداً، وفي «ضرب زيد عمرو» و«ضرب عمرو زيدة» بقي «زيد» مستنداً إليه
- فاعلاً - و«عمرو» مفعولاً به (٢).

وباب التقديم والتأخير واسع لانه يشمل كثيراً من أجزاء الكلام، فالمستند إليه
يقدم لأغراض بلاغية منها:

(١) المراجع ٢ ص ٦٦.

(٢) ينظر تفصيل ذلك في دلائل الإيضاح ص ٨٢ وما بعدها.

١ - انه الاصل ولا منقضى للعدول عنه كتقديم التفاعل على التبعول ، والابتداء على
الخير ، وصاحب الحال عليها :

٢ - أن يتمكن الخيري من ذهن السامع لأن في الابتداء تشويهاً إليه ، كقول المعري :

ولقد حاربت البشرية فيه حَيَّوَانٌ مستحدثٌ من جماد
٣ - أن يقصد تعجيل السرِّ ان كان في ذكر السند اليه تفاؤل : ومثل سعدى

داركه أو السادة ان كان فيه ما يبطئه مثل : «السفاح في دار صديقك» :

٤ - إيهام أن السند اليه لا يزول عن الخاطر مثل : «الله ربي» .

٥ - إيهام التلذذ بذكره ، كقول الشاعر :

يا الله يا ظلماتِ القاعِ فُلْنِ لَنَا ليلَتي مكنْ أم ليل من البشَرِ ؟

٦ - تخصيص السند اليه بالخير الفعلي إن ولي حرف التاني مثل : «هأنا قلت هذا»
وقول المتنبي :

وما أنا أسفمت جيمي به ولا أنا أسفرت في القليب نارا

٧ - تقوية الحكم وتقريره : كقوله تعالى : «والذين هم بربهم لا يشركون» (١)

ومما يدخل في هذا الحكم تقديم «مثل» و«غيره» ، وقد قال عبد القاهر : «مما يرى

تقديم الاسم فيه كالتلزم» مثل : «وغيره في نحو قوله :

مِثْلُكَ يُشْفِي الشَّرْنَ عَنْ صَوْنِهِ وَيَسْتَرْدُّ النَّمْعَ عَنْ غَسْرِهِ

وكذلك حكم «غيره» اذا سلك به هذا السلك (٢) ، ومنه قول المتنبي :

غيري بالكثير هذا القساس يشطدح إن قاتلوا جيتوا أو جدوا شجوا

وقال القزويني : «واستعمال» مثل : «وغيره» هكذا مركز في الطباع ، واذا تصفحت الكلام

وجدتهما يقدمان أبداً على الفعل اذا نحي بهما نحو ما ذكرناه ولا يستقيم للمشي

فيهما اذا لم يقدمهما : «والسر» في ذلك أن تقديمهما يفيد تقوي الحكم (٣) .

(١) المونسون ٥٩ .

(٢) دلائل الإجماع ص ١٠٦ .

(٣) الإيضاح ص ٦٤ .

٨ - القادة العموم: مثل: «كل انسان لم يقم» فيقدم ليفيد للي القيام عن كل واحد من الناس (١).

ويقدم السند لافراض منها:

١ - تخصيص السند بالسند اليه: كقوله تعالى: «ولله ملك السموات والارض» (٢) وقوله: «ولكم دينكم ولي دين» (٣).

٢ - التنبيه من أول الامر على أنه غير لائعت، كقول حسان بن ثابت يمدح النبي - صلى الله عليه وسلم -:

له هيمٌ لا تمسح لمكسبارها وهيمته الصغرى أجل من ذلك فخر
له راحة لو أن معشرا جودها على البركان لير أئدى من البحر

٣ - التفاضل بتقديم ماير، مثل: «عليه من الرحمن ما يستحقه».

٤ - التثويت إلى ذكر السند اليه: كقول محمد بن وهيب:

ثلاثة شرقي الدنيا يهجنها شمس الفضي وأبو اسحاق والقمر
وقول المعري:

وكأنار الحياة فمن رماد أولئها ، وأولئها دخان (٤)
ومن التقديم: تقديم متعلقات الفعل عليه كلقول والجار والمجرور والحال ويكون ذلك لافراض منها:

١ - الاختصاص: كقوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين» (٥).

٢ - الاهتمام بالتقديم: كقوله تعالى: «قل أغير الله أبلي رباً وهو رب كل شيء» (٦).

٣ - التبرك: مثل: «فرأنا قرأت».

(١) ينظر مفاتيح العلوم ص ٩٣ ، والإيضاح ص ٥٢ ، وشرح التلخيص ج ١ ص ٣٨٩ .

(٢) آل عمران ١٨٩ .

(٣) الكافرون ٦ .

(٤) مفاتيح العلوم ص ١٠٥ ، والإيضاح ص ٦٠١ ، وشرح التلخيص ج ٢ ص ١٠٩ .

(٥) القاتمة ٥ .

(٦) الانعام ١٦٤ .

٤ - ضرورة الشعر ، وهو كثير لا يحصره حد .

٥ - رعاية الفاصلة : كقوله تعالى : «فَمَا يَتَّبِعْ فَلَاتَقْهَرْ» ولما سأل : «فَلَا تَنْهَرْ» (١) :

وهذه الاغراض كثيرة ، وقد ذكر الرمخشي أن تقديم هذه الأنواع للاختصاص غير ان ابن الأثير يرجع ذلك إلى وجهين :

الأول : الاختصاص ، كقوله تعالى : «وَقُلْ أَفْبَيَّرَ اللَّهُ وَأَمْرُوهُنَّ أَعْبُدُ أَبْنَاءَ الْجَاهِلُونَ» ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبيلك : «لَنْ أَسْرُكَتَ لِيَتَحَبَّبَنَّ عَصِيكَ» ولتكوننَّ من الخاسرين ، بقر الله قاعبكم وكُنَّ من الشاكرين» (٢) :

قائه إنما قيل «بَلِ اللَّهُ قَاعِدٌ» ولم يقل «بَلِ اعْبُدِ اللَّهَ» لأنه إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره ، ولو قال «بَلِ اعْبُدْ» لجاز الإيقاع الفعل على أي مفعول شاء : الثاني : يختص بنظم الكلام ، كقوله تعالى : «وَأَيُّكَ تَعْبُدُ» وإياك تستعين» . وقد ذكر الرمخشي في تفسيره أن التقديم في هذا الوضع قصد به الاختصاص وليس كذلك فإنه يقدم المفعول فيه عمل الفعل للاختصاص ، وإنما قدم مكان نظم الكلام ، لأنه لو قال : «تعبدك وتستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله : «وَأَيُّكَ تَعْبُدُ» وإياك تستعين» : ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى : «والحمد لله رب العالمين» ، الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين» (٣) فجاء بعد ذلك قوله : «وَأَيُّكَ تَعْبُدُ» وإياك تستعين» وذلك لمراعاة النظام السجعي الذي هو على حرف النون ، ولو قال «وتعبدك وتستعينك» لذهبت تلك الغلاوة وزال ذلك الحسن ، وهذا غير خلاف على أحد من الناس فضلاً عن أرباب علم البيان» (٤) .

وهناك أنواع كثيرة من التقديم لا ترجع إلى المستد إليه والمستد ولا إلى متعلقات الفعل عليه وإنما ترجع إلى أمور كثيرة ، يحلها التركيب (٥) في أنواع التقديم

(١) نفس ٩ - ١٠ .

(٢) الزمر ٦٤ - ٦٦ .

(٣) الفاتحة ٢ - ٤ .

(٤) اللؤلؤ الشرح ج ٢ ص ٣٩ ، وينظر الطراز ج ٢ ص ١٦ .

(٥) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٢٨ .

والشاعر ، وفسها إلى ما قدم والنعى عليه ، وما قدم والنية به التأخير والتقسيم الأول واسع فسيح ومنقضياته كثيرة ذكر منها خمسة وعشرين لونا ، وأهمها :

١. الصيق : كقوله تعالى : «ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى» (١)

٢. الذات : كقوله تعالى : «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم» (٢) :

٣. العلة والسببية : كقوله تعالى : «إياك نعبد وإياك نستعين» (٣) ، لأن العبادة سبب حصول الإعانة .

٤. الجزئية : كقوله تعالى : «غفور رحيم» (٤) ، لأن لفظة سلامة والرحمة غنية ، والسلامة مطلوبة قبل الغنىمة .

٥. التعظيم : كقوله تعالى : «ومن يطع الله والرسول» (٥)

٦. العلية والكثرة : كقوله تعالى : «فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم متقصد» ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله» (٦) .

٧. الاهتمام عند المخاطب : كقوله تعالى : «فحبوا بأحسن منها لوردها» (٧)

٨. مراعاة الأفراد : كقوله تعالى : «مالك : اليون» (٨) ، فإن المفرد سابق على الجمع .

٩. قصد الترتيب

١٠. حيلة اللفظ

١١. رعاية الفاصلة : كقوله تعالى : «وخذلوه فخذلوه» ثم الجعيم صكروه» (٩)

وهذه الأنواع التي ذكرها الزركشي لم يتطرق لها البلاغيون إلا من خلال الجملة ،

(١) الإعراب : ٧ .

(٢) المجازلة : ٧ .

(٣) القامحة : ٥ .

(٤) البقرة ١٧٣ ، وآيات كثيرة .

(٥) النساء : ٦٩ .

(٦) طه : ٣٢ .

(٧) النمل : ٨٦ .

(٨) التكوي : ٤٦ .

(٩) المائدة : ٣٠ - ٣١ .

والكاتب كانت دراستهم لها قاصرة ، أما الذين اتوا بأسلوب القرآن الكريم فقد تجاوزوا هذه المرحلة ونظروا إلى التقديم والتأخير نظرة أوسع وأكثر عمقا فجاءت مادتهم الغزر ودراساتهم انصب ، ولا يكاد يستثنى من ذلك إلا عبد القاهر الذي أبدع في تحليل الأساليب البلاغية ، ونقل النحو من الإعراب والبناء إلى المعاني التي تحتملها العبارات ، وكانت نظريته في «النظم» من أحسن ما عرف النقد القديم : ومن أمثلة تحليله للتقديم والتأخير قوله في التكررة إذا قدمت على الفعل أو قدم الفعل عليها : «إذا قلت : وأجاءك رجل؟» قالت تريد أن تسأله : هل كان معي؟ من أحد من الرجال إليه ، فإن قدمت الاسم قلت : «أرجل جاءك؟» فأنت تسأله عن جنس مجاءه لرجل هو أم امرأة؟ ويكون هذا منك إذا كنت علمت أنه قد أتاه آت ولكنت لم تعلم جنس ذلك الآتي فسيق في ذلك سبيلك إذا أردت أن تعرف عين الآتي قلت : «أزيد جاءك أم عمرو؟» ولا يجوز تقديم الاسم في المسألة الأولى ، لأن تقديم الاسم يكون إذا كان المسؤل عن الفاعل والسؤال عن الفاعل يكون اما عن عينه أو عن جنسه ولأثالث. وإذا كان كذلك كان محالا أن تقدم الاسم للتكررة وأنت لا تريد السؤال عن الجنس لأنه يكون لسؤالك حيث يتعلق من حيث لا ينبغي بعد الجنس إلا العين والتكررة لا تدل على عين شيء فبإسأل بها عنه . فإن قلت : وأرجل طويل جاءك أم قصير؟» كان السؤال عن أن الجاني من جنس طويل لرجل أم قصارهم؟ فإن وصلت التكررة بالجملة قلت : «أرجل كنت عرفت من قبل أصلك هذا أم رجل لم تعرفه؟» كان السؤال المعطى أكان ممن عرفة قبل أم كان السائل لم تتقدم منه معرفة.

وإذا قد عرفت الحكم في الابتداء بالتكررة في الاستفهام فابن الخبير عليه ، فإذا قلت : «رجل جامعي؟» لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذي جاءك رجل لا امرأة ، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أتاك آت ، فإن لم ترد ذلك كان الواجب أن تقول : «جاءني رجل» فتقدم الفعل (١) .

(١) «لائق الاصحاب» ص ١٠٩ - ١١٠ .

وهذه قيمة التقديم والتأخير في اللغة العربية ، وليس من العيب أن يشغل البلاغيون
— وعمل رأسهم عبد القاهر — أنفسهم بهذه المسألة أو غيرها من المسائل الأخرى
المتصلة بالأساليب لولا أن لكل تعبير معناه ، ولكل وضع هدفه ومقزاه وفي ذلك
اتساع في القول وفرة على التعبير :

المبحث الثاني الفصل والوصل

ذهب كثير من البلاغيين إلى أن أسلوب الفصل والوصل فن عظيم، صعب
المسك، دقيق المأخذ، لا يحيط بأسراره إلا من لوتي فهم كلام العرب طبعاً سليماً
ورزقي في افراك أسرارهِ ذوقاً صحيحاً. ولذلك قصر بعضهم البلاغة على معرفته،
ولكن بعضهم، كالقزويني قال: «وما قصرها عليه لأن الأمر كذلك، وإنما حاول
بذلك التنبيه على مزيد غموضه وإن أهدأ لا يمكن فيه إلا كل في سائر فنونها، فوجب
الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه في البيان» (١).

والوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه، ولذلك ترى أن
يبحث هذا الموضوع بعد بحث الجملة لارتباطه بها ولأنه يخص الجمل ومعانيها
حينما تفصل أو تربط لامتداد الثاني للاول في الاعراب وحده. قال العلوي:
«ولست أريد بذلك الاسرار والطوائف ما يكون متعلقاً بعلوم الاعراب من كون الاحرف
للعاطفة تلحق للعطوف في الاعراب» بل يريد أمراً يخص من ذلك وأغوص على
تحصيل الاسرار الغريبة والطوائف العجيبة» (٢).

نكلم الجاحظ (٣) وغيره من أوائل النقاد على الفصل والوصل، ووقف عنده
أبو هلال العسكري وقفة طويلة وذكر اقوالاً كثيرة تدل على أهمية هذا الموضوع
من ذلك أن الثأمون قال لبعضهم: «من أبلغ الناس؟» فقال: من قرب الأمر البعيد
للتناول والصعب للدرك بالانفاظ البسيطة. قال: ما عدل سهلك عن الغرض،
ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار حاجته، ولا يجبل الفكرة في اختلاص
ما صعب عليه من الانفاظ ولا يكره المعالي على التزاليها في غير منازلها، ولا يتعمد

(١) الاندلس ص ١١٧.

(٢) الطراز ج ٢ ص ٢٢.

(٣) ينظر البيان والبيان ج ٧ ص ٨٨.

الغريب الوحشي ولا الساقط السوقي، فإنَّ البلاغة إذا اعتزلتها المرفة بمواضع
الفصل والرصل كانت كاللآلئ بلا نظام (١).

ويبحث أبو هلال في هذا الفصل، ما يتصل بفصول القصيدة ومقاطعها، وهم يعنون
بالفصول والمقاطع أواخر الأبيات التي تقابل مطالعها وإبتدائها، وتطرق إلى فواصل
كتاب الله. وقال إن من حسن المقطع جودة الفاصلة وحسن موقعها وتمكنها في
موضعها وذلك على ثلاثة أضرب :

الأول : أن يضيئ على الشاعر موضع القافية فيأتي بلفظ قليل الحروف فيتم به
البيت كقول زهير :

وأعلم ما في اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غد عسي
وقول ثابتة للذياني :

كالأصوان خداعة غيب سماه جفّت أعالیه وأسفله تسدي (٢)

وقوله :

لا مرحباً بك ولا أهلاً به إن كان تفريق الأحبة في غد
أؤيد الرحل غير أن دكايتنا لما نزل برحالتنا وكان قسداً
الثاني : أن يضيئ به المكان أيضاً ويعجز عن إيراد كلمة سلة تحتاج إلى إعراب
ليتم بها البيت، فيأتي بكلمة محتلة لا تحتاج إلى الإعراب فيتم به، مثل قول زهير :
صحا القلب عن سلمي وقد كاد لا يسلو وأقصر من سلمي للتعانيق فالتقل (٣)

ثم قال :

وقد كتبت من سلمي شيئاً ثانياً على صيتر أمر ما يمر وما يخلو (٤)
الثالث : أن تكون الفاصلة لافقة بما تقدمها من لقاط الجزء من الرسالة أو البيت
من الشعر وتكون مستقرة في قرارها ومتمكنة في موضعها حتى لا يسد مسداً
غيرها وإن لم تكن قصيرة قليلة الحروف كقوله تعالى : والله هو أضحك وأبكى ؛
والله هو ألمات وأهيا ؛ والله خلق الزوجين الذكر والأنثى (٥) وقوله : والله لا ترفة

(١) كتاب الصنائع من ١٢٨.

(٢) غيب سماه : المظفر.

(٣) للتعانيق والتقل : وأديان.

(٤) صير أمراً مستهواً.

(٥) التجميع ١٢ - ٢٥.

غير ذلك من الاول. وسوف يعطيك ذلك قرعاً (١) «أبكي» مع «اضحك»
و «أعياه» مع «أماث» و «الآثي» مع «الذكر» و «الاول» مع «الآخر» و «قرعاه»
مع «الطية» في نهاية الجودة وغاية حسن الموقع .

ومن الشعر قول الحطية :

هَمُّ القوم للبين اذا آتَمَّتْ من الايام مظلمة أضراسها
وقول أبي نواس :

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ فكشفت له عن عدوٍ في ثياب صديقه
و «الصديق» هنا جيد الموقع ، لان معنى اليت يقتضيه ، وهو يحتاج اليه

ودراسة أبي هلال وغيره من البلاغيين والنقاد لهذا الموضوع تختلف عن دراسة
البلاغيين المتأخرين ، ولذلك لا نجد في دراساتهم ما تطرق اليه أبو هلال . ولعل عبد القاهر
الجزيري كان من أوائل الذين بحثوه بحثاً مفصلاً يقوم على التفسير والتحليل
والتحليل والتحليل وربطه بباب المطف عندما ربط البلاغة بمعاني النحو وجعل
النظم نوعاً له .

وقد أجمل مواضع الفصل والوصل بقوله : «إن الجمل على ثلاثة أغرب :

١ . جملة حلقا مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع التوكيد فلا يكون
فيها المطف البتة لشيء المطف فيها . لو عطف - بمطف الشيء على نفسه .
٢ . وجملة حلقا مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله الا انه يشاركه
في حكمه ويدخل معه في معنى مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو
مضافا اليه فيكون حقها المطف .

٣ . جملة ليست في شيء من الحالين ، بل سيلها مع التي قبلها سيل الاسم مع الاسم
لا يكون منه في شيء فلا يكون أباه ولا مشاركا له في معنى بل هو شيء إن ذكر
ثم يذكر الا بالمر يتفرد به ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله لعدم
تعلق بيته وبينه رأسا ، وحق هذا ترك المطف البتة »

فترك العطف يكون اما للاتصال الى الغاية ، أو الانفصال الى الغاية ، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين ، وكان له حال بين حالين ، فأعرفه (١) : وعلى هذا الأساس وضع عبد القاهر أصول بحث الفصل والوصل ، وقوانينه ، وذكر الأمثلة الكثيرة : وجاء علماء البلاغة فالتخصروا بحوله وبربها ، وكان تحديدهم أدق ضبطاً ، وقواعدهم أكثر تنقيداً . وكان السكاكي من أشهر الذين تبعوه ولكنه لم يوضح الموضوع ولم يبحث بحثاً جيداً ، وانصرف الى الكلام على الجامع والنوامع ، واستغاد الخطيب القزويني من الرجلين فكان بحثه للفصل والوصل يجمع بين تحديد القاعدة والشرح والتعليل ، أي بين طريقي عبد القاهر والسكاكي : ثم جاء شراح التلخيص فأولوا هذا الموضوع عناية كبيرة وانتهى الى صورته الأخيرة التي نجدها في كتب البلاغة .

مواضع الفصل:

يجب الفصل في خمسة مواضع :

الأول: أن يكون بين الجملتين اتحاد تام وهو وكال الاتصال، وذلك:
١. أن تكون الجملة الثانية توكيداً للأولى ، وللقضي للتأكيد دفع توهم لتجاوز والعطف ، وهو قسمان :

أحدهما : أن تنزل الثانية من الأولى منزلة التأكيد المعنوي من متبوعه في القادة التفرير مع الاختلاف في المعنى ، كقوله تعالى : «ألم ذلك الكتاب لأريب فيه» (٢) ، فإن وزن «لأريب فيه» وزن نفسه في «جاءني محمد نفسه»
وقوله : «كان» لم يستعملها ، كان في أذنيه وكثراً» (٣) ، فالتالي مقرر لما أقاده الأول :

(١) دلائل الأسيار ص ١٨٧ .

(٢) البقرة ١-٢ .

(٣) لقمان ٧ . الورق: النقل في اللسان .

وثانيهما : أن تنزل الثانية من الأولى مترلة لتأكيد التقضي من مشيوعه في العهد للنهي ،
 كقوله تعالى : وذلك الكتاب لأربيب فيه هُدًى للمتقين ، (١) فإن هدى للمتقين
 معناه : أنه في الهداية بالغ درجة لا يدرك كنهها حتى كأنه هداية محضة .
 ومن أمثلة كون الجملة الثانية توكيداً للأولى قول النبي :

وما الدهر إلا من روعة فصاذهي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشأً
 فالجملة : إذا قلت ... توكيد للأولى ، لأن معنى الجمليتين واحد ، ومنه قول الشاعر :
 بهوى الشتاء مبرزٌ ومفصّر حب الشتاء طريفة الإنسان
 فالجملة حب الشتاء ... توكيد للأولى ، لأن معنى الجمليتين واحد .

٢. أن تكون الجملة الثانية بدلا من الأولى ، والمقتضي للبدال كون الأولى
 غير واقعة بنصام المراد بخلاف الثانية والمقام يقتضي اعتناء بشأنه لنكتة ككونه مطلوباً
 في نفسه أو فصيحا أو عجبيا أو لطيفا ، وهو ضربان ، أحدهما : أن تنزل الثانية من
 الأولى مترلة بدل البعض (٢) من مشيوعه ، كقوله تعالى : أمذككم بما تعلمون ،
 أمذككم بالعامر وبينين . وجنات وعيون ، (٣) فإنه مسوق للتنبيه على نعم الله تعالى
 عند المخاطبين ، وقوله : أمذككم بالعامر وبينين وجنات وعيون ، ألقى بتأديته
 مما قبله لئلا يلهي عليها بالافصيل من غير إحالة على علمهم مع كونهم معالنين ،
 والأمداد بما ذكر من الأعام وغيرها بعض الإمداد بما يعلمون ، ويحتمل الاستئناف ،
 وثانيهما : أن تنزل الثانية من الأولى مترلة بدل الاشتغال (٤) من مشيوعه كقوله
 تعالى : اتبعوا المرسلين : اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ، (٥) ، فإن المراد
 به حمل المخاطبين على اتباع الرسل ، وقوله : اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم

(١) البقرة ٢ .

(٢) بدل البعض : هو بدل الجزء من كل غايلا كان ذلك الجزء أو مساويا لتصف أو
 أكثر منه . مثل : « جله الطلاب ربيعهم لولمستهم أو لتلادهم » .

(٣) الشعراء ١٣٢ - ١٣٤

(٤) بدل الاشتغال : هو بدل الشيء ما يشغل عليه على شرط أن لا يكون جزء منه . مثل
 « تقضي العلم عليهم » ودأببت خالدا شجاعته .

(٥) يس ٢٠ - ٢١

مهندون ، أوفى بتأدية ذلك لأن معناه : لا تخشون معهم شيئا من دنياكم وتربحون
صحة دينكم فينتظم لكم غير الدنيا وغير الآخرة :
ومنه قول الشاعر :

أقول له أرأيتك لا تلتقيين^١ عندنا والأفكن في الدر والجهر معانا
وقد فصل « لا تقيين » عن « أرأيتك » للفصل البطل ، لأن المقصود من كلامه هذا
أكمال اظهار الكراهة لاقامته بسبب خلاف سره العلن ، وقوله : « لا تقيين عندنا »
أوفى بتأدية هذا المقصود من قوله « أرأيتك » لثلاثته عليه بالطائفة مع التأكيد :
٣. أن تكون الثانية بيانا للاولى ، وذلك بأن تقول منها مترلة حطاف البيان من
منبوذة في أفادة الايضاح ، وللتقضي للتيبين ان يكون في الاول نوع غفاء مع
التضاد للمقام لرائته ، كقوله تعالى : « فوسوس اليه الشيطان » ، قال : يا آدم هل
أدرك على شجرة العلكة ومالك لا يسلكي ؟ (١) ، فصل جملة وقال : عما
قبلها لكرهاها تصيرا له وتبيينا :

ومنه قول المعري :

الناس للناس من بدو ومن حصر^٢ يعصر^٣ لبعض وإن لم يشعروا خدع^٤
فالجملة الثانية وبعض لبعض ... « ابيضاح للاولى والناس للناس ... » وهي بيان لها ،
الثاني : أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع ، وذلك :

١. ان تختلف الجملتان غيرا والنشاء لفظا ومعنى ، كقول الشاعر :

وقال راشدهم : أرسوا شزولها فكل حنف امريه يجري بمقدار
فالجملة الأولى : « أرسوا شزولها لفظا ومعنى » ، و « شزولها » خبر لفظا ومعنى لأن
الغرض تحليل الأمر بالأوصاف بلزاوله للحرب أي : « أرسو السفينة نزول الحرب » ،
لومعنى لا لفظا ، مثل : « مات فلان » ، رحمه الله ، فالجملة الأولى خبرية لفظا ،
والثانية أنشائية معنى لا لفظا ، لأن لفظ الفعل خبر لا أمر .

(١) ح ١٢٠ .

٢. أن لا يكون بين الجملتين جامع أو مناسبة بل تكون كل جملة مستقلة بنفسها
مثل : « الليل رهيب . أقبل محمد » ولا صلة بين الجملتين ، ولذلك ترك المعلق
بينهما لكامل الانقطاع .

الثالث : أن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال يفهم من الجملة الأولى فتتزل
منزله ويسمى هذا « شبه كمال الاتصال » أو : « الاستئناف » والاستئناف ثلاثة أضرب ،
لان السؤال الذي تضمنته الجملة الأولى أما عن :

١. سبب الحكم فيها مطلقاً ، كقول الشاعر :

قال لي : كيف أنت ؟ قلت عليل صهري دالم ، وحزني طويـل
أي : ما بالك عليل ؟ أو ما سبب علك ؟

وقول الآخر :

وقد غرغرت من الدنيا فهل زمني مـعـطـي حياي لفر بعدما غرغرها (١)
جرست دهرى وأهليه فما تركت لي التجارب في ود امرئ غرغرها
أي : لم تقول هذا ويحك ؟ وما الذي اتضالك أن تطوي عن الحياة إلى هذا الحد
كنحك ، أي تعرض عنها .

٢ - أو عن سبب خاص له كقوله تعالى : « وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة
بالسوء » (٢) . كأنه قيل : هل النفس أمارة بالسوء ؟ قـيـل : إن النفس لأمارة
بالسوء .

٣ - أو عن غير هذين النوعين ، كقوله تعالى وقالوا : سلاماً ، قال : سلام (٣)
كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم عليه السلام ؟ قـيـل : قال سلام .
ومنه قول الشاعر :

زعمتم للمزاةل أني في حمرة صدقوا ، ولكن غمري لانتجلي (٤)

(١) غرض : خبر رجل . المزمع : من لا تجربة له

(٢) يوسف : ٥٣ .

(٣) مود : ٦٩ .

(٤) انشودة : الثالثة

لما حكى عن العواذل انهم قالوا : هو في غمرة ، وكان ذلك مما يحركه السامع لأن يسأله فيقول : فما قولك في ذلك وما جوابك عنه ؟ أخرج الكلام مغرجه اذا كان ذلك قد قيل له وصار كأنه قال : أقول صدقوا أنا كما قالوا ولكن لا مقطع لهم في فلاحي ، ولو قال : زعم العواذل اني في غمرة وصدقوا ، لكان يكون لم يصح في نفسه انه مسؤول وان كلامه كلام مجيب (١).

ومنه قول الوليد بن يزيد :

عَرَفْتُ النُّزُلَ الْخَالِي حُفَا مِنْ بَعْدِ أَحْوَالِ
صَفَاءِ كَسَلِ حَسَنَانَ صَوْفِ السُّوَيْلِ حُطَّالِ (٢)

فانه لما قال : « حفا » وكان الحفا مما لا يحصل للنزل بنفسه كان مظنة أن يسأل عن التفاصيل .

ومثله قول المتنبي :

وَمَا عَفَفْتُ الرِّيحَ لَهُ مَحَلًّا صَفَاءِ مِنْ حَسَنَةٍ بِهِمْ وَصَافًا

فانه لما نفى الفعل الوجود عن الريح ، كان مظنة أن يسأل عن التفاصيل .

وقد يحذف صدر الاستئناف لقيام قرينة ، كقوله تعالى : وَيَسَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رجال لا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ (٣) فيمن قرأ « يسح » مبنياً للمفعول - للمجهول - كأنه قيل : من يسحه ؟ فقيل رجال .

وقد يحذف الاستئناف كله ويقام ما يدل عليه مقامه ، كقول الشاعر :

زَعَمْتُمْ أَنَّ أَخَصْرَتَكُمْ قَبْرِشَ لَهْمٍ إِنْثٍ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّافٌ (٤)
حذف الجواب الذي هو : كلبتم في زعمكم ، وأقام مقامه ولم إِنْثٍ وليس لكم إِلَّافٌ مقامه لدلالته عليه . ويجوز أن يقتل قوله : ولم إِنْثٍ ... جواباً لسؤال

(١) ينظر دلائل الإيجاز ص ١٨٢ .

(٢) غذاء : معاء . حنان : سموت ، وللقصود الرعد . الصاحب : المذل .

صوف : شبيه الويل : المزل . حطط : شبيه .

(٣) التور : ٣٦ - ٣٧ .

(٤) الألف والايلاف : التهمة .

انقضاء الجواب للحلوف كأنه لما قال للتكلم : «كلجم» قالوا : «لم كلجمنا ؟» فقال : «لم إلت وليس لكم إلف» فيكون في البيت استثنان.

وقد يحذف ولا يقام شيء مقامه، كقوله تعالى : «ونعم العبد» (١) أي : «أبوب»، أو «هو»، لدلالة ما قبل الآية وما بعدها عليه (٢).

الرابع : أن يكون بين الجملتين شبه كمال الانقطاع، وذلك بأن تكون الجملة الثانية بمنزلة اللقطة عن الأول وينتهي هنا الفصل لأن عطفها عليها موهم لعطفها على غيره، ويسمى هذا الفصل «قطعا». ومنه قول الشاعر :

ونفان ملسى أنني أبني بها بدلا، أرأها لي الضلال تهيم
لم يحلف وأرأها على نظن، تلا يروهم السامع أنه معطوف على «أبني» لقربه منه، مع أنه ليس بمراء، ويحتمل الاستئناف .

الخامس : أن تكون الجملتان متوسطتين بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع مع قيام المانع من الوصل كأن يكون للأول حكم لم يقصد إعطاه لثانية، كقوله تعالى : «وإذا حُكِّمُوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون» : «الله يستهزئ بهم» (٣). فجملة «الله يستهزئ بهم» لا يصح عطفها على جملة «وإذا حُكِّمُوا...» ، تلا يلزم من ذلك اختصاص استهزاء الله بهم بوقت خلوصهم إلى شياطينهم، والواقع أن استهزاء الله بهم غير متلبد بوقت من الأوقات. ولا يصح أن تعطف جملة «الله يستهزئ بهم» على جملة «إنا معكم» ، تلا يلزم أن تكون من مقول المتأخرين مع أنها من مقول الله تعالى :

مواقع الفصل :

يجب الوصل في ثلاثة مواقع :

الأول : أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع مع الإيهام، وذلك بأن تكون احدهما خبرية والاخرى انشائية ولو فصلت لأوهم الفصل خلاف المقصود.

(١) ص ١٤ .

(٢) تبدأ الآية ٤١ بقوله تعالى : «واذكر عبدنا أيوب...» .

(٣) البقرة ١٠٤ - ١٠٥ .

ومنه قول البلاء : «لا، وأبدك الله، ومثل : «لا، ولطف الله، و «لا، وحفظك الله» .

الثاني : أن تكون الجملةان متفتحين غيراً والشاء" لفظاً ومعنى كقوله تعالى : «إن الأبرارَ لفي نعيم. وإن الفجارَ لفي جحيم» (١)، وقوله : «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» (٢)، وقوله : «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ» (٣)، وقوله : «وَكُنُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُنْسِفُوا» (٤) .

لأن تكونا متفتحين غيراً والشاء" معنى لا لفظاً كقوله تعالى : «وَالَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُوا صُورًا لَا تُغْنِي عَنْهُمْ صُورُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٥)، عطف قوله : «وقولوا» على قوله : «لا تغنيون» لأنه بمعنى : لا تغنيوا .

الثالث : أن يكون الجملة الأولى محل من الأعراب وقصد ائتراك الجملة الثانية لها في الحكم الأعرابي، وهذا كعطف المفرد على المفرد، لأن الجملة لا يكون لها محل من الأعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد، وينتهي هنا أن تكون متأنبة بين الجملتين كقوله تعالى : «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرُج منها، وما ينزل من السماء» وما يخرُج فيها ، وهو الرحم للنفوس (٦) .

وقوله : «والله يقبض ويبسط» إليه تُرْجَعُونَهُ (٧) : ولذلك عيب على أبي تمام .
والذي هو صالح أن القوي صَبِيرٌ، وأن أبا الحسين كريم

(١) الأنعام ١٢ - ١٤ .

(٢) الروم ١٩ .

(٣) البقرة ١٤٢ .

(٤) الأعراف ٣١ .

(٥) البقرة ٨٣ .

(٦) سبأ ٢٠ .

(٧) البقرة ٢٤٥ .

إذ لا مناسبة بين كرم أبي الحسين - محمد بن الهيثم - ومرارة النوى، ولا تعلق لأحدهما بالآخر .

ومن إشراك الجملة الثانية بالأولى في الحكم الأعرابي قول النبي .
«وَدَسَرْتُ مَنِي مَوْضِعَ لَابِنَالِهِ لَهَيْبٌ» ولا يَنْقُضِي إِلَيْهِ شَرَابُهُ
لجملة «لَابِنَالِهِ لَهَيْبٌ» صلة «مَوْضِعَ» ولذلك جاز أن يعطف عليها جملة «ولا يَنْقُضِي
إِلَيْهِ شَرَابُهُ» .

وذكر عبد القاهر الجرجاني لوفاً من الوصل (١) ، وهو أن يؤتى بالجملة فلا
تعطف على مايليها ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو
جملتان ، مثال ذلك قول النبي .

تَوَلَّوْا بَنَتَهُ فَكَانَ بَيْنَهُمَا تَهْيِيئَتِي فَجَاجَانِي الْخَيْبُ
فَكَانَ مَسِيرُ عَيْسَمٍ ذَيْبَلًا وَسِيرُ السَّمْعِ إِثْرَهُمْ أَتَهُمَالَا
قوله . «فَكَانَ مَسِيرُ عَيْسَمٍ مَعْطُوفٌ عَلَى (تَوَلَّوْا بَنَتَهُ » دون مايليها من قوله «فَجَاجَانِي»
لأننا إن عطفناه على هذا الذي يليه أفسدنا المعنى من حيث أنه يدخل في معنى «كَانَ»
وذلك يؤدي إلى أن لا يكون «مَسِيرُ عَيْسَمٍ» حقيقة ويكون متوهماً كما كان تَهْيِيْبُ
العين كذلك ، وهذا أصل كبير . والسبب في ذلك أن الجملة المتوسطة بين هذه
المعطوفة وأخرى ، والمعطوف عليها الأولى ترتبط في معناها بتلك الأولى كالذي ترى
أن قوله «فَكَانَ بَيْنَهُمَا تَهْيِيْئَتِي» مرتبط بقوله «تَوَلَّوْا بَنَتَهُ» وذلك أن الثانية مسبب
والأولى سبب : ألا ترى أن المعنى «تَوَلَّوْا بَنَتَهُ فَتَرَحُّمْتُ أَنْ يَبْنَأَ تَهْيِيْئَتِي» ولا شك أن
هذا التوهم كان بسبب أن كان التولي بنة ، وإذا كان كذلك كانت مع الأولى
كالتثنية الواحد ، وكانت متزلزلة معها متزلة القبول والظرف وسائر مايجيء بعد تمام
الجملة من معمولات القمل ، مما لا يمكن إفراده على الجملة وإن بئذ كلاماً على حدته :

(١) ينظر دلائل الإيضاح ص ١٨٨ .

م قال : وجهنا شيء آخر دقيق ، وهو أنك إذا نظرت إلى قوله : ولكن مسير عيسهم ذمياً ، وجدته لم يطف هو وحده على ما عطف عليه ولكن تجد العطف قد تناول جملة البيت مريباً أكثره بأوله ، ألا ترى أن الفرض من هذا الكلام أن يجعل توليهم بنية وعلى الوجه الذي توهم من أجله أن اليمين تبيته مستدعياً بكلامه وموجباً أن يتهم بدعاه فلم يمتعه أن يذكر ضمان القيس إلا ليذكر ضمان السمع وأن يوفق بينهما ، وكذلك الحكم في الأول : فتبين وأن كنا قلنا أن العطف على «تولوا بنية» فأنما لا تعني أن العطف عليه حده متطوعاً عما بعده بل العطف عليه مضموماً إليه ما بعده إلى آخره ، وإنما أردنا بقولنا : إن العطف عليه ، أن تعلمك أنه الأصل والقاعدة وأن تصرفك عن أن تطرحه وتجعل العطف على ما يلي هذا الذي تطفه فترحم أن تونه فكان مسير عيسهم منطوق على «فأجابني» تنفع في الخطأ كالذي أباك شمر العطف إذن موضوع على أنك تعطف ثارة جملة على جملة وتعتمد أخرى على جملتين أو جمل تعطف بعضاً على بعض ثم تعطف مجسوم على مجسوم تلكه (١) :

القران الجملة الحالية بالولو

ويتصل بالفصل والوصل اقتران الجملة الحالية بالولو وعدم اقترانها بها ، وقد ألحقه البلاغيون بهذا البحث ، وعقد له عبد القاهر الجرجاني والرازي والسكاكي والتزويجي فصولاً (٢) في كتبهم والحقوه بباب الفصل والوصل : ولكن دراسة عبد القاهر كانت أصح هذه الدراسات ولذلك سيكون تلخيصها هنا شرحاً للموضوع ونيفاً له :

نحي الحال ثلثة مع الواو وتسمى بغير الواو ، وفي تمييز ما يقتضي الواو عما لا يقتضيه صيغة القول في ذلك :

(١) دلائل الامتياز ص ١٨٩ .

(٢) دلائل الامتياز ص ١٥٦ وينظر ونجاة الامتياز ص ١٣٧ ، وفتح العلوم ص ١٣١ .

والإخلاق ص ١٦٥ .

١ - ان الجملة إذا كانت من مبتدأ وغيره فالغالب عليها أن تأتي مع الواو، مثل :
« جاء محمد وصبروا أمامه. » ومنه قول امرئ القيس :

أبشني وللشرقي مضاجعي ومستوة زرق كآنياب أخوال
مثال خلوها من الواو فوالهم « كلمته فوه إل في » و« رجع عودُه على بدنه ».

٢ - ان كان المبتدأ من الجملة خبر ذي الحال لم يصلح بغير الواو، مثل : « جاء
محمد وهو راكب. »

٣ - ان كان الخبر في الجملة من المبتدأ أو الخبر ظرفاً ثم كان قد قدم على
المبتدأ، مثل : « عليه معطف، كثر فيها أن تأتي بغير واو. » ومنه قول بشار :

إذا أنكرتني بلسة أو تكرئها خرجت مع البازي علي سواد
٤ - وان كانت الجملة من فعل وفاعل والقمل مضارع مثبت غير منفي لم يكد

يحي بالواو مثل : « جاء محمد يسعى لشوه بين يديه » أو « جاء محمد يسعى »
وعليه التزيل والكلام، ومثاله قوله تعالى : « وَلَا تَمْسُحْنِ لَئْسَ كَثُرَ » (١) وقوله :

« وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُقَى مَالَهُ يَتَرَكَّى » (٢) ، وقوله : « وَبَكَرَهُمْ فِي
طُعْيَانِهِمْ يَقْتَعُونَ » (٣).

٥ - فان دخل حرف نفي على المضارع تغير الحكم فجاء بالواو وبتكرها كثيراً،
كقول مسكين الدارمي :

أحبته شورقُ البيض أباً ولقد كان ولا يمدحني لأب
وقول مالك بن ربيع وكان جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير :

أنا لني مصعبٌ وبشرٍ بهبه فأبين أحميد عنهم لا أحميدُ
أفادوا من عصي وشوعتوني وكنت وما يفتنهني الوعيدُ (٤)

(١) اللخر ٦.

(٢) القيل ١٢ - ١٨.

(٣) الأعراف ١٨٦.

(٤) أي سخطوا من بني قرداء، وهي النخبة.

وقول الشاعر :

مضوا لا يريدون الزواج وغالهم
وقول امضى حمدان :

لجئنا أصبهان فهزكتنا وكنتا قبل ذلك في نعيم
وكان سفاهة مني وجهلا مسيري لا أسير إلى حميم
في المثلين الأولين الترتب بالواو ، وفي المثلين الآخرين لم تترن .

٦ - وما يجيء بالواو وغير الواو للماضي ، وهو لا يقع حالا إلا مع : وقد ، مظهره
أو مقفلة : مثل : « أتاني وقد جهده السير » . ومثال ما جاء به غير الواو :

فأشوا بالرماح مكسرات وأبشوا بالسيف ، قد العينا
محذات الوصل :

من محذات الوصل تناسب الجملتين في الاسمى والفعلية ، وتناسب الجملتين
لفعليتين في النفسي والمضارعة ، وفي الإطلاق والتفديد ، ولا يدخل من ذلك إلا لغرض
أو مانع ، كما إذا أريد بأحدهما التجدد وبالأخرى الثبوت مثل : « قام محمد وعمر
قاعده إذا أريد أن قيام محمد متجدد وقعود عمرو ثابت مستمر : أو أن يراد حكاية
الحال الماضية واستحضار الصورة في الذهن كقوله تعالى : « فريقتا كذلك فريقتا
تكتفرون » (١) :

أو أن يراد الإطلاق في أحدهما والتفديد في الأخرى كقوله تعالى : « وقالوا
لولا أنزل عليه ملكٌ ، لو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر » (٢) ، وبجملته الأولى
مطلقة ، والثانية مقيدة ، لأن الشرط مقيد للجواب (٣) :

(١) البقرة ٨٧ .

(٢) الأنعام ٨ .

(٣) ينظر ملحق العلوم ص ١٣١ ، والإيضاح ص ١٦٥ ، وشرح التفهيم ج ٣ ص ١٠٩ .

الفصل والفصل في المفردات :

لم يتعرض البلاغيون إلا للجمل حينما تربط أو تفصل، أما المفردات فلم يتعرضوا لها، ولعل السبب وضح هذه المسألة أو أن الحكم يعلم من الجملةتين: وكان عبد القاهر الجرجاني قد اتبع من الحديث عن عطف المفردات ميلا للحديث عن عطف الجمل، ولكنه لم يقد لهذا القسم دراسة لأنه مما يتحدث عنه النحاة ولا يقع فيه الأشكال. (١) وأشار السكاكي إلى أن الفصل والفصل بين الجمل هو الأصل في هذا الفن (٢)، وظن الخطيب القزويني أن غير ذلك مذكور ولذلك عرف هذا الأسلوب بقوله: والفصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه (٣) وعلى ذلك سار شراح تلخيصه غير أن لصاحبه عطف على كلام القزازي بقوله: ومعارته مشرة بأن الفصل والفصل مختصان اصطلاحاً بالجمل والمقتضيات لهما جارية في المفردات أيضاً. فلا ينبغي التخصيص اصطلاحاً ونحن نفهم من عبارة القزويني عدم اختصاصهما بها، وإنما هما الأصل في الجمل حيث قال: « تميز موضع العطف عن غير موضعه في الجمل هو الأصل في هذا الفن، (٤) : واحتفظها في المفردات أيضاً لئلا يكون يميز عن اللفظة، وكيف يظن أن عطف الجمل التي هي اعتبار مبتدأ، أو أسوال لصاحب، أو صفات لمتعوت، وتركه مبتدأ على أسوال دون ما في المفردات (٥) .

ولعل بهاء الدين السبكي شارح تلخيص القزويني، كان من أحسن الذين تعرضوا لهذا البحث، وقال أن الأصل في المفرد فصله مما قبله، لأن ما قبله (٦):

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧١ وما بعدها.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٢٠ .

(٣) الأيضاح ص ١١٧ .

(٤) هذه عبارة السكاكي في المفتاح ص ١٢٠ .

(٥) فترجح الأصول ج ٢ ص ٢ .

(٦) عروض الأعراس - شرح المتلخص ج ٣ ص ١١٢ وما بعدها .

١ - أما عامل فيه مثل زيد قائم، فلا يسطف المصول على عامله؛

٢ - أو مصول فلا يسطف للعامل على مصوله.

٣ - أو كلاهما مصول والقفل يطلبهما طلباً واحداً فلا يمكن عطفه لأنه يلزم قطع العامل من الثاني مثل: «علمت زيداً قائماً» .

وإذا اجتمع مفردان وامكن من جهة الصناعة عطف احدهما على الآخر فإن كان بينهما جامع تم الوصل وإلا كان الفصل هو الأساس:

ومار بهاء الدين السبكي في بحث هذا النوع على منهجه في الجمل، وهو المصام:
الاول : أن يكون بين المفردين كمال الانقطاع بلا إيهام غير المراد مثل: «زيد عالم قائم» فإنه لا جامع بين علمين الطيرين ولذلك يفسلون، ومثل ذلك الأعداد واحد اثنان ثلاثة أربعة ...، وحروف الهجاء ألف باء ... فني مثل هذه الحالة يجب الفصل.
الثاني : أن يكون بينهما كمال الانقطاع وفي الفصل إيهام غير المراد مثل : «علمت زيداً ضارباً وعالماً» فيجب الفصل إذ لو لم يسطف لترجم أن «عالماً مصولاً» و«ضارباً» .

الثالث . كمال الاتصال بأن يكون تأكيداً معنوياً، أو تعظيماً، أو عطفاً بيان أو تفسيراً، أو بدلاً نحو «جاء زيد نفسه» و «جاء زيد أبو عبد الله» و «جاء زيد للقائم» فلا يسطف شيء من ذلك.

أو يكون في معنى واحد من هذه الأمور كما في عطف الجمل أو فصلها، أو أن يكوناً بمنزلة خير واحد، مثل: «هذا حلو حامض» إذا جملتهما غيرين.
الرابع : شبه كمال الانقطاع بأن يكون للمفرد الأول حكم ويقصد اصطفاؤه الثاني نحو «زيد مجيب إن قُعيد صالح» إذا أريد الانخبار بأنه صالح مطلقاً فإن عطف «صالح» على «مجيب» يوهم أنه صالح إن قصد، لأن الشرط في أحد المتصاقين شرط في الآخر بخلاف الشرط في واحد من غيري الابدأ. وتارة يكون عطفه على المفرد قبله يوهم عطفه على غيره مثل «كان زيد ضارباً عمرأ قائماً» للوقيل : «وقائماً» لاوهم أنه معطوف على «عمرأ» للمعول .

الخطب : شبه كمال الاتصال ، مثل «زيد غلبان ناقص الحذاء» كأن سائلا سأل :
لم غلب ؟

الخطب : أن يكون بينهما التوسط من كمال الانقطاع وكمال الاتصال مثل «زيد
مط مانع» على أن يكونا غيرين ، فإذا أريد جعل الثاني صفة تبين الوصل :
أما الحذف بين الفعل والفردات ، فقد جوز أكثر النحاة حذف الفعل على
الاسم وحذف الاسم على الفعل إذا كان كل منهما في تقدير الآخر : وقال السهيلي
يحسن حذف الفعل على الاسم إذا كان اسم فاعل ، ويقبح حذف الاسم على الفعل .
وقال أن مثل «مررت برجل يقوم قاعدة مستع إلا على وجهه» وجوز «الرجاج كحذف
فعل على الاسم» ، والأكثرون على الجواز . (١) قال تعالى : «صَالَاتٍ وَيَتَبَسَّمُونَ» (٢)
وقال : «وَالْمُتَغَيَّرَاتِ صُحُبًا» ، فَأُثِرْنَ بِهِ لَعْنًا (٣) .

(١) عروض الأراج - شرح الخطيب ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) الملك ١٩ .

(٣) العاديات ٢ - ٤ .

المبحث الثالث

القصص

القصص - كي اللغة - الحبس، قال تعالى: «وَحُورٌ مَّكَصُورَاتٌ فِي الْغِيَامِ» (١) أي: محبوسة فيها. وأما معناه في الإصطلاح فهو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص؛ وذلك كتخصيص المبتدأ بالخبر بطريق التثني في قوله تعالى: «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (٢)، وتخصيص الخبر بالمبتدأ مثل: «وما شاعر إلا لثنتي»؛ طسرفاء:

وللقصص طرقتان . .

١ - القصص، وهو الشيء المخصص .

٢ - القصص عليه، وهو الشيء المخصص به:

فهي الآية السابقة «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» خصصنا الغرور بمتاع الدنيا، وفي «ولا يعلم الغيب إلا الله» خصصنا علم الغيب بالله تعالى. «والحياة الدنيا» مقصور عليه، و «الغرور» مقصور، و «علم الغيب» مقصور ولفظ الجلالة مقصور عليه .

ويقع القصص بين .

١ - المبتدأ والخبر، كقوله تعالى: «وما محمد إلا رسول» قد عكست من قبله الرسل، (٣) و «والغيب إلا علي»:

٢ - بين الفعل والقاعل مثل: «لا ينبغي إلا محمد»، و «ما قام إلا أنا».

٣ - بين القاعل والمفعول مثل: «ما شاهد خالد إلا الحديقة»، في قصر القاعل على المفعول، أما قصر المفعول على القاعل فمثل: «ما شاهد الحديقة إلا خالد».

٤ - بين المفعولين مثل: «ما أعطيت محمداً إلا كتاباً» في قصر المفعول الأول على الثاني، أما قصر المفعول الثاني على الأول فمثل «ما أعطيت كتاباً إلا محمداً».

(١) الرحمن ٧٢ .

(٢) الحديد ٢٠ .

(٣) آل عمران ١٤٤ .

* - بين الحال وصاحبها، مثل «ما جاء راكضاً إلا محمداً في قصر الحال على صاحبها، أما قصر صاحب الحال عليها فمثل «ما جاء محمد إلا راكضاً» ومثل ذلك كل متعلقات القمل، فإن القصر يجري فيها ما عدا اثنين:

الأول: المصدر المؤكّد، فلا يقع القصر بينه وبين القمل ولذلك لا يجوز أن نقول «ما ضربت إلا ضرباً»، وأما قوله تعالى «إنّ نفلنّ» إلا غناء (١) فتقديره: «فلنا ضميماً».

الثاني: القصر لعمه، فإنه لا يجري بعد «الاء» ولذلك لا يقال «ما سرت إلا والحال»:

أنواعه :

ينقسم القصر بحسب الحقيقة والإضافة إلى:

١- قصر حقيقي: وهو أن يختص القصور بالقصور عليه بحسب الحقيقة لا يشاء إلى غيره أصلاً، كقوله تعالى: «إنّما ينزّل سكر أولو الألباب» (٢) فالذكر صفة لا يتجاوز إلى غيرهم من سائر الناس في الحقيقة والواقع: ومنه: «ما نعام الأنبياء والرسل إلا» محمد «وأنعام الأنبياء والرسل» وهو القصور، يختص بمحمد صل الله عليه وسلم - وهو القصور عليه لا يتجاوز إلى غيره.

٢- قصر اضافي: وهو غير الحقيقي وذلك بأن يكون القصر فيه بالإضافة إلى شيء مخصوص لا إلى جميع ما عدا القصور عليه: ومنه قوله تعالى: «وما محمد إلا رسول» (٣)، فمحمداً مقصور على الرسالة بالإضافة إلى شيء آخر، وليس المقصود أن الرسالة مختصة به وحده. ومتعلقاتنا: «وما محمد إلا كاتب» فليس المقصود أن محمداً مقصور على الكتابة وحدها بحيث لا يشاء إلى شيء آخر، لأن الحقيقة والواقع خلاف ذلك، وإنما المقصود أنه مقصور على الكتابة بالإضافة إلى شيء آخر معيّن كالشعر أو الرسم أو غيرهما :

وينقسم القصر باعتبار طرفيه: المقصور وللقصور عليه إلى:

- (١) الحاتبة ٢٢ .
- (٢) الرعدة ١٩ .
- (٣) آل عمران ١٤٤ .

١ - قصر موصوف على صفة: كقولہ تعالى: «ماتَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلُمَى» (١) فقد نصرت العبادة على التقريب لقصر موصوف على صفة.

٢ - قصر صفة على موصوف: مثل: «مائي لدار الأعمدة» فقد قصر الوجودي لدار على ومحمد قصر صفة على موصوف.

والمراد بالصفة في أسلوب القصر الصفة النوعية لالتفت الذي يذكره الشاعر، لأن أداة الاستثناء لا تقع بين الصفة والموصوف.

ويتقسم القصر بحسب الحقيقة والادعاء إلى:

١ - قصر حقيقي على سبيل الحقيقة.

٢ - قصر انشائي على سبيل الحقيقة.

وهذان النوعان هما اللذان يقصدان عند إطلاق القصر الحقيقي والقصر الانشائي كما سبق:

٣ - قصر حقيقي على سبيل الإدعاء والمبالغة: ومثال قصر الصفة على الموصوف: «لأشاعر في العرب إلاّ اللثني» إذا كان هناك في العرب شعراء غير اللثني ولكن لا تريد الاعتراف بهم بمبالغة في انقضاء الشاعرية على اللثني. ومثال قصر الموصوف على الصفة: «ماحاتم إلاّ جزاء» أي أن حاتم لا ينصف بغير الجود من الصفات بمبالغة في كمال الجود فيه.

٤ - قصر انشائي على سبيل الإدعاء والمبالغة: ومثال قصر الصفة على الموصوف: «ما عالم إلاّ أحمد» وذلك إذا أريد قصر العلم على محمد بالنسبة إلى خالد إذا كان عالماً أيضاً.

ومثال قصر الموصوف على الصفة: «ما محمد إلاّ كاتب» إذا قصر ومحمد على الكتابة بالنسبة إلى صفة الشعر أو الرسم ويراد بذلك انتفاء صفة الشعر أو الرسم عنه: ويتقسم القصر الانشائي فقط بحسب حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام:

(١) الزمر ٢

١ - قصر افراد: وذلك اذا اعتقد المخاطب للشركة في الحكم بين القصور

وغيره.

٢ - قصر قلب: وذلك اذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي يثبت بالقصر،

٣ - قصر تعيين: وذلك اذا كان المخاطب مترددا في الحكم بين القصور عليه

وغيره.

فاذا قيل في قصر الصفة على الوصف: «الاديب محمد لاخاله» وكان للمخاطب

يعتقد اشتراك محمد وخاله في صفة الادب كان القصر قصر افراد.

واذا كان للمخاطب يعتقد غير ذلك كان القصر قصر قلب:

واذا كان المخاطب مترددا لا يدري أيهما الاديب كان القصر قصر تعيين:

واذا قيل في قصر الوصف على الصفة «ماحمد إلا مدرس» وكان للمخاطب يعتقد

التصاف محمد بمهنة التدريس والادارة كان القصر قصر افراد:

واذا كان المخاطب يعتقد التصاف محمد بالتدريس لا بالادارة كان القصر قصر

قلب:

واذا كان المخاطب مترددا لا يدري أي الصفتين هي صفة محمد كان القصر قصر

تعيين.

ولا يجري هذا التقسيم في القصر الحقيقي، لان القصر في ذلك النوع قصر بالنسبة

إلى ماعدا القصور عليه على الإطلاق فلا يمكن أن يتصور في الشركة أو العكس

أو التردد على مقارء في القصر الاضائي الذي يجري فيه القصر بالنسبة إلى شي

محدود.

شروطه:

وشرط قصر الوصف على الصفة افراداً عدم تاني الصفتين حتى تكون الثغيا

في قولنا «مازيد إلا شاعر» كونه كاتباً، لا كونه مفتحاً لا يقول شعر ليعص،

اعتقاد المخاطب اجتماعهما.

وشرط قصره قلبا تحقق تأنيها حتى تكون الثانية في قولنا «مازید الاقام»
كونه قائداً لوجالسا ، لاكونه أسود أو أبيض، ليكون التأنيها مشعراً بانتقاء
غيرهما :

وقصر التبعين أعم، لأن اعتقاد كون الشيء موصوفاً بأحد أمرين معينين على
الاحتمال لا يقتضي جواز اتصاله بهما معاً ولا امتناعه. وبهذا علم أن كل ما يصلح أن يكون
مثلاً لقصر الأفراد أو قصر القلب يصلح أن يكون مثلاً لقصر التبعين من غير عكس.
طريقه:

أهم طرق القصر أربع :

١ - **الشيء والإستثناء:** ويكون المقصور عليه في هذه الطريقة بعد أداة الاستثناء،
كقوله تعالى: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» (١)، وقوله:
«وما أتزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا كذبون» (٢)، أي : لستم في
دعواكم للرسالة عندنا بين الصدق والكذب كما يكون ظاهر حال المدعي إذا
ادعى بل أنتم عندنا كاذبون فيها.

ومنه : «وما محمد إلا شاعر» ووجه القصر فيه الله متى قيل : «وما محمد» توجه التني
إلى صفته لازاته لأن أنفس اللوات يمتنع لغيرها وإنما تنفي صفاتها وحيث لا نزاع
في طوله وقصره وما شاكل ذلك وإنما النزاع في كونه شاعراً أو كاتباً تناولهما
الشيء ، فأما قيل : «والشاعر» جاز القصر.

وتحصل «غير» في القصر استعمال «لا».

٢ - **الما :** ويكون المقصور عليه مؤخراً وجوباً ، ومنه قوله تعالى : «الما
يخشى الله» من عباده العلماء» (٣).

(١) آل عمران ١٤٤

(٢) يس ١٥

(٣) فاطر ٢٨

ومنه قول قيس بن الرقيات:

إنما مُصَنَّبٌ شهابٌ مَسْنٍ أَفَرٍ تَجَلَّتْ مِنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَةُ
والدليل على أنها تفيد القصر أمور:

الأول: كونها متضمنة معنى «ماء» ودلالة لقول القسرين في قوله تعالى «إنما حَرَّمْ
عليكم اللَّيْثَ» والذَّمُّ (١) - بالنصب - معناه «ما حرم عليكم إلا اللَّيْثَ».

الثاني: لقول النحاة «إنَّ» «والماء» لا يثبت ما يذكر بعدها ونقيضه «ما سواه».

الثالث: لصحة انفصال التفسير معها مثل: «والما يشرب أنا» أي: «ما يشرب إلا أنا».

ومن ذلك قول الفرزدق:

أنا اللائدُ الحامي للعارِ وأتما يدافع عن أحبابهم أنا أو مثل
وقول عمرو بن معد يكرب:

قد علمت سكرى وجسارائها ما قطر الفارس إلا أنسا (٢)

٣ - العطف بدلالة أو ولكن أو قبل فإن كان العطف بدلالة كان القصور عليه
مقابلاً لما بعدها، وإن كان العطف ولكن هو قبل كان القصور عليه ما بعدها.

ومثال قصر الموصوف على الصفة أفراداً: «محمد شاعر لا كاتب» أو «وما محمد
كاتب بل شاعر».

ومثال قصر الموصوف على الصفة لفظاً: «محمد قائم لا قائم» أو «وما محمد قائم
بل قائم».

ومثال قصر الصفة على الموصوف أفراداً أو لفظاً بحسب المقام: «محمد قائم
لا قائم» أو «وما محمد قائم بل زينه».

٤ - تقديم ماحقه التأخير: «وما يكون القصور عليه هو التقديم: فمن قصر
الموصوف على الصفة المراد «شاعر هو» لن يفتده شاعراً وكاتباً:

(١) البقرة ١٧٣.

(٢) نظراً صريحاً.

ومن قصر الموصوف على الصفة قلبا : «قالهم هرملن يعتقد قاعدا؛ ومثال قصر
الصفة على الموصوف المراد: «أنا كتبت مهنك» بمعنى وحدي لمن يعتقد أنك
وغيرك كفتما مهنه .

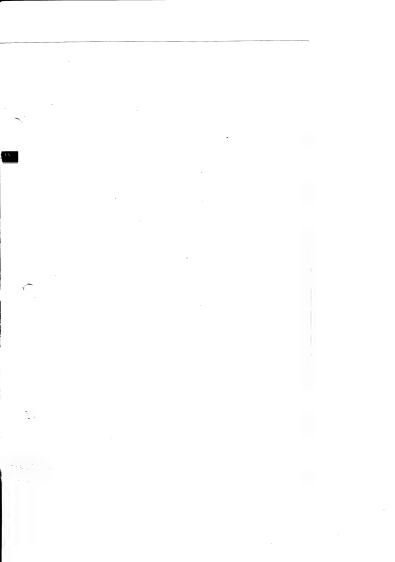
ومثال قصر الصفة على الموصوف قلبا : «أنا كتبت مهنك» بمعنى لاغيري
لمن يعتقد أن غيرك كفى مهمة دونك. وهذه الطرق الأربع تختلف من وجوه :
الأول: ان دلالة الثلاث الأول بالوضع دون الرابعة .

الثاني: ان الاصل في المصنف أن يدل على التثنية والمثني جميعا بالنص فلا يترك
ذلك الاكراهة الاطلاق في مقام الاختصاص كما اذا قيل «محمد يعلم النحو والصرف
والعروض والقوافي» ولو: «محمد يعلم النحو» ، وخالد ويكر وعمر وعفتول فيهما
«محمد يعلم النحو لاغير» ، وفي معناه وليس الا «أبي لاغير النحو» ، ولاغير محمد،
وأما الثلاثة الباقية فتدل بالنص على التثنية دون المثني .

الثالث : ان الذي لا يجمع الاول لان شرط المثني ب«أنا» أن لا يكون متفيا قبلها
بغيرها و«يجمع الآخرين فيقال: «انما زيد كاتب لاشاعر» وهو يائني لا محمد» .
الرابع : ان اصل الذي والاستثناء ان يكون ما يستعمل له مما يحمله المخاطب وينكر
كقولك لصاحب «قد رأيت شيئا من بعد ما هو إلا» . «محمد» اذا وجدته يعتقد
غير محمد ويصر على التاكيد . وعليه قوله تعالى «وما من إله إلا الله» (١) .
وهناك طرق اخرى لقصر غير ان البلاغين لم يتفقوا عليها كل الاتفاق ، ولذلك
نقل الوجوه الاربعه عمدة هذا الاسلوب (٢) .

(١) آل عمران ٦٢ .

(٢) ينظر ملتح العلوم ص ١٣٨ ، والإيضاح ص ١٦٨ ، وشرح التلخيص ج ٢ ص ١٦٦ .



الفصل الخامس الاجاز والاضطراب والمساواة البحث الأول الاجاز

الاجاز والاضطراب والمساواة من الاساليب التي لا تنضج كثيراً الا بالمحدث من
الرواها وعرض امثلتها، لان الاتفاق على مقياس يلجأ اليه الممارسون من الامور
الصعبة. وكان السكاكي قد ذهب إلى ان الذي يحدد هذه الاساليب هو العرف
وقد سماه متعارف الاوساط، يقول: «اما الاجاز والاضطراب فتكونهما نسيين
لا يفسر الكلام فيهما الا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي مثل جعل كلام
الارسطو على مجرى متعارفهم في التأدية المعاني فيما بينهم. ولا بد من الاعتراف
بذلك مقياسا عليه ونسبة متعارف الاوساط» وانه في باب البلاغة لا يحدد ولا يلام، (١)
ولذلك كان الاجاز أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الاوساط،
وكان الاضطراب أداءه بأكثر من عباراتهم، سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة
إلى الجميل أو إلى غير الجميل.

ولكن الخطيب القزويني رأى الاتفاق على متعارف الاوساط صعبا، ووجد أن
بناء التعريف عليه أصعب، والأقرب ان يقال: «القول من طرق التعبير عن المعنى
هو تأدية اصل المراد بلفظ مساو له أو ناقص عنه أو زائد عليه لفائدة» (٢).
وهذا التعريف لا يكون دقيقا ان لم تعرض اساليب الاجاز والاضطراب لبيان عليها
اسلوب المساواة ويحدد بدقة ووضوح، ولذلك قال ان المساواة «أن يكون اللفظ
بمقدار اصل المراد لا ناقصا عنه يحدف أو غيره، ولا زائدا عليه ينحو تكرير
أو تنسيم أو اعراض»، أي ان المساواة لا تنضج الا بعد دراسة الاسلوبين الآخرين
ومعرفة ما معنى دقيقة، ولكنه قدم الكلام على المساواة لانها الاصل المقيس عليه،

(١) مفاتيح العلوم ص ١٢٢.

(٢) الإيضاح ص ١٧٧.

وهذا التقديم لا يخدم القياس لأن المساواة لا تعرف إلا بعد معرفة الكلام المحلوف أو الرائد، وبذلك تكون الكلام الذي ليس فيه حذف أو زيادة .

وميز بين الكلام التام والناقص ولذلك قال إن دوافع احتراز عن الاختلال، وهو أن يكون اللفظ لأصراً عن أداء المعنى، كقول عروة بن الورد:

حيث لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعلوا
فانه أراد : إذ يقتلون نفوسهم في السلم.

وقول الحارث بن حنظلة :

والعيش عسير في ظلال ل التوك من عاش كذا (١)
فانه أراد : العيش الناعم في ظلال التوك غير من العيش الشاق في ظلال الضل ،
فأصل بالمعنى .

واحتراز في القراءة وقال أنها لقاعدة ، لكي لا يدخل فيها :

١ - التطويل : وهو أن لا يتعين الرائد في الكلام ، كقول عدي بن زيد العبادي:

وقد دنت الأديم لراشيه وألقى قولها كذباً ومبتاً (٢)
فان الكذب والمبت واحد :

٢ - المحسوس : وهو ما يتعين أنه زائد وهو نوعان :

الأول : ما يفسد المعنى ، كقول المتنبي :

ولا فضل فيه للشجاعة والندى وصبر المعنى لولا لقاء شعوب (٣)
فان لقاء الندى فيه حشو يفسد المعنى ، لان المعنى انه لا فضل في الدنيا للشجاعة
والصبر والندى لولا الموت ، وهذا الحكم صحيح في الشجاعة دون الندى ، لان
الشجاع لو علم أنه يخلد في الدنيا لم يتخش الهلاك في الاقدام فلم يكن لشجاعته فضل ،
بخلاف الباذل ماله فانه إذا علم انه يموت هان عليه بذله .

(١) التوك : الحق . فكذ : اتى والشفة .

(٢) دنت : قسقت . الأديم : الجلد . الراشاه : عرفان في بعض النسخ.

(٣) شعوب : الموت ، الدنيا .

الثاني : ما لا يفسد المعنى ، كقول الشاعر :

ذكرتُ أحسى فعلاودني صداغُ الرأس والرأسُ (١)
فإن لفظ «الرأس» حشو لا فائدة فيه لأن الصداغ لا يستعمل إلا في الرأس ، وليس يفسد المعنى .

وقول زهير :

وأعلم علم اليوم والاسم قبله ولكنني عن علم مالي خير هم
فإن قوله «قبله» يستغنى عنه غير مفيد .
وهذه المقدمة ضرورية في دراسة هذا الموضوع ، ولكنه لن يتضح إلا بعد الحديث
عن أجزاءه لإيضاح أمثله وأساليبه .

الإيجاز :

الإيجاز - لغة - التقصير ، تقول : أوجزت الكلام ، أي : قصصته ، وكلام
موجز من أوجز .

والإيجاز - اصطلاحا - أن يكون اللفظ أقل من المعنى ، مع الوفاء به والاحتكام
إلى أصله في الكلام .

وهذا الأسلوب من أهم خصائص اللغة العربية في القديم ، فقد كان العرب
لا يميلون إلى الإطالة والشرح والاسهاب ، وكانوا يبدؤون الإيجاز هو البلاغة ،
فأكرم بن صبيح يرى أن البلاغة هي الإيجاز ، وكان جعفر بن يحيى يقول لكتابه :
«إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا» (٢) . وفعلوا مثل ذلك في القصائد ،
وقد قيل لبعضهم ما لك لا تزيد على أربعة والثنين ؟ قال : «هنّ» بالقلب أوقع والمحافظة
أسرع وبالأحسن أعلق ، وللمعاني أجمع ، وصاحبها أبلغ وأوجز .
وقيل لآخر : ألا تطيل القصائد ، فقال :

(١) القوس : الرض والرجع الدائم وتحويل الجسم ، وقد يطلق على التنبؤ والتقدّر في
الدين .

(٢) البيان والبيان ج ١ ص ٨٦ ، وكتب الصنّاعين ص ١٧٢ .

أي في أن الخليل "لشعر قصدي إلى المعنى وعلمي بالحواس
وابجاذي بختصر قريب حذفت به القسول من الجواب
فأبعثهن أربعة" وسنأثقة بالفاظ عذاب
عسالة ملحد ليل نهارا وماحسّن صبا بأعني الشباب
وهن إذا وسنأ بين قوما كأطراق الحمام في السحاب
وكن إذا أتممت مسافرات نهادها الرواة مع السركاب (١)

وفي هذه الآيات خلاصة لأغراض الإيجاز ، فيه يعمل التشكلم إلى هدفه من غير
تهديد أو زيادة لا يقتضيها المعنى ، وبه يأتي الكلام قصيرا سهلا حفظه وروايته ، وهذا
ما يندم واضحا في الأمثال والخطب والشعر ، وبهذا الأسلوب أيضا تصل المعاني إلى
القلب في أسرع ما يكون وتؤثر فيه فيهدر طريقا أن كان الكلام مما يسر ، ويفعل وينجهم
أن كان مما لا يسر .

وكان لهذه الصفة التي أولع بها العرب أن أهم البلاغيون والنقاد بأسلوب الإيجاز ،
ووضعوا له حدودا وأقساماً ، وبينوا مواضعه ، لانه ليس بمحمود في كل موضع
ولا بمختار في كل كتاب بل لكل مقام مقال ، وإلى ذلك أشار ابن قتيبة بقوله : «ولو
كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن ، ولم يفعل الله ذلك
ولكنه أطال ثارة لتوكيد وحذف ثارة للإيجاز وتكرار ثارة للإقحام » (٢) .

وقال ابن جني أن الإطالة والإيجاز هما في كل كلام مفيد مستقل بنفسه ولو بانح
الإيجاز غاية لم يكن له بد من أن يعطيك تمامه وفائدته مع أنه لا بد فيه من تركيب
الجملة فإن قصصت عن ذلك لم يكن هناك استحسان ولا استعذاب . وقال أن العرب إلى
الإيجاز أميل وعن الأكثر أهد ، وضرب مثلاً بالقرآن الكريم ومافي من الحذف
الذي يعمل الكلام موجزا (٣) . ومعنى ذلك أن هذا الأسلوب ضروري كثيره إذا

(١) كتاب المناقب ص ١٧٤ .

(٢) أدب الكاتب ص ١٥ .

(٣) نظر التفاصيل ج ١ ص ٢٠ ، ٨٣ ، ٨٦ .

أراد التكلم أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال ولذلك يقول أبو هلال العسكري: «إن الإيجاز والاطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه ، ولكل واحد منهما موضع . فالخاجة إلى الإيجاز في موضعه كالخاجة إلى الاطناب في مكانه فمن أزال التنبير في ذلك عن جهته ، واستعمل الاطناب في موضع الإيجاز واستعمل الإيجاز في موضع الاطناب أخطأ » (١) .

وتحدث ابن رشيق عن الإيجاز وذكر تعريف الرماني وهو: «الإيجاز هو العبارة عن الفرض بأقل ما يمكن من الحروف» وقسمه إلى نوعيه المروقين (٢) .

وعقد ابن سنان له بحثاً وسماه «الأشارة» وقال عنه: «هو أن يكون المعنى زائداً على اللفظ، أي أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة (٣) وللخيار عنه في التمامة والبال على البلاغة هو أن يكون المعنى مساوياً للفظ أو زائداً عليه، أي أن يكون اللفظ القليل يدل على الكثير دلالة واضحة ظاهرة لأن تكون اللفاظ تفرط إيجازها قد أبست المعنى وأغضت حتى يحتاج في استنباطه إلى طرف من قتائل ودقيق الفكر.

ومعرف الرازي الإيجاز بقوله: «وحدّه أنه العبارة عن الفرض بأقل ما يمكن من الحروف من غير اغتلال» (٤) .

وقال السكاكي أن الإيجاز والاطناب - كما سبق - من الأمور النسبية كالإلوة والبنوة وهي التي يتوقف ثقلها على ثقل غيرها ، فإن الكلام الوجز انما يدرك من حيث وصفه بالإيجاز بالقياس إلى كلام أكثر منه، وكذلك المطنب انما يدرك من حيث وصفه بالاطناب إلى كلام آخر يكون أقل منه:

(١) كتاب الصنائع ص ١٩٠

(٢) السدة ج ١ ص ٢٢١ .

(٣) سر التمامة ص ٢٢٢ .

(٤) نهاية الإيجاز ص ١٢٥ .

وتحدث عنه ابن الأثير وعقد له فصلا في «مثل السائر» وفصلا في «الجامع الكبير» وقال في تعريفه: «هو حذف زيادات الالفاظ» (١)، وهذا النوع من الأساليب شريف لا يخلط به الاغراسان البلاغة، وذلك لعلو منزلته وبعد مثاله. ثم قال بعد أن مهد ليحه: «حذف الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه، والتطويل هو ضد ذلك، وهو أن يدل على المعنى بلفظ يكتفيك بعضه في الدلالة عليه» (٢).

وسماه ابن ترمكاني «الأشارة» وقال: «هو إثبات المعاني للتكررة باللفظ القليل» (٣). وقال العلوي: «وهو في مصطلح أهل هذه الصناعة عبارة عن تأدية المقصود من الكلام بأقل من عبارة متعارف عليها» (٤).

وهذه التعريفات لا تخرج عن القول بأن الإيجاز هو التعبير عن المعاني بألفاظ قليلة تدل عليها دلالة لا تحتاج إلى تأمل دقيق.

أقسامه:

الإيجاز ضربان:

الأول: إيجاز القصص: وهو تقليل الالفاظ وتكثير المعاني، ويرى ابن الأثير أن تشبه لهذا النوع عسر، لأنه يحتاج إلى فصل تأمل: (٥) ومن ذلك قوله تعالى: «ولكم في القرصاص حياة» (٦). وتبين هذه الآية للكرامة حينما تقارن بقولهم: «القتل أسمى للقتل»، ويتضح ذلك في وجوه:

أولها: أن عدة حروف ما يتأخره «وهو» في «القرصاص حياة» عشرة في اللفظ وعدة حروفه أربعة عشر.

(١) مثل السائر ج ٢ ص ١٧١ والجامع الكبير ص ١٢٢.

(٢) مثل السائر ج ٢ ص ٧٤.

(٣) التبيان في أمم البيان ص ١١٠ وينظر البرهان الكاشف عن إحصاء القرآن ص ٢٢٢.

(٤) القرائن ج ٢ ص ٣١٦.

(٥) مثل السائر ج ٢ ص ٧٨.

(٦) القبر ١٧٩.

قائما : ماله من التصريح بالملوك الذي هو الحياة بالنس إليها فيكون أجز
عن القتل بغير حق لكونه أدى إلى الاقتصاص .

ثالثها : ما يبيده تنكير « حياة » من التعظيم أو التوقير .

رابعها : اطرادته بخلاف قولهم : فان القتل الذي ينفي القتل هو ما كان على وجه
القيصاص لا غيره .

خامسها : سلامته من التكرار الذي هو من صوب الكلام بخلاف قولهم :

سادسها : استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم : فان تقديره : القتل الذي
القتل من تركه .

سابعها : ان القصاص ضد الحياة ، فالجمع بينهما طابق .

ثامنها : جعل القصاص كاللص والبلد للحياة بإدخال « ي » عليه (١) .

ومن قصص قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد » وما كان منه من إله إلا أن

لذَّحَّبَ كُلَّ إلهٍ بما عَمَلُوا ولَمَّا بَغَضُنَا عَنْ بَعْضِهِمْ عَلَّ بَعْضُهُمْ (٢) وقوله : يا أيها

الناس إنما بَغَضُنَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ (٣) وقوله : وَلَا يَحْسِبُ الْمُكْفُرُونَ أَنَّهُ

إِلَّا بِأَعْيُنِنَا (٤) .

ومنه قول الشريف الرضي :

مالوا إلى شُعْب الرِّحَالِ وَأَسْتَدُوا أَبْهِي الطُّعَانِ إِلَى قُلُوبِ تَخَفُفٍ

فَلَمَّا لَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ بِالشَّجَاعَةِ فِي أَمْنَاءِ وَصَفَهُمْ بِالْفَرَامِ حَبْرٌ عَنْ ذَلِكَ يَقُولُ

وَأَبْهِي الطُّعَانِ .

(١) الإيضاح ص ١٨٢ وينظر كتاب الصناديق ص ١٧٥ والمثل السائر ج ٢ ص ١٢٥

ويجوز القول ص ١٩٢ ونهاية الإيجاز ص ١٢٥ .

(٢) التومنون ٩١ .

(٣) يونس ٢٢ .

(٤) طاهر ٤٣ .

وهذا مفهوم الإيجاز بالقصر عند البلاغيين، غير أن ابن الأثير (١) يحدّث فرعاً من الإيجاز الذي لا يخلف منه شيء، لأنه يقسم الإيجاز إلى قسمين .

١ - الإيجاز بالخلف: وهو ما يخلف من القرد والجملة :

٢ - مالا يخلف منه شيء، وهو خبران .

الأول . ماساوى لفظه معناه ويسمى التقدير .

الثاني . مازاد معناه على لفظه ويسمى الإيجاز بالقصر .

وقسم الإيجاز بالقصر إلى نوعين :

أحدهما . مادلّ لفظه على محصلات متعددة، ويمكن التعبير عنه بمثل الفاظه وفي بعضها . ومنه قوله تعالى . هو لقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرباً لهم طريقاً في البحر يميناً لا تخاف دَرْكاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون يبتوّه فَعَثَّ يَهُودُ من اليمِّ مَاشِيَتِهِمْ (٢) لقوله : وفَقَشِيَهُمْ من اليمِّ مَاشِيَتِهِمْ من جوامع الكلام التي يستدل على قلتها بالمعاني الكثيرة، أي غشيتهم من الأمور الهائلة والخطوب القاصدة مالا يعلم كنهه إلا الله ولا يحيط به غيره . ومنه قوله تعالى : وَخُذِ الْعِلْمَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (٣) فجمع في الآية جميع مكارم الأخلاق، لأن في الأمر بالعروف صلة للرحم ومنع اللسان عن الفرية وعن الكذب ، وغض الطرف عن المحرمات وغير ذلك، وفي الإعراف عن الجاهلين الصبر والحلم وغيرهما . ومثاله قول السَّوْأَل :

وإن هو لم يحمل على النفس فيها . فليس إلى حَسَنٍ لَتَامٍ سَبِيل
لأن هذا البيت قد اشتمل على مكارم الأخلاق جميعها من سباحة وشجاعة وعفة
وتواضع وحلم وصبر وغير ذلك، فإن هذه الأخلاق كلها من ضم النفس لأنها
تجد بمصلحتها ضيماً أي : مشقة وعناء .

(١) اللال السائر ج ٢ ص ١١٤ ، وينظر الطراز ج ٢ ص ١١٩ وما ينسأ .

(٢) طه ٧٧ - ٧٩ .

(٣) الأعراف ١٩٩ .

وثانيهما : ما دلّ القلة على محتملات متعددة ، ولا يمكن التعبير عنه بنقل القاطنة
 وفي حديثها ، بل يستحيل ذلك وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً ، ومنه قوله تعالى :
 هو لكم في الله خاص حياة ، الذي فاق كل كلام وفشل غيره من كلام العرب :
 الثاني : إيجاز الحلف : وهو ما يكون يحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة
 تعين المحلوف . أو هو كما قال ابن الأثير : وما يحذف منه المقرد والجملة للدلالة
 فعلى الكلام على الحلف ، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على القلة (١) : وقال من
 هذا الأسلوب : وأما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر شبيه بالسحر ، وذلك أنك
 ترى فيه ترك الذكر أنصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجذبه
 أطلق ما يكون إذا لم تنطق ، وأتم ما يكون مبيهاً إذا لم تبين ، وهذه جملة تشكرها حتى
 تغير وتفهمها حتى تنظر . والأصل في المحذوفات جميعاً على اختلاف ضروبها أن يكون
 في الكلام ما يدل على المحلوف ، فإن لم يكن هناك دليل على المحلوف فإنه لغو من
 الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب : ومن شرط الحلف في حكم البلاغة أنه متى
 أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن (٢) :

أدلة الحذف :

أدلة الحذف كثيرة منها :

- ١ - أن يدل العقل على الحذف ، والمقصود الأظهر على تعيين المحلوف ، كقوله :
 وحُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَازِرِ (٣) ، فإن العقل يدل على الحذف ،
 والمقصود الأظهر يرشد إلى أن التقدير : حرم عليكم تناول الميتة والدم ولحم
 الخنزير ، لأن القرض الأظهر منها تناولها .
- ٢ - أن يدل العقل على الحذف والتعيين ، كقوله تعالى : «وجاء ربك» (٤)
 أي : أمر ربك أو عذابه أو بأسه :

(١) للعل السائر ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) للعل السائر ج ٢ ص ٨١ .

(٣) للامعة ٣ .

(٤) القنبر ٢٢ .

٣ - أن يدل الفعل على الخلف ، والعادة على التبيين ، كقوله تعالى حكايتهن امرأة العزيز : «فلنكن» الذي لُصقَ فيه (١) ، «دل» الفعل على الخلف فيه ، لأن الإنسان إنما يلام على كسبه فيحتمل أن يكون التقدير «في حين» لقوله : «قد شَغَقَتْهَا حَبَاءُ» (٢) ، وأن يكون في مرادته لقوله : «ثَرَاوِدُ» فاعلمنا عن نفسه (٣) ، وأن يكون في شأنه وأمره فيشملهما . والعادة دلّت على تعيين المرادة ، لأن الحب للقرط لا يلام الإنسان عليه في العادة لقهره صاحبه وغلبيه إياه ، وإنما يلام على المرادة الدخالة تحت كسبه التي يقدر أن يدفعها عن نفسه .

٤ - أن تدل العادة على الخلف والتبيين ، كقوله تعالى : «لو تعلم قتالا لا تبغناكم» (٤) مع أنهم كانوا أعير الناس بالحر ، فكيف يقولون بأنهم لا يعرفونها ؟ فلا بد من حذف ، وتقديره «مكان قتاله أي : أنكم تقاتلون في موضع لا يصلح للقتال ويخشى عليكم منه ، ويدل على أنهم أشاروا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن لا يخرج من المدينة وأن الحزم للبقاء فيها .

٥ - للشروع في الفعل ، كقول المؤمن : «بسم الله الرحمن الرحيم» عند الشروع في القراءة أو أي جعل ، فإنه يفيد أن المراد «بسم الله أقرأ» . والمحذوف يقدم ما جعلت التسمية مبدأ له .

٦ - اقتران الكلام بالفعل ، فإنه يفيد تقديره ، كقولنا لمن أهرس «بالرقاء والبيّن» (٥) فإنه يفيد : بالرقاء والبيّن أبهرت (٦) .
والمحذوف كما تقدم نوعان :

النوع الأول : حذف جزء جملة ، وهو حذف المفردات ويكون على صور مختلفة :

(١) يوسف ٢٢ .

(٢) يوسف ٢٠ .

(٣) يوسف ٣٠ .

(٤) آل عمران ١٦٧ .

(٥) الرعد - بالكسر - الإفقاق والتلاطم .

(٦) الإيضاح ص ١٩٢ ، ونظير شروح التلخيص ج ٣ ص ٢٠٢ .

١ - حلف القاعل والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر الفعل ، كقول العرب «أرسلت»
وهم يريدون للطر ولا يذكرون السماء . ومنه قوله تعالى «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْقُرَىٰ
وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ» (١) ، والضمير في «بَلَغَتِ» النفس ولم يتجر لها ذكر .
ومنه قول حاتم الطائي :

أملوت ما يفتني الثراءُ عن القدي إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدورُ
يريد النفس ، ولم يتجر لها ذكر .

٢ - حلف الفعل وجوابه ، وهو نوحان .
أحدهما : يظهر بدلالة الفعل عليه كقوله تعالى : « فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ
تَاللَّهِ أَفْرَ وَسِيَّاهَا » (٢) ، أي : احضروا .
ومنه قول المتنبي .

ولولا أن أكثر ما تمسني معاودةُ القلست : ولا مناكها
قوله « ولا مناكها » فيه محذوف تقديره . ولا صاحبت مناكها .
وقوله :

ولا إلا بأن أصلي وأحكي فليدلك لا يستنميه هواكما
قوله « ولا إلا بأن يصني وأحكي » فيه محذوف تقديره : ولا أرضى إلا بأن
يصني وأحكي .

واللهما : لا يظهر فيه قسم الفعل لأنه لا يكون هناك منصوب يدل عليه ، وإنما
يظهر بالنظر إلى ملازمة للكلام : كقوله تعالى : « وعرضوا على ربك عسماً لقد
جئتمونا كخفافكم أول مرة » (٣) ، فقوله « لقد جئتمونا » يحتاج إلى انضمام
فعل ، أي : قتلتم : جئتمونا ، أو قتلنا لهم .

ومن هذا القريب إيقاع الفعل على شقين وهو لاحدهما ، كقوله تعالى :

(١) القبلية ٢٦ - ٢٧ .

(٢) النفس ١٣ .

(٣) الكهف ١٨ .

وَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ» (١) وهو «أمركم» وحده، وإنما المراد: أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم :

ومن حذف الفعل باب يسي باب اقامة المصدر مقام الفعل، ويؤتى به الضرب من المبالغة والتوكيد كقوله تعالى: «فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَضْرِبُوا الرِّقَابَ» (٢) قوله : «ضرب الرقاب» أصله : فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وفي ذلك اختصار وتوكيد.

وأما حذف جواب الفعل فإنه لا يكون في الأمر المحتم كقوله تعالى: «وَلَقَدْ رَهِقُمْ يَحْزَمُوا وَيَلْمِئُوا» (٣) فحزم «يخوضوا» ويلموا «لأنهما جواب أمره فذرهم» وحذف للجواب في هذا لا يدخل في باب الإيجاز:

٣ - حذف المفعول به، كقوله تعالى: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَلْهَى» وأنه هو أمات وأحياء (٤)، فيمد كل فعل مفعول به محذوف. ويكون ذلك لأقران :

أحدهما : أن يكون غرض التكلم بيان حال الفعل والتفاعل فقط كقوله تعالى : «وَلَمَّا وَادَّ كَاهُ فَدَخِلُوا فِيهِ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ آلِهَاتٍ ثُمَّ دَخَلَ مِنْهَا مِائَةً مِنْهَا نَفْسًا» قال : «ماتحطبتكما ؟» قالتا : «لا تسقي حتى يصدر الرعاء» وأبونا شيخ كبير. فسكى لهما ثم ثوى إلى الظل فقال : «رب إني لما أنزلت إني من خير فقير» (٥). وقد حذف المفعول به في أربعة مواضع لأن الغرض الحديث عن موسى لا عن كون السقي غنما، أو إبلا، أو غير ذلك.
ثانيها : أن يكون غرض التكلم ذكره ولكنه يحذف ليؤهم أنه لم يقصده كقول البحري :

-
- (١) يونس ٧١ .
(٢) عمد ٤ .
(٣) الزمر ٨٣ .
(٤) النجم ٢٢-٢٤ .
(٥) القصص ٢٢-٢٤ .

شَجَوُ حَسَادِهِ وَغَرِظُ عَدَاةِ أَنْ يَرَى مَبْصَرُ وَيَسْمَعُ وَاعٍ
 وللتنقيح : أن يرى مبصر عاصته ، ويسمع واع أخباره ، ولكنه تغاضى عن ذلك ؛
 ثالثها : أن يحذف المقول لأنه معلوم ، ويأتي هذا بعد فعل المشيئة كقول
 تعالى : **فَوَلَوْ شَاءَ لَمَّا كُنْتُمْ أَجْمِينَ** (١) ، وقوله : **فَوَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ**
وَأَبْصَارِهِمْ (٢) ، أي : لو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ؛
 ومما جاء على مثال ذلك شعراً قول البحري :

لو شئت لم تُفسدْ ساحة حاتم كرمًا ولم تهديمْ مآثر عبالد
 الأصل في ذلك لو شئت ألا تُفسد ساحة حاتم لم تُفسد ما لم تُفسد فحذف ذلك من
 الأول استغناءً بدلالته عليه في الثاني (٣) .

٤ - حذف المضاف والمضاف إليه وإقامة كل واحد منهما مقام الآخر :
 فمن حذف المضاف قوله تعالى : **وَأَسْأَلُ الْقُرْيَةَ** (٤) ، أي : أهلها .
 وقول الشاعر :

إذا لاقيت قوسى فأسألهم كفى قوماً بصاحبه غيبيرا
 هل أطو عن أصول الحق فيهم إذا عسرتْ وانقطع الصلورا
 أراد أنه يشتغل ما في الصدور من الفضائل ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه
 مقامه :

ومن حذف المضاف إليه قوله تعالى : **وَاللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ** ومن بعده (٥) ،
 أي من قبل ذلك ومن بعده : وهذا النوع قليل الاستعمال لأن المضاف يكتسي منه
 تعريفاً وتخصيصاً فحذفه يخل بالكلام لأنه يذهب بخلافه بخلاف المضاف نفسه ،
 فإنه لا يخل حذفه من جهة أن المضاف إليه يذهب بقائله ويقوم مقامه .

(١) النمل ٩ .

(٢) البقرة ٢٠ .

(٣) ينظر للمثل السابق ج ٢ ص ٩٧ ، وديح الفرائد ص ١٠٥ ، والطرار ج ٢ ص ١٠٥ .

(٤) يوسف ٨٢ .

(٥) الترمذ ٤ .

وربما حذف المضاف والمضاف اليه وهذا نادر، كقوله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا
 تَيْبَةً مِّنَ الْكِتَابِ عَلَى الْبَنِيِّينَ (١) ، أي من أثر جابر فرس الرسول - صلى الله عليه
 وسلم - وقد قال العلوي عنه ولا يكاد يوجد إلا حيث دلالة الكلام عليه (٢) ،
 وسماه ابن الأثير وحذف المضاف مكرراً (٣) .

٥ - حذف الموصوف والصفة والقائمة كل واحد منهما مقام الآخر ، فمن حذف
 الموصوف قوله تعالى : « وَأَلَيْنَا تُعَدُّ الْفَالِقَةُ » (٤) أي : أيلة مبصرة
 ولم يرد الفالقة فالتا لأمعنى لوصفها بالبصر . ومنه قول الشاعر .

أنا ابن جتلا وطلائع الدنيا متى أصبح العمامة تعرفوني
 أي : أنا ابن رجل جلا .
 وقول البيهقي :

في انخراط من القباس على أصم لم يختال في صبيحة ورسو
 فقوله « على اصفره أي على فرس اصفر ، وهذا مفهوم من قرينة الحال لانه
 لا قال « حل اصفره » علم بذلك انه أراد فرسا اصفر .

ومن حذف الصفة قوله تعالى : « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيَةٍ »
 ضمياً (٥) ، أي : كل سفينة صحيحة أو سالمة .

٦ - حذف الشرط وجوابه : ومثال حذف الشرط قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ يُسُفًا وَمُصَدِّقًا لِّمَا فِي كِتَابِكَ » (٦) ، فالتقاء في قوله « فاعبدون »

(١) ط ٩٦ .

(٢) الطراز ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) النكت السائر ج ٢ ص ٩٩ .

(٤) الأبرار ٥٩ .

(٥) الكهف ٧٩ .

(٦) التكميل ٥٦ .

جواب شرط محذوف ، والمعنى : إن ارضي واسعة فإن لم تخلصوا إليَّ العبادة في ارض فانتصروا في غيرها .

ومنه قوله : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » (١)
أي : فأكثر فعدة من أيام أخر .

ومن حذف الشرط قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يُنصَّب للجرمون ما لبثوا غير ساعة ، كذلك يُؤفكون » وقال الذين أوتوا العلم والایمان لقد لَمْ نَشْم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يومُ البعث ولكنكم كنتم تعلمون » (٢) : يقول : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث ، أي : قد تبين بظلال قولكم :
ومنه قول الشاعر :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القسوس فقد جثا خراسانا
كأنه قال : إن صح ما قلتم إن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جثا خراسان وإن لنا أن تخلص .

وأما حذف جواب الشرط فكتوبه تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالين » (٣) ، فإن جواب الشرط هنا محذوف تقديره : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألسن ظالين ؟ وبذلك على المحذوف قوله تعالى :
« إن الله لا يهدي القوم الظالين » .

ويحذف جواب الشرط :

١- مجرد الاختصار ، كآية السابقة ، وكتوبه تعالى :

« ولو أن قرأنا سبوت به الجبال أو قلعته به الأرض ، أو كلم به النوى » (٤)
أي : لكان هذا القرآن :

(١) البقرة : ١٨٤ .

(٢) الروم : ٥٥ - ٥٦ .

(٣) الاحقاف : ١٠ .

(٤) الرعد : ٣١ .

٢ - دلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف ، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب كقوله تعالى : « وَصَيَّقَ الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَابَمَا فَادَخَلُوهَا غَالِدِينَ » (١) وقد حذف جواب الشرط لعظمة الشاهد ولكي تذهب النفس في تصويره كل مذهب (٢).

ولهذا المعنى حلفت الصلة من قولهم : « جاء بعد الدنيا والتي » (٣) أي المشار إليه بهما وهي الجنة والشعائد قد بلغت شدتها ولفظة شأنها مبلغا يهت القاصف معه حتى لا يحير بنت شقة (٤).

٣ - لعلم الخبير بوضع الكلام ، وقد سأل سيرويه استاذة الخليل عن قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » (٥) أين جوابها؟ وعن قوله تعالى : « وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوَى الْعَذَابَ » (٦) ، « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ » (٧) ، فقال : « إن العرب قد تركت في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم الخبر لأي شيء وضع هذا الكلام » (٨).

٧ - حذف القسم وجوابه ، ومثال حذف القسم « لَأَقْلَمَنَّ » أي : والله لأفعلن ؛ ومثال حذف جوابه قوله تعالى : « وَالصَّجَرِ وَلِإِلَاحِ عَشِيرَةٍ » والشَّعْبِ وَالْوَتَنِ ، والبلبل إذا يسري . هل في ذلك قسم للذي حوَّج . ألم تر كيف فعل ربك بعاد ،

(١) الزمر ٧٢ .

(٢) ينظر الإيضاح ص ١٨٧ ، وشروح التلخيص ج ٣ ص ١٩٢ .

(٣) الدنيا : تصغير التي .

(٤) محتاج العلوم ص ١٣٤ - ١٣٥ ، والإيضاح ص ١٨٨ .

(٥) الزمر ٧٢ .

(٦) البقرة ١٦٥ .

(٧) الأنعام ٢٧ .

(٨) كتاب سيرويه ج ١ ص ٤٥٢ .

إِذْ ذَاتَ الْيَوْمِ إِذِ ابْتَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ قُلُوا لِرَبِّهِمْ إِنَّا نَمْلِكُ مَا نَشَاءُ فَبَدَّلَ اللَّهُ إِلَهُكُمْ وَنَارَ الْجَهَنَّمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ : (١) ، فجواب القسم هنا
محلولة تقديره : ليُعَذِّبُنَّ ، أو نَحْرَهُ :

٨ - حلف ولوه وجوابها ، ومثال حلف ولوه قوله تعالى : وما اتخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إله إذاً لَدَعَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ (٢) : وتقديره : لو كان معه آلهة للعب كل إله بما خلق .
ومنه قول قريظ بن أبيف :

لو كنت من مازن لم تشيع ليلي بنو القبيصة من ذهل بن شيبان
إذاً لقام بنصري معشر عشن عند الحفيظة إن ذو لوة لا
والقدير : إذاً لو كنت منهم لقام بنصري معشر عشن .

ومثال حلف جواب ولوه قوله تعالى : ولو ترى إذ فرعوا فلا فتوتٍ وأمرلوا
من مكان قريب (٣) . وتقدير جوابه : لرأيتهمراً عظيماً . ومنه قول أبي تمام :
لو يطام الكفر كم من أصبر كنت له العواب بين السمر والفسف
والقدير : لو يعلم الكفر لاعتد أهبة الخمار :

٩ - حلف جواب ولولاء كقوله تعالى : وإن الذين يحبون أن تشيع فاحشة
في الذين آمنوا ، لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون .
ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رحيب رحيم (٤) تقديره : ولولا
فضل الله ورحمته لمجعل لكم العذاب .

١٠ - حلف جواب ولعاء كقوله تعالى : ولقد أرسلنا نوحاً ولججاً ولججاً
أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي للحسين (٥) ، وتقديره :

-
- (١) التيسير ١-٨ .
(٢) الزمخشرى ٩١ .
(٣) سيبويه ٥١ .
(٤) البدر ١٩-٢٠ .
(٥) الصائغ ١٠٣-١٠٤ .

فلما أسلموا ولله الحجين وفاديتاه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما
يعنى به الحال ولا يحيط به الوصف .

١١ - حذف جواب «أمّا»، كقوله تعالى : «فلما الذين أسودّت وجوههم
أكثرتم بعد إيمانكم» (١)، والتقدير : فيقال لهم أكثرتم بعد إيمانكم، فحذف
لقول «فلما» للقول مقامه.

١٢ - حذف جواب «إذا»، كقوله تعالى : «وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم
وما خلفكم لعلكم ترحمون». وما تأييدهم من آية من آيات ربه «إلا كانوا عنها
معرضين» (٢)، والتقدير : وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا وأصرّوا على تكذيبهم،
وقد دلّ عليه قوله : «إلا كانوا عنها معرضين».

١٣ - حذف الابتدأ والخبر. ولا يكون حذف الابتدأ إلا مفرداً، والاحسن حذف
الخبر لأنّ منه ما يأتي جملة. ومن المواضع التي يحسن فيها حذف الابتدأ على طريق
الإيجاز قولهم «اللهم والله أي : هذا اللال.

ومن المواضع التي يصح فيها حذف الخبر قولنا «ولولا عهد لكان كذا» .
ومن المواضع التي يحتمل أن يكون الحذف فيها إما الابتدأ وإما الخبر قوله
تعالى : «فصبر جميل» (٣)، فيحتمل أن يكون الابتدأ محذوفاً وتقديره : «فأمري
صبر جميل»، ويحتمل أن يكون من باب حذف الخبر وتقديره : «فصبر جميل»
أجمل.

١٤ - حذف «لا» من الكلام وهي مرادة، كقوله تعالى : «والله تفتأ تذكر»
يوسف (٤) أي : لا تفتأ، فحذفت «لا» من الكلام وهي مرادة .
ومنه قول امرئ القيس :

(١) آل عمران ١٠٦ .

(٢) يس ٤٥ - ٤٦ .

(٣) يوسف ١٨ + ٨٢ .

(٤) يوسف ٨٥ .

قلت : يمين الله أبرحُ فاعداً ولو قطعوا رأسي لنديك وأوصالي
أي : لا أبرحُ فاعداً.

١٥ - حلف الواو من الكلام واليائها، وأحسن حلفها من المعطوف والمعطوف
عليه، ومنه قوله تعالى : **ويا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا غلاتكم من دونكم** لا يألونكم
غلاتاً ودوا ما عتق قد بدت البقضاء من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبر (١)؛
أي : لا يألونكم غلاتاً ودوا ...

١٦ - حذف بعض اللام وهو سماعي لا يجوز القياس عليه، (٢) ومنه قول
حطمة بن عتبة :

كانَ إِرْبَةً - ناي على شَرَفٍ مُقَدَّمٌ بِسَبَا الكَثَنانِ مَلُومٌ (٣)
فقوله وسب سكرانه يريد بسباب الكنان.

وهذا وأمثاله مما يقع ولا يحسن وإن كانت العرب قد استعملته فإنه لا يجوز
لنا أن نستعمله.

الفرع الثاني : حلف الجمل وهو لسان :

أحدهما : حلف الجمل المقيدة التي تستقل بنفسها كلاماً وهذا أحسن المحلوفات
وأدعى على الاختصار ولا تكاد تراه إلا في كتاب الله تعالى.

وثانيهما : حذف الجمل غير المقيدة .

وجملة هذين للتوعين أربعة أضرب :

الضرب الأول : حلف السؤال المقدر ويسمى الاستئناف ويكون على وجهين :

١ - إعادة الأسماء والصفات، كقوله تعالى : **وَأَلَمْ** ذلك الكتابُ لأرَبِّهَ فيه
هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون.

(١) آل عمران ١١٨.

(٢) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ١١٢، والقرآن ج ٢ ص ١١٢.

(٣) القدام : عرقه جميل في فم الإبريت . سباب الكنان : جمع سبية أي في اللغة،
وقيل : لغة البهائم .

والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون (١) والاستئناف واقع في هذا الكلام على أولئك لأنه لما قال وألم. فذلك الكتاب، إلى قوله: «وبالآخرة هم يوقنون» الوجه لسائل أن يقول: ما بال المستقلين بهذه الصفات قد اختصروا بالهدى، فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالتفاح آجلا.

٢ - الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات، كقوله تعالى: «ومالي لأعبد» الذي قطري وإليه ترجعون. ألتخذ من دونه لقة إن يردن الرحمن بفسر لاكتفي عني شفاعتهم شيئا ولا ينقلون: إني إذن لفي ضلال مبين. إني آمنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنة قال باليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكثرين (٢). فخرج هذا القول مخرج الاستئناف، لأن ذلك من مظان السائلة عن حاله عند لقاء ربه، وكان قائلا قال: كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصالب في دية وتسلخي لوجهه بروحه؟ فتبيل: قيل أدخل الجنة ولم يقل: قيل له، لانصياب الغرض إلى القول لا إلى القول له مع كونه معلوما، وكذلك قوله تعالى: «باليت قومي يعلمون» مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد.

الغريب الثاني: الاكتفاء بالسبب عن المسبب وبالسبب عن السبب، فلما الاكتفاء بالسبب عن المسبب فكقوله تعالى: «وما كننن بجواب الغري إذ قبلنا إلى موسى الأمر وما كننن من الشاعدين. ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر» (٣). فذكر الرحمة التي هي السبب في إرساله إلى الخلق ودل بها على المسبب وهو الأرسال وعليه قول المتنبي:

(١) البقرة ١-٥.

(٢) يس ٢٢-٢٧.

(٣) القصص ١٤-٢٥.

أنسى الزمان بسوء في شيء فسرتهم وأنبأه على المقوم
أي : فاسمًا .

وأما حذف الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فكقوله تعالى حكايته عن مريم
- عليها السلام - : « قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك
بغيا » قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجمله آية الناس ورحمة
منا وكان أمراً متفقاً (١) ، فقوله : « ولنجمله آية الناس » تعليل معكاه محلوفاً
أي : وإنما فعلنا ذلك لنجمله آية الناس ، فذكر السبب الذي صدر الفعل من أجله ،
وهو جملة آية الناس ، وذلك به على السبب الذي هو « الفعل » .

وأما الاكتفاء بالسبب عن السبب ، فكقوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستمع
بالله من الشيطان الرجيم » (٢) ، أي : إذا أردت قراءة القرآن : فاستمع بالسبب
الذي هو القرآن عن السبب الذي هو الإرادة ، والدليل على ذلك أن الاستعاذة
قبل القراءة والذي دلت عليه أنها بعد القراءة .

الضرب الثالث : الاضمار على شريطة الضمير ، وهو أن يحذف من صدر الكلام
ما يؤتى به في آخره فيكون الآخر دليلاً على الأول : وهو ثلاثة أوجه (٣) :
١ - أن يأتي على طريق الاستفهام فتذكر الجملة الأولى دون الثانية ، كقوله
تعالى : « وأمن شرّح الله صدّره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم
من ذكر الله أولئك في ضلال مبين » (٤) ، تقدير الآية : « أمن شرّح الله صدّره
للالسلام كن أنسى قلبه » ويدل على المحلوف قوله « فويل للقاسية قلوبهم » .

(١) مريم ٢٠ - ٢١ .

(٢) النحل ٩٨ .

(٣) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ٨٦ ، والمفاتيح الكبير ص ١٢٤ ، والطراز ج ٢ ص ٩٧ .

(٤) الزمر ٢٢ .

٢ - أن يرد على حدّ الشفي والاثبات، كقوله تعالى : « لا يستوي منكم من أنفق قبيل الفتح وقابل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقتلوا » (١) ، تقديره لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقابل وقابل ومن أنفق من بعده وقابل ، يدل على المحلوف قوله : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقتلوا » ،
 ٣ - أن يرد على غير هذين الوجهين ، فلا يكون استظهاراً ولا تنقيحاً وإثباتاً كقوله تعالى : « والذين يؤثرون ما آتوا ، وقلوبهم وجلة » أنهم إلى ربهم راجعون ، (٢) فالمراد في الآية : « والذين يعطون ما أعطوا من الصدقات وسائر القرب الخاصة لوجه الله تعالى وقلوبهم وجلة » أي : خالصة من أن ترد عليهم صدقاتهم فحذف قوله « ويخافون أن ترد عليهم هذه الصدقات » ، ودل عليه بقوله « وقلوبهم وجلة » فظاهر الآية أنهم وجلون من الصدقة وليس وجلهم لاجل الصدقة ، وإنما وجلهم لاجل خوف الرد المتصل بالصدقة :
 وكقول أبي تمام :

ينجب الآثام ثم يخافها فكأنما حسنته آثام
 والتقدير : أنه ينجب الآثام فإذا تجنبها فقد أتى بحسنه ثم يخاف أن لا يكون تلك الحسنة مقبولة ، فكأنما حسنته آثام فلم يخف الحسنة لكونها حسنة وإنما خاف ما يتصل بها من الرد فكأنها عثرة كما يخاف الآثام .
 ومنه قول أبي نواس :

سنة العشاق واحدة فإذا أحسبت فاستكنر
 فحلف الاستكالة من الأول وذكرها في الصراع الثاني ، لأن التقدير : سنة العشاقين واحدة وهي أن يستكينوا وينضروا ، فإذا أحسبت فاستكنر .

(١) الحديد ١٠٠ .

(٢) المؤمنون ١٠٠ .

الضرب الرابع : ما ليس بسبب ولا مسبب ، ولا اضمار على شريطة التفسير ، ولا استئناف : فمن حلف الجمل النفي في قوله تعالى : « قال تَزْرَعُونَ سَبَّحَ سُبْحًا دَأَبًا لَمَّا حَصَدْتُمْ فَلَمْ تَزَوْا فِي سُبْحِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبَّحٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُّ النَّاسُ فِيهِ يَمْشَرُونَ . » وقال الملك أُنْزِلْنِي بِه (١) ، فانه حذف من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها : فرجع الرسول اليهم فأنقذهم بمقال يوسف فعبهوا لها أو فصدتوه عليها وقال الملك : « أُنْزِلْنِي بِه » .

ومن حذف الجمل غير النفي في قوله تعالى : « يٰٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا » قال : رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَقَدْ عَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا . قَالَ : رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا . فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أَنْ سَبِّحُوا بِكُرَةِ وَعَشِيًّا . يٰٰ يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَ صَبِيًّا (٢) . هذا الكلام قد حذف منه جملة دل عليها صدره وهو البشرى بالغلام ، وتقديرها : ولا جاءه لغلام ولشأ وترعرع قلنا له : يٰٰيَحْيَى خذ الكتاب بقوة ، فاجملة المحذوفة ليست من الجمل النفي .

ومما ورد على ذلك شعراً قول النسيبي :

لا أبغض العيسى لكني وقيت بها قلبي من الغم أو جسي من السقم
وفي هذا البيت حذف ، والتقدير : لا أبغض العيس لانصالي اياها في الاسفار ولكني وقيت بها كلها وكذا ، الثاني دليل على حذف الاول .

(١) يوسف ٢٧ - ٥٠ .

(٢) مريم ٧ - ١٢ .

وما يحصل بهذا الضرب حلف ما يميء بهد وأفضل مثل : ه الله أكبر أي :
 أكبر من كل كبير :
 وعليه ورد قول البحرى :
 لله أطاك الحية في القوى وحياك بالفضل الذي لا ينكر
 ولأت أملا في القيون للديم ولجل قدراً في الصدور وأكبر
 أي : أنت أملا في القيون من غيرك (١) :

(١) ينظر التفصيل في هذه المسائل، المثل السائر ج ٢ ص ٧١ وما بعدها، والمطلع الكبير
 ص ١٢٢ وما بعدها، والإيضاح ص ١٨٥ وما بعدها، والطراز ج ٢ ص ٨٨ وما
 بعدها، وشروح التلخيص ج ٣ ص ١٨٢ وما بعدها

البحث الثاني الأطباء

مصريه :

الأطباء - لغة - مصدر أطلب في كلامه أطباء ، إذا بالغ فيه وطول ذيله
لإقادة المعالي . واشتقاقه من قولهم : « أطلب بالمكانه إذا طال مقامه فيه .
والأطباء اصطلاحاً - زيادة اللفظ على المعنى لقائده .

وقد شغل هذا الأسلوب النقاد منذ عهد مبكر وعرض له إلحاحاً ، وعنده البلاغيون
فصولاً إضافية ، من ذلك ما نقله أبو حلال العسكري الذي ذكر في مطلع البحث حجة
أصحاب الأطباء فقد قالوا : « المنطق إنما هو بيان ، والبيان لا يكون إلا بالاشياع
والشفاه لا يقع إلا بالاتفاق ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشده اساطة بالمعاني ولا يحاط
بالمعاني اساطة تامة إلا بالاستقصاء ، والإيجاز للخواص ، والأطباء مشغولون بالخاصة
والعمامة ، والنبه والظن ، والرفض والرتاس ، ولغى ما طيلت الكتب السلطانية في
المهام الرعايا (١) : ولكن أبا حلال يرى أن الإيجاز والأطباء يحتاج إليهما في
الكلام ، وهذا هو الصحيح لئلا يفتقدوا للتقضى الحال :

وكان ابن الأثير من أكثر البلاغيين اهتماماً بهذا الأسلوب ، وقد عرفه بقوله :
« هو زيادة اللفظ على المعنى لقائده » (٢) .

وعرفه ابن قيم الجوزية بقوله : « هو زيادة في اللفظ لتقوية المعنى » (٣) ، وينطق
هذا التعريف مع التصريفات الأخرى التي لا تكاد تخرج عن هذا المعنى وهو أن الأطباء
زيادة اللفظ لغرض يقصد إليه التكلم ، وإلا كان أطباء لا يقتضيهما المقام :

(١) كتب الصائحين ص ١٩٠ .

(٢) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ١٢٨ ، وينظر الجلس الكبير ص ١٤٦ .

(٣) المراتل ص ١٠٦ .

والتطويل من المصطلحات التي تكرر ، وقد ذم بعضهم هذا الأسلوب وميز
بينه وبين الاطّاب ، فقال أبو حلال : « فالاطّاب بلاغة والتطويل عي » ، لأن التطويل
بمتزلة سلوك ما بعد جهلا بما يقرب ، والاطّاب بمتزلة سلوك طريق بعيد لزم
يحتوي على زيادة قائمة (١) :

وفرق ابن الأثير بينهما فقال في التطويل انه « يدل على المعنى بلفظ يكتفيك بعضه في
الدلالة عليه » (٢) . وقال عنه : « هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير قائمة » (٣) في
حين قال عن الاطّاب انه « زيادة اللفظ على المعنى القائمة » (٤) وإذا حدثت منه
الزيادة للإكدة لمعنى تغير ذلك المعنى وزال ذلك التأكيد عنه وذهبت قائمة التصوير
والتخييل التي تفيد السامع ما لم يكن إلا بها ، فقله تعالى : « فانها لا تعنى الا بصار »
ولكن تعنى القلوب التي في الصدور ، (٥) لا يسمى إيجازاً لأنه أتى فيه بزيادة لفظ
هي « الصدور » ولا يسمى تطويلاً لأن التطويل لقائمة فيه أصلاً وهذا فيه قائمة
ولذلك سمي اطّاباً ، وليس كذلك التطويل قاليت :

طرح الثنايا بالطايا وسابق إلى غاية من يتنرها يقدم
فيه تطويل لأن لفظه « للطايا » فضلة لا حاجة إليها (٦) :

وفرق الخطيب التزويي بين الاطّاب والتطويل ولكنه قال عن الثاني : « وهو
أن لا يتعين الترتيب في الكلام » (٧) وسُمي الذي يتعين فيه الترتيب حشواً :

(١) كتاب الصناديق ص ١٩١ .

(٢) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ٧١ .

(٣) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ١٢٨ .

(٥) الخسج ٤٦ .

(٦) ينظر اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ٢٤ و ص ١٤٧ .

(٧) الإيضاح ص ١٧٧ .

السامع:

بآتي الاطئاب على أشكاه عطفة منها :

١- الايضاح بعد الابهام : وبآتي لاخر اس :

الأول : ليرى المعنى في صورتين مختلفتين :

الثاني : ليشكل في النفس فضل تمكن ، فان المعنى إذا قلبي على سبيل الاجمال والابهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والايضاح .

الثالث : لتكمل اللغة بالعلم به ، فان الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللغة به ألم وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالجهول فيحصل لها بسبب العلوم لغة .

الرابع : لتضخيم الامر وتعتظيمه .

ومثال هذا الأسلوب قوله تعالى : « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » (١) ، فان « أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » ايضاح للابهام الذي تضمنه لفظ « الامر » ولي: تضخيم للامر وتعتظيم له . ومنه قوله تعالى : « قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري » (٢) ، فان قوله « اشرح لي » يفيد طلب شرح لشيء ما ، وقوله « صدري » يفيد تفسيره وبيانه ، وكذلك قوله : « يسر لي أمري » والمقام مقتضى التأكيد .

ومن الايضاح بعد الابهام باب « نعم وبئس » إذ لو لم يقصد الاطئاب لقليل « نعم حمده » و « بئس زيد » .

(١) الحجر ٦٦ .

(٢) ش ٢٥-٢٦ .

ومنه « التوشيع » وهو أن يؤتى في عجز الكلام بمثل مفسر باسمين ، أحدهما معطوف على الآخر ، كما جاء في الخبر : « شبب ابن آدم وتشبب معه غصنلان : الحرص وطول الأمل ».

ومنه قول الشاعر :

مقتني في ليل شبب بشعرها شمسين : من لخم ، ووجه حبيب
فما زلت في ليلين : شعر وظلمة

ومنه قول ابن الرومي :

إذا أبر قاسم جادت لنا بسده لم يمد الاجودان : البحر ، والظفر
وإن أضاعت لنا أنوار غرته تضاملت التيران : الشمس والقمر
وإن نفا حده أو سل حزمته وآخر الماضيان : الليل والقدر
من لم يبت حذرًا من سطو صولته لم يدرك مال الزعجان : الخوف والحذر
. يقال بالنظر ما يمتطي الميان به والشاهدان عليه : العين والأثر

وقول البحرى :

ما مشين بلدي الأراك تشابهت أعطفت قضبان به وقسدود
في حلتي حير وروض قاتلتي وردان : ورد جنى وورد عشود (١)

٢- ذكر الخاص بعد العام : ويؤتى به للتنبيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلاً للتفاير في الوصف منزلة للتفاير في الذات ، كقوله تعالى : وحافظوا على الصلوات ، والصلوة الوسطى (٢) وقد عصب «الصلوة الوسطى» وهي صلاة العصر - بالذكر لزيادة فضلها . ومنه قوله تعالى : ومن كان

(١) ينظر الإيضاح ص ١٩٥-١٩٦ ، وخزانة الأديب ص ١٦٩ ، والبرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٧٧ ، وشرح التلخيص ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) البقرة ٢٣٨ .

علواً إليه وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل (١)، وجبريل «وميكائيل» من
الملائكة.

وقوله: «ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر» (٢) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في الخير ولكنه تعالى
خصهما.

ومنه قول النبي:

«فان تَقَرَّرَ الْأَمْرُ وَأُنْتُ مِنْهُمْ فَاِنَّ الْمَسْكَ بِمَقْصِدِ الْفَرَارِ
وَقَوْلِ ابْنِ الرَّومِيِّ:

كَمْ مِنْ أَمِيرٍ قَدْ عَلَا بَابِنَ خِرَافِ شَرَفٍ كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عِدَّةُ (٣)

٣ - ذكر العالم بعد الخاص: ويؤتى به لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص.
قال الزركشي: «وهذا أنكر بعض الناس وجوده، وليس بصحيح» (٤) ومثل له
بقوله تعالى: «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي» (٥)، والنسك العبادة، فهو أهم من الصلاة.
ومنه قوله تعالى: «لَمْ يَطْلُوا أَنْ لَمْ يَطْلُمَ سِرُّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَأَنْ لَمْ يَطْلُمَ
الْقِيُوبُ» (٦).

(١) البقرة ٩٨.

(٢) آل عمران ١٠٤.

(٣) الإيضاح ص ١٩٧، وشروح التلخيص ج ٢ ص ٢١٦، والبرهان في علوم القرآن

ج ٢ ص ٤٦٤.

(٤) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٤٧١.

(٥) الانعام ١١٢.

(٦) التوبة ٧٨.

٤ - التكرير: وهو أن يأتي للكلمة بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أم مختلفا، أو يأتي بمعنى ثم يعيده (١).
ويؤتى به لأغراض:

- الاول: التأكيد، كقوله تعالى: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» (٢).
- وأي «ثم» دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ وأشد.
- الثاني: زيادة التنبيه على ما ينبغي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنه قوله تعالى: «وقال الذي آمن: يا قوم اتبعون أهدى لكم سبيلا. فرشاد. يا قوم إتبعوا هذه الحياة الدنيا ضاع» (٣)، فإنه تكرر فيه التماس لذلك.
- الثالث: إذا طال الكلام ونحشي تناسي الاول أعيد ثانيا نظرية له وتجديدا لعمده، كقوله تعالى: «ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا، إن ربك من بعد الغفور الرحيم» (٤).
- الرابع: في مقام التعظيم والتهويل، كقوله تعالى: «والخافضة» (٥) وقوله: «القارعة» (٦) والقارعة (٧)، وقوله: «إننا أنزلناه في ليلة القدر» (٨) وما أدراك ما ليلة القدر (٩).

(١) ينظر التواك ص ١١١، وللعل السائر ج ٢ ص ١٢٩، ١٥٧، والمصاح الكبير ص ٢٠٤، وخزانة الأدب ص ١٦٤، والمصباح ص ١٠٥.

(٢) التكاثر ٢-١.

(٣) غافر ٢٨-٣٩.

(٤) النمل ١١٩.

(٥) الخافضة ١-٢.

(٦) القارعة ١-٢.

(٧) القدر ١-٢.

الخامس: التعجب: كقوله تعالى: «وَقَتْلَ كَيْفَ قَدَرُ» ثم قيل كيف قدر (١) فأعيد تعجبا من تقديره وأصابته الغرض.

السادس: لتعدد المتعلق، كما كرره تعالى من قوله: «وَلَمَّا آتَاكُمْ بَكْرَتُهُمْ فِي سُوْرَةِ الرَّحْمَنِ» قاتلها وإن تعددت لكل واحد منها متعلق بما قبله.

السابع: الترغيب في قبول النصيح، كقوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَعْدَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ» يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٢)، فقد كرر «يا قوم» لتعطيف قلوبهم.

الرابع: التلذذ بذكر المكر، كقول الشاعر:

سقى الله نجداً والسلام على نجد وباحبذا نجد على القرب والبعد
الدافع: الظاهر للحمس كقول الحسين بن مطير يري من بن زائدة:

فيا قبر متعز أنت أول حفرة من الأرض خُطت للسماعة موضعاً
ويا قبر من كيف وأريت جوده وقد كان منه البر والبحر متراً
ويؤتى به لغير ذلك من الأغراض التي يحددها المقام (٣) و

٥ - **الابهال:** اختلف في معناه، قليل: هو غم البيت بما يفيد نكته يتم المعنى بملونها، كزيادة المبالغة في قول الخنساء:

وإن صبراً لتأتم الهداة به كآفته عكتم في رأسه نسر
فهي لم تلق عند تشبيهه بالخيول المرتفع بل أضافت النار في رأسه. وقيل أنه

(١) القدر ١٩ - ٢٠.

(٢) القدر ٣٨ - ٣٩.

(٣) ينظر الإيضاح ص ١٩٧، وشروح الطنيس ج ٢ ص ٢١٨، والبرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ١١.

لا يختص بالنظم، ومن ذلك قوله تعالى: «أبغوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون» (١)
ولذلك تعريفه بأنه «البيان في مقطع البيت وصجزه أو في الفقرة الواحدة
تحت ما قبله مفيد للتأكيد والزيادة» (٢) يجمع النوعين .

٦ - التفصيل: قال ابن سنان: «هو أن يكون اللفظ زائداً على المعنى وفائداً
عنه» (٣) .

ويفهم من هذا التعريف أنه يريد «التطويل» ، أو الإكثار ، لأنه قسم دلالة
الأنفاظ على المعاني ثلاثة أقسام: المساواة والتذييل والإشارة. وليس كذلك تعريف
التأخيرين، فهو «عقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد» (٤). وقد قال
أبو حلال عن هذا الأسلوب: «فأما التذييل فهو إعادة الأنفاظ المترادفة على المعنى
بمعناه حتى يظهر لمن لم يفهمه ويتردد عند من فهمه ، وهو ضد الإشارة والتعريض.
وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة والواقف الحافظة، لأن تلك المواطن تجمع
البياني لقهم، والبعيد للذهن، والناقب للفرجة، والجليد للخاطر، فلذا تكررت
الأنفاظ على المعنى الواحد توكيداً عند الذهن التقن وصححاً للكليل البليد» (٥) .

(١) يس ٢١ .

(٢) الطراز ج ٣ ص ١٣١، وينظر سر الفصاحة ص ١٨١، وكتب الصنائع ص ٣٨٠،
والمنابع الكبير ص ٢٤١، وللصباح ص ١٠٤، وبنوع الفرقان ص ٩١، وتحرير النجوم
ص ٢٤١، ٢٤٢، وعزلة الأدب ص ٢٣٤، والأبصاح ص ١٩٩، وشروح
التلخيص ج ٣ ص ٢٢٠.

(٣) سر الفصاحة ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ .

(٤) الإيضاح ص ٢٠٠، للصباح ص ٩٨، الأقوال ص ١٢١، شروح التلخيص ج ٢
ص ٢٢٥، الطراز ج ٣ ص ١١١، البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ١٦٨، عزلة
الأدب ص ١١٠ .

(٥) كتاب الصنائع ص ٣٧٢ .

وتلبييل ضربان :

الأول : لا يخرج مخرج اللل لدم استقلاله بالعادة المراد وتوقفه على ما قبله كقوله تعالى : وذلك جزيتهم بما كفروا وحل تجازي إلا الكفور (١) أي : حل تجازي ذلك الجزاء الذي يستحقه الكفور إلا الكفور ، فإن جعلنا الجزاء عاماً كان الثاني مفيداً فائدة زائدة :

ومنه قول الشاعر :

قد دعوا نزال فكننت أول نزال وعلام أركبه إذا لم أنزل
فالشر الثاني تلبييل ولكنه غير مستقل عن الأول :

وقول المتنبي :

وما حاجة الأضغان حوكت في الدجى إلى قمر ما واجد لك عاصمه (٢)
قوله ما واجد لك عاصمه تلبييل :

وقول ابن نباتة السعدي :

لم يبق جودك لي شيئاً أؤمله تركني أصعب الدنيا بلا أمل
قوله تركني أصعب الدنيا بلا أمل تلبييل غير مستقل عن الجملة السابقة.
الثاني : يخرج مخرج اللل لاستقلاله بنفسه ، كقوله تعالى : «وقل : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» (٣) ، قوله وإن الباطل كان زهوقاً تلبييل وهو مستقل عن السابق ولذلك يخرج مخرج اللل.

(١) سبأ ١٧ .

(٢) أي لا يحم قمر من يهدك .

(٣) الإسراء ٨١ .

ومنه قوله تعالى: «وما جعلنا لشر من قبلك الخُلْدَ» أفان ميت فهم الخالدون؟
كُلُّ نفس ذائقة الموت (١)، فقوله «كل نفس ذائقة الموت» مستقلة وبغرب
بها المثل .

ويصح أن يكون قوله «أفان ميت فهم الخالدون» من الضرب الأول أيضاً. وقوله:
«وما أيرى نفسي» إن النفس لامارة بالسوء (٢)، فقوله «إن النفس لامارة
بالسوء» تذييل بضرب به المثل.

ومنه قول لقمانه الذي في
ولست يستحق أن لا تلصقه على شعث أي الرجال المهذب
فقوله «أي الرجال للمهذب» تذييل وهو مستقل عما قبله ولذلك بضرب به المثل.
وقول أبي نواس .

حرم الزمان على الذين عهدتهم بك قاطنين ، والزمان حرام (٣)
فقوله «والزمان حرام» تذييل وهو مثل .
ومنه قول إبراهيم بن المهدي في رثاء ولده .

تبدل داراً غير دار وجيرة سواي ، وأحداث الزمان تنوب
فقوله «وأحداث الزمان تنوب» مثل ، وهو مستغن عما قبله.
والتذييل .

١ - أما لتأكيد منطوق كلامه، كقوله تعالى: «وقل جاء الحق وزهق الباطل»
إن الباطل كان زهوقاً: (٤)

(١) الأنبياء: ٣٤-٣٥ .

(٢) يوسف: ٥٣ .

(٣) الزمان : الشدة والسرعة والأذى .

(٤) الإسراء: ٨١ .

٢- وأما لتأكيد مفهومه كبيت الثابتة :

ولست بمسكين أنا لائمتي على شعث أي الرجال للهدب

٧- التكميل: هو الاحتراس، غير أن بدر الدين بن مالك يذكر في كتابه «الصباح» (١) نوعين هما :

الأول: الاحتراس : وهو أن تأتي في المدح أو غيره بكلام فراء مدخولا بعب من جهة دلالة منطوقه أو فحواه فتدفعه بكلام آخر لتصرفه عن احتمال الخطأ، ومنه قول الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حنولي على إخوانهم لفتشت نفسي
فتطنت لوجه أن يقال لها قد ساوت أمك بالهالكين من إخوان الناس فلم
فرطت في الجزع عليه ، فاحترست بقولها :

وما يكون مثل أخي ولكن أعزيزي نفس عنه بالناسي
الثاني: التكميل: وهو أن تأتي في شيء من القنن بكلام فراء ناقصاً لكونه مدخولاً
بعب من جهة دلالة مفهومه فتكمله بجملة ترفع عنه القص :
ومنه قول السموأل :

وما مات مثلاً سيد في فراشه ولا طلل مثلاً حيث كان قتيل (٢)
فراى الله وصف قومه بالصبر على القتل دون الانتصار من قاتليهم فكماله بالشرط
الثاني :

(١) الصباح ص ٩٧-٩٨.

(٢) يقول الشاعر الأول إنهم شجعان أهل حرب لا يموت أسلعم موتاً طيباً وإنما يموتون
بجراحات المعركة. وطل الرجل : أهدر دمه. ومناه : لهم لا يفلحهم ثار قتيل من
قتلهم ، فهم القوي.

وجمع معظم البلاغيين المصطلحين وقال القزويني : «وأما بالأكمل ويسمى الاحتراس أيضاً وهو أن يأتى في كلام يوم خلاف المقصود بما يدفعه» (١) ، وهو ضربان :

الأول : ضرب يتوسط للكلام ، كقول طرفة :

سقى ديارك - غير مفدها -

صوب الربيع وديمة^٢ : نحي

لقوله وغير مفدها احتراس عن أن تذهب مطلقاً.

وقول الآخر :

لو أن عزّة عاصمت شمس الفحي في الحسن عند موثق لفضى لها
لقوله وعند موثق تكميل واحتراس من أنها تقاضي للشمس عند حاكم غير موثق .

وقول ابن المعتز :

صبينا عليها - ظالين - سيأطنا فطارت بها أيدى سراج^٣ وأرجل^٤
لقوله : وظالين احتراس أو تكميل ، ولو حذفها الشاعر ألهم أن قرره بظيفة تستحق الضرب .

الثاني : ضرب يقع في آخر الكلام ، كقوله تعالى : «سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه» الآية على المؤمنين أعزّة على الكافرين» (٥) ، فإنه لو انصرف على وصفهم بالدلة على المؤمنين لزم أن ذلتهم لضعفهم ، فلما قال وأعزّة على الكافرين علم أنها منهم تواضع لهم .

ومنه قول حنّرة :

أنتي عليّ بما طلعت قرائتي سهّل^٦ مخالفتي إذا لم أعتصر

(١) الإيضاح ص ٢٠٢ ، وينظر شرح الطخيس ج ٣ ص ٢٣١ ، والبحران في علوم القرآن ج ٣ ص ١٦١ ، والقرآن ج ١٠٨ وساء والأكمال .

(٢) للغة ص ٥٥ .

فقله وإذا لم أقلمه احتراس دل به على أنه قد بخالت فبرج إلى الحق راضياً ولكنّه لا يقبل الظلم .

٨ - التخصيم : وهو أن يؤتى في كلام لا يؤهم خلاف المتصوّد بفصلة (١) بقيد نكته (٢) ، أو كما قال العلوي : وهو تقييد الكلام بفصلة (٣) : ويأتي لأغراض : الأولى : المبالغة ، كقوله تعالى : «وَيُعْطِيهِمُ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ» (٤) أي : مع حبه ، والتضمير للطعام أي مع اشتهاؤه والحاجة إليه :
ومنه : «وَأَتَى لِلَّالَ عَلَى حَيْثُ» (٥) ، وقوله : «وَأَنْ تَأْتُوا الْبَرَّ حَتَّى تُشْفِقُوا مِمَّا يَحْمِلُونَ» (٦) :
ومنه قول زهير :

مَنْ يَكُنْ يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ حَرَمًا يَكُنْ السَّامِعَ مَعُوذِي عَمَلِكَا
فقله «على عِلَاتِهِ» تنجيم للمبالغة :

الثاني : العبارة عن احتمال الخطأ فترد راقية له : ومنه قول الشاعر :

لَنْ كَانَ بَالِي حَيْثَا مَثَلٌ مَامُضٍ قَلْبِي إِنْ لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ لَوْحُ
فقله «إِنْ لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ» معناه سلامة العاقبة وقد أتم به للحنى عبادة عن احتمال الخطأ ، فقد أراد أن أول الحب للذة وراحة فإن كان آخره مثل أوله فهو لإحالة أحد عاليه ، لكن على أن تكون العاقبة سليمة :

الثالث : استقامة القوزن ، ومنه قول المتنبي :

(١) الفصلة : هي غير السند والسند إليه .

(٢) الإيضاح ص ٢٠٥ ، وشروح التلخيص ج ٣ ص ٢٢٥ .

(٣) الخراز ج ٣ ص ١٠٤ .

(٤) الإنسان ٨ .

(٥) البقرة ١٧٧ .

(٦) آل عمران ٩٢ .

وعنق قلب لو رأيت لهيعة باجنتي لرأيت فيه جهنما
لقوله : «باجنتي» أي بها من أجل استقامة الوزن (١) :

٩ - الاعتراض : وهو كثير في الأساليب العربية ، وقد قال ابن جني : وأعلم أن هذا القليل من هذا العلم كثير قد جاء في القرآن ولصيح الشعر ومثور الكلام وهو جار عند العرب جري التأكيد فلذلك لا يثنى عليهم ولا يستنكر عندهم (٢) ، وقال القزويني في تعريفه : وهو أن يلزم في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى ، جملة أو أكثر لأجل لها من الإعراب لكثرة سوى ما ذكر في تعريف التكميل (٣) ، ومنهم من يلعب إلى أن الاعتراض هو الحشو ، (٤) وفرق ابن حجة الحموي بينهما ، وقال : «والفرق بينهما ظاهر ، وهو أن الاعتراض يفيد زيادة في غرض التكلم والناظم ، والحشو إنما يأتي لإقامة الوزن لأخيره (٥) :

وللاختلاف بالاعتراض أغراض ثلاثة منها :

الأول : التزيين : كقوله تعالى : «ويجعلون له البيات» - سبحانه - ولهم ما يشتهون (٦) - ف «سبحانه» تضمنت تزييناً له تعالى عن البيات :

الثاني : التعليل : كقوله تعالى : «فلا أقسم بمواقع التنجيم وإنه لتقسم» - لو تعلمون - عظيم (٧)

(١) ينظر الإيضاح ص ٢٠٥ ، والقطر ج ٣ ص ١٠١ - ١٠٦ .

(٢) التلخيص ج ١ ص ٢٣٥ .

(٣) الإيضاح ص ٢٠٦ ، وينظر شروح التلخيص ج ٢ ص ٢٣٧ ، نهاية الإيجاز ص ١١١ ، اللصاح ص ٩٩ .

(٤) ينظر لئال السائر ج ٢ ص ١٨٣ ، وإلماع الكبير ص ١١٨ ، والقطر ج ٢ ص ١٩٧ .

(٥) خزانة الأدب ص ٣٦٦ .

(٦) النحل ص ٥٧ .

(٧) الواقعة ص ٧٥ - ٧٦ .

الثالث : دعاءه ، كما في قول عوف بن علم يشكو كبره :

إِنْ قَسَمَ بَيْنِي - وَبَلَّغْتَنِيهَا - فَدَأْبُجْتِ مَعِيَ إِلَى تَرْجُمَانٍ
وقول المتنبي .

وتحقر الدنيا احتقاراً مجسرب يرى كل ما فيها - وحاشاك - لا يا
وقوله وحاشاك دعاء حسن في موضعه .
الرابع . التنبيه ، كقول الشاعر .

واعلم - فعلم المرء ينفعه - أن سوف يأتي كلُّ ما قد دروا
ومن قول أبي خراش الهذلي يذكر أخاه مروة :

تقول أراه بعد مروة لأهبا وذلك رزء - لو علمت - جليل
فلا تحسبي أنني تناسيت عهدك ولكن صبري - يا أديم - جميل
فتقوله «لو علمت» و «أديم» جملتان اعترافيتان تفيدان التنبيه على عظم المصائب
وعلى تجلده وصبره .

الخامس . المبالغة إلى التوم ، كقول كثير عزة .

لو إن الباعلين - وأنت منهم - رأوك تطعموا منك المطالا

السادس . التحسر ، كقول إبراهيم بن المهدي في رثاء ابنه .

وإني - وإن قد مُتَ قبلي - لعالم يأتي - وقد أُخِرْتُ - منك قريب

السابع . الاستعطاف ، ومثله له السبكى (١) بيت المتنبي .

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه - يا جنتي - لرأيت فيه جهنما

ووجه حسن الاعتراف وحسن الاستفادة مع أن «جهنم» مالا معوك عليه في الاستفادة
فيكون مثله مثل الحسنه تأنيك من حيث لا ترتقيها (٢) ،

(١) حروس الأقراج - شرح الشنن ج ٢ ص ٢١١ .

(٢) الإيضاح ص ٢٠٩ .

وهذا هو النوع المفيد من الاعتراض، أما الذي يأتي لغير فائدة فهو على وجهين:
 الأول: أن يكون غير مفيد لكنه لا يكسب الكلام حسناً ولا قبحاً، كقول زهير:
 سقت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم
 قوله «لا أبالك» ليس فيه فائدة تأكيد، وليس فيه قبح:
 الثاني: أن يكون غير مفيد لكنه يكون قبيحاً لخروجه عن قوانين العربية وانحرافه
 عن أقيسها، كقول الشاعر:
 لقد - ولشك - يسنّ لي عشاءً يوشك فراقهم صرّةً يصبح
 في ولشك هنا قبح:
 وهذا النوع يكون أمح في الشعر ولذلك لم يأت في فصيح كلام العرب وبليغه (١):

(١) ينظر الطراز ج ٢ ص ١٧٤.

البحث الثالث

المساواة

تلك أساليب الإيجاز والإطناب، وما عدا ذلك فهو أسلوب المساواة التي عرفها البلاغيون بأنها تساوي اللفظ والمعنى بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر (١)، أو هي وأن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد لا تلتصا عنه يحذف أو غيره، ولا زائداً عليه بنحو تكرير أو تنعيم أو اعتراض (٢).

ومعرفة أساليب الإيجاز والإطناب تحدد أسلوب المساواة، ولذلك لم نشر إليها في مطلع هذا الفصل كما فعل البلاغيون وإن كان تعريف بدر الدين بن مالك يشير إلى أنها لا تعرف إلا بعد تحديد الإيجاز والإطناب؛ يقول: وأما المساواة وهو أن يكون لفظ الكلام بمقدار معناه لا تلتصا عنه يحذف للاختصار ولا زائداً عليه بمثل الاعتراض والتنعيم والتكرار (٣)؛ ومعنى ذلك أن معرفتها رهبة بأساليب الإيجاز والإطناب، فهي تالية لها في الغرض والتحديد؛ ومن أجل ذلك تأخر الحديث عنها ليسهل التمييز ويتضح المقصد، أما الاتفاق على متعارف الأوساط فهو أمر من الصعب تحديده ليقاس عليه، وذلك لاختلاف الناس في هذا المتعارف وليتعدد الأغراض والأهداف التي ترسم الأسلوب الذي يقاس عليه الإيجاز والإطناب؛

(١) ينظر من النسخة ص ٢٣٢، والبيان في علم البيان ص ١٨٠، ويطبع القرطبي ص ٧٩، وتحرير التحرير ص ١٩٧، وللعل السائر ج ٢ ص ٧٨، والقوائد ص ١٧٨، والطرار ج ٣ ص ٣٢٢، وعزارة الأدب ص ٤٥٩.

(٢) الإيضاح ص ١٧٧.

(٣) الصريح ص ٣٥.

ويرى أبو هلال العسكري أن المساواة هي اللذهب للتوسط بين الایجاز والإطناب،
وإن ذلك أشار القائل بقوله: وكان ألفاظه قوالب لمعانيه وأي: لا يزيد بعضها على
بعض (١).

وقال حازم القرطاجي: ولأن الكلام المنقطع الأجزاء، المنير التركيب، خير
ملوذة ولا مستحل، وهو يشبه الرشقات للقطعة التي لا تروى خيلًا، والكلام
المتناهي في الطول يشبه استقصاء الخرج المؤدي إلى الغصص، فلا شقاء مع التتبع
الخل، ولا راحة مع التطويل الممل، ولكن غير الأمور أوسطها (٢).

ومن أمثلة المساواة قوله تعالى: وحُورٌ مقصوراتٌ في الخيام (٣).

وقوله: هودوا لو تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٤).

وقوله: ولا يَحِقُّ الْمُكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْلَهُ (٥).

وقوله: وإذا رأيت الذين يخوضون في آبائنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا
في حديث غيره (٦).

وقوله: وهل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان؟ (٧).

وقوله: وهل سُجَّازِي إِلَّا الْكَفُورُ؟ (٨).

(١) كتاب العناوين ص ١٧٧.

(٢) منهاج البلاغة ص ٦٥.

(٣) الرحمن ٧٢.

(٤) القلم ٩.

(٥) فاطر ١٣.

(٦) الانعام ٦٨.

(٧) الرحمن ٦٠.

(٨) سبأ ١٧.

وقوله : «إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيَّاهُ ذِي الْقُرْبَى وَيُنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبِغْيِ يُعْطِلْكُمْ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (١) :

ومنها قول الثابتة القدياني :

فإنك كالميل الذي هو مدركي وإن غلت أن التناى عنك واسع
وقول طرفة :

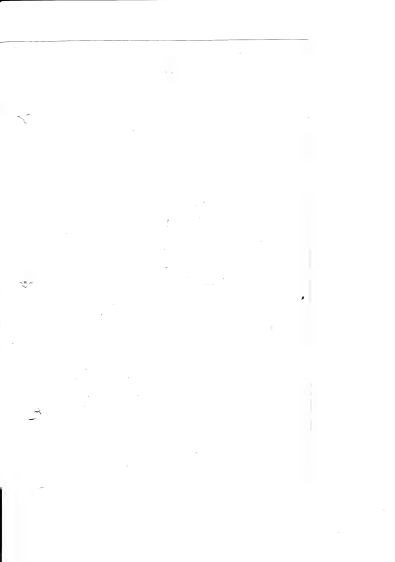
متبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً وباتيك بالأخبار من لم تسوِّد
وقول الآخر :

تُهْدَى الأمور بأهل الرأي ماصلحت فإن تأبَّت في الأشرار تنفسادُ
وقول الآخر :

أهابك إجلالاً وما بك قسرة علي ولكن مله عين حبيها
وما هجرتك لنفس إنك عندها قليل، ولكن قل منك نصيها
وقول زهير :

ومهما يكن عند امرئ من غيلةٍ وإن خالها تخفى على الناس مُعْتَمِر
وقوله :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا أحببت حليماً لو أصابك جاعلٌ
وفي هذه الأمثلة مساواة بين اللفظ والمعنى ، وهذا الأسلوب لا يستغني عنه متكلم ،
وهو كالإيجاز والإطناب من مقتضيات الأحوال ، بل هو أكثر ضرورة منها ، ولا
سيما في الدراسات العلمية المعتمدة على اللفظ المطابق للمعنى لازماً عليه ولا ناقصاً
عنه ليؤدي غرضه بدقة واتقان .



الفصل السادس

طبيقات عامة

(١)

أهتم البلاغيون والنقاد العرب بالألفاظ لأن لها أهمية كبيرة في تركيب الكلام، وفرقوا بين الألفاظ في التعبير، وقالوا إن هناك فرقا واضحا بين الكلمات، « قائم » مثلا غير « واقف »، ورووا أن رجلا أشد ابن هرمة قوله :

بأنه ريثك إن دخلت قتل لها هذا ابن هرمة قائما بالباب فقال : ما كذا قلت ، أكنت أتصدق ؟ قال : لماذا ؟ قال : واقفا . ثم قال : ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى ، (١) . وقاضوا بين الألفاظ وقالوا إن كلمة « المدائح » أحسن وأخف من « المداح » و « نواظق » أحسن وأطبع من « مستطقات » . و « القصائير » صحيحة ولكنها قليلة غير مأثورة ولا مستعذبة . ويتضح ذلك في البيتين :

ماذا عسى مداح يشي حيلك وقد ناداك في الوحي تغدس وتطير
فتت المداح إلا أن السنتا مستطقات بما تلقي القصائير

وقد ذكر المرزباني : « وما شيء أملك بالشعر بعد صحة المعنى من حسن اللفظ ، وهذا عمل التكلف وسوء الطبع » (٢) :

وذكر الجاحظ أن الناس قد تستخف ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحسن بذلك، وقال إن « الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجرح إلا في موقع العقاب أو في موضع القفر للذبح والعجز الظاهر : الناس لا يذكرون السلب ويذكرون الجرح في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر لآنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في

(١) كتاب الصنائع ص ٦٨ .

(٢) للشرح ص ٤٠١ .

موضع الانقمام، والعامية واكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المظهر وبين ذكر البيت،
ولفظ القرآن الذي عليه نزل انه اذا ذكر الابعصار لم يقل الاسماع، واذا ذكر صبح
مداوات لم يذكر الارضين. ألا تراه لا يجمع الارض الارضين ولا السمع السماعاً
والجاري على افواء العامة غير ذلك، (١).

وتحدثوا عن التلازم في العبارة وما يوحى من رقة وجمال، وفرقوا بين قول
القاتل :

وقدر حرب بمكان قفسر وليس قرب قبر حرب قبر
وقول أبي حية التميمي :

دمني وصنم الله بيني وبينها عشية آرام الكناس دميم
دميم التي قالت لجارات بينها ضمنت لكم ألا يزال يهيم
ألا رب يوم لو دمني دميها ولكسن عهدي بالنضال قديم
وقال الجاحظ عن البيت الأول: ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتناثر وإن كانت
مجموعة في بيت شعر لم يستطع التشدد انشادها إلا ببعض الاستكراه (٢) وقال
الرماني عن أبيات التميمي أنها من التأليف المتلازم في حين كان البيت المنفرد من
التأليف المتناثر (٣) :

وتكلموا على أثر صيغ الألفاظ في الكلام، وعقد ابن الأثير فصلاً في اختلاف
صيغ الألفاظ واتفاقاتها (٤) وقال ان صيغ الألفاظ إذا نقلت من هيئة إلى هيئة
كثقلها مثلاً من وزن إلى وزن أو كثرت أو كثقلها من صيغة الاسم إلى صيغة

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠.

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٥.

(٣) التكت في اسماز القرآن - ثلاث رسائل في اسماز القرآن ص ٨٧.

(٤) التكل المتناثر ج ١ ص ٢٨١.

الفعل أو من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم، أو كشافها من الماضي إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضي أو من الواحد إلى الثنية أو إلى الجمع أو إلى غير ذلك، انتقل فيها فصار حساً، وحسها صار قبحاً. ومن ذلك أنه يقال «سهم صائب» فإذا جمع الجمع الحسن الذي يعذب في القم قيل: «سهام صواب» أو «صائبات» و «صيب»، فإذا جمع الجمع الذي يفتح قيل: «سهام صيب» - على وزن كتب - قال أبو نواس .

ما أحلَّ الله ما صنعت عنه تملك العشبة يسى
قلت السائلها كسبدي سهام الردى صيب
فقله: «سهام صيب» من القظ الذي ينبو عنه السمع ويحيد عنه السان؛ ورأى أن وزن «افعلعل» جميل يقال: اعتشوب المكان، وانغروقت العين واحلقت العلم. وهذا يدل على أن لصيغة القظة أهمية في الكلام وأثر في النفس؛ وربطوا بين القظ والمعنى حينما تحدثوا عن التثنية، لذلك تكون القظ التزل والغتاب رقيقة وتكون القظ الحماصة والهجاء جزلة وشديدة. ومن ذلك قول يشار بن برد .

تساقط لبلي لما أبسرحُ وزام الصباح لما أصبحُ
وكننت امرءاً بالصبا مولعاً وباللهو عشدي له مفتوحُ
لقد كنت أمني على طرية وأصبح من مروح أمسرحُ
والقاف هذه الأبيات رشيقة ليس فيها شدة، ولكن بشاراً حينما فخر قال:
إذا ما غضينا غفبةً مضربةً هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أهرقا سيلاً من قبلة فزا متبر صلتى علينا وسلمنا
ولنا لقوم ما نزال جسيادنا تساور ملكاً أو تناهب مغنما

خلقنا سماء فوقنا بنجومها - سيرةً ولفماً يقبض الطرف أتما
وهذه الألفاظ غير ماتي الآيات الثلاثة. ويوضح الاختلاف بين اللفظ والمعنى في
كثير من الشعر الجيد، وظهر ذلك في كتاب الله، فهو حينما يصور المعنى يستخدم
اللفظ الدال عليه، ومن ذلك كلمة «اللقم» في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَالِكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ بِلِلَّاهِ الْأَرْضِ» (١) فهي تدل على
المعنى بوضوح وتوحي بالثقل، ومثلها كلمة «لنبتطن» في قوله تعالى: «وَأَنْتُمْ
لَسَنْ لَنَبْتَطُنَنَّ» (٢)، فهي تدل على البطء في الحركة، ومثلها أيضاً كلمة
«يصطرحون» في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْفَسُ عَلَيْهِمْ
فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاثِرٍ» وهم
يَصْطَرِحُونَ فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» (٣) فهي تمثل المعنى أحسن تمثيل وتصور فلفظ الصراخ المخلط للجلوب من كل مكان،
فالألفاظ في الكلام ذات دلالة وإعلاء، ولذلك أهم بها الفاد والبلاغيون ولؤلؤها
حناية كبيرة، وتعدتوا عنها في كتبهم غير أن كتب البلاغة المتأخرة حشرت هذه
الدراسة في فصاحة الكلام وفصاحة المفرد ووضعت لكل منهما شروطاً حددتها
وأوقفت تسع الحياة في مثل هذه الدراسات :

هذه بعض جوانب دراسة الألفاظ، وفي النصوص الآتية ألفاظ كثيرة،
فانظر بعضها وتحدث صفاً فيها من إيهام أو تلام أو رقة أو جزالة وغير ذلك
لما له علاقة بين اللفظ والمعاني في ضوء ما تقدم.

(١) التوبة ٢٨.

(٢) النساء ٧٢.

(٣) طه ٣٦-٣٧.

١ - قال تعالى : **وَأَذْكُرْ خَيْرَ ثَرَاكٍ أَمْ شَجَرَةُ الزَّكَاةِ : إِنْ جَعَلْتُمَا فَيْتَنًا لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلَابِ الْجَبِينِ : طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ : فَالْتَمِمْ لَكُمْ مِنْهَا فَمَا تَوَدُّونَ مِنْهَا الْيُسْرَى : ثُمَّ إِنَّهُمْ لَخُشُونَهَا خَوْفًا مِنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكِلَى الْجَهَنَّمَ (١) .**

٢ - وقال : **وَرَبُّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ : وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْ لِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ : وَاعْقِرْ لِي إِنْ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَفُونَ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ لِنُظَنِّ : وَبَرَزَتْ الْجَهَنَّمَ لِقَاوِينَ . وَغِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُعْبَدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يُنْصَرُونَ . فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَاوُونَ (٢) .**

٣ - قال بشار بن برد :

أيا مسلم ما طول عيش يدائير ولا سالم صمَّ قليب بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه في للأرقى المتلاحم

٤ - وقال بدر شاكر السياب في قصيدة **والشودة الفطرة :**

عيناك غابتا تغيل ساعة السحر
أو شرفتان راح يشأى عنهما القصر
عيناك حين تسمان تورق الكروم
وتسرقص الأغصان كالأكمار في شهر
برجته المجداف وهما ساعة السحر
كأنما تفيض في غوريهما النجوم
وتفرقان في غباب من أسى شفيف

(١) الصافات ٦٢ - ٦٨ .

(٢) الشعراء ٨٣ - ٩٤ .

كالحجر صرّح اليدين فوقه السماء
 دفء الشتاء فيه وارتمائه الخريف
 والموت والميلاد والظلام والضيء
 فتضيئ قلبه روحه رعدة اليك
 ولشوة وحشة تعاللق السماء
 كشوة الطفل اذا خاف من القمر
 كأن اقواس الحباب تشرب القيوم
 وقطرة قطرة تلذّب في المطر
 وكركر الاطلاق في عرائش الكروم
 ودغذغت صمت المعانيير على الشجر
 أنشودة المطر ، مطر ، مطر ، مطر

(٢)

لم يعجب لقاد بعض الالفاظ التي وردت في القصص الآتية، استخرجها
 وطبق عليها، وبين ما فيها من وجوه الاستهجان:

- ١ - قال أبو تمام :
 يا دهر قوم من أصدقك فقد أصبح هذا الانام من عرقك
- ٢ - قال ثابت شراً :
 يظل بمرسة وبسي بليها جحشا ويعروري ظهور السالك
- ٣ - قال المتنبي :
 جفت وهم لا يصفون بياهم شيم على الحسب الآخر دلائل
- ٤ - قالت ليل الأحميلة :
 اذا عط الحجاج أرضاً مريضة تبع أقصى دائها فتفاهما
 فتاهما من لئام الضال الذي بها غلام اذا مرّ الشتاء قداهما

٥ - قال أبو تمام :

فيلاذربجان احتيال بعدما كانت مرسى عبرة ونكسال
سمحت ولينا على استماعها ماحولها من نفرة وجسال

٦ - وقال أبو نصر عبد العزيز بن لبابة :

أقام قوام اللين زيل فنانه وأنضج كسي البحر وهو نظير

٧ - قال الرصافي :

سكنتُ الخلاء في وطني كائي أعود سكرتُ ففلاذله الدروب

٨ - قال السياب :

يخطف قاصداً لثمنها بينهما والريح غرماء نعي غيرها طاعا

٩ - قال أحمد الصالي :

واحتزل العنكبوت أميري وفي بشاه ممي رغبتي

١٠ - قال الزهاوي :

لقد كنت في درب بغداد ماشياً ويشهد ليها للمشاة دروب

فصادفت شيخاً قد حنى الدهر ظهره له فوق متن الطريق ديب

عليه ثياب رثة غير أنها نظاف قلم تدلس لمن جيوب

تلك ففسون في وسع جيئه حل أنه ابن القشور كسيب

(٧)

يُخبرني علم المعاني بالأساليب الكلام عند العرب ، وقد كانت في كتب الشعر
الأولى أثره من تلك العناية ، ولعل كتاب سيويه وكتاب القنطرب للمبرد من خير
الكتب الشعرية التي اعتنت بطرق التعبير وما بينها من فروق يدركها من ثقافتهم
العرب وأدرك بلوقه جمالها ، ولكن العناية بالأساليب انحسرت حينما بدأ النحاة

يعتبر بالعامل والاعراب والعلل الثواني والثالث وما إلى ذلك من اهتمام أبعد كتب
لشعر عن تلوق الأساليب .

وكان لعبد القاهر الجرجاني أثر في رد كثير من مزاي الكتب الأولى إلى
الوضوحات التي تكلم عليها البلاغيون في علم المعاني كالخبر والانشاء والفصل
والوصل والقصر والابتجاز والاطناب. ولكن عبد القاهر لم يضع حدوداً فاصلة بين
ما سمى خبراً وما سمى انشاء، لأنه يرى أن الفرق بينهما فيما يؤديه كل منهما من
معنى. قال : ولا يجوز أن يكون لتنظيم الكلام وترتيب أجزائه في الاستفهام معنى
لا يكون له ذلك المعنى في الخبر ، وذلك أن الاستفهام استخبار والاستخبار هو
طلب من المخاطب أن يخبرك ، فإذا كان كذلك كان محالاً أن يفرق الحال بين
تقديم الاسم وتغييره في الاستفهام ، فيكون المعنى إذا قلت : «أزيد قام؟» غيره
إذا قلت : «أقام زيد؟» ثم لا يكون هذا الافتراق في الخبر ويكون قولك : «زيد قام»
و «أقام زيد» سواء ذاك لأنه يؤدي إلى أن تستعمله أمراً لاسيما فيه إله جواب وأن
تستثني المعنى على وجه ليس عنده عبارة يشبه لك بها على ذلك الوجه ، وجملته الأمر
أن المعنى في ادخالك حرف الاستفهام على الجملة من الكلام هو أنك تطلب أن يفتك
في معنى تلك الجملة ومؤداها على الثبات أو نفي فإذا قلت : «أزيد منطلق؟» فانت
تطلب أن يقول لك : «نعم هو منطلق» أو يقول : «لا ما هو منطلق» وإذا كان ذلك
كذلك كان محالاً أن تكون الجملة إذا دخلتها همزة الاستفهام استخباراً عن المعنى على
وجه لا يكون هي إذا نزع منها الهمزة إخباراً به على ذلك الوجه فاعرفه (١) ،
ويتضح في كلام عبد القاهر أن هناك فروقاً دقيقة تدرك بالحس القوي اللطيف
وللوق السليم. وكان لجهود هذا التحري في البلاغة أثر واضح في مباحث علم
المعاني ومنها : الخبر وهو أساس التعبير قبل أن يتصرف فيه التشكيل ويخرج به إلى
أغراض مجازية متعددة .

(١) دلائل الأصابع ص ١٠٨ .

ومن الخير قوله تعالى : وألر . كتاب أنزلناه إليك لتُخْرِجَ للناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذي له مافي السماوات وما في الأرض وويلٌ للكافرين من عذاب شديد. الذين يَسْتَحْيُونَ الحياة الدنيا على الآخرة وَيُصَدِّدُونَ عن سبيل الله ويغفونها عِوَجاً أولئك في ضلال بعيد. وما أَرْسَلْنَا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم فيُضِلَّ اللهُ من يشاء وَيَهْدِي من يشاء وهو العزيز الحكيم (١) .

هذه الآيات بما تضمنت من عبارات بدئية رائعة تخبر عن حقائق يريد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام الناس وهي لفرق وانفصاف الناس. وهذا هو الخير الحقيقي ، ولكن حينما يقول سبحانه وتعالى : وَصَيَّسْ وتولى ، أن جاءه الأعمى . وما يُسْمِعُك لَعْنَةُ يُزَكِّي . أو يَذَكِّرُ فتنفعه الذكرى . أَمَّا من استغنى فإِنَّهُ لَه تصدَّى ، وما عليك إلا يزكَّى . وأَمَّا من جاءك يسعى : وهو يخشى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (٢) . فإنه لا يريد انبجاراً وإنما يريد عتاباً للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك حينما أتاه ابن مكتوم وعنده رجال من قريش يدعوهن إلى الاسلام رجاء أن يُسَلِّمَ بسلامهم غيرهم ، فقال ابن مكتوم : « يا رسول الله أقرئني وعشني مما علمك الله » . وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغلته بالقوم ، فكره الرسول - صلى الله عليه وسلم - قطعه لكلامه وعيس وأعرض عنه فنزلت سورة « عيس » وكان الرسول بعده يكرمه ويقول إذا رآه : « مرحبا بمن عاثني فيه ربي » . فالآيات انما عن هذه القصة ولكنها لا تريد أن تلف عند هذه الحادثة وإنما تريد أن تعاتب الرسول ، وبذلك خرج الخير عن معناه الحقيقي إلى العتاب و مثل ذلك ما قاله النبي العظيم حين دعا قومه إلى الاسلام : « إنَّ الرائد لا يكلب

(١) ابراهيم ١-١ .

(٢) عيس ١-١٠ .

أجله ، والله لو كذبت الناس ما كذبكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو أتى رسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة . وهذه الكلمات غير ولكنه خرج عن معناه ، لأن الرسول الكريم لم يكن هنا في موقف المظهر لأن قومه يعرفون صدقه وأمانته وإنما هو في موقف للعائب ، لأنهم أعرضوا عن دعوته .

فالخير يكون حقيقياً حينما يراد به «فائدة الخير» أو «لازم الفائدة» ويكون مجازياً حينما يخرج عن هذين الفرضين . وفي النصوص الآتية أسرار حقيقية ومجازية ، عيبتها وشرح معانيها ووضح الأغراض المختلفة فيها :

١ - قال تعالى : «وأصبح الذين آمنوا بآياته بالأسس يقولون : وَيَّ كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مِنْ اللَّهَ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَّ كَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ الْكَافِرُونَ » (١) .

٢ - وقال : «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْهُتْدَى» (٢) .

٣ - وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

٤ - وقال الإمام علي - رضي الله عنه - من كتاب إلى بعض أمراء جيشه : «فإن عاصوا إلى ظل الطاعة فذلك الذي نحب ، وإن توافوا الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان فأنهد بمن أطاعك إلى من عصاك واستغن بمن اتقاد معك عن تقاضى منك ، فإن الشكارة مثيبي غير من مشهده وقموده أغنى من نهوضه» (٣) .

(١) انصهر ٨٢ .

(٢) انصهر ٥٦ .

(٣) تواتر القوم : وإلى بعضهم بضاً حتى تم اجتهادهم . أنه : نهض .

وقال القتيبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
أمام ملة- يجفوني عن شواردها
٦- وقال عبد الرحيم محمود :

سأحمل روحي حمل راحتي
لأنما حياة تسر الصدغ
ولفس الشريف لها غايته
لعمرك إني أرى مصرعي
أرى مقتلي دون حقي السليم
لعمرك هذا مات السرجا
٧- وقالت أميرة توتلي زوجها :

كنّا كفتنين في جرثومة بنقا
حتى إذا قيل قد طالت فروعهما
أثنى على واحدني ريب الزمان وما
كنّا كأنجم ليل بينهما قمر

٨- وقال القتيبي :

ومراد القوم أصغر من أن
غير أن النفس يلاقي المنايا
ولو أن الحياة تبقى غسي
وإذا لم يكن من الموت بد

٩- وقال أبو فراس الحمداني :

صبرت على اللؤواء صبر ابن حرق
منعت حتى قومي وسدت عثرتي

وأسمعت كلماتي من به صمم
ويسهر الخلق جرأها ويختصم

وألقي بها في مهاوي السردى
ن وأما مات يفيظ العسدي
ن ورود المنايا ونيل العنسي
ولكن أخذ الله الخطي
ب ودون بلادي هو المبغسي
ل ومن رام موتا شريفا فذا

حيثما حل خير ماتني به الشجر
وطال فتواهما واستمطر الثمر
يتني الزمان حل شيء ولا يلاز
يجلو لدجى قهوى من بين القمر (١)

تعاذى فيها وأن نضائسي
كالحات ولا يلاقي الهوانا
لعدتنا أضلنا الشجعالما
فمن العجز أن نكون جبالا

كثير العدا فيها قليل المساعد (٢)
وقللت أعل غسر هذي القلائد

(١) الجرثومة: الأمل. التور: اللذ، أعني عليه العرا إلى به وأذكرك.

(٢) اللؤواء: الفتنة والفتنة.

١٠ - وقال أبو نواس :

دبّ في السقام سقلاً وعثوا
ذعب جدي بطامة نفسي
لهف نفسي على ليال وأبنا
قد أسأت كلّ الاسماء قاله
وأراني أموت عضواً فعضواً
وتكثرت طاعة الله نفسوا
م تجاوزهن لعناً ولهنوا
هم صفحا عتاً وغفرا وعفوا

١١ - وقال أبو سلمى :

إن جيش التحرير شعب فله
وجناحه في الشأم جناح
جيش حطين جيشا يزحف اليه
للدويلات والحدود تداعت
علم واحد وجيش وحيد
وأمام التاريخ يخفق في السا
ح عليهم لواءه التشور
طين تكادت آساده والتشور
وعلى غزاة الجناح الأكبر
م قد أن أن تؤني التشور
وتولت أئمنها والتشور
ونفسال وقائد ومسير
ح عليهم لواءه التشور

١٢ - وقال الأعطل الصغير :

يقفاد ياشفق الجمال وملعب الفزل للطرور
بنت المكارم لغروية فيك جامعة القلوب
يت من الاخلاق ضاقت عنه أخلاق الشعوب
وسعت ديات السماع وضم اشانت التوب
زفرأت أحمد في رسالته وآلام الصليب
بلغاد ماحمل السرى مني سوى شيع مريب
جفلت له الصحراء وثفت الكتيب إلى الكتيب
وتنصت زمر الجناب من قويعات القرب
يشاعلون وقد رأوا قيس الملوخ في شحوني
والتمعات على الشفاء مضرجات بالتسبب
تيكي لها قبل الصبا ويلوب فيه كل طيب
يشاعلون من القنى العربي في الري الغريب

تتمتع البلاغيون لأساليب التشابه المختلفة ويميزوا بينها وأشاروا إلى ما يأتي منها حقيقة وما يأتي منها مجازاً ، وكان تمييزهم دقيقاً يكشف عن المعنى وينقله بوضوح: ومن ألفت ما ذكر عبد القاهر كلامه على الاستفهام وتأثير المعنى بتأثير تركيب الجملة. قال : ومن أين شيء في ذلك الاستفهام بالمفردة لأن موضع الكلام على أنك إذا قلت : «أفعلت؟ وفعلت؟ وفعلت؟» كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده: وإذا قلت : «أأنت فعلت؟ وفعلت؟» فالاسم كان الشك في الفاعل من هو. وكان للتردد فيه: ومثال ذلك أنك تقول : «أبنت لدار التي كنت على أن تبنيها؟» : «أأنت الشعر الذي كان في نفسك أن تقول؟» : «أأنت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟» تبدأ في هذا ونحوه بالفعل لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل والتفاته مجوز أن يكون قد كان وأن يكون لم يكن. تقول: «أأنت جيت هذه لدار؟» : «أأنت قلت هذا الشعر؟» : «أأنت كتبت هذا الكتاب؟» تبدأ في ذلك كله بالاسم ذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان . كيف وقد اشرت إلى الدار مبنية والشعر مقولا والكتاب مكتوبا ، وإنما شككت في الفاعل من هو. فهذا من الفرق لا يدفعه دافع ولا يشك فيه شك ولا يخفى فساد أحدهما في موضع الآخر (١) .

فاللحن في الاستفهام لتحذره صياغة العبارة ولذلك وجد عبد القاهر فرقا بين عبارة وأخرى وحذره ذلك الفرق وما يوحى من معنى يختلف باختلاف التعبير. ويكون الاستفهام مجازيا كما يكون حقيقيا فمحمود سامي البارودي حينما رثى زوجه استخدم أسلوب الاستفهام ليظهر تحسره والله على فتيده وما أصابه وهو في مفاه: قال :

(١) دلائل الإيجاز ص ٨٧ .

يادهره فيسم فيجنتي بحيلة كانت خلاصة عذابي وعنادي؟
 إن كنت لم ترحم ضنائي لبعثها أفردتهن فلم ينن توجسما
 فرحي العيون دواجف الأكباد الذين درّ العيون ثلاثه الأجساد
 فكانت لهم كثيرة الأصعاد يبيكين من وكلة فراق حفيّة
 فخذودهن من التمزق لدية وقويين من الهوم صوادي
 أسيلة القسرين أي فجيسة حلت للفتك بين هذا السادي؟
 نصبح الاستفهام وليم فيجنتي؟ وأفلا رحمت؟ وأي فجيسة؟ لا يراد بها
 الاستفهام الحقيقي وإنما يراد بها التحسر وتصوير هول المصائب.
 وفي القصود الآتية صور من الاستفهام، حين تلك الصور وبين ما جاء منها
 حقيقة أو مجازاً:

- ١ - قال تعالى: وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ (١)؛
 - ٢ - وقال: وألم أثربك لنا ولينا؟ (٢)؛
 - ٣ - وقال: وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا
 أنزل إليه ملكٌ فيكون معه الذب؟ (٣)؛
 - ٤ - قال رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي الإسلام خير؟
 قال: تعلّم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .
 - ٥ - وقال ابن الرومي:
- بأنني أين عهدت ذلك الأعصام أين ماكنان يشا من صفاء ؟
 كشفت منك حاجتي صفوات غطيت برحمة بحسن القضاء

(١) الرحمن ٦٠ .

(٢) الشعراء ١٨ .

(٣) الفرقان ٧ .

- بالخي حبيك لم تهب من مع
أقلا كان منك رد جسميل
- ٦- وقال أبو تمام في فتح حمورية
أين الرواية أم أين التجوم وما
تخرصا واحداً بل مقلقة
- ٧- وقال المتنبي :
- أشكر يا ابن سجال انساني
أنت الذي بك حُجراً بعد علي
- ٨- وقال البحري :
- أأفرك السماء عتفي وقد نمت
وأنت الذي أحزنتي بعد ذاتي
- ٩- وقال أبو تمام للمري :
- أفوق البحر يوضع لي مهاد
تست فخلت أن النجم دولي
- ١٠- وقال أبلها أبو ماضي :
- ألساني كله من شراب
وأنا مني كلها قتلاني
- ألم يهلي وتك لأبي ونحلي
أيما لأدعني إذا منك لم
- وإذا دأبك الحبيب بهجر
- بك حظاً كسائر قبلاه
فيه لنفس راحة من عناه
- وهو يتحدث عن ادعاء النجسين :
- صاغوه من زعفرانها ومن كلبها
ليست بشعر إذا حُدَّت ولا خرب
- وتحسب ماء غيري من أنثي
بأنك بحس من تحت السماء
- علي "نور القبر والقبر ماطع"
فلا تقول عقوق ولا الطرف خاشع
- أم الجوزاء تحت يدي ومهاد
وميان التفتيح والجهاد
- لتخبرني : متى طلق الجهاد
وغدي فيه مقعة رشاد
- وأقر والفتاة لي عداد
- ولماتيك كلها من عسجد
وأمايك للفسود المؤكَّد
- كلوبها وأي شيء يؤد
ثم ألا تشككي ؟ ألا تنهد
- ودعك الذكري ألا تهجد

١١- وقال نسيب حريضة :

أيا نجمة سطعت في القلا
لقد طال ليلي فهل من صبا
أيا نجمة في اعالي السما

١٢- وقال عبد الرحيم همود :

لكيف اصطباري لكيد الحفو
أعزاً وعندي نهون الحيا
بقلبي سألومي وجوه العفا
وأعسي حياأعسي بحمد الحسا
١٣- وقال عبد الكريم الكرمي :

حال الفجر : أين غولة فأنه
هي في كل زهرة من بلادي
أنها من مروج حكاة والرمـ
من كسروم الجليل خمرية الاز
عطرها منذ كان أنفاس بها

١٤- وقال القروي :

ياهم العروبة بعد الله أنتج
شرححت صدري لما طفلا وعل سوي
كم جرعتني ليالي يؤسهاثرحا؟

١٥- وقال :

ما لهذا الشرق لايسرح في
أنهيا علقوا أم جسرأ
ومرت الحسااله مطربة

م أيري طريق في لايـ ام
ح وصال اضطرابي فهل من سلام؟
م أطلت السمكوت فهل من كلام؟

د؟ وكيف احتمال لسوم الأذى؟
هـ وذلاً والي لسوب الإيـ؟
ز ، وقلبي حديد وقاري اعلى
م فيعلم نسومي بأنني لعدى

ت طيبوب ونمتت كيف لعال؟
حق في صميمنا يتغلغل
له واللسد نشوة لتنتقل
داه نشوى ومن كروم التجلل
ن ورغم التزمان لم تبسدا

لـ ثم لعبد الوحدة السبح
ذكر العروبة صدر الحرف ينشرح
فحق لي في ليالي عرسها القرح

لكيات من علوج القرب سود؟
رن" فاعتز له قلب الرجسود ؟
حول عرش الله أرواح الجسدود

الأمر والنهي والثناء والنهي مثل الاستفهام من أساليب التشاؤم ولها معانٍ
 حلقية ومجازية فهي حلقية حينما يراد بها الأمر أو النهي أو الثناء أو النهي، وهي
 مجازية حينما تخرج عن معانيها الأصلية. قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه :
 «أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك قوله لا يرفع
 تكلمم بحق لا تقاذه . أسر بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطع شريف في
 حيفك ولا يذات ضيف من جورك ، واليسة على من ادعى واليمين على من أنكر ،
 والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً ، ولا يمنعك
 قضاء قضيت بالأمر فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرسدك أن ترجع عنه إلى الحق
 فإن الحق قديم وسراجة الحق خير من تضادي في الباطل : الفهم القهم عندما يتلجج
 في صدرك ما لم يزل في كتاب الله ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف
 الأمثال والأشياء وقس الأمور عند ذلك ثم اصد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق
 فيما ترى » .

هذه قطعة من رسالة بعث بها الخليفة الثاني إلى أبي موسى الأشعري يوصيه
 فيها بالعدل بين الناس وقضاء حوائجهم والنظر في أمورهم وهي رسالة تعد
 من أسس القضاء، وقد بدأها - رضي الله عنه - بقوله : «فإن القضاء فريضة
 محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك » . وهذه صيغة أمر صادرة من عمر
 إلى الأشعري وهي مازمة لا تحتمل صدقاً أو كذباً . ومثل ذلك ما جاء به من صيغ الأمر
 في قوله : «أسر» و«اعرف» و«قس» و«اعمل» وهي كلها أوامر واجبة للتنفيذ
 وهذا الضرب من الأمر يسمى : أمراً حلقياً .
 وقال القروي :

يلزمة السدائم مهما تكثرتي عدد السفين فعدت ربك أكثرتي
 لا تستغني في الخصومة عدلاً قالعدل غلبت لتي للظلمة صكر

لا يخذل من يسديك آتاءة صبرت قلب من يسيث من صبر
قوله: «لا تفتلي بولا يخذل» نبي ولكنه ليس حقيقياً، لأن الشاعر ليس
في موقف يقدر فيه أن يصدّر لواجهه لك فهو يحدّر ويذلّ:
وباني للنداء على الحقيقة كما في قول سليمان العيسى:

باصبر وحدة أمني قدر على الزمن الرقاص
قدر على التاريخ شتاء فما بمحسوء ماحر
لن نضرب بساحة إلا لنشعل نار - ماحر
الارد العربي عاد مع السريخ مع الاقاصي
ولقد فلك جشاحه ومضى بشقه الرجاج

ولكنه يلقح على المجاز لتدبة كقول المتنبي:

واحر قلباه مومن قلبه شبيب ومن بجسي وحالي عتده مغم
أو تنحصر كقول ابن الرومي:

باشباني وابن منسي شبابي آذنتي حباله بالتغصبات
لهف نفسي على شعبي ولهوي تحت أفتانه الدخان السوطيات

وفي النصوص الآتية صور لأساليب الانشاء، حيثها وبين أغراضها:

١ - قال تعالى: «فلما قضى موسى الأجل» وصار بأهله أين من جانب الظهور
ناراً قال لاهله امكثوا الي كنت ناراً لعل أتيكم منها بغير أو جدوة من نار لعلكم
تصلون: فلما أتاه تودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من
الشجرة أن ياموسي إلهي أنا لله رب العالمين وإن ألق عصاك فلما رآها تنير
كأنها جان ولئى مدبراً ولم يعقب: ياموسي أثيل ولا تحزن أنك من الآمين:
أسئلك بذلك في جيبك تخرج يضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من
الرحم فلذلك يرعائون من ربك إلى فرعون ومكة لهم كانوا قوما فاسقين» (١).

(١) القصص ٢٩ - ٣٢.

٢- وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصبر رحمه . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » .

٣- وقال الامام علي - رضي الله عنه - : « يا معشر المسلمين تعجبوا منكم : كنتموا الأمة وقتلوا السيوف في الاغداد وكافحوا بالقبيا وتصلوا السيوف بالخطي فانكم بعين الله . وليولد كل منكم الكفر وليستحي من الفقر لان الفقر عار في العقاب ولا في الحساب . وطوبوا عن الحياة لقسا وسيروا إلى الموت مسجعا ، ودونكم هذا الرواق الاعظم ، وعليكم بالصبر فان الشيطان راكب معدته ، فعضداً صعداً حتى يبلغ الحق أجله والله معكم ولن يتركم اعمالكم » :

٤- وقال حافظ ابراهيم :

ما لولا السبل عنهم ولتهمارا	كيف بالث نساكم وندارى ؟
كيف لسي رغبهم فقدالاً	م وكيف اصطل مع لا قوم غارا ؟
كيف طاح العجوز تحت جدار	يتدلى وأسقف تتجارى ؟
رب إن القضاء أنحس عليهم	فاكشف الكرب واحجب الاقدار
ومرر النار أن تكف اذا هبنا	ومرر القيث أن يسيل انهارا
أين طوفان صاعب القلق يروي	هذه الارض فهي تشكو الاورا

٥- وقال بدر شاكر السياب في قصيدة يور سعيد :

يا حاصد النار من أشلاء قتلانا	ملك الضحايا وان كانوا ضحايا
كم من ردى في حياة والنخل ردى	في مية وانحصار جساء عذلاتنا
ان العيون التي طمعت أن تجسها	عجبت بالشمس أن تختار دنيا
وامتد كالنور في اسواق تريتنا	غرس لنا من دم وانحشلت مولانا
فأتركني يا بقايا كسباد أولنا	يتقي عليها من الاصنام لولانا

٦- وقال ابو الطيب النخعي:

ميش حيزا أو مت وأنت كريم
وأطلب العز في لظى وذير الشكر

٧- وقال ابن زيدون:

دومي حل للمهد مادمتا محافظة
لولي وفاء وإن لم تبللي صلة

٨- وقال محمود حسن اسماويل:

باسم الشرى طوقى بالقسياء
ذاكره واذكري أبياسه

٩- وقال قطري بن النجاعة:

أقول لها وقد طارت شعاعاً
لأنك لو سألت بقاء يسوم

١٠- وقال ابن زيدون:

باسارى لبرق غاد القصر واستقره
وباسهم الصبأ بلغ تحيتنا

١١- وقال مالك بن النرب وقد حضره الموت:

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فإزلا
أنيما حلّي اليوم أو بغض ليلة
وقوما اذا ما استلّ روعي فهينا
وعطاً بأطراف الأستة مضجعي

١٢- وقال ابراهيم طوقان في قصيدة: «الفناني»:

لا تسبل عن سلامته
بدلكه عمومه

روحه فوق راحته
كفناً من وسائله

يركب الساعة التي
شغل فكر من برا
بين جيبه خالق
من رأى ساعة الذي
حمله جهنم

١٣ - وقال الرصافي :

توس ان في بغداد قوما
ويجمعهم وابك انساب
ودين اوضعت الناس قبلا
نحن على الحقيقة اهل قري
١٤ - وقال عمر أبو ريشة :

باروي القس بالمجلى الشئ
دون عليك في الرب السدي
لعت الألام منا شلنا
لذا مصر أغاني جلق
ذهب أعلامها خافقة
كلما انقض عليها عاصف

(٦)

ان صياغة العبارة في اللغة العربية يحدد المعنى ، وليس من البعث تعدد الاساليب
وتلوها ، بل أن لكل أسلوب معنى يحدده وضع الألفاظ في الجملة ، فلتقديم الكلمة
معنى غير ماني والتعريف ، ولترتيبها دلالة غير ماني تنكيرها ، ولتفصلها غرض غير
ماني وصلها ، ومثل ذلك يقال في القصص وغيره من طرق التعبير ، وقد اهتم النحاة
الأوائل بهذه المسألة وشاركهم في ذلك اللغويون ، ولكن البلاغيين وعلى رأسهم عبد

للقاهر تعمقوا في دراسة الأساليب بعد أن تحولت كثير من كتب النحو عن العناية
بمثل هذه الجوانب . وما يتصل بهذه المسألة وإيضاح الفرق بين عبارة وأخرى في
التركيب قول عبد القاهر وهو يتحدث عن التقديم والتأخير : «إذا قلت : وأجاءك
رجل» فأنت تريد أن تسأله : هل كان يجيء من أحد من الرجال إليه : فإذا قدمت
الاسم قلت : «لرجل جاء» فأنت تسأله عن جنس من جاءه لرجل هو أم امرأة ؟
ويكون هذا منك إذا كنت علمت أنه قد أتاه آت ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتي ،
فسيبك في ذلك سبيل إذا أردت أن تعرف عين الآتي قلت : «أزيد جاءك أم عمرو ؟»
ثم قال : «وإذا قد عرفت الحكم في الابتداء بالكرة في الاستفهام فابن الخبر عليه ،
فإذا قلت : «رجل جاءني» لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذي جاءك رجل لا
امرأة ، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أتاك آت : فإن لم ترد ذلك كان
الواجب أن تقول : «جاءني رجل» فتقدم الفعل : وكذلك إذا قلت : «رجل طويل
جاءني» لم يستقم حتى يكون السامع قد ظن أنه قد أتاك قصير أو أنزله مترلة من ظن
ذلك» (١) .

وما يتصل بهذا الباب وتركيب الكلام قول الشنبي :
«ولم يشرعني موضع لا يذله نديم ولا يفضي إليه شراب»
ففي هذا البيت جملتان هما : «لا يذله نديم» و «لا يفضي إليه شراب» ، والأولى
صفة «موضع» ، وقد أريد إشرارك الثانية لها في الحكم وذلك عطفت عليها ، ولا
يصح أن تحذف الواو لأن الكلام يكون مقطوعاً ، وليس هذا من أساليب العرب :
ويأتي عكس ذلك أي غير معطوفة في أنواع أخرى من التعبير ، فإذا قيل كما قال
الشنبي أيضاً :

وما لدمع إلا من رواء قصائدني إذا قلت شعراً أصبح للدمع مشدداً
كان القصص لأن الجملة الثانية (أو) (فقطر الثاني) «إذا قلت شعراً أصبح للدمع مشدداً»
توكيد للاول ولا يصح العطف في مثل هذه الحال :

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٩ - ١١٠ .

وهذه مسألة تتصل بالأسلوب وما يوحى من معنى ، ولذلك قالوا : لا يصح أن يقال : «لأحبك الله» جواباً لسائل لأن معنى هذه العبارة ذم في حين أن المقصود المدح ، ولذلك يقال : «لأحبك الله» ومثلها : «لأبارك الله فيك» و «لا ، وعافاك الله» قالوا وهنا واجبة لأنها تحدد المعنى الذي يقصده المتكلم أو الكاتب :

والفرق واضح بين «ما اختار إلا» منكم صديقاً و «ما اختار إلا» صديقاً منكم ، فالاختصاص في العبارة الأولى في «منكم» وفي الثانية في «صديقاً» . وكان عبد القاهر قد تحدث عن مثل ذلك عنصراً فكلّم على قول السيد الحميري :

لو عسير التدبير فرسانه ما اختار إلا منكم فارساً
قال : «الاختصاص في : منكم ، دين وفارساً» ، ولو قلت : «ما اختار إلا» فارساً منكم ، - الاختصاص في «وفارساً» (١) ، ومعنى ذلك أن التقديم والتأخير احداثاً في المعنى ، ولولا ذلك لظلت العبارة ذات معنى ثابت ، ولظلت كثير من المعاني حبيسة للصور . وهذا من أهم مزايا اللغة العربية ، ولذلك استطاع النشئون بها والتحدثون بالفاظها أن يصوروا المعاني المختلفة ويعبروا عن مشاعرهم وهوажهم أحسن ما يكون للتعبير .

وفي النصوص الآتية ألوان مختلفة من أساليب التقديم والتأخير والفصل والوصل والقصص ، حيثما وتحدث عما تؤدي من معانٍ أو تغير لفظها أو غير أسلوبها .

١ - قال تعالى : «إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً» (٢) :

٢ - وقال : «لله الأمر من قبل ومن بعده» (٣) .

٣ - وقال : «وما عطيتكمهم أغرؤوا فادخلوا ناراً» (٤) :

(١) دلائل الإيجاز ص ٢٦٥ .

(٢) النساء ٢٦ .

(٣) الروم ٤١ .

(٤) نوح ٢٥ .

٤ - وقال : «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البسط فتعند ملوماً محسوراً» (١) :

٥ - وقال : «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْمَوْتُمْ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» (٢) :

٦ - وقال : «وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ» ، «إِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنِّي بِتَحْسِرٍ اللَّهُ شَيْئًا ، وَسَيُجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» (٣) :

٧ - «كَانَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ : «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» :

٨ - وقال الإمام علي - كرم الله وجهه - : «لله ليس شيءٌ بشرٌ من الشرِّ إلا عقابه ، وليس شيءٌ بخيرٍ من الخيرِ إلا ثوابه ، وكل شيءٌ من الدنيا سماعه أعظم من حياته ، وكل شيءٌ من الآخرة عيانه أعظم من سماعه ، فليكنكم من العيان السماع ومن الغيب الخير . واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة غير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا فكم من متفوض رابح ومزيد خاسر» :

٩ - وقال العمري :

أعندي وقد مارستُ كلَّ غفيرةٍ بصدقٍ أو بشرٍ أو يُخَيَّبُ سائلٌ ؟

١٠ - وقال النبي :

«ذلٌّ من يبيع الذليلَ بميشٍ ربِّ عيشٍ أعفٍ منه الحرامُ
من يَهْنُ يَسْهَلُ الهوانُ عليه ما يجرحُ بعيتَ الإسلامِ»

(١) الاسراء ٢٩ .

(٢) يس ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) آل عمران ١٤٤ .

١١- وقال علي محمود طه :

فلسطين لأراضك صيحة مغتال
ولا عزك الجليل المقدس ولا عيت
صحت بأديبات الشرق تحت غبارهم
على خلجات الروح من تريك الغالي

١٢- وقالت نازك الملائكة :

في قلبه فتاوى قد أغسدتوا
من صدره الحر يغذي الثرى
يلوح إسرائيل مهما ارتوى
يقسى لسانا عربي الشذا

١٣- وقالت :

الوسيلة الكبرى دنا ركبها
بالفرحة السارين تحت الدجى
منّا فيا بشرى الشفاء الطمأنينة
قد لاحت النوار وحسان الفتاة

(٧)

الايجاز والاطناب والمساواة من أساليب التعبير، لكن واحد منها غرضه ومجال استعماله وموقعه: فقد يدعو المعنى أو الحال إلى الايجاز وقد يتطلب الموقف الاطناب وقد يتحقق الغرض بالمساواة: واللفظة العربية تميل إلى الايجاز ويتجلى ذلك في الشعر القديم وفي الأمثال السائرة، ولكن الاطناب والمساواة وجدنا سيئلهما إلى كثير من كلام العرب عندما اقتضاهما المقام:

وفي النصوص الآتية أمثلة للايجاز والاطناب والمساواة، حيثها وبين نوعها:

١- قال تعالى: «كُلُّ أَمْرٍ إِذَا مَا كَسَبَ وَجِئَ» (١)

٢- وقال: «وإِنْ يَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ» (٢)

(١) الطور ٢١.

(٢) الطور ٤.

٣ - وقال: «رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات» (١).

٤ - وقال: «ولكم في القصاص حياة» (٢).

٥ - وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

٦ - وقال ابن أبي عمير :

لم يُبَيَّنْ جودك لي شيئاً أؤمله تركني أصحاب الدنيا بلا أمل

٧ - وقال إبراهيم بن المهدي في رثاء ابنه :

وإني وإن قد مُتَ قبل لعالم يأتي وإن أُنِرت منك قريب

٨ - وقال المتنبي :

أتى الزمان بنو في شيبته فسرهم وأنبأه على التسرير

هذه بعض النصوص من كتاب الله وكلام رسوله وأشعار العرب: أمّا الأدب

الحديث فلا تتضح هذه الأساليب في العبارة الواحدة أو البيت مثل التوضيح في

القطعة أو القصيدة أو العمل الأدبي؛ ويعرف ذلك بالموازنة بين النصوص التشابه

أو التي تعالج موضوعاً واحداً أو تتعرض لقضية واحدة؛ ولكي تتضح الرؤية

وتتقرب الصورة تؤخذ عدة نصوص تعالج العمل القُدائي أو بطولة الجيش أو

وصف مشهد من الطبيعة أو الحياة، وسيلو عند الموازنة للفرق بين هذه الأساليب :

فالرصاني والبيا أبو ماضي تعرضاً للقفر والغنى ونحوهما عن استغلال الأغنياء الفقراء

ولكن الأول أوجز في التعبير ولم يعرض للجوانب المتصلة بالموضوع كلها وإنما

جهر تعبيراً مباشراً فقال :

أرى كل ذي فقر لذي كل ذي غنى أجيراً له مستخماً في عساره

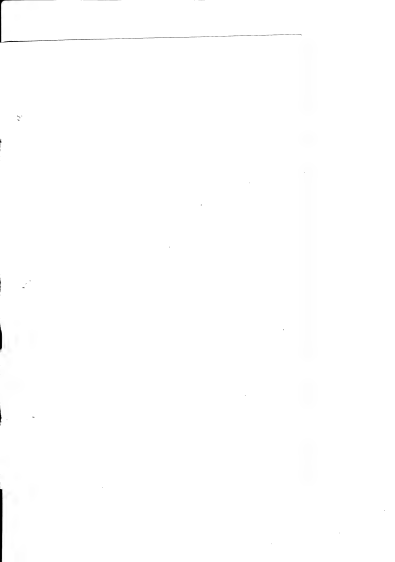
ولم يعطه إلا اليسير وإنما حل كدّه قامت صروح يساره

(١) نوح ٢٨.

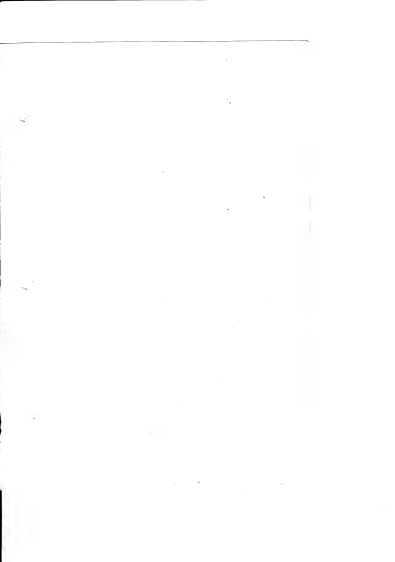
(٢) البقرة ١٧٩.

ويلبس من ثلثيله العزّ خالياً
 يشدّ القنّى أزرّ القنّى في حياته
 وما القنّى إلا مكسر في قناره (١)
 وأحطب الثاني وعرض الصور للرجة والمؤثرة فقال :
 نصي للبلين ساعة أنّه طـ
 وكسى للخرّ جسمه قباحسى
 يالخي لا تملّ بوجهك عني
 أنت لم تصنع الحرير الذي تلبس
 أمانيّ كلها من تراب
 وأمانيّ كلها للآلحسى
 أنت مثلي من الثرى وإليه
 أيها الطين لست أنقى وأسمى
 سدت أو لم تسدّ فما أنت إلا
 إنّ قصراً سمكته سوف يند
 لا يكن للخصام قلبك مأوى
 أنا أولى بالحب منك وأحرى
 فالرصاني أوجز التعبير عن الموضوع ، ولكن إيليا أبو ماضي أحطب ، وليس
 هذا هو الفرق الوحيد بين الشعاعين ، بل هناك فرق أهم وهو أنّ الرصاني عبّر عن
 المعنى تعبيراً مباشراً خالياً من الأبداع والإيهام . وعبر أبو ماضي تعبيراً غنياً فيه
 إبداع وإيهام ، وبذلك خلق في أجواء رجة ، وهذه من أهم سمات الفن الأصيل .

(١) القنّار : كل ملك ثابت . الصرح : اليسار : القنّى : الأزر : الظهور لم القنّى .
 القنّار : السور القنّى .



الباب الثالث
علم اليان



المجلد الأول
اليان
المبحث الأول
اليان لغة واصطلاحاً

جاء في المعجم أن اليان من ديان الشيء وأبان ، إذا انفتح وانكشف ، وفلان أبين من فلان ، أي : أوضح كلاماً منه ، (١) .
فاليان لغة الوضوح والكشف والظهور ، أما مدلوله الاصطلاحي فلا يستوي محمداً في العصور المتعاقبة كما لا يفتن عليه مختلف الباحثين ترميزاً جامداً مانعاً خلال عهد حياة هذه الكلمة ، ومن هنا فلا بد أن نتف مع النصوص في شيء من التسلسل التاريخي :

أقدم هذه النصوص آيات من الذكر الحكيم دارت في مواقع بعضها منها موضعان :
أولهما : قوله تعالى : « هذا يان الناس وهدي وموعظة للمتقين » (٢) .

واليان ههنا - حل رأى القرطبي - (٣) هو الإيضاح ونقل القرطبي عن الحسن بن وهب : أن اليان في هذه الآية للكرامة يعني القرآن (٤) . كما ذكر مصنفو كتب علوم القرآن : أن اليان اسم من أسماء القرآن الحكيم وصفة له ، ويؤيد سياق الآية هذا الذكر وذلك النقل ، فرى كلمة اليان دالة في هذه الآية للكرامة حل ما يمتاز به القرآن للكرم من الأسلوب المعجز في موضوعاته الدينية والفكرية وفي لغة النصيحة التي تأتي دونها ثمار القرائح ونتائج العقل ببلالة في كل زمان ومكان .

(١) سلايس اللغة (١٠٠) .

(٢) آل عمران ١٣٨ .

(٣) الكشف ، ج ١ ص ٢١٨ .

(٤) التاج لاسم القرآن ج ١ ص ٢١٦ .

واللهيما: قوله تعالى: «الرحمن: علم القرآن»: عتق الإنسان «علمه البيان» (١)؛
لقد اعتطف القسرون في تحديد مدلول البيان في هذه الآيات الكريمات، فقبل:
إله أسماء كل شيء، وقيل: اللغات كلها، وقيل: بيان الحلال من الحرام
واللهي من الضلال، وقيل: الكلام والفهم وقيل لسان كل قوم الذي يتكلمون
به، وقيل: الكتابة والخط بالقلم (٢)؛

ولعب الترمذشي إلى أن البيان ههنا: ما يميز الإنسان عن سائر الحيوان،
وهو المنطق لتفصيل الحرب عما في التفسير (٣)؛

وعما يحسم هذا الخلاف وينتهي به إلى ما يشبه اليقين أن القرآن الكريم في هذا
الوضع منه لم يستعمل مصطلح التفويض للبيان والكلام والمنطق وغير ذلك من المصطلحات
التي فسرها أولئك القسرون مدلول كلمة البيان، مما يبين ذلك أن هذا المدلول
لذل عليه كلمة البيان نفسها: وهذه الدلالة في ضوء الدراسات القوية العلمية
والبحوث البلاغية النقدية والمعاصرة لا تتعدى اللفظة التي خلق الله تعالى عليها
الإنسان كائناتاً قادراً على التعبير عما في نفسه وتأثيره من بني جلدته
فمدلول كلمة البيان الاصطلاحي بين يدي القرآن الكريم وفي فجر القرن الأول للهجرة
هو لفظة التعبير وتناج هذه اللفظة من فن القول؛

ولتأتي في الحديث النبوي الشريف بكلمة البيان في موضعين رئيسين (٤):
اولهما: ما روي عنه - صلى الله عليه وسلم - من قوله: «إنَّ من البيان
لسجراً، وإنَّ من الشعر لحكمة»؛

(١) الرحمن ١-٤.

(٢) جامع لاسكأن القرآن ج ١٧ ص ١٠٢.

(٣) الكشف ج ١ ص ٤٩.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ج ١ ص ١٧٤ - ١٧٥.

الملاحظ : أن بعض البيان ههنا قد عدّ من السحر ، ولما كان معنى السحر لقب الشيء عين الإنسان ، فإن مدلول كلمة البيان اصطلاحاً في هذا الحديث الشريف هو ما يستأثر به فنّ القول من التأثير بمهارة أسلوبه وتلون عباراته :

أما الموضوع الثاني فهو مأثور عن - صلى الله عليه وسلم - من أنه قال :
والبيان والبيان شعبتان من التفاهة :

المشكل في هذا الحديث : أنه يلزم البيان جملة وتفصيلاً وإن كانت له رواية أخرى تنص على أن التفاهة وبعض البيان شعبتان من التفاهة ، وهذه الرواية تعني أن البيان ليس مضموماً كله ، ومهما يكن من أمر فإن المدلول الاصطلاحي لكلمة البيان في هذا الحديث هو التصنع في ترتيب فن القول والتأني في صياغة عباراته والتكلف في إقامة أساليبه بلا مراعاة لوجه الحق في معناه وموضوعاته ، وعلى هذا كله فإن كلمة البيان اصطلاحاً يتنوع مدلولها حتى نهاية العقد الأول من القرن الأول للهجرة في ثلاثة مناح من القيم الفنية والتعبيرية والجمالية التأثيرية وهي : ملكة التعبير وتناج هذه الملكة والتصنع للقرط في شكل هذا التناج :

وعندما اشتدت حركة الجمع والتأليف في مختلف العلوم ، عني الباحثون بتدريس كلمة البيان وتحديد مدلولها وتفصيل أدواتها ، وربما يأتي الجاحظ (٢٥٥) في طليعة هؤلاء الباحثين قدماً في التاريخ وسعة في البحث ، فقد سمى أحد كتبه «البيان والبيان» وثبت فيه النقول الكثيرة في حد البيان والاستشهاد بالتصوير التي تدخل تحت عينته : ومدلول البيان عنده : الكشف والإيضاح والفهم والانتظام ، وهو يحتاج إلى تسيير وسياسة ، ونظام الآلة ، واحكام الصنعة ، وسهولة المخرج ، وجهارة المتكلم ، وتكميل الحروف ، وإقامة الوزن (١) :

(١) البيان والبيان ج ١ ص ٧٦ .

ودلائه على العالي خمسة أشياء :

أولها اللفظ ، ثم الإشارة (١) ، ثم العقد (٢) ، ثم الخط ، ثم الحال التي تُسمى
ثُعبَة (٣) .

وجلي من هذا أن الجاحظ يرسخ الخطوط العامة لنظرية البيان العربي في ضوء
الثاني ثلاثة مدلول مصطلح البيان التي نوهنا بها بين يدي أي للذكر الحكيم
والحديث النبوي الشريف ، فهو حين يتحدث عن ماهية البيان ويذكر أنها للكشف
والإيضاح والفهم والانفهام يسج على النحى الأول الذي رصفه لقرآن الكريم ملكة
وهيها الله تعالى للإنسان واعتما يحلل امثلة رائعة من نصوص قرآنية وأثرية وأدبية
يسرشد بالنحى الثاني لمدلول كلمة البيان فيما يتعلق بنتاج تلك الملكة : كما
الله يحمّد النحى الثالث من هذا المدلول متوقفاً على تتبع محيزات لثمار وأدوات
تحقيقها .

ويجى : التآكل هذا يدل على اصالة ولادة نظرية البيان العربي بمناحيها الرواسخ
في نصوص من أي للذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف ثم نمو ملاحظتها العامة
بما أثر من الصحابة والتابعين وعلماء اللغة العربية الرواد من احكام في لغويهم نتائج
الادباء وبما بذله الجاحظ في هذا المجال من عناية بالثقل والفتنوي والتجسس :
لقد انعكس ما قام به الجاحظ في التصدي لبحث البيان على الآثار البلاغية والتفدية
التي صفت بعده ، واعتقد فوق رؤوس الرواد (٤) من البلاغيين من امثال ابن

(١) اما الدلالة بالإشارة لمباليد والرأس والعين والحاجب والكتب اذا تباد الشخصان
وبالتوب وبالعرف ، وقد يتهدد بالغ السيف والسيوط فيكون ذلك زاجراً ومائلاً
رادعاً ، ويكون وجهاً وتعميراً .

(٢) المقصد هو الحساب دون اللفظ والنطق .

(٣) الثُعبَة : هي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد ، وذلك ظاهر في غلق
السموات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ، وجاد ولأم ، ومقيم وطاعن
وزائل وتقص .

(٤) راجع كتاب فنون بلاغية ص ١٠-٢٠ وكتاب مصطلحات بلاغية ص ٦٩-٧٤ حيث
تتبع مؤلفهما الدكتور أحمد مطلوب مدلول مصطلح البيان بالتفصيل والموازنة على
هؤلاء البلاغيين .

وكتب في كتابه «البرهان في وجوه البيان» ، والرماني (- ١٣٨٦هـ) في رسالته «شكت في اصحاح القرآن» ، وابن رشيقي القيرواني (- ١٤٦٣هـ) في مؤلفه «المعدة» ، وعبد القاهر الجرجاني (- ١٧١١هـ أو ١٧١٤هـ) في كتابه «دلائل الاصحاح» وأسرار البلاغة ، وسواهم من أعلام هذا الميدان .

ولعل أبرز سمات مدلول البيان في نظر الجاحظ وهؤلاء البلاغيين يمثل في ثلاث خصائص :

الأولى : السعة في القهوم .

الثانية : التقيد في الحد والتعريف :

الثالثة : الاستشهاد بالنصوص الأدبية في التحليل .

جمود البيان :

بعد التطور الذي شهده البيان يقف الباحث لسان : هل بقيت تلك الخصائص الثلاث التي امتاز بها البيان ؟

إن تاريخ البلاغة العربية نفسه يثير هذا السؤال ويوجب مؤكداً أن مدلول كلمة البيان الاصطلاحي وصورها تلك لم تبق كما ولدت في فجر القرن الأول الهجري وتطورت في عهد ازدهار البلاغة العربية . ويذكر هذا التاريخ تصدي السكاكي (- ٨٦٢٦هـ) لبلاغة العربية في كتابه «مفتاح العلوم» بداية لتغير حال البيان العربي ونهاية به لحوية نظريته : فالتعريف أن السكاكي (١) وضع للبلاغة قواعداً المنطقية ، وقسمها إلى المعاني والبيان والحقن وهما الحسنات ، ووضع لكل قسم تعريفاً جامعاً مانعاً ، وحدد مباحثه وفترته في قولها جامدة . وعرف البيان بقوله : «هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالقصص ليحتذى بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه » (٢) ،

(١) راجع كتاب فنون بلاغية ، ص ٢٠٠ .

(٢) مفتاح العلوم ، ص ٧٧ .

ثم ادخل الدلالات في قسم موضوعاته والآثار مناقشة دعوى هذا الموضوع أو
ذلك فيه وغروجه عنه ، فبحث من هذا الباب ثلاث دلالات للالفاظ :
أولها : دلالة اللفظ على تمام ما وضع له .

والثاني : دلالة التقسيم وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له أو جزء مسماه
مع دخوله فيه كالسقف - مثلا - في مفهوم البيت - .
والثالث : دلالة الالتزام وهي دلالة اللفظ على معنى يخرج عن مسماه ، لازم له :
كالحائط في مفهوم السقف (١) :

وبنى السكاكي تقسيم البيان على هذه الدلالات ، فأخرج التشبيه ، لأن دلالة
وضعية ، والدلالة الوضعية لا يمكن بها إيراد اللفظ الواحد بطرق مختلفة ، في وضوح
الدلالة لأن السامع إذا كان عالما بوضع الالفاظ لم يكن بعضها أوضح دلالة من
بعض ولا لم يكن كل منها دالا عليها بخلاف دلالة التقسيم ودلالة الالتزام اللتين
هما دالتان عقليتان يمكن بهما التصرف في الالفاظ وإيرادها في طرق متعددة
للدلالة على اللفظ الواحد .

أما الموضوعات الأخرى ، فقال في حصرها : وإذا عرفت أن إيراد اللفظ
الواحد على صور مختلفة لا يتأني إلا في الدلالات العقلية وهي الانتقال من معنى
إلى معنى بسبب علاقة بينهما كالتزام أحدهما الآخر بوجه من الوجوه ظهر لك
أن علم البيان مرجعه اعتبار اللزومات بين المعاني : ثم إذا عرفت أن التزوم إذا
تصور بين الشئين فلما أن يكون من الجاهلين كالذي بين الإمام والخلف يحكم
العقل أو بين طول القامة وبين طول التجاد يحكم الاعتقاد ، أو من جانب واحد
كالذي بين العلم والحياة يحكم العقل أو بين الأسد والجرأة يحكم الاعتقاد ،
ظهر لك أن مرجع علم البيان اعتبار هاتين الجهتين :

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

جهة الانتقال من مألوم إلى لازم ، وجهة الانتقال من لازم إلى مألوم . ولا يربك
 بظاهرة الانتقال من أحد لازمي الشيء إلى الآخر مثل ما إذا انتقل من يباح التلج
 إلى البرودة ، فمرجعه ما ذكر ينتقل من يباح إلى التلج ثم من التلج إلى البرودة
 فتأمل . وإذا ظهر لك أن مرجع علم البيان هاتان الجهتان ، علمت انصباب علم
 البيان إلى التعرض للمجاز والكتابة ، فإن المجاز ينتقل فيه من المألوم إلى اللازم
 كما نقول : درعنا غيثاه والمراد لازمه وهو الثبت : وقد سبق أن المألوم لا يجب
 أن يكون عقلاً بل إن كان اعتقاداً إما لعرف أو لغير عرف ، صَحَّ البناء عليه ،
 وأما نحو قولك : وأعطرت السمله نياتاً ، أي غيثاً من المجازات المنتقل فيها عن
 اللازم إلى المألوم فمتخبط في سلك درعنا الغيث : وإن الكتابة ينتقل فيها من
 اللازم إلى المألوم كما نقول : «فلان طويل النجاد» والمراد طول القامة الذي هو
 مألوم طول النجاد ، فلا يصادر إلى جعل النجاد «طويلاً» أو «قصيراً» إلا لتكون
 القامة طويلة أو قصيرة فلا علينا أن نختلعهما أصليين (١) :

وإن فوضوعات البيان عند السكاكي تنحصر في باين رئيسين هما « باب
 المجاز » و « باب الكتابة » وإن لم يستطع أن يهمل بحث التشبيه في علم البيان وذلك
 لسيئين : -

أولهما : أن نصوصاً قرآنية وأدبية قد جرت بأفانين شتى من أسلوب التشبيه ،
 ولأنهما : أن العلماء الذين سبقوا السكاكي ومتابعيه في بناء نظرية البيان للعربي
 قد درسوا التشبيه وحدوثه وأوردوا في دراسته وحده صوراً قنية رائعة (٢) ،
 ومن هنا التفت على ما قرره وقال : «ثم إن المجاز - أعني الاستعارة - من حيث
 أنها من فروع التشبيه - كما متفق عليه - لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من
 المألوم إلى اللازم بل لا بد فيها من تقديم تشبيه شيء بذلك المألوم في لازم له لتسهي
 تقديم التعرض لتشبيهه فلا بد من أن نأخذ أصلها تلكا ونقتضيه (٣) :

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

(٢) راجع كتاب الكامل ج ٣ ص ٨١٨ .

(٣) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

وبعد ذلك اعطى ترتيب اصول البيان ومباحثه الثلاثة الرئيسة ، فرأى ان الاستعارة
تضمد على التشبيه فلا بد أن يقدم بحث عليها ، لانه اذا مهرت فيه ملكت زمام
التدرب في فنون السحر البياني (١) ، ولما كان طريق الانتقال من المألوم الى
اللازم واضحاً بنفسه ، ووضوح طريق الانتقال من اللازم الى المألوم انما هو
بالغير وهو العلم بكون اللازم مساوياً للمألوم أو أخص منه - قدم السكاكي
الاستعارة وأتمر الكتابة ، لأنها بالنظر الى هذه الجهة نازلة من المجال منزلة المركب
من الفرد :

لقد استول متحن السكاكي ومنهجه في حدّ البيان وأصبل المساء ومباحثه
على معاصريه عامة وعلى القزويني (٨٧٣٩) الذي لخص مفتاحه والذين شرحوا
هذا التلخيص ، قاسمت نظرية البيان العربي مقتنة في حدود غبلة بعد أن كانت
تشمل فنون البلاغة وفق القول لدى السابقين (٢) :

(١) المصدر السابق ١٥٧.

(٢) ينظر شرح ذلك في البلاغة عند السكاكي ، والقزويني وشرح التلخيص ، وملاحق
بلاغية ، وفنون بلاغية ، للدكتور أحمد مطلوب .

البحث الثاني أهمية البيان

في عصرنا هذا حين تخرج الشخصيون في الجامعات العربية واتصلوا بالثقافة الأوروبية عن بعضهم أن البيان العربي هو ما استقر في كتب البلاغة والبدیع المتأخرة ، وأن الأساليب هي التي انتجها هذا البيان في التواب من التزيين القلبي والعمدة الشكيلة ، فظهرت تيارات سطحية لم تستطع أن تتوغل في أصالة هذا البيان وتقف على كتوفه^(١) ، فنبذوا سمور ازدهار الادب ، فأعلنت حرباً عليه ودعت الى التخلص من سمات الجمال التي يزدان بها هذا الادب^(٢) ، ولذلك تجرد باحثون فرد على هذه التيارات ونجسد دور البيان العربي الذي توفه به البلاغيون القدماء^(٣) ، منهم عبد القاهر الجرجاني الذي قال : « ثم انك لا ترى علماً من راسخ اصلاً ، ولا يسوق قريحاً ، وأجل جتنى ، وأعذب ورداً ، وأكرم نتاجاً ، وفور سراجاً ، من علم البيان الذي لولاه لم تترأسنا بحوك القوشي ، ويصوغ الحلي ، ويلفظ الدر ، وينث السحر ، ويقرى^(٤) الشهد ، ويربك بدائع من الزهر ، ويحنك الخلق البائع من الشعر ، والذي لولا تحفته بالعلوم وعنايته بها ، والتصويره ايها ، لبقيت كلمة مستورة ولما استبقت لها يد الدهر صورة ، ولا حتمت لسرار^(٥) بأهلها ، واستولى الخفاء على جملتها ، الى فرائد لا يتركها الاحصاء وهامس لا يحصرها الاستقصاء » (١) .

ثم ان البيان العمود الفقري لعلوم الادب العربي وفنون لغة القصاد ، وذلك لان هذه العلوم والفنون تهدف الى خدمة البيان ، الذي صني به العرب في جاهليتهم واسلامهم ، وشغلوا به في عصور ازدهار العربية ، وفي عصور انحطاطها :

- (١) راسخ كتاب البيان العربي ص ٢٨٢ .
- (٢) يقرى : يجمع .
- (٣) السرار - بالفتح - آخر ليلة في الشهر يستريح فيها القصر ، أي يستغنى .
- (٤) دلائل الاعجاز ص ٤ .

وليان ، أو دراسة الفن الأدبي ، ينبغي أن يسير كل نشاط فكري ، وأن لا يخلط
من أية حركة علمية تخدم التراث العربي في العلم أو في الفن ، بدءاً أو تجديداً ،
لأنه بعيد في خدمة لغة العرب ، اذ هو يشرح محاسنها وصنوف التعبيرها ، ويجلي
أساليبها المختلفة ، وقفل التعبير بكل أسلوب منها ، ويشرح التلامح الجمالية التي
تبدو في قصيدة الشاعر أو خطبة الخطيب ، أو رسالة الكاتب ، أو مقالة التكلم ،
كما أن له ميداناً أكثر رجا فسيحاً في مجال العقيدة ودراساتها ، واللغة والعقيدة هما
حلقا المجد في سلسلة إجماع الأمة العربية ، وسر حياتها وعظمتها ، وسر غلدها
وبقاها متماسكة في وجه التغيير والأحداث (١).

وتجلى أهمية البيان في مياديه تلك : أن إجادته تحقيق قوائمه وإبداع مهارته
وفهم ثمره أمور تقتضي توفر آلات وأدوات ذكر منها ابن الأثير (٨١٣٧) :
معرفة علم العربية من النحو والصرف ، ومعرفة ما يحتاج إليه من اللغة ، وهو
المتداول للأغوف استعماله في تصحيح الكلام غير الوحشي الغريب ، ومعرفة أمثال
العرب وأيامهم ، والوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بالقوام ، والاطلاع
على تأليفات من تقدم من أرباب هذه الصناعات المنظومة منه والثرثرة ، والحفظ
لكثير منه ومعرفة الأحكام السلطانية في الامتناع والامارة والقضاء والخير (٢) ،
وحفظ القرآن الكريم ، والتدريب باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه ، وحفظ
ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والسلوك بها
مسلك القرآن الكريم في الاستعمال ، ومعرفة علم العروض والقوافي (٣) .
وهكذا فإن البيان العربي يتواصل حلقة بين تراث الأمة العربية وثقافتها المعاصرة ،
كما ينبغي ترميماً نحو المستقبل الزاهر في استمرار أصالة ثقافة هذه الأمة ودورها
الرائد في بناء الإنسان العربي فكراً وروحاً :

ونحن إذ نقرر البيان العربي هذه الأهمية ندرس في الفصول القادمة أصوله
ومباحثه دراسة تحليلية تطبيقية متوالين التشبيه والمجاز والاستعارة والكتابة ،

(١) راجع البيان العربي من ١٢ - ١٣ .

(٢) الحسية بالكسر : الأجر ، واسم من الاحصاء ، وهو حسن الحسية : حسن التمييز .

(٣) راجع كتاب : التل السائر ، القسم الأول من ١٣ - ١٤ .

الفصل الثاني

التشبيه

المبحث الأول

تعريفه وأقسامه

إذا ما اتصفنا في التعبير عن كلمة التشبيه لم يكن لنا بد من المرور بالمدلولات التي دارت عليها مادة تشبيه وما يرادفها من مادة «مثل»، ذلك لأن أصحاب المعجمات قد ذكروا تلك المدلولات وذلك المعنى في سياق واحد :

التشبيه لغة :

ذكر ابن منظور أن التشبيه والتشبيه والتشبيه: التثل، وإيجمع أشباه وأشبه الشيء الشيء: مثله، وأشبهت فلاناً وشأبهه وأشبهه على، وتشابه الشيطان وأشبهها أشبه كل واحد منهما صاحبه: وشبهه إياه وشبهه به مثله والتشبيه: التمثيل، (١)، وتقل التمثيل في المعنى ذاته الله: مثاله شيء وشبهه شيء وشبهه، وفيه شبهته منه، وقد أشبه أباه وشأبهه، وما أشبهته بأبيه وفي الحديث الذين يشبه عليه ... وأشبهت الأمور وتشأبهت: تشبث لأشياء بعضها بعضاً :

وفي القرآن : الحكم والتشابه: وشبهه عليه الأمر: ليس عليه (٢) فعادة تشبه ومادة «مثل» تلحقان على ثلاثة معانٍ متحدة في صوم وخصوص:
أولها: اتفاق شيئين أو أمرين على الإطلاق في صفاتها كافة حتى لا يجد المرء بينهما مفارقة فيختلطان عليه ويثن أحدهما الآخر:
وقالها: تقارب شيئين أو أمرين في وجه من الوجوه فيقتان من ذلك الوجه وقد يختلفان من سواه :

(١) لسان العرب (شبه).

(٢) أساس البلاغة (شبه).

والثاني: تساوي شيئين أو أمرين حتى يستوي كل أحد منهما بنبهلاً عن الآخر ،
التشبيه اصطلاحاً :

المحقق عليه : أن المعاني القولية لأية كلمة أصبغ ظهوراً من مدلولاتها الاصطلاحية ،
ومن هنا فإن علماء البلاغة الذين سموا إلى تحديد مدلول كلمة التشبيه اصطلاحاً
قد تأثروا إلى حد كبير بما أدلى به أصحاب المعجمات من مدعان لغوية لهذه الكلمة
ويجلى هذا التأثير في أن تعريفاتهم لكلمة التشبيه اصطلاحاً متفقة في مدلولاتها
وإن اختلفت طرائق تعييرهم باختلاف اختصاصاتهم الأساسية وتباين مشاربهم
ولعل المبرد (- ٢٨٥هـ) أقدم اللغويين الذين حرروا التشبيه اصطلاحاً ، قال
واعلم أن التشبيه حدٌّ ، لأن الأشياء تتشابه من وجوه ، وتباين من وجوه
لأننا ننظر إلى التشبيه من أين وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس والقمر ، فإنما يراد
به الشبه والرواق ، ولا يراد به العظم والاحراق : قال الله جل وعز : « كَأَنَّهُنَّ
رِيحٌ مَكْتُونٌ » (١) والعرب تشبه النساء ببيض الثمام ، فريد لقائه ورقائعه (٢) :
ففي هذا النص يظهر : أن المبرد العالم القولي يعتمد منهج استقراء شواهد اللغة
العربية والذوق العربي ويستضيء بأحد المعاني القولية لكلمة التشبيه ، وهو تقارب
شيئين في وجه واختلافهما في وجه آخر ، فيرى أن هذه الكلمة - اصطلاحاً -
لذلك على جميع أمرين في صفة دون الصفات الأخرى التي تظلت عليها كلمة التشبيه
والشبه به ،

وقد تتبع قداسة بن جعفر (- ٣٣٧هـ) خطى المبرد فيما ذهب إليه من حد
التشبيه واضعاً ما التبس منه في إطار منطقي قائلاً : - وإن " الشبه لا يشبه بنفسه ولا
بغيره من كل الجهات إذ كان الشيطان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما
تغاير البتة " ، اتحداً فصار الاثنان واحداً فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين

(١) الصافات ٢٩ .

(٢) التكاثر ج ٣ ص ٥٢ .

شيتين بينهما اشتراك في معان لهما ويوصفان بها، وانفراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفاتها : وإذا كان الأمر كذلك فالحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيتين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفراقهما فيها حتى يندى بهما إلى حال الاتحاد (١) ،

ومعيار قدامة في تقوم التشبيه الحسن ووضع اليد عليه المابتهض على أساس حقل مجرّد لئلا يه الرمانى وهو المترى، فقال : « التشبيه هو العقد على أن أحد الشيتين يندى منذ الآخر في حسن أو عقل » (٢) .

والسؤال هنا يستفسر عن مدى دقة هذا المعيار وقتيه وصحته في نظر علماء البلاغة المبدعين الذين يلتفتون بالشاعر بشار بن برد في وصفه لرجع حبيته قائلا :
وكان رَجْعُ حديتها قطعُ الرياض كسبين زُهرِها
إذا ما لصفه أو الصفات التي تجمع بين رجح الحديث وهو يترك بالسمع وبين قطع الرياض التي تكسوها الزهور وهي تحس بالصر ؟

فواضح أن صفات رَجْع الحديث من جرس موسيقى ورقة نبرات وحلوة اداء ليست لها أية علاقة عقلية وحسية بصفات قطع الرياض من جمال ألوان وطيب رائحة ، واعتدال هواء ، وعلمه فإن المعيار الذي حرّره قدامة لا يستمع تشبيه رَجْع الحديث بقطع الرياض وقد كسبن زهراً، ومثلاته في التشبيهات تقنية :
ومهما يكن فإن قدامة ومن جرى مجراه في تعريف التشبيه كالرمانى وأبى حلال العسكري (٣) والبالاني (٤) قد اعتمدوا المنهج الشكلي وأدخلوا موضوع التشبيه في دائرة النظر العقلي والمنطقي الجردين .

(١) نقد الشعر ص ١٢٢ .

(٢) التكت في امجاز القرآن ص ٧٤ .

(٣) كتاب الصنائع ص ٢٣٩ .

(٤) امجاز القرآن ص ٢٩٩ .

وعل التقيض من هذه الدائرة يثب عبد القاهر الجرجاني فيعرف التشبيه في
 صورة أسس المنهج التحليلي تالياً: «إن هذا التشبيه العقلي ربما انتزع من شيء واحد
 كما مضى من النزاع التشبيه للفظ من حلالة العمل، وربما انتزع من عدة أمور
 يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها التشبيه فيكون سبيله سبيل الشبيهين
 يبرز أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الأفراد لاسيما
 الشبيهين يجمع بينهما ويحفظ صورتهما. ومثال ذلك قوله عز وجل: «مَثَلُ الَّذِينَ
 حُمِلُوا الثَّورَةَ» ثم لم يتحملوها كمثل الخمار يتحمل أسفاراً» (١). التشبيه
 من أحوال الخمار وهو أنه يحمل الأسفار التي هي ألوعة العلوم، ومستودع
 ثمر القول، ثم لا يمس بها فيها ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر
 الأحمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له ما
 يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه، ويكد جنبه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة
 ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض» (٢).

فنحن هنا نراه منهج لا يكفي بتقرير الأمور وإنما يسوق صاحبه تعريف
 التشبيه ثم بتفويض في تحليل مقوماته مستشهداً بأكثر من شاهد.

يحدثنا تاريخ البلاغة العربية أن «الخلافاً بين المنهج الشكلي والمنهج التحليلي
 تحرير موضوعات هذا الفن وتصحیح أسامه وضبط أبوابه قد انتهى إلى قطيعة
 ثامة بينهما على يدي السكاكي الذي انتهى بالبلاغة إلى قواعد منطقية وأحكام
 عقلية ليس فيها دور للقول القتي الرقيق والحس الثقوي المزهف» لقد وضع
 السكاكي لتشبيه حدّاً جامداً مانعاً على أساس منطقي ونظر عقلي فقال: «التشبيه
 مستند طرفين مشبهاً ومشبهاً به واشتركا بينهما من وجه والفرقاً من آخر مثل
 أن يشتركا في الحقيقة ويختلفان في الصفة أو بالعكس: فالأول كالانسانين إذا اعتلنا

(١) البنية .

(٢) اسرار البلاغة ص ٩٠ - ٩١.

صفة طولاً وقصراً، والثاني كالتطويلين إذا اختلفا حقيقة النساقاً وفساً وإلا فالتعبير بأن ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى الثمين بأى تعدد فيعمل التشبيه لأن تشبيه الشيء لا يكون إلا وصفاً له بمشاركته الشيء به في أمر والتشبيه لا يتصف بنفسه كما أن عدم الاشتراك بين التشبيين في وجه من الوجوه يمتنع محاولة التشبيه بينهما لرجوعه إلى طلبه الوصف حيث لا وصف وأن التشبيه لا يهمل إليه لغرض وأن حالة تفاوت بين القرب والبعد وبين القبول والرد (١)؛

فهذا التعريف يقوم أساساً على مبدأ متعلق يحدد الأشياء المجموعة في تشبيه من حيث الحقيقة والجنس والنوع، ويلتزم صحة الجمع بينها من زاوية الصفة أو الصفات التي يقيسها العقل رابطة بين الشيء والشيء به، لذلك فهو يحدد مسائل تشبيهية ويقرر أيوانه طرفين وقرناً وما يحقق هذا الغرض من أدلة ووجه شبه، أن هذه المخطوط العامة لتعريف التشبيه عند السكاكي قد صارت سنة اتبعها البلاغيون من بعده إما مباشرة أو عن طريق ما قام به القزويني من تلخيص (٢) كتاب السكاكي المعروف بمفتاح العلوم، ثم «إيضاحه» إذ أن القزويني أعد تعريف السكاكي ولملم أطرافه وضمن حواشيه وقال: «والتشبيه: للدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى» (٣)؛

ويجمل ما تقرره من انتهاء حال تعريف التشبيه فيما جمع الاستاذ على الجندی (٤) من تعريفاته لدى البلاغيين القدماء وتثبيت الملاحظات عليها :
 «لعمري إن الكثير : تشبيه أن يثبت لشيء حكم من أحكام الشيء به» (٥) ،
 «وعند القزويني : هو الإخبار بالشيء، وهو اشتراك التشبيين في صفة أو أكثر» (٦)؛

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) ينظر كتاب تلخيص في علوم البلاغة ص ٢٣٨.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ص ٢١٣.

(٤) ينظر كتاب فن التشبيه ص ١٤٣.

(٥) النظم السائر ج ٢ ص ١٥٢.

(٦) الاقصى القريب ص ٤١.

وعند ابن رشيق : صفة الشيء بما غاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة (١) .

وعند الطبري (٢) والخللي (٣) : الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من أوصاف الشيء الواحد في نفسه .

وعند الطوط (٤) : أن يشبه للكاتب أو الشاعر شيئاً بشيء آخر في صفة من صفاته

وقد علق الأستاذ علي الجندي على هذه التعريفات مقوماً لها بما يقوله : ويلاحظ أن هذه الحدود جميعاً تتفق في الجوهر ، وهو اتفاق التشبه والتشبيه به في وصف جسمها . ولكن يلاحظ كذلك أنها ليست دقيقة ، فمثلاً تعريف الخطيب - وهو أشملها - اعترض عليه بأنه لا يمنع من دخول نحو : وقال زيد حمرته ووجاهتي زيد وحمرته ، مما جمع فيه بصفة المشاركة أو وادى العطف ، ولا يعد مثل ذلك من التشبيه ، لخلوّه من الوصف الجامع بين الطرفين (٥) . ونعتقد أن افتقار تعريف التشبيه اصطلاحاً إلى الدقة لدى معظم العلماء الأسلاف يظنّ يلزمه في تعريفات المعاصرين أيضاً ،

ومن هؤلاء المعاصرين السيد أحمد الهاشمي الذي حرّف التشبيه اصطلاحاً بما يقوله : والتشبيه اصطلاحاً - عقد مماثلة بين أمرين ، أو أكثر ، قصد اشتراكهما في صفة ، أو أكثر ، بأداة : لغرض يفصده المتكلم (٦) فهذا التعريف ربما يحقق الاحتراز من أن تكون المشاركة بين التشبه والتشبيه به عطفاً بينهما ، وذلك بالنص

(١) نسخة ج ١ ص ١٩١ .

(٢) الطراز ج ١ ص ٢٦٢ .

(٣) حسن التوسل ص ١٠٦ .

(٤) حقائق الشعر ص ١٣٨ .

(٥) فن التشبيه ج ١ ص ٣٥ .

(٦) جواهر البلاغة ص ٢٤٧ .

عل أن تلك المشاركة لئديها أداة مخصصة تسمى مع أدوات لها أدوات
تشبيه، ومع هذا فإن طبيعة هذه المشاركة تبقى قائمة لاتحدد أحوال مقارنة
المشبه بالمشبه به ولا تستوعبها في دقة وحصر: وآية ذلك أننا للنفي في انصر
أدوية بتشبيهات يتساوى فيها الطرفان : المشبه والمشبه به في جهة التشبيه (١)،
فيكون كل واحد من الطرفين مشبهاً ومشبهاً به، نقادياً ليرجح أحد المتساويين
على الآخر، كنقول أبي اسحاق الصائغ :

تشبّهت دمعى إذ جرى ومُدّعتى فمن مثلك مالى لكأسه جنى تسكب
لواش ما أدري أبالغد أسبكت جفوني أمهن عيترني كنت أشرب
لهنا لا يشرك أبو اسحاق الصائغ دموعه مع عمره في صفة أو صفات تجمع

بينهما من وجه لتفرق بينهما وجوه، وإنما يرى دمه خمرأ ويصدق خمره دمعاً،
كل هذا ولا مراء في أن الشاعر يعتمد أسلوب التشبيه في تصوير تجربة شعرية
خاصة : ولعل هذه الملاحظة لائتمى أن التعريفات التي صاغها القناني والمصامرون
لتشبيه قاصرة جملة وتفصيلاً، بيد أنها تقر بأن صياغة تعريف جامع مانع للتشبيه بهم
لله روائع ثرائها الأدبي وما تجود به القرينة المبدعة مستقبلاً أمريف دون تحقيقه
حالتان :

أولها : أن التشبيه حدث معنوي ، والحادث المعنوي ليس شيئاً مادياً محسوساً
لتدركه الحواس ، فتصفه وصف العيان والملاسة والثلوق والشم :

والأولها : أن التشبيه في جوهره تجربة مخيلة الإنسان التي يظلمها بابين للفرس
ويشعبها اختلاف البيئات وبلوتها تجدد التجارب وما إلى ذلك من العوامل المتنوعة
التي تتمتع على الحصر والتفصيل :

(١) يسمى اللادنيون هذا اللون من التشبيه التشبيهات .
ينظر كتاب فنون بلاغية ص ٩١ .

طبيعة التشبيه :

لقد اتبى الأستاذ علي الجندي إلى طبيعة التشبيه هذه فأقاد من الدراسات النفسية المعاصرة وقد جس كراه عدائنا القدامى للبدع في تحدث عن الصلح الحقيقى للظفر بالتشبيهات الأصلية قائلا : «إن التشبيه مبنى على ما للمعه القوس من اشتراك بعض الأشياء في وصف خاص يربط بينها. ولذلك يقول أحد علماء النفس أن الأساس النفسى الذى يقوم عليه التشبيه وغيره من الأساليب اليبانية من تأييدها وأدراكها وتقديرها ، هو فى الواقع عملية أساسية فى التفكير ، لك هى ما بين بعض الأشياء وبعض من تشابه وعلاقات» (١) :

فالتشبيه فى حقيقة امره قياس و لقياس - كما يقول عبد القاهر - يمرى فيما تعب للقلب وتذكره العقول ، وتستغنى فيه الاهتمام والأذهان لا الاسماع والآذان (٢) وما يعنىنا من هذا الحديث : أن النهج التحليلى المتكامل فى الكشف عن لكان التشبيه وعرض جوهره وتبسيط فائدته هو الذى يستطيع أن يقدم لنا الصورة الحقيقية من هذا الفن ، بخلاف النهج الفريرى الشكلى الذى يذهبنا لدى ظاهره ويقدم لنا أجزاءه شتاتا وتعاريف : وفى المجال التطبيعى تلتقى بعد القاهر الجرجاني وهو يحلل شواهد فنية أصيلة من هذا المطلق النفسى وقد ذكر هذه الآيات لآين طباطبا :

رُبُّهُ لَيْلٌ كَأَنَّهُ أَمْلَى فَيْسَكْ وقد رُحْتُ عَنْكَ بِالْحَرَمِ مَسَانِ
جَيْشُهُ وَتَحْجُومُ تَحْسُ نِى الْكَفْ سَتَرِ وَتَطْرُقُ كَالْعَبْرِ الرَوَانِ
عَارِبًا مِنْ غَلَامِ فَصْلِكَ نِى نَحْ وَهَيْاءُ لَقْنِ الْأَخَرِ الْهَيْجَانِ (٣)

(١) دراسات فى علم النفس الادبى ص ٤١ .

(٢) فى التشبيه ج ١ ص ٥٠ .

(٣) جبهه : قطعه - طرفت العين : تحركت. الهيجان : ككثابه : الغبار من كل شىء - رجل هيجان : كريم الحسب .

ثم حملها قائلا: ولما كان يقال في الأمر لا يرجي له نجاح: وقد أقلم علينا هذا الأمر، وهذا أمر فيه ظلمة، ثم أراد أن يبالغ في التباس وجه النتيجة عليه في أملة تحليل كان أملة شخص شديد السواد فقام عليه به كأنه يقول: «فكرت فيما أعلمه من الأشياء السود، فرأيت صورة أملي عليك زائدة على جميعها في شدة السواد فجعلته قياساً في ظلمة ليل اللي جيته» (١).

ففي هذا النص يشير عبد القاهر الجرجاني إلى مصدر عدد الشبهة في تحقيق الامل ضرباً من الاطلاق، وهو مايقوله الناس عادة، ثم يتحدث عن العكاس ذلك في مخيلة الشاعر، وبعد ذلك يلتبس التعللات الشاعر الشبهة وهو يعاني من أزمة في تحقيق أملة ويعاني حتى تخففت عن تشبيه ليله بأمله للطلاب قياساً وتصوراً، طرفاً التشبيه:

حدّد البلاغيون أربعة أركان للتشبيه: هي المشبّه والمشبّه به ووجه التشبيه وأداة التشبيه. كما يظهر في قوله تعالى: «والنّور عصاك، فلما رأى أنّهم كفّروا كأنّهم جبان» رلى مدّبراه (٢).

فالضمير في «كأنّهم» العائد إلى العصا مشبّه وكلمة «جبان» مشبّه به والاحتراز الذي هو شدة الاضطراب في الحركة: وجه التشبيه، وكان هي أداة التشبيه، وكما يفسح ذلك أيضاً في قول ابن القارظ:

أعوام إقباله كالأيوم في قيصر يوم إعرافه في الطول كالحيجيج
ففي هذا البيت تشبيهان: أولهما: «أعوام إقباله كالأيوم في قيصر»، و «أعوام إقباله» مشبّه و «الأيوم» مشبّه به والقيصر وجه التشبيه، والكاف أداة التشبيه، ولانتهما: هو يوم إعرافه في الطول كالحيجيج، و «يوم إعرافه» مشبّه و «الحيجيج» مشبّه به، والطول وجه التشبيه، والكاف أداة تشبيه:

(١) اسرار البلاغة ص ٢١٤.

(٢) النمل ١٠.

ويقال في كتب البلاغة للتشبيه والمشبّه به طرفي التشبيه ، وذلك لوجوب ورودهما في التشبيه وعدم جواز حذف أحدهما أو كليهما ، إذ يؤدي الحذف إلى تحول التشبيه ، كما سترى إلى الاستعارة .

وذهب الحموي في تعداد أركان التشبيه مدعياً أكثر ، فرأى أنها : المشبه والمشبّه به ، والمشبّه بالكسر - وهو التكلم - والتشبيه - وهو الالحاق المذكور في الشبه (١) . ويثير هذا اللذهب مسائلين : أولاً : هي تأكيد دور الأديب في صناعة التشبيه وانتماس أثر حالته النفسية وذوقه وبسته الخاصة في التكليفات التي أخرج عليها تشبيهه .

والملاحظ أن هذه المسألة تكاد تكون مغفلة في معظم كتب البلاغة العربية ولا سيما تلك للكتب التي يقع أصحابها النتاج الشكلي في تحليل أركان التشبيه وبيان تميزه وتأثيره .

وثانيهما : يجاوز النظر إلى أداة التشبيه ووجه التشبيه ركنين أساسيين بين أركان التشبيه الأربعة . والحموي في هذه المسألة لا يأتي بحديد لأن البلاغيين الذين سبقوه ، وذلك لأن هؤلاء يطلقون على المشبه والمشبّه به اسم وطرفي التشبيه ، دلالة على أنهما ركنان رئيسان في فن التشبيه . وأنه لا يجوز حذف واحد منهما ، لأن هذا الحذف يحول التشبيه إلى الاستعارة .

أما وجه الشبه وأداة التشبيه ، فيجوز حذف أحدهما أو كليهما دون أن يغير هذا الحذف من التشبيه ويؤدي به إلى أسلوب آخر من أساليب البيان :

وقد صرّف البلاغيون للمشبه بأنه الشيء الذي يراد تشبيهه وإبراز صفته وتجسيد حاله ، وإن المشبه به هو الشيء الذي يشبه به وتوضح فيه تلك الصفة وهذه الحال ، وإجراء عملية التشبيه بين طرفي التشبيه في نظر أولئك البلاغيين ينهض على قاعدة تؤكد : أن المشبه والمشبه به لا بد من إحداهما في الحقيقة أو اشتراكهما في الذات ،

(١) غرارة الادب ص ٢١٩ .

مع اختلافهما في الصفة ، أو اتحادهما في الصفة مع اختلافهما في الحقيقة أو الذات ، لأن التشبيه يقتضي الإختلاف في بعض الجهة والإشتراك في بعضها إذ الاشتراك من جميع الوجوه حتى الاتحاد الذي يأبى التعدد ، أو الإختلاف من جميع الوجوه حتى التميز الذي يأبى المقاربة ، لا يثبت في تشبيه البهتان (١).

مثال ما يتفق فيه الطرفان في الحقيقة والذات واختلفا في صفة قول ليس بن فريح :-

أفقتني نهارى بالحديث وبالمنى وبمعنى والهم بالبليل جامع
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزئتني اليك المضامع
فتشبه الشاعر بناره بنهار الناس جمع بين أمرين متحدين في الحقيقة والذات :
أما الإختلاف بينهما فيرجع إل صفة مخصوصة تترادى للقارىء من معرفة حال
ذلك الشاعر المتم الذي يأتي بعد ناره إليه المقام بالآلام وعلمه بنهار الناس الذي
يشبه ببليل يرتاحون فيه نائمين مطمئنين لا يفتأهم حدث ولا يلعب عن جفونهم
فكرى ألم .

ومثال ما تشابه الطرفان في صفة وتباينا في الحقيقة والذات قول أبي دلالة في الهجاء :

إذا ليس العمامة كان قيرداً وعزيراً إذا خلع العمامة
فللهجو في هذا البيت تشابه مع القرد والخنزير في صفتي القبح والقوم وبما بين
جنهما في الحقيقة والذات . وتشبيه باختيار الطرفين أربعة أحرب :
الأول : التشبيه الذي يكون فيه التشبه والتشبه به حميين ، والفراد بالخبي ما يدرك
هو أو مادته بأحدى الخواص الخمس لظاهرة وهي : البصر والسمع والشم والذوق
واللمس ، كما في تشبيه الخلد بالورد والليل بالليل ، في البصرات ، والصوت
لضعف بالهمس في السموات ، والنعكة بالعنبر في المشومات ، والريق بالظمر
في اللوثات ، وإلخك التامم بالحرير في اللصوص .

(١) راجع لن التشبيه ج ١ ص ١٠٢ .

الثاني : التشبيه الذي يستوي فيه العارفان عقلين ، والمقصود بالعقل مالا يدرك واحد منهما بالحس بل بالعقل كما في تشبيه العلم بالحياة ، والجهل بالثوث ، والفقر بالكتف .
الثالث : التشبيه الذي كان فيه المشبه معقولا والمشبه به محسوسا كما في تشبيه المنية بالسبح ، والجهل بالظلام والعلم بالنور .

الرابع : التشبيه الذي كان فيه المشبه محسوسا والمشبه به معقولا كما في تشبيه العطر بخلق كريم (١) :

وأثار التماس مادة طرقي التشبيه على أساس هذه الأربعة مسائل خلافية بين بعض البلاغيين ، وأول هذه المسائل أن بعضهم منع تشبيه المحسوس بالمعقول وذلك بحجة أن العقل مستفاد من الحس ، قال الرازي : «انه غير جائز لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومتنتية إليها ولذلك قيل : «من قلّد حسا فقد علما » وإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يكون جعلاً للقرع أصلا وللأصل فرعاً ، وهو غير جائز . ولذلك لو حاول محاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور والسك بالعيب فقال : «الشمس كالخجلة في الظهور » و «السك كأخلاق فلان في العيب» كان سخيفاً من القول» (٢) .

وفي بقينا : أن هذا المنع تشبيه للمحسوس بالمعقول يعتمد نظراً عقليا ودليلا منطقياً ، والنظر العقلي والدليل المنطقي لا يثبتان إذا لم يجدوا من الشواهد الأدبية الأصلية ما يحيطهما قاعدة بلاغية مستساغة .

والحقيقة أن شواهد أدبية أصيلة جرى فيها تشبيه المحسوس بالمعقول فأثارت الجحمة على أن ذلك المنع ليس من فن القول في شيء : من هذه الشواهد قول النفازي التتويحي :

(١) ينظر الإيضاح ص ٢١٩ .

(٢) نهاية الأجر ص ٥٩ .

وكانَ التَّجْوِيزُ بينَ دجاءِ سَكَنَ لَاحٍ بِسَمْعِهم اِبْتِدَاعٌ
 في هذا البيت الشَّبَه والنَّجْم بينَ دجاءِ مشهدٍ حسيٍّ بحسِّ العينِ ، والشَّبَه به
 «سكنَ لَاحٍ بينَهم اِبْتِدَاعٌ» مركَّبٌ عقليٌّ يلمُّ به العقلُ ويتصوره الخاطرُ ،
 ومنها قولُ الصَّاحِبِ بنِ عبادٍ حينَ أُعْذِيَ العطرُ إلى القاضي الجرجاني :
 يا أَيُّهَا القاضي الذي نَفْسِي له في قُرْبِ عهدِ لِقائِهِ مُتَنافِةٌ
 أُعْذِيتُ عَطراً مِثْلَ طِيبِ ثَنائِهِ فَكأنَّما أُعْذِيَ لَه اِخْتِلَافُهُ
 لَهذا شَبَهَ الظَّاهرِ العطرُ وهو من الشَّعْوَياتِ بطِيبِ لِقائِهِ وهو بما لا يَبْرُكُ بِإِعْذِي
 الحواسِ الخمسِ الظَّاهِرَةُ .

لقد حُلِيَ الرَّاْيُ نفسه حسنَ التشبیه في هذينَ الشَّاعِرَينَ وسواءِما كانَ : «واعلم
 أن الوجهَ الحسنَ في هذه التشبیهاتِ أن يقدَّرَ للمقولِ عَصَوساً ويجعلُ كالأصلِ في
 تلكَ للحسوسِ على طريقِ المبالغةِ وحِيشَةٍ يصحُّ التشبیه» (١) :
 ومن المعاصرينَ من أنَّهم بهذه المِثَالَةُ البلاغيةَ يردُّونها إلى التَّخْيِيلِ مَصْطَلاً لخلقِ
 الصُّورَةِ التشبیهيةِ ، وكذلك نجدُ له أمثلةً كثيرةً حينَما بدأ الشُّعراءُ العباسيونَ يصورونَ
 المعانيَ تصويراً يعتمدُ على التَّخْيَالِ ، (٢) :

وثالثةٌ هذه المسائلُ أن هناكَ لَوَاقِعاً من التشبیهِ هو تشبیهُ الخياليِّ ، ردهَ بعضُ
 البلاغيينَ (٣) إلى التشبیهِ الحسيِّ وأدخله فيه ، باعتبارِ أن الحسيَّ يَبْرُكُ هو أو مادتهُ
 بإعْذِي الحواسِ كما في قولِ الشَّاعرِ :

وكانَ مُخَضَّرُ الشَّقِيقِ إذا تَصَوَّبَ أو تَصَعَّدُ (٤)
 أعلامُ ياقوتٍ تُشِيرُ نَ على رَمَاحٍ من دَبَرِ جَدِّ (٥)

(١) نهاية الأجناس ص ٦٠ ، وينظر فنون بلاغية ص ٣٩ .

(٢) فنون بلاغية ص ٤٠ .

(٣) ينظر الأيضاح ص ٢١٩ .

(٤) الشَّقِيقُ : وردَ أحمرٌ مِثْلُ بَلْعٍ سود . تصوب : مائلٌ إلى أسفل ، تصعد : اتَّبعَ
 إلى أعلى .

(٥) أعلامُ : حبرٌ كريمٌ صلبٌ دُرِّينَ شفافٌ تَخْطِفُ الوَاقِعُ . دَبَرُ جَدِّ : حبرٌ
 كريمٌ أيضاً يشبهُ الزمردَ ، والزهرةَ الأخضرَ ، وينسبُ ألبانُ الصُّنوبري .

والثمة هذه المسئلة أن أولئك البلاغيين عدوا أولاً أكثر من التشبيه هو التشبيه الوهمي من التشبيه العقلي، وذلك لأن الوهمي هو ما ليس مدركاً بشيء من الحواس الخمس الظاهرة، مع أنه لو أدرك لم يدرك إلا بها (١)، كما في قول امرئ القيس:

أيقنني والمشرقي مضاجعي مستوتة زرق كأنها سب أخوال
وعليه قوله تعالى: «فلعلها كانت رؤوس الشياطين» (٢) وكذا ما يدرك بالوجدان، كاللذة، والألم، والشبح، والخرق .

لقد فرق البلاغيون بين التشبيه الخيالي والتشبيه الوهمي فقال العلوي : «والفرقة بين الأمور الخيالية والأمور الوهمية هو أن الخيال أكثر ما يكون في الأمور المضمومة، فأما الأمور الوهمية فلأنما تكون في المحسوس، وغير المحسوس مما يكون حاصلًا في قلوبهم ودعلا فيه (٣)».

وعلى هذا الأساس كان التشبيه الخيالي هو المعلوم الذي فرض مجتمعاً من عدة أشياء، كل واحد منها يدرك بالحواس، ويتوفر في الوجود وأن الصورة التي يدخل فيها مع سائر الأشياء قد تسجها الخيال :

فمحرم الشقيق في الشاهد السابق - تنفي به العين في الطبيعة وحالته في التصوُّب والتصعُّد يرسمها الخيال وكذلك أصلام الباقوت وبساط الزبرجد يقع عليهما الانسان متفرقين في الحياة اليومية. يبيِّن أن «جَمْعَهُمَا» في صورة، وتلك هي هذه الصورة مع محرم الشقيق متصوِّباً ومتصعِّباً في طرقي تشبيه حدث لغوي وعملية تخيلية جريا - بهيكل الشاعر .

أما التشبيه الوهمي فهو ما يألف طرفاه أو أحدهما بما لا وجود له ولا لأجزاء كلها أو بعضها في الوجود المحسوس ولو وجد لكان مدركاً بإحدى الحواس،

(١) الأيضاح ص ٢٢ .

(٢) الصافات ٩٥ . طبع الشير : ما به من ثمرته أول ظهورها .

(٣) الخراز ص ٢٧٣ . وينظر فنون بلاغية ص ٤٠ .

فأثاب الأهل في بيت امرئ القيس لوجود لها في نظر الإنسان وقد جعلها الشاعر مشبهاً به السهام الرزق نوعاً.

وفي الشاهد القرآني الكريم شبه طلع شجرة تخرج في أصل الجحيم برؤوس الشياطين وذلك لأنه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة الشاهد، ولذلك ربط سبحانه وتعالى بين شجر الرزق ورؤوس الشياطين.

ورابعة هذه المسائل أن الصفة أو الصفات الجامعة بين طرفي التشبيه تكون أقوى في التشبه به منه في المشبه، وذلك لأن الأصل في التشبيه عند البلاغيين أن يقصد به إلحاق الناقص بالزائد في الصفة الظاهرة، إذ أن الفائدة المستنتجة من التشبيه - كما يقول ابن الأثير - : أن يشبه الشيء بما يعلق عليه لفظة وأفع (١) - أي : يشبه بما هو أبين وأوضح، أو بما هو أحسن أو ألحج : وكذلك يشبه الأقل بالأكثر، والأدنى بالأعلى .

وما ذهب إليه ابن الأثير هو معنى قول السكاكي : «المشبه به من حقه أن يكون أعرف بجهة الشبه من المشبه، ولتخص بها، وأقوى حالا معها» (٢) :

وأكد الطبري أن المشبه به أعظم حالا من المشبه في كل أحواله (٣) :

وقد وردت شواهد في التشبيه تخالف هذا الأصل البلاغي وتخرج على قاعدته، منها قوله تعالى حكاية عن الكفار : «إِنَّمَا يَتَّبِعُ مِثْلُ قُرْبَاهُ» (٤) في مقام : أن القربا مثل البيع، حكموا ذلك لايمان أن القربا عندهم أحل من البيع، لأن الغرض الربح، وهو ألين وجوداً في قربا منه في البيع، فيكون أحق بالحل عندهم :

(١) اللؤلؤ السائر ج ١ ص ١٦٥ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٨٤ .

(٣) الطراز ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٤) البقرة ٢٧٥ .

ومنها قول محمد بن وهيب الحميري :

وبدا الصباح كأنَّ شَرِّه
وَجَدَ الخليفة حين يُعْتَدَحُ
لفرة الصباح أتمَّ يافاً وإشراقاً من أي وجه، ومع ذلك جعلها الشاعر مشبهاً،
جعل وجه الخليفة مشبهاً به .

ومنها قول البحري :

في ثلاثة بدر شيء من حسانها وللقصيب نصيب من تشبها
واللعارف تشبه الوجه الحسن بالبدور، والقامات بالقصيب في الاستقامة
والشبي لكن البحري أخرج طرفي التشبيه على غير هذه العادة .

نقد للدارس البلاغيون (١) هذه الشواهد وأمثالها وسعوا إلى تلخيصها لتوافق
هذا الأصل البلاغي ولا تخرج عن قاعدته فسموا التشبيه فيها تشبيهاً مقولاً أو
منكساً ومعمولاً، وحدّوه بأنه هو ما يرجع فيه وجه الشبه إلى التشبه به وذلك حين
يراد تشبيه الزائد بالنقص والخالف بالأصل بالفرع لبيان

وفي بقينا أن حصر البلاغيين لأعرب مادة طرفي التشبيه في تلك الأمثال
الأربعة والزارتهم لهذه المسائل التخلالية حول طبيعتها إنما يعود إلى اعتمادهم
الدراسات العقلية النظرية عن مصدر معرفة الإنسان وعلمه وهو مصدر لا يتعدى
حواسه الظاهرة وما شاع عنها من مأثور ومعهود وجار مع العادة بين الناس عكساً
عن سلف؛ وهذا المصدر في طبيعته وحدوده ربما يفتقر أمام الأدب المبدع سبيل
الخلق في التشبيه كما يأخذ على يدي البلاغي للتدقيق ليستوعب من التماس التهج
الأمثل لتحليل الشواهد الأصلية في هذا الفن .

ولعل للكتب البلاغية الموروثة الأصلية تنسج لهذه الحقيقة وتتيح لنا مجال التصور
بأن التشبيه في إخراج طرفه حدث لغوي وعناية ذهنية صادقا طريق التعليل

(١) ينظر : أسرار البلاغة ص ١٨٧ وما بعدها .

في تصوير تجربة صاحب التشبيه لجاء التشبيه وتحقق غرضه من الجمع بينه وبين التشبيه به

وعندما انتهى بتصوير هذه التجربة علينا أن نكشف عن الصدق في التصوير ووضح البعد على جملة متجنيين الاحتكام إلى القواعد الثلاثة الجيدة في صياغتها عن استقراء القصص الأمثلة :

لنأخذ هذه القصص قول امرئ القيس في تشبيه ليله المخصوص بموج البحر :
وليل كرج البحر مرغ ملون على بالسراير الموم ليندلسي
فلست له لعل تطامس بصمته وأزدهن أعجازاً ولاءً بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي صبح ، وما الإصباح منك بأمل (١)
يقول أيها امرؤ القيس تجربة مع ليله الذي هو مشبه في الأبيات ، فإذا هو
امرؤ عاقل متفنن في تعليب صاحبه والكتابة به ، يرعي عليه السور بعريف
الموم ليخبر صبره وجزاه ، ويستقي على صدره ويحكم القاصه جسماً يدد
وسطه ليحذره ويهم بتركه فلا يثبت في ذلك حتى يرجع إليه ضاحكاً عليه مباحداً
في جرمه وهيكله :

ويجاءه الشاعر ويحاده ويطلب إليه أن يكتشف عنه ثم يذكر ما أتى به
من صياح ، فيعرف أن هذا الصياح ليس بأحسن منه :

والسؤال الذي يثيره البلاغي التقليدي عما القيس منه امرؤ القيس مشبه هذا ،
يلقي في جوابه تعداداً غير منسجم لرواقه : لظلام هذا الليل للشبه مصدرة
حاسة البصر وإدراكه العقلي في ارتداد السكون والابتلاء وإهم الخطأ ربما يكون

(١) مدونه : متدور ، لينتلي : أي لينظر ما منه من الصبر والجزع ، وينتلي بمعنى
يخبر ، تطامس بصمته : تمدد بوسطه ، وأزدهن أعجازاً : أي رجع ، ولاءً بكلكل :
أي تهاً لينفص ، وكلكل : الصدر .
الليل : الكشف ، الأمل : الحسن .

أمرأً عقلاً ووعياً في آن واحد ، وأصوات حركته امتداداً ورجوعاً واستقفاً
تلم به حاسة السمع ، ولكن بعد هذا كله أوما يبقى ليل المرء القيس هذا مشتملاً من
التصور الحسي والعقلي للمعهود ؟ نحن نقول ذلك ، ومن هنا فمصدر صورة هذا
الليل هو تجربة الشاعر الحسوسة وجدت أدوات تعبيرها من لونه وحجم وحركة
وتعلل غير معقول في ضوء مقاييسنا من وعيه ومن لا وعيه ومن شعوره وأحاسسه
بمعالاته وكأبده :

أما التشبيه به «موج البحر» في الآيات، فهو أمر إذا لم يكن قد أتته المرء
انتاقي "هذه الآيات كل" الألفة في صحرائه، فهو معروف بصفتها الظلمة
الكثيفة والحركة المتتابعة والتفاوت على المخاطر والمهلك:

وهذه الصفات وإن كانت محسوسة ومعقولة في آن واحد، لانتصت أصلاً
تقاس به صفات التشبيه وحالاته تلك ولا تستوي صورة أوضح من صورة التشبيه
كما يقرره البلاغيون التقليديون لمشي به وإن كان بالبحر بينهما في نظر معظم البلاغيين
إنما كان في حيلة التشبيه على أساس التشبيه المقلوب :

والسؤال هنا هو: أفسر هذا النظر قبة التشبيه ويقدم لنا كشفاً دقيقاً من غاية
الشاعر المعقولة غير المستهدفة بدءاً وتخليداً من تشبيهه ؟ نحن نزع من الجواب
عن هذا السؤال : أن امرأً القيس لم يتغير من جمعه بين طرقي التشبيه فينبذ سوى
لتصوير أثره والتعبير عنه ثم للتأثير في متلقيه من السامعين والقارئ، فكان موج
البحر في عمرة تجربته والفعالة ومعالاته غير مشبه به بألف مع إليه التشبيه،
وربما يكون غرض شاعر أكثر من الجمع بين التشبيه والتشبيه به هو إلهام المتلقيين
قبل التأثير فيهم فيأتي طرفاً التشبيه مأثورين ومعهودين بدرجة تحقق ذلك للغرض
وبخاصة في الموضوعات العلمية :

والنص الذي نختاره تطبيقاً على منهجنا في تحليل طرقي التشبيه هو قول الرصافي
في التحدث عن نظرية البقاء للأصلح في مشترك الحياة :

عليه أن الأرض غربال قدوة تجتمع الأجسام بين إسطاروه
 تميد به كفى الزمان تحركا لبحر ضعيف أو لآيات قاره
 فيبقى به أقوى قرين ارتفاعه كذا يسقط الأوهى رهين انقذاره
 فلا عيش في الدنيا لمن لم يكن بها قدراً على دفع الأذى والكلية (١)
 تتجمع في عقل الرصاني وحافظته القارعة كما يظهر من هذه الآيات معلومات
 ومشاهدات في الصراع بين طبقات الناس وأجناسهم فوق الأرض، ويتوق من
 أن الأقوى من هذه الطبقات والطبقات يتغلب على الأضعف ويتعبد من سيده، فينخذل
 الأرض التي هي مسرح هذا الصراع مشبهاً. ثم يقلب الأشياء التي يعرفها ويعلمها
 في الحياة اليومية ليختار منها الشيء به القادر على تحمل معرفته ومشاهداته تلك إلى
 المخاطبين في وضوح ودقة.

ونبغي أن نشيء الذي يريد له هذه المهمة بين تلك الأشياء لابد أن تتضح فيه
 صفة الامساك بأمر وتسريب أمور أخرى على أساس الحجم والكتلة، فكان
 الغربال هو هذا الشيء، ولتلك اتخذ مشبهاً به وجمع بينه وبين الأرض الشيء
 في صفة الاستدارة والحركة والامساك بما فيه من ذوات الحجم الكبيرة وتسريب
 ما يلقى جرمه ويتضائل هيكله .

ولما كان الغربال في تلك الصفات معروفاً لدى متلقي آياته في طبيعته لممكن
 من تحقيق غرضه من تشبيه وهو الاقحام والتعالم. والملاحظ من هذا التحليل أن
 طرفي التشبيه في مادتهما إذا كانا مقتسبين من حاسة أو أكثر من الحواس الظاهرة -
 يميلان في الوقت ذاته في طائفتها أحدهما الشاعر النفسي بقسوة الحياة وبجسدان
 شعوره للوجداني بخيبة الأمل والاشفاق على الناس في هذا الصراع غير التكتائي،

(١) تميد به: أي تدور به وتتحرك. والقاره: اللبح النشط. والمراد به هنا ما يشابه
 الدميض، وهو القوى. الأوهى: الأضعف. وهو مقابل للأقوى في الشطر
 الأول. ينظر ديوان الرصاني ص ٣٨ (تصيدة منترك الحياة).

ويمثل هذا الشعور وذلك الإحساس في ظلال مشاولات التشبه والتشبيه به، ذلك لأن الألف من حل سطحها وكثرة غيراتها تفريق عن استيعاب الناس، للذين تجمعهم وشائج متنوعة، ولأن القربان في عمله الآلي يحتفظ مثلاً بالخبر العابر لحرمة الكبير ويسقط للذين النافع مخبره الصغير :

وجسد التشبه :

إن ثالث أركان التشبيه هو وجه التشبه الذي يعرف اجمالاً بما يشترك فيه طرفا التشبيه، التشبه والتشبيه به من معنى :

وقد تتبع البلاغيون والنقاد القدماء هذا الاشتراك ، فالتمس بعضهم الرواة في ضوء منهج استقر الي يعتمد اشعار العرب ومصادر تشبيهاتهم فيها من بيئة وحياة اجتماعية وحالات نفسية ، من هؤلاء ابن طباطبغا العلوي (- ٨٣٢٢ هـ) (١) ، وابن نايقا البغدادي (- ٨٤٨٥ هـ) الذي حدد كيفية التشبيه كالآلا : "إن" التشبيه يشبه بالشيء "ثارة" في صورته وشكله ، و"ثارة" في حركته وفعله ، و"ثارة" في لونه ونجده ، و"ثارة" في موسمه (٢) وطبعه (٣) . وبعضهم الآخر حبس الرواة في اطار منطقي وحصرها في مصدرها الحسي كما فعل القزويني الذي جعل المعنى المشترك بين طرفي التشبيه إما تخفيفاً أو تخيلاً (٤) والمراد بالتخفيف ما أدرك بأحدى الحواس الخمس الظاهرة كتشبيه الشعر بالليل في السواد وتشبيه النكهة بالطير في الرائحة ، وتشبيه البشرة بالحرير في الرقة ، وتشبيه الرقيق بالسلافة في المذاق ، وتشبيه الصوت بالسم في العلوية :

أما التخييل فالتقصود به ألا يمكن وجوده في التشبه به إلا على تأويل كما في قول القاضي التنوخي :

- (١) ينظر عيار الشعر ص ١٠ - ١١ .
- (٢) انظر : الاصل كالنجم وسنة المثل : « كل نمار أول نمار » أي : فيه كل لون من الاعلاق ولا يثبت على رأي . السوس : بالتقسم = الطبيعة والاصل .
- (٣) النجاشي في تشبيهات القرآن ص ٤٢ .
- (٤) الايضاح ص ٢٢٠ .

وكان النجوم بين دُجَاهَا سَمْنٌ لَاحَ بَيِّنَتُهُنَّ ابْتِذَاعُ
فإن وجه الشبه فيه الهيئة الحاصلة من حصول أشياء مشرقة يفس في جوانب
شي مظلم أسود ، فهي غير موجودة في المشبه إلا على طريق التخيل (١)
ولي رأينا أن التماس وجه الشبه على هذا عند القزويني ومن شابهه والذين يقولون
يعود إلى مباحث عقلية لائتمس الجوانب الأدبية والتفسيّة والشعرية التي تقوم
عليها الوهبة الأدبية :

وعما لا بد من تأكيده هنا : أن وجه الشبه الذي يلتقي عليه طرفا التشبيه لا يمكن أن
يكون متحققاً أو متخيلاً بشكل آلي لكي يصبح مستباحاً في الذوق ومقبولاً في الطبع
فقول الشاعر :

وله عسرةٌ كلونٍ وصالٍ فوقها طُرّةٌ كلون صُودٍ (٢)
يشبه طرة حبيبه وهو شعر مقدمة الرأس بالصدود في السواد *
والعادة جارية يوصف الصدود وسوء الطالع بالسواد ، ولكن أين جدال سواد
بإطرة الذي هو علامة للشباب ودلائل الحيوية من سواد الخط العائر وظلمة الصدود
الذي يورث هَمّاً غائلاً وحزناً مبيناً ؟

وعليه فإن وجه الشبه في حقيقته الأدبية والفنية ثمرة لاحتساس الأديب بما يجمع
مشبهه الذي له معه تجربة مخصصة مع المشبه به الذي يثر في نفسه ووجدانه
ما يفيض في تشبيهه الفني تأسكا عاطفيا وتجاوزا شعوريا بين طرفيه ؟
أداة التشبيه :

إن الركن الرابع الذي اشرنا إليه في اركان التشبيه هو أداة التشبيه التي عرفها
معظم البلاغيين القدامى (٣) والمعاصرين (٤) ، والمقدّم وأبهم على أنها الكلمة

(١) الأيضاح ص ٢٢٠ .

(٢) الفرة : ينافس في الجبين .

(٣) ينظر : كتاب الجمان في تشبيهات التركن ص ٤٤ .

والإيضاح ص ٢٣٥ .

(٤) جواهر البلاغة ص ١٩٧ ، فن التشبيه ج ١ ص ١٩٢ ، وفنون بلاغية ص ٤٧ .

التي تلبد المماثلة والمشاركة بين التشبيه والتشبيه به فانضوى تحتها كسل ما أفاد
شبهها ، كاللثاف وكان وباء النسب ومثل ومثيل وشبه وشبيه وتحوه وهرب وبشكل
ومضاه ومساو ومحاك ، وأخ ونظير ، وعدل وعديل ، وكلفه ومشاكل
وموازن ومصارح وتدّ وصتر ، وما كان يمتثلها أو كان مشقة منها من فعل أو اسم
والأدلة في مدلول استعمالها هنا عامة تشمل الحرف والاسم والفعل ، وعليه فإن
أدوات التشبيه تصنف في ثلاث مجموعات :

أولاًها : أدوات التشبيه بالحروف وأشهرها والكاف وكان :

أما الكاف فالأصل في استعمالها أن يلبس التشبيه به كقول أحمد شوقي في وصف
البحر :

لحفة عند بلعة عند أخرى كعذابٍ ماجت بها قبيلته
وسفن طورا تلوح وحناء يسوق أشباحهم الخفاء
لأزلات في سيرها صاعدات كالهرادي يهزهم الخفاء (١)
ومجيء التشبيه به بعد الكاف إما لفظاً كما في الشاهد السابق وإما تفكيراً كما في
نعلن : «أو كصنّيب من السّماء فيه ظلمات وزّعت وبرزق» (٢) :

والأصل كلوي صنّيب ، فحذف ذوي الدلالة وجعلوا أصابعهم في آذانهم
عليه ، وحذف مثل لما دل عليه عقله على قوله : «كتمشكر الذي استوفد نارا» (٣)
إذ لا يخفى أن التشبيه ليس بين مثل المستوفدين ، وهو صفتهم المحيية للثان وبين
ذوات ذوي العيب ، وإنما التشبيه بين صفة أولئك وبين صفة هؤلاء.
ولما وكانه فهي تلبد التشبيه سواء انصرفت نونها أم لا ، أو اتصلت : وما
لكنة أم لا :

(١) الهادي : اليد رجل من الأيل الخفاء : الخاء في أثر الأيل.

(٢) النفا ١٩.

(٣) النفا ١٧.

وشاهد المخلفه قوله تعالى: «كَانَ لَمْ يَكُنْ» إلى ضَرْ مُسَمَّه (١) ومثال
الشددة قول الشاعر:

كَانَ قُتْرِيَا رَاحَةً تَشِيرُ الدُّجَى تَنْظُرُ طَالِ اللَّيْلِ أَمْ قَدْ نَعَزْنَا
ومثال التصلة بدماء الكذبة قول ابن نباتة في قمرس إيلي آخر:

وَكأنَا نَطْمُ الصَّبَاحِ جِيهَةً فَاقْصُ مِنْهُ فُخَاظُ فِي أَحْشَائِهِ
والأصل في الأداة «كَانَ» أن يلبها الشبه بانفاق البلاغيين وإن كان هؤلاء البلاغيون
على خلاف في إطلاق لغادتها تشبيه، فبعضهم يرى أنها تلبيد تشبيه بلا تلييد
وبعضهم الآخر يزعم أنه إن كان غيرها اسماً جامداً فهي تشبيه كقول الشاعر:
كَمْ نَمْسَةٍ مَرَّتْ نَا وَكَانَهَا قَرَسٌ يَهْرُولُ أَوْ لَسَمٌ سَارِي
وإن كان جملة أو مشتقاً، فعلاً أو صفة، فهي تشك بمتزلة طلعت وتوهمت كقول
عروة بن حزام العلوي:

كَانَ قَطَاةٌ حَلَقَتْ فِي جَنَاحِهَا عَلَى كَيْدِي مِنْ شِدَّةِ الْحَقِيقَانِ
فمثل هذا لا يكون تشبيهاً، لأن غيرها التشبه به في المعنى هو التشبه والتشبيه لا يشبه
بنفسه.

وذنب الكوفيون والرجاج إلى أنها لتحقيق في قول الشاعر:

وَأَصْبَحَ بَطْنٌ مَكَّةَ مَشْتَرَاً «كَانَ» الْأَرْضَ لَيْسَ بِهَا جِشَامٌ (٢)
والنتيج - للتصرص الأدبية - وهي اللعل عليها في الحكم - يدرك أن هذا
الحرف يلبي التشبيه دائماً:

ولانيتها: أدوات التشبيه والأسماء: وأسرها في التصرص الأدبية: «شيء» كقول
الشاعر:

(١) ينس ١٢.
(٢) الشعر الأثر: أعلت.

بأشبهه السمر في الحُسن وفي بُعْدِ السَّالِ
جُدَّ فَقَدْ تَغْضُرُ قَصْدُ غُرَّةٍ بِالسَّالِ السَّالِ

و مثل: كقول عبيد بن الرُّمَيْثِ الكلابي يصف قوماً لزل بهم :

لا يَنْطِقُونَ عَلَى الْعَمَاءِ إِنْ تَلَقَّوْا وَلَا يُمَارُونَ إِنْ مَارُوا بِاَكْثَرِ
مَنْ كُنَّا مِنْهُمْ تَقُولُ لَا يَنْتَسِدِعُ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي (١)

وثالثها أدوات التشبيه والأفعال وأكثرها دورانا على السنة الأدباء :-

الفعل ومثاله: بشرى أرمته: كقول أحمد شوقي في وصف جيف وضواحيها:
وإِنَّكَ مَوْفُورٌ التَّعِيمَ ، تَخَالَهُ مَلَكًا تَنَمُّ بِهِ السَّمَاءُ مَطْلَعَهَا

ودفع ابن نافع البغدادي إلى أنه ربما استغني عن هذه الأدوات بالمصدر

نحو: وَتَرَجَّ خَارُوجُ الْقَيْدِ (٢) و طَلَعَ طَلُوعُ النُّجُومِ و هَمَزَ مَرُوقُ السَّهْمِ (٣)

وفي حقيقة أن صيغة المصدر اللين النوع في هذين الشاعرين وما جرى مجراها

تفيد التشبيه أصالة حتى لقد قرَّرَ ابن الأثير بهذا الصدد قائلًا: «واعلم أن محسن

لتشبيه أن يحى مصدرًا كقولنا: وَأَوْدَمَ إِدَامَ الْأَسَدِ و «لأض» فليس البحر»

وهو أحسن ما استعمل في باب التشبيه (٤) :

وفي هذا الباب من تنظرات الخلافة (٥) يرى بعض البلاغيين أنه قد يغني

عن أداة التشبيه وفعل يدل على حال التشبيه، ولا يند أداة ، فإن كان الفعل

للبيان، أفاد قرب التشابه، لما في فعل اليقين من الدلالة على يقين الاتعاد وتحققه،

وهذا يفيد التشبيه مبالغة نحو قوله تعالى: وَقَلَامُ رُؤُوسِهِمْ عَارِضٌ مُسْتَعْتَبِلٌ أَوْفَ يَنْدُهُمْ

قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُسْتَعْتَبِلٌ نَأْيٌ هُوَ مَا اسْتَعْتَجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦)

(١) ينظر الكامل ج ١ ص ٧٢ .

(٢) القبح - بالكسر - السهم قبل أن يراش ويصل .

(٣) الجماد في تشبيهات القرآن ص ٤٢ - ٤٤ .

(٤) ينظر هاشم المصدر السابق حيث ورد النص ص ٤٤ .

(٥) جواهر البلاغة ص ٢٦٨ .

(٦) سورة الاحقاف ٢٤ .

وان كان الفعل للشك أفاد بعضا لما في فعل الرجحان من الأشعار بعدم التحقق
وهذا يفيد التشبيه ضعفاً، نحو قوله تعالى: «ويطوف عليهم ولدان مخلدون
إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً» (١).
وكقول الشاعر:

فروم إذا لبسوا الدروع حسبتها سحياً مزودةً على أنفسار
وفي رأينا: أن الكلمة إذا أفادت التشبيه وعظمت مقارنة بين التشبه والتشبه به
فهي أداة تشبيه على الإطلاق أما قوة هذه المقارنة ودرجة تلك الأداة فيحكم
في تقديرها إلى أثر التشبيه في عقل المتلقي وشعوره.

(١) الإنسان ١٩.

البحث الثاني

أنواع التشبيه

يبتدأ فيما مضى أن ركن أداة التشبيه وركن وجه التشبيه يبرز حلفهما من بين أركان التشبيه لأغراض بلاغية وفنية . وقد بنى علماء البلاغة (١) على هذا الجواز قواعد في أنواع التشبيه :

التشبيه المرسل والتشبيه المؤكد :

تحدث البلاغيون عن جواز حذف أداة التشبيه وصغروا التشبيه إلى صفتين : -

أولهما : التشبيه المرسل : وهو ما ذكرت أداته كقولته تعالى : «سَابِقُوا إِلَى مَفْزَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٢) .
وكقول امرئ القيس :

وَتَعْلُو بِرُحْمَتِهِ غَيْرُ شَيْءٍ كَأَنَّهُ أَسَارِجُ ظَبَرٍ أَوْ سَاوِيكُ إِسْحَاحٍ (٣)

ففي قوله تعالى : أداة التشبيه مذكورة ، وهي الكاف ، وفي الشاعر المروي لامرئ القيس أداة التشبيه ظاهرة أيضاً وهي «كأن» :

وللتشبيه : التشبيه المؤكد وهو ما حذفت أداته مثل قوله تعالى : «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ

بَاقِيَةٍ مِنْ فُضَّةٍ وَأَكْوَابُ كَالْإِبْرَةِ» (٤) فواويز من فضة فمروها لتقديره (٥)

يعني أنها كالقواريير في صفاتها ورواقها وشفايفها ورقيقها وهي من فضة (٥) :

(١) الأيضاح ص ١٦٣ .

(٢) الحديد ٢١ .

(٣) نسطور : تناول . رخص : لين ، وموصوله ملاحظ وهو البيتان شين «غايطة»

(٤) الأيساريج : ديبان حر ، والحدفا أسروج ، طي : اسم واد ببلخامة الأسجل : شجر تخط منه أجود المسويك .

(٥) الانسان ١٥ - ١٦ .

(٥) ينظر الجمان في تشبيهات القرآن ص ٣٦٤ .

ومثل قول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - «لكنما جُدري» (الغرض) (١)،
حذف أداة التشبيه وقمة ذلك :

تحدث عبد القاهر الجرجاني عن جواز حذف أداة التشبيه حديثاً ربما تفهم منه أن هذا الحذف عملية آلية لا يترتب عليها أي حكم لغوي معنوي إذا قال - وفارجع إلى نحو «فلنك كليل الذي هو مدركي» وأعلم الله قد يجوز فيه أن تحذف النكاف وتجعل للمجرور «الليل» غيراً فنقول : فلنك الليل الذي هو مدركي ، أو أنت الليل الذي هو مدركي . ونقول في قول النبي صلى الله عليه وسلم ومثل المؤمن مثل الخامة من الزرع : المؤمن الخامة من الزرع . وفي قوله عليه الصلاة والسلام «الناس كابل مائة» : الناس ابل مائة ، ويكون تقديره على أنك فشرت مضاعفاً محلوفاً على حدّ «وأسأل القربة» تجعل الأصل فلنك مثل الليل ثم تحذف مثلاً (٢) .

والحقيقة أن الأمر ليس كذلك ، لأن حذف الأداة من التشبيه اعتباطاً وفي الأحوال كلها يلتزم تغيير معنى الجملة كما تنجم عنه أغراض بلاغية :

وقد نبه عبد القاهر الجرجاني نفسه على ما يترتب على حذف الأداة من تغيير معنى الشاهد الذي وردت فيه أداة التشبيه فقال : «والثكنة في الفرق بين هذا الضرب الذي لا يدّ للمجرور بالنكاف ونحوها من وصفه بجملة من الكلام أو نحوها وبين الضرب الأول الذي هو نحو «زيد كالأسد» إنك إذا حذفت النكاف هناك قلت : زيد الأسد ، فالتقصّد أن تبلغ في التشبيه فتجعل المذكور كأنه الأسد وتشير إلى مثل ما يحصل لك من المعنى إذا حذفت ذكر الشبه أصلاً قلت :

(١) لكنما : نيك ، جعدي : بنس الجدم ونسها : فتروح في البدن تنقط وتنتج . (القاوس المحيط) .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٢٨ .

وأثبت أسداً أو «الأسد» : فلما في بحر وفانك كاثيل الذي هو مدركيه فلا يجوز أن نقصد جعل المملوح الليل ، ولكث تنوي أنك أردت أن تقول : فانك مثل الليل ، ثم حذف المضاف من القطف وأثبت المعنى على حاله إذا لم تحذف : وأما هناك فانه وإن كان يقال أيضاً : أن الأصل زيد مثل الأسد ثم تحذف ، فليس الحذف فيه على هذا الحد ، بل على أنه جعل كأن لم يكن قصد المبالغة .
 الاتراهم يقولون : جعله الأسد وبعيد أن نقول جعله الليل ، لأن القصد لم يقع إلى وصف في الليل كالثقلمة ونحوها ، وإنما قصد الحكم الذي له من تعميمه الآفاق واستناع أن يصير الإنسان إلى مكان لا يدركه الليل فيه

وإن أردت أن ترداد علما بأن الأمر كذلك أصح أن ههنا ما يصلح فيه التشبيه للظاهر ولا يصلح فيه المبالغة وجعل الأول الثاني قاصداً إلى ما تجد الأسم الذي التفتح به الليل فيه غير محتمل للسر من التشبيه إذا أفرد وقطع عن الكلام بعده كقولهم تعالى : إنما مثقل الحياة الدنيا كراه أنزلناه من السماء (١) لو قلت : إنما الحياة الدنيا ما أنزلناه من السماء ، أو الماء : ينزل من السماء فتختصر منه الأرض : لم يكن للكلام وجه غير أن نقدر حذف مثل بحر : إنما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كبت وكبت ، إذ لا يتصور بين الحياة الدنيا والماء شبه يصح قصده (٢)

وإن حذف الأداة من التشبيه يتحكم فيه القصد من اشتراك الشيء مع الشيء به في معنى ، وموضع حذفه على الإطلاق مشكل اعترف الجرجاني بأنه لا يمكن القطع فيه بحكم على التفصيل ، وظل اعترافه هذا ملازماً لسائر علماء البلاغة (٣)

على مدى العصور ؟

- (١) . يونس ٢٤ .
 (٢) اسرار البلاغة ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
 (٣) ينظر الليل السائر ج ٢ ص ١١٦ - ١١٧ .

وفي مذهبتنا إن الموعر فيه هو النص الألفي الذي نرى أسلوب التشبيه فيه ثمرة شعورية نجمت عن الحدث الذي اقتضى عقد موازنة بين الشبه والمشب به في صيغة مخصوصة هي صيغة حذف أداة التشبيه منها .

أولاً: كان قان حذف الأداة من التشبيه عند البلاغيين يحقق أغراضاً لغوية وفنية وشعورية يعتقد الرأي حوقاً في أن التشبيه المؤكد أوجز وأبلغ ، وأشد وقعاً في النفس أما أنه أوجز فللحذف أداته وطى ركن من أركانه ، ولما أنه أبلغ ، للتصوير المشبه في صورة المشبه به وجعلهما نظيرين ، ووقعه الشدائد في النفس يرجع إلى صيغته للجزء وربطه الولين بين طرفي التشبيه .

التشبيه المفضل والتشبيه المجل

أما بشأن جواز ذكر وجه الشبه وحذفه فقد نه البلاغيون إلى أن ذلك يجري في التشبيه الذي يأتي فيه المعنى المشترك بين الطرفين صفة مفردة غير مركبة ، ثم قسموا التشبيه على هذا الأساس إلى قسمين (١) :-

أولهما: التشبيه المفضل وهو ما ذكر فيه وجه الشبه لفظاً أو ألفاظاً صريحة كقول الشاعر :

أنت شمس في رقعة وسحاب

تجلى لك العيون شرقاً وغرباً

ففي هذا البيت ذكر الشاعر كلمة «رقعة» وكلمة «سحاب» صفتين مفردتين تجمعان بين «أنت» المشبه و«شمس» المشبه به ، وجه شبه صريح .

وثانيهما: التشبيه المجل ، وهو التشبيه الذي حذف منه وجه الشبه ولم يذكر في القاف ظاهراً كقوله تعالى : «وخلق الإنسان من صلصال كالفخار» (٢)

(١) راجع الألفاظ ص ٢٥٠

(٢) الفرقان ١٢ .

فوجه الشبه في هذه الآية الكريمة بين الصلصال المشبه والفخار المشبه به هو ليس
ولم يأت صريحاً ومنصوصاً عليه.

وكتفول البحري :

أنت ترى مدّ القسرات كأنّه جبالُ شروري جئن في البحر عموماً (١)
فالشاعر قد طوى ذكر وجه الشبه بين مد القرات وبين جبال شروري ،
وتفريده الضخامة والعظم .

طبيعة وجه الشبه :

إن دراسة البلاغيين لمذنب القسمين من التشبيه قائمة على أساس لغوي محض
لا يتجاوز ذكر لفظ وجه الشبه أو خلفه. وفي رأينا أن هذا الاتجاه في الدراسة
لا يكشف عن حقيقة وجه الشبه ولا يحدد طبيعته وإن كان مذكوراً في لفظ
صريح ومنصوصاً عليه بعبارة ظاهرة ، ذلك لأن وجه الشبه الذي يقصده الأديب
ويراه صفة جامعة بين طرفي التشبيه يجسد ومضات شعورية وظلالاً نفسية تضيق
عن إبرازها الكلمة المحددة .

وربما يستوي عبد القاهر الجرجاني أقرب إلى هذه المسألة من سائر البلاغيين
حين درسها مقرأً أن الشيلين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين:
أحدهما : أن يكون من جهة أمر يبيّن لا يحتاج فيه إلى تأويل .

والآخر : أن يكون تشبه محصلاً بضرب من التأويل : (٢)

فهذا العالم البلاغي يدين في الضرب الثاني لنظمي التشبيه بحقه في تأويل وجه
الشبه، والتأويل - كما هو معروف - (٣) مساحة شاسعة من التأمل والتقدير
يجول فيها الفكر ويرودها التبصر بحرية :

(١) شروري : جبل مثل عل توك في شرقها ، وقيل : لبني سليم ، وقيل : واد بالشام .

(٢) أسرار البلاغة ص ٨٠-٨١ .

(٣) شرح عبد القاهر الجرجاني مصطلح التأويل يقول : « حقيقة قولنا : تأويلت الشيء ، أنك
تطيلت ما يقول إليه من الحقيقة أو الموضع الذي يقول إليه من العقل لأن : تأويلت =

التشبيه البليغ والواعم :

ومهما يكن فإن الباحث يلتقي بهذه المسألة الفكرية والدلالية أكثر فأكثر في نوع ثالث من التشبيه الذي حلف منه وجه الشبه والأداة معاً وهو ما يسمى « التشبيه البليغ » دلالة على أنه أوجز من سائر أنواع التشبيه والبليغ منها تأثيراً وإن كان في الوقت نفسه على الحد المعروف في القامة ضرب من المشاركة بين الشبه والمقشبه به بخلاف الاستعارة القائمة على تناسي التشبيه :

ودرجة المشاركة بين المشبه والمقشبه به في التشبيه البليغ تتباين جبان تركيب أسلوبه الذي يتنوع الى ثلاثة أنواع رئيسة :

اولها : جعل المشبه والمقشبه به مبتدأً وخبراً أو ما أصله مبتدأً أو خبر على التوالي كقول جرهمي في رثاء أبيه عبد الغني (١) :

وكنَّساً غصوناً أنت زهرةٌ روضها وكنَّساً نجوماً أنت من بينها البدرُ
ففي هذا البيت نجد أربعة تشبيهات بليغة : اثنان منها للشبه اسم لكان والمقشبه به خيراً لها وهما : « كنا غصوناً » و« كنا نجوماً » .

والاثنان الآخران المشبه بهما مبتدأً والمقشبه به خبر وهما : « أنت زهرة روضها ، و « أنت من بينها البدر »

وبين أن المشاركة بين طرفي التشبيه في هذا النوع من التشبيه البليغ مطلقة لانقيدها إلا المدلولات التي تتضح بها كلمات الشبه والمقشبه به معاني وغلالات : وثانيها : اعتبار المشبه مقصوراً على المشبه به ومحصوراً معه بين حدود مدلوله ، وذلك بأسلوب القصص والحصر مثل قول الرصافي في قصيدته المشهورة إلى « ابنه المدارس (٢) » :

« وثأرت » - فقلت وتعلقت من آل الأمر لك كذا يقول اذا انتهى اليه والقال

المراجع : (اسرار البلاغة ص ٨٨) .

(١) الباب ص ١٠ .

(٢) ديوان الرصافي ص ٢٠٢ .

إذا ما صق موطنهم أناس" ولم يبتئوا به لعلم دورا
 فان لبائهم أكفان موى وليس يبتئهم لأقربورا
 فالشاعر قد سلب في لفظ الثاني من البيت الثاني من بيوت الذين حقوا موطنهم
 صفاتها التي يمكن أن تبرز فيها من جمال وحبوبة ونشاط وألفائها مطابقة للمقابر
 في أوصافها المروعة ورفع بينها الحدود كالة حتى يعرفها القارئ بقورا حقيقة
 فوق سطح الأرض، كل ذلك بأسلوب التخييل وليس بالحصر به والآلة الذي هو
 من أساليب القصر المقررة في هذا الباب من أبواب علم المعاني
 وثالثها : صياغة التشبيه والتشبيه به في تركيب إضافي التمس فيه التشبيه به مضافا
 والتشبيه مضافا إليه كقول الشاعر :

والسرح تيمت بالنعيم ، وقد جرى ذهاب الأصيل على لجين الماء (١)
 ففي هذا الشاعر نجد تشبيهين بليين هما «الذهب» الأصيل الذي أصله :
 الأصيل ذهب ولجين الماء الذي كان في الأساس : الماء لجين ، وواضح لدى الشاعر
 درجة المشاركة بين طرفي التشبيه في هذين التشبيهين وما يجري مجراهاما أنها على
 أشد ما تكون من قوة واتحاد ، إذ خص التشبيه به بالأصيل التشبيه وجعل
 منسوباً إليه ما لا يصفه وكذلك الأتيان باللجين مركباً مع الماء ومنسوباً إليه فهما
 يتصوران في بناء جملتي موحد ترتفع بينهما القواصل وتزول في ساحتهما
 المقارقات المعنوية .

(١) الأصيل : ما قبل الغروب من آخر النهار .
 اللجين : الغصة وقالته ابن خفاجة الأندلسي الأبراهيم بن عبد الله الشاعر الوصافي
 الحنفي سنة ٥٥٣٣ .

المبحث الثالث

التشبيه المفرد والتشبيه المركب

تناول البلاغيون منذ المراحل الأولى تأليف في علم تقسيمات التشبيها وما انتهت إليه هذه التقسيمات اصطلاحات وأصرياً في المصوّر المتأخّرة تقسيم التشبيه باعتبار طرفيه إلى التشبيه المفرد والتشبيه المركب .

وهذا التقسيم أقام التشبيه بصورة أجمالية على أربعة أصرب (١) :

الأول : تشبيه المفرد بالمفرد وهو ما طرفاه مفردان إما مطلقان غير مقيدین كقوله تعالى : «عَنْ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ تَهْنُ» (٢) ففي هذه الآية للكرسي تشبيهان الطرفان «عن» و«لباس» و«أنتم» و«لباس» فيها مفردان غير مقيدین . وإما مفردان مقيدان (٣) كقولهم لمن لا يحصل من سعيه على شيء : «هو كالقايض على الماء وكالراقم في الماء» فان الشبه هو الساعي ، لا مطلقاً ، بل مقيداً بكون سعيه كذلك ، والشبه به هو القايض أو الراقم لا مطلقاً ، بل مقيداً بكون قبضه على الماء أو رقبته فيه ، فلهذا يفتي هذين التشبيهين هو الجار والمجرور : «على الماء» ، «وفي الماء» على التوالي .
وكقول الشاعر :

إنسى وتريسي بمسحى معشراً كعثنى دُرّاً على عيثرير

فإن المشبه في هذا الشاعر هو التكلّم بقيد الصافه بتزيينه بمسحه معشراً ، فمعثنى التزيين قوله «ومسحى» داخل في المشبه ، والمشبه به من معثنى دُرّاً بقيد أن يكون تعليقه إياه على عيثرير .

(١) انظر الايضاح ص ٢٤٢ - ٢٤٩ . (٢) البقرة ١٨٧ .
(٣) والتقييد يكون بالاشارة أو الوصف ، أو الحال ، أو الظروف ، أو غير ذلك ويشترط في القيد أنه يكون له تأثير في وجه الشبه .

واما مختطفان والمقيد هو اللشبه به كقول الرازي :
والشمس كالمركب في كسف الأشكال

إن اللشبه هو الشمس على الإطلاق ، والشبه به المرآة لا على الإطلاق بل بقية
كونها في يد الأشكال . أو على عكس ذلك ، كتشبيه المرآة في كسف الأشكال بالشمس .
الثاني : تشبيه المركب بالمركب وهو ما طرأه مركبان من عدة أمور مجتمعة متداخلة
كقوله تعالى في صفة المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يفسرون : «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ
الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَكُتِبَ لَهُمْ
فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْهَرُونَ » (١) . فاللشبه في هذه الآية الكريمة هو حال المنافقين
للشفة في تركيب صفاتهم من كذب ورياء ومداغة وخسران ما يصبغ غيرهم في
يشتبه السلسلة من غير .

واللشبه به هيئة رجل تجسد اوضاعه في أنه أوقد ناراً في ليلة مظلمة بمقارعة فاستضاء
بها ما حوله فالتفت ما يخاف وأمين ، فبينا هو كذلك إذ طفت نارُه فبقي عاقفاً
متحيراً .

وكقول البحري :

نرى أحججاً له يصعدون فيه صعود البرق في الغيم الجاهل (٢)
فالشاعر هنا لا يريد به تشبيه بياض الحبور على الافراد بالبرق ، بل
مقصوده الهيئة المركبة من مخالطة البياض بالسواد :

الثالث : تشبيه الفرد بالمركب وهو ما يأتي فيه اللشبه مفرداً ويألف اللشبه به بعده
من عدة أمور مركبة كقوله تعالى : «والذين كثرت أعمالهم كسراً بقلية
يتحسبون الظلمان ماء» حتى إذ جاء لم يتجده شيئاً ووجد الله عنده فزاد
حسابه والله سريع الحساب (٣) .

(١) البقرة : ١٧ .

(٢) الاحزاب : جمع حبل بالكسر . وهو البياض في رجل الفرس . الجاهل : السحاب

لا ماء فيه .

(٣) النور : ٢٩ .

فالشبه في هذه الآية للكريمة هو أعمال الكافرين وهو مفرد ، أما الشبه به فهو مركب تتجسد هيأته من السراب (١) وهو ما يرى في الغلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري ، ومن كون هذا السراب بقيمة وهي التبسط المستوي من الأرض ، ومن حصال الكافر وهو يرى ذلك السراب على هذه الحالة فيحسبه بالساعة ماء وقد غلبه العطش ؛

وكتقول الخشاء :

أغرُّ أبلجُ تأمُّ افداة به كائنٌ عكَم في رأسه نَسار
فالشبه هنا مفرد وهو صخر أسود الشاعرة ، أما الشبه به فهو هيئة مركبة من الجبل العالي و فوق قمته نار متقدة يشتد بها السارون ويمشي في ضوئها الضيقان . الرابع : تشبيه المركب بالقرود ، وهو على العكس من النوع الثالث ، إذ مشبهه مركب والشبه به فيه مفرد كتقول أبي تمام :

يا صاحبي تَقصِّبُنا نظريكما تَرى وجوه الأرض كيف تُصَوِّرُ (٢)
تَرى لها را مُشَمِّباً قد شابه زَهْرُ الرُّبَا ، فكانما هو مُقَمِّمُ
فالشبه هنا مركب من هيئة الثبات الذي صار لونه إلى السواد من كثرة وتكاثره وشدة خضرته فقص من ضوء الشمس ، حتى صار كضوء القمر وأحال النهار إلى تلك الصورة ، أما الشبه به فهو القمر بقضوه الخافت ؛

لقد تتبع البلاغيون للتأخرون تفرعات أصحرب التشبيه المستندة إلى أفراد طريقه وتركيبها ففرعوا عليها أربعة أنواع :

أولها : التشبيه المتخوف هو جمع كل طرف منهما مع مثله ، كجمع الشبه مع الشبه ، والشبه به مع الشبه به بحيث يكتفى بالمشبهات معاً على طريق العطف ،

(١) الكشف ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) قصبا نظريكما : اجتهدا في الورقة وانظرا انقص غاية النظر .

لصور : تصور وتتشكل ، خلف إحدى آرائه : الشمس طاهر الشمس مكشوفها .

شابه : خالط . الربي : جمع ديرة ، وهي المكان العالي البعيد من مستنقع الماء .

مقمر : طالع القمر .

أو غيره كقول امرئ القيس :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَبَابًا لَدَى وَكْرَهَا الْعَنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَابُ (١)
ففي هذا الشاهد مشبهان ثلثا معا وثانيا متعاقبين وهما قلوب الطير الرطبة التي
اقترستها العناب حديثا وقلوب الطير اليابسة التي مضى على التراسها زمن طويل :
والشبه بهما في الشاهد ملفوفان ومتعاقبان أيضا وهما العناب الذي هو مشبه
به للقلوب الرطبة ، والحشف البالي الذي هو مشبه به للقلوب الطير اليابسة :
وقالهما : التشبيه المفروق ويسمى المقرون أيضا ، وهو ما اتت فيه الاطراف
مفروقة كل مشبه ورد بعده المشبه به كقول المرتضى الكبير :

اَنْتَشَرْتُ مِنْكَ ، والوجوه دُفَا لَبْرُ ، وأطرافُ الأَكْفِ عَدَمٌ (٢)
وقالهما : المشبه للتعدد ، وهو ان يتعدد التشبه دون التشبه به كقول الشاعر :
صَدَّخُ الحبيب وحالي كلالهم كالبالي (٣)
وكثره في صكابه وأدمعي كالسلاكي
ففي البيت الاول ورد مشبهان هما «صَدَّخُ الحبيب وحالي» أما التشبه به فهو
واحد وهو «البالي» وكذلك حال التشبيه في البيت الثاني ، اذ ورد للمشبهان «تغره»
و «دمعي» ومشبه به واحد هو «السلاكي» :

«وايهما» تشبيه الجمع ، وهو ان يتعدد التشبه به دون التشبه كقول الشاعر :

ذَاتُ حُسْنٍ لَوْ اسْتَزَادَتْ مِنَ الْعُسْرِ ذِي الْبَسَةِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدًا
ففي الشمس بهجة والقضب القس ن قَدْأَ والرَّيْمُ طَرْفًا وجيدا
فالتشبه في هذا الشاهد هو الضمير وهي ، أما المشبهات بها فهي ثلاث كلمات :
«الشمس» و«القضب» و«الرَّيْم» :

(١) وكرها : عشها ، والصغير للعناب التي يصفها ، العناب : ثمر احمر اللون
الحشف : أرمأ الثمر البالي القديم .

(٢) انتشر : الرائحة العلية ، أو الرائحة مطلقا ، أو ريح غم المرأة وأعقابها بمذاتهم
التم : شجر لبن الاقصاد ، وهو شجر له النعان حمر يشبه بها البنان الخشوب .

(٣) الصدغ : هو حنا الشعر الكفلي مابين العين والاذن .

المبحث الرابع التشبيه التمثيلي

مرّ بنا في بحثنا لمعاني كلمة التشبيه لغة : ان المصاحفات العربية قد قرنت بين هذه الكلمة وكلمة التمثيل وجعلتهما متحدتين في المدلول : وقد تربط على ذلك قيام مشكلة اصطلاحية في كتب البلاغة فلم حولها استفسار هو : أترادف كلمة التشبيه والتمثيل في المدلول البلاغي أم أنهما يختلفان في هذا الوجه أو ذاك ؟ ونحن إذ نعرض هنا لبحث التشبيه التمثيلي ونردده بمصطلح « تشبيه الصورة » نؤكد قبل كل شيء أن المحور الذي تدور عليه آراء جمهور البلاغيين عن التمثيل والصورة في التشبيه يستقر أساساً فوق لرغبة متسعة من دراسة ركن وجه الشبه في التشبيه .

أقسام وجه الشبه :

لقد انتهت هذه الدراسة في كتب البلاغيين القدامى والمعاصرين إلى أن وجه الشبه من حيث الأفراد والجمع والتركيب ثلاثة أقسام : (١) أولها : الشبه المفرد ، والمراد به ما يعد في اللفظ واحداً ، لا الذي لا جزء له أصلاً ، وذلك كالحمرة في تشبيه الخد بالورد مثلاً ، فإنها تشتمل على مطلق اللونية ولقبض البصر ، ولكنها مع ذلك تُعدّ وجهاً واحداً : وهذا الوجه المفرد قد يكون حسيّاً ، كقول الشاعر في الموز :

مَسَوْتُ حِلاَ فَكَأَنَّهُ	عَسَلٌ وَلَكِنْ هِيَ جَارِي
فَوْ بِسَاطِنٍ مِثْلَ الْإِقْبَاحِ	وَعَظَاهِرٍ مِثْلَ الشَّصَارِ
يَحْكِي إِذَا قَشَّرْتَهُ	أَنْبَابَ أَقْبَالٍ صَفَارِ

ففي هذا الشاعر أشرك الشاعر الموزن مع العسل في الخلوة وهي وجه شبه مفرد

(١) عن التشبيح ص ١٢٩ .

حي يدرك بالذاتة ، وأشركه مع ، والاتحاح ، ثم مع التضار وأنياب أنيال صفار
في اللون والشكل .

وهذا الاشراك يكشف عن وجوه شبه مفردة حسية تلم بها الحواس :
وقد يكون عقلياً كقول العباس بن جرير في الصداقة .

إنّ الصديق هو الذي ، برعائك حين تغيب عتس
مثل الحسام إذا اتسفا ، أحر الحفيظة لم يتحنه
فوجه الشبه بين الصديق الغائب والحسام حين يتضيه أحر الحفيظة هو البقاء
على حال واحدة وهذا وجه شبه مفرد عقلي .

وثانيها : وجه الشبه المركب سواء أكان مركباً تركيباً اعتبارياً يجعله بمنزلة
الواحد ، بأن يكون حقيقة ملثثة ، أم كان أوصافاً مقصوداً من مجموعها إلى
هيئة واحدة . ووجه الشبه المركب إما أن يكون حسيّاً ، كقول البحري في شقائق
النعمان :

شقائق يتحلمنّ الذي فكأنه دموع الشهابي في حدود الخرائد
فوجه الشبه بين الشقائق في تلك الحالة وبين الدموع في حدود الخرائد صورة
حسية مركبة من نقط بيض مترججة في فسحة حمراء .

وإما أن يكون عقلياً كقول أبي الفضل الهكالي :

كم والد يتحرم أولاده وتخبّره بتحفتي به الأبعد
كالعين لا تنظر ما حوّلها وتخطّطها يدرك ما يتبعد
فوجه الشبه في هذا التشاهد مركب عقلي هو حرمان الأقرب المستحق وتبيل الإمد
الذي لا يستحق .

وثالثها : وجه الشبه المتعدد ، وهو ما ليس واحداً ولا متزكلاً منزلة الواحد ،
وذلك أن يذكر في التشبيه عدد من أوجه الشبه : شيتين أو أشياء على وجه الاستقلال ،
فلا يتلبد بعضها ببعض ، بل كل واحد منفرد بنفسه كقول ابن الرومي :

كالدهر في التفع والمضرة والد حُسْنُهُ لَكِنْ رَيْبُهُ قَصْدُهُ
 فالشبه في هذا البيت أشركه الشاعر مع الدهر في صفات متعددة هي التفع
 والمضرة والحُسْنُ وكل صفة من هذه الصفات مستقلة عن الأخرى مختلفة عنها،
 والفرق بين وجه الشبه المتعدد ووجه الشبه المركب هو أن وجه الشبه المتعدد
 لا يجب فيه الترتيب فيجوز تقديم بعضه على بعض وإنه إذا أسقط بعضه لا يختل
 التشبيه ولا يتغير حال الباقي بخلاف وجه الشبه المركب إذ لا يجوز فيه التقديم أو
 الحذف لأن ذلك يؤدي إلى اختلاله وتغيير صورته . فمثلا قول ابن رشيقي :

وتفاحة من كفت عليّ **أَعْدَتْهَا** جناها من الفَصَصِ الذي مِثْلُ قُدِّهِ
 حَكَّتْ لَمَسَ نَهْدِهِ وَطَبِ كَسِمِهِ وطمعتم ثناباه وحُمُرَهُ عَدَهُ
 فوجه الشبه فيه بين الطرفين متعدد من الابن والطيب والطعم واللون يمكن حذف
 أحدها أو تقديمه وتأخيره ، ويبقى التشبيه مستقيماً غير مختل. أما قول السري الرفاء
 في وصف القلم :

أعسر بسايطرته عن كل ما شئت من **الأمسر**
 يذري على قرطاسه دمعاً **تُبْدِي** لنا السر وما يسري
 كما شئت أغشى هواه وقد **نَمَسْتُ** عليه عِشْرَةَ تَجْرِي
 فيجمع بين الطرفين فيه وجه شبه لو أسقطت منه جزء مما أعبرت فيه الهيئة
 بطل التشبيه في قصد التشكلم ، لأنها صورة رُوي فيها أن تكون ثامة التأليف كاملة
 الأجزاء ، يسودها التناسب والانسجام والتسقيت .

التشبيـل اصطلاحاً :

إن البحث التاريخي الذي عرض الآراء في التشبيـل وتبنيها ، في كتب النقد والنقاصحة
 والبلاغة وفي غيرها يبين أن اليلاعين لم يتفقوا في دراسة هذا الفن ، وإنما يابنت
 آرائهم فيه وتنازعت مواقفهم منه : ويوضح هذا التنازع وذلك التباين كل الانقسام
 إذا ما صنفنا هذه الآراء في ثلاثة اتجاهات :

أولها : اتجاه الفصل بين التمثيل والتشبيه ، وقد رَسَخَ هذا الاتجاه أبو حبيدة (٢٠٨هـ) الذي تحدث عن التمثيل وعدّه نوعاً من أنواع المجاز (١) بصعته الثواسع :

ولعل قدامة بن جعفر أول من عدّ التمثيل مخالفاً للتشبيه وتحدث عنه في نوعت التلاف القنط والمضى (٢) : ولستج من تعريفه له أنه جعله مرادفاً لمدلول ضرب المثل الذي يدخل في باب الاستعارة التمثيلية ، واتّجه ابن سنان الخفاجي (٣) وابن أبي الأصم المصري (٤) :

والتمثيل هو المائلة عند بعضهم كأبي حلال العسكري الذي ذكر بعض امثلة قدامة في التمثيل (٥) ، والباقلاني الذي قال «وما يعدونه من البديع المائلة ، وهو ضرب من الاستعارة» (٦) وعدّه ابن رشيق من ضروب الاستعارة وهو المائلة ، وذلك أن تمثلياً بشي في اشارة كقول امرئ القيس :

وما ذَرَقْتَ عَيْنَكَ إِلَّا لِقَدَحِي بِسَهْمِكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبِ مُقْتَكِرِ
فَمَثَلُ عَيْنِيهَا بِسَهْمِي الْمِسْرِي عَنِ الْمَلَى وَلَهُ مِيعَةُ أَنْصَابِ ، وَالرَّقِيبَ وَلَهُ ثَلَاثَةُ أَنْصَابِ ، فَصَارَ جَمِيعُ أَعْشَارِ قَلْبِهِ لِسَهْمَيْنِ الَّذِينَ مَثَلُ بَهِمَا عَيْنِيهَا : وَمَثَلُ قَلْبِهِ بِأَعْشَارِ الْجَزْوَ فَمَثَلُهُ الِاسْتِعَارَةُ وَالتَّمْثِيلُ :

وذكر أن معنى التمثيل أيضاً انتصار قواك : «مثل كذا وكذا» ، ثم قال : «والتمثيل والاستعارة من التشبيه إلا أنهما يغير أداته وعمل غير أسلوبه» : (٧)

(١) عجاز القرآن ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) راجع نقد الشعر ص ١٨٢ .

(٣) مر الفصاحة ص ٢٧٢ .

(٤) تحرير النجوم ص ٢١٤ ، وبديع القرآن ص ٨٥ .

(٥) كتاب الصنائع ص ٣٥٣ - ٣٥٦ .

(٦) أصوات القرآن ص ٧٨ .

(٧) الصلوة ج ١ ص ٢٨٠ .

وثالثها : الربط بين التشبيه والتشثيل ، ويتجسد هذا الاتجاه في دراسة عبد القاهر الجرجاني لوجه الشبه على أساس ظهوره أو تأوله ، والقاعدة التي يعبرها توطئة لشرح هذا الأساس وتفصيله ، تؤكد أن التشثيل خاص والتشبيه أعم منه ، فكل تشثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تشثيلاً ، فالتشثيل قول في قول قيس بن الخطيم :
 وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كحقوق ملاحية حين توارى (١)
 إنه تشبيه حسن ، ولا نقول هو تشثيل : (٢)

وملاك شرح عبد القاهر لاساسه ذلك وتفصيله له يتركز في أن كل تشبيه يكون قوته فيه حسياً مفرداً أو مركباً أو كان من الفرائز والطباع العقلية الحقيقية فهو تشبيه غير تشليلي ، أما إذا كان وجه الشبه فيه عقلياً مفرداً أو مركباً غير حقيقي وعحتاجاً في تحصيله إلى تأول فهو «تشبيه تشليلي» :

وفي بديتنا أن هذا الملاك يستمد قوامه من الدراسات التي صفت وجه الشبه إلى ثلاثة أنواع : مفرد ومركب ومتعدد ؛ ويختلط فيما بينها غير قادر على أن يرسخ أساس التمييز بين التشبيه العام والتشبيه التشليلي الخاص ، ذلك لأن أساس عدم التأول ، والتأول في الأساس وجه الشبه أمر نسبي يختلف من شخص إلى آخر إذ قد يكون وجه الشبه صريحاً غير محتاج إلى تأول في نظر شخص ، وبما يستوي وجه شبه دقيق يلزم إيراد التشليل في التأول في نظر شخص آخر :

ويبدو أن عبد القاهر قد أحسن بقي من هذا في تقوم أساسه ذلك على في مودع آخر من دراسته إلى تحرير أساس آخر للتفريق بين التشبيه والتشليل فقال :
 وهذا أصل إذا اعتبرته وهرعت كل واحد منهما عليه فوجدته يحوي في التشبيه حيثاً حسناً وينقاد للقياس فيه اقتياداً لا تصف فيه ثم صادفته لا بطاوعك في التشليل

(١) الملاحي - بضم الميم وثلاثة الألف وتثنيها : عاب أبيض طويل ، ونور الزرع تنويراً أهدك والسر علق في السوى .
 (٢) أسرار البلاغة ص ٨٥ .

لكل المطاوعة ولا يجري في حثان مرادك ذلك الجري ، ظهر لك نوع من الفرق
والفصل بينهما غير ماعرفت ، والفتح منه باب إلى دقائق وحقائق ، وذلك جعل
الفرع أصلاً والأصل فرعاً ، وهو إذا استقرت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها ،
وذلك نحو أنهم يشبهون الشيء بالشيء في حال ثم يعطون على الثاني فيشبهونه
بالأول ، فترى الشيء مشبهاً مرة ومشبهاً به أخرى. فمن أظهر ذلك : أنك تقول في
النجوم : «كأنها مصابيح» ثم تقول في حالة أخرى في المصابيح «كأنها نجوم»
(١) ثم قال : فوافد قد بين كيف يكون جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً في
تشبيه الصريح فارجع إل التمثيل ، وانظر حل نحي في هذه الطريقة حل هذه
السمة والقوة ، ثم تأمل ما حصل من التمثيل عليها كيف حكمه ؟ وهل هو مساوٍ
لما رأيت في تشبيه الصريح ، وحافظ حلوه حل التحقيق أم المحال على خلاف
ذلك (٢) :

وفي ضوء شواهد كثيرة أوردتها عبد القاهر للتمثيل وحلها ملخصاً فيها الطراد
هذا الأصل ، يظهر أن هذه الطريقة من جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً لا تلزم في
التشبيه التمثيلي ولا تنسج لتمام هذه الطريقة لقوة وسعة ، مما نستطيع أن نستنتج
حقيقة هي أن هذا الأساس لا يصبح للتمييز بين التشبيه الصريح والتشبيه التمثيلي :
ولما كان عبد القاهر كما هو معروف بمنهجية تحليلية غير مفتن بتقنين القواعد ،
اعتمد الملاحظة للتمييز بين التمثيل والتشبيه فقال : «لهنا لطيفة أخرى تعطيك
للتمثيل مثلاً عن طريق الملاحظة وذلك أنك بالتمثيل في حكم من يرى صورة
واحدة إلا أنه يراها ثلثة في الحركة وتارة على ظاهر الأمر : وأما في التشبيه الصريح
فأنت ترى صورتين على الحقيقة : يبين ذلك إذا لو فرغنا أن نزول عن أوهاما
ونقوسنا صور الأجسام في القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء

(١) أسرار البلاغة ص ١٨٧.

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٠٧.

المحسوسة لم يمكنها تخيل شيء من تلك الأوصاف في الأشياء المعقولة، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيداً من حبيب العزة والسلطان، فربما من حيث الجود والاحسان، حتى يخطر ببالك، وتطعم بفكرك، إلى صورة البشر وبعد جرمه منك، وقرب نوره منك، وليس كذلك الحال في الشيتين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدرة، فانك لا تفكر في معرفة كون الترجس وفرط واستدارته وتوسط أحمره لأبيضه إلى تشبيه بمداهن در حشوهن عقيق، كيف وهو شيء تعرضه عليك العين وتضعه في قلبك المشاهدة، وإنما يربطك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التي معك ويحيطها لكن من مكان بعيد حتى تراهما معا وتجدعهما جميعاً. وأما في الأول فانك لا تجد في الفرع نفس ما في الأصل من الصفة وجنسه وحقيقته، ولا يحضر لك التمثيل أوصاف الأصل على التعيين والتحقيق وإنما يخليل لك أنه يحضر لك ذلك، فانه يمتطيك من المدوح بدمراً ثانياً فصار وزاناً ذلك وزاناً أن المرأة تخيل إليك أن فيها شخصاً ثانياً صورته صورة ما هي مقابلة له، ومعنى ارتفعت المقابلة ذهب منك ما كنت تتخيله فلا تجد إلى وجوده سبيلاً، ولا تستطيع له تحصيلاً، لا جملة ولا تفصيلاً (١).

إن هذه اللطيفة بلاريب - تؤكد ما قلناه عن عبد القاهر باحثاً محللاً لا مقتناً ومحوراً للقواعد. والسؤال هنا يستفهم عن جدوى ميزة هذا البلاغي العالم وهو يتصدى لسألة خلافة تتطلب حلاً مقتناً وذلك بوضع الحد الفاصل بين أسلوبين من أساليب فن التشبيه: أسلوب التشبيه الصريح، وأسلوب التشبيه التمثيلي؟ إن هذا السؤال يستوي في حد ذاته قراراً يؤكد أن عبد القاهر إذا لم يفصل التمثيل عن التشبيه في قاعدة واضحة خلط بين التمثيل والاستعارة التمثيلية، فقد أورد رسالة يزيد بن الوليد إلى عامله بارمينية التي نصها: «بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فإذا انك كنت في هذا فاحضد على أيها شئت» ثم ناقش أبا أحمد العسكري

(١) أسرار البلاغة ص ٢١٨ - ٢١٩.

الذي أطلق على هذا النوع من الكلام مصطلح المائلة فقال: «وهذه التسمية توهم انه شيء غير المراد بالمثل والتشبيه، وليس الأمر كذلك، كيف وانت تقول «ممكن أن يكون من يقدم رجلا ويؤخر آخر» ووزان هذا أنك تقول: «زيد الأسود» فيكون تشبيها على الحقيقة وان كنت لم تصرح بحرف التشبيه، ومثله أنك تقول: «أنت ترقم في الماء» أو «تضرب في حديد بارد» وتفتح في غير فحم» فلا تذكر ما يدل صريحا على أنك تشبه ولكنك تعلم أن المعنى على قولك: «أنت كمن يرقم في الماء» و«كمن يضرب في حديد بارد» و«كمن يفتح في غير فحم»، وما أشبه ذلك مما تحي فيه يشبه به ظاهر تقع هذه الأفعال في صفة اسمه أو صفة» (١)

وأيا كان مانسجه على عبد القاهر في التوصل بين التشبيه والتشليل فمما لا شك فيه أنه قد أبدع في اعتماد مصطلح «الصورة» ملتصقا وجه التشبه بين الطرفين في التشليل قال: «ثم ان هذا التشبه العقلي ربما اترع من شيء واحد كما مضى من اترع التشبه الف من حلالة الفحل، وربما اترع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها شيء ليكون تشبيها سبيل الشبثين يمزج احدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الأفراد لاسبيل للشبثين يجمع بينهما و حطط صورتهما» (٢).

ومصطلح «الصورة» ربما يضح أكثر من مصطلح التشليل لتمييز هذا اللون من التشبيه الذي لا يتميز في الواقع عن سائر ألوانه إلا في أن وجه التشبه بين طرفيه مخلوق دائما، بالتلف من صفات متمازجة نترعها من التشبه والتشبه به وتخليها صورة يجمع بينها سواء أكانت هذه الصورة مفضة أم عقلية :
ومن هنا كما نعتد واقت مصطلح «الصورة» مصطلح التشليل واستوى مرادفا له في كتب البلاغة المتأخرة :

(١) اسرار البلاغة ص ١٠٠.

(٢) اسرار البلاغة ص ٩٠.

واللهما : المزج بين التشبيه والتشثيل ، وقد حكى ابن الأثير آراء الأختلين بهذا الاتجاه من أمثال القمطري فقال : « وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتشثيل ، وجعلوا الهلاليات مفرداً ، والهلاليات مفرداً ، وهما شي واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع ، يقال : شبهت هذا الشيء بهذا الشيء ، كما يقال مثله به » (١) :

وإن الأثير في مذهبه هذا يحدد الأصل المغربي لمصطلح التشبيه ومصطلح التشثيل مقتضياً أثر المعجمات العربية - كما رأينا - في الجمع بين المصطلحين : ومع هذا فهو يرشح بغير قصد منه أساس الاتجاه جمهور البلاغيين في جعل التشثيل مصطلحاً يبين ضرباً من أضرب وجه التشبيه .

ويتجلى هذا الأساس بشكله القلبي عند السكاكي الذي لم يبحث التشثيل غرباً مخصوصاً من التشبيه ولم يتناوله في باب مسئلة ، وإنما أشار إليه من زاوية وجه التشبيه قائلاً : « وادعهم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقي وكان مترعاً من عدة أمور يخص باسم التشثيل كالذي في قوله :

« صَبَّحَ سِرٌّ هَلْ تَخْضَعُ الْحُسُودَ لِسَانٌ صَبَّحَ قَائِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ لِقَمَتَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ »

فإن تشبيه الحسود المتروكة مقاولة بالنار التي لا تمتد بالخطب فيسرح فيها القناه ليس إلا في أمر مترهم وهو ما تروهم إذا لم تأخذ معه في المقابلة مع علمك بتبليغها بها حتى أن يتوصل بها إلى لفظة معصود من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرح فيه الهلاك وأنه كما ترى مترع من عدة أمور » (٢) . فالتشثيل في نظر السكاكي تشبيه يستلزم وجهه بميزتين :

الأولى : أنه غير حقيقي ويتخلله قارنته توهمها بين طرفيه .

الثانية : أنه مترع من عدة أمور .

(١) انظر السطر ج ٢ ص ١١٦ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٦٤ .

وقد نحا الخطيب القزويني منحى السكاكي في الترح بين التشبيه والتشثيل ،
 ويجنب التحدث عن التشثيل إلا من زاوية ركن وجه الشبه فقال : «وأما باعتبار
 وجهه أي التشبيه فله ثلاثة تقسيمات : تمثيل ، وغير تمثيل ، وبجمل ومفصل ،
 وقريب ، وبعيد» (١) ، ثم عرّف التشبيه للذي وجه الشبه فيه تمثيل بقوله : «والتشثيل :
 ما وجهه وصف ، منتزع من متعدد ، أمرين أو أمور» .

فهذا التعريف يكاد يكون تعريف السكاكي ، اللهم إلا ما لاحظته عليه من عجز
 تعبير «غير حقيقي» الذي ورد في عبارة السكاكي :

«وبما يعني ذلك أن القزويني لم يشأ أن يفيد وجه الشبه التشليلي بأي قيد من
 القيود التي تقررت بعبارات الحسي والعقلي والوهمي والحقيقي وغير الحقيقي ، بل
 أطلقه مفرراً ميزته الرئيسة التي هي الانتزاع من أمرين أو أكثر» .

تشبيه الصورة :

مرّ بنا أن التعبير عن وجه الشبه للنتزع من عدة أمور يكون إما بمصطلح
 المركب أو بمصطلح الصورة . وهذان المصطلحان في أصل دلالتهما يؤيدان
 مدلولاً واحداً هو المنتزع من صفتين أو أكثر تمازجت وتداخلت فحة تبصر
 بما يصحح بين أوصاف طرفي التشبيه .

ويظهر من هذا أن اسلافه البلاغيين لم ينفقوا كل الاتفاق على مفهوم التشبيه التشليلي
 وإن كانوا في الوقت نفسه يلتفتون على عطلوه العامة ويندرون في دائرته الأسلوبية .
 ولما كانت الدراسة التعليمية تقتضي أساساً موحداً ليبحث أي فن بلاغي ،
 فالتفتنا لتجنب المسائل الخلافية ولتستضيء تلك الخطوط العامة مقررين أن مصطلح
 تشبيه الصورة أقرب من مصطلح تشبيه التشليلي للدلالة على طيبة وجه الشبه

(١) الإيضاح ص ٢٤٩ .

الخصوص في هذا اللون من التشبيه ، ذلك لأن الصفات التي فترعها من طرفي التشبيه لتتجمع بينهما تلقى غلطاً وأحياناً وهميةً وحركةً لتشكل صورة مشتركة جديدة لا هي محضة للتشبيه ولا هي خالصة للتشبيه به ، وعليه فإننا نرى أيضاً أن نصف التشبيه من حيث وجه الشبه إلى ضريين :

الأول : التشبيه الفردي الذي جاء وجه الشبه فيه صفة غير مركبة سواء أكانت صفة واحدة أم متعددة .

الثاني : تشبيه صورة وهو الذي يسري فيه وجه الشبه صورة متفرقة من عدة أوصاف متمازجة في كيان موحد :

إن ما قررناه هنا يختزل القسرب الثالث من أغرب التشبيه وهو القسرب الذي رأينا البلاغيين يسمونه بالتشبيه المتعدد ، وفي وجهه ، وهذا الاعتزال في حد ذاته يفتح لنا مجال المزاينة بين التشبيه الفردي وتشبيه الصورة لتحديد أهمية كل واحد منها فتجني بذلك ثرائنا من الآراء ، البلاغية التي تحشت بأسباب من موقع تشبيه الصورة وتأثيره في النفس ، وانقسمت على هذا التأثير ومفعولاته .

البحث الخامس

التشبيه القسني

فكرته :

إن الفكرة الرئيسية التي يتنهض عليها التشبيه القسني هي أن هذا اللون من التعبير لا يأتي فيه الطرفان في أسلوب من أساليب التشبيه التي مرت بنا ، وإنما يلمح التشبيه والتشبيه به ، ويلهيهما من المعنى ، ويكون التشبيه به دائماً برهانياً على إمكان ما أسند إليه التشبيه .

ولعل عندنا أول عالم بلاغي أشار إلى التشبيه القسني بالاعتصام صريح على مصطلحه ، وفرزه عن سائر ألوان التشبيه بالفكرة الرئيسية التي نوهنا بها ، وتبدو اشارته هذه في بحثه للمعاني التي يجيء التشثيل في عطفها فيبين في هذا البحث أن من هذه المعاني ضرب ، غريب يدعج يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه وامتناعه وجوده وذلك نحو قوله :

فإن غسق الأنعام وأنت منهم فإن المسكك بعض دم الغزال
وذلك أنه أراد أنه فاق الأنعام وفاتهم إلى حد يطل منه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه أصل بنفسه ، وجنس برأسه ، وهذا أمر غريب وهو أن يتأخر بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس ، بل يلحقه له حاجة إلى أن يصحح دعواه في جواز وجوده على الجملة إلى أن يجيء إلى وجوده في الملوح فلما قال : فإن المسكك بعض دم الغزال فقد استج لدعواه وأبان أن لا ادعاء أصلاً في الوجود ، وبرأ نفسه من ضمة الكذب وباعدها من صفه للقدم على غير بصيرة ، والتوسع في الدعوى من غير بينة ، وذلك أن المسكك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى لا يعد في جنسه إذ لا يوجد في القدم

شيء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه لأمثال ولا ماكثر ولا في
المثلث شيء من الأوصاف التي كان لها الدم دعا البنة (١) :

خصائصه :

ويتضح من هذه الإشارة أن من أنواع التشبيه نوعاً يمتاز عن سواه بخمس
خصائص مجتمعة :

أولها : أن التشبيه والتشبه به كليهما يلحقان ويستتجان بلا ترابط نحوي مباشر
فيما بينهما بخلاف أنواع التشبيه التي يأتي فيها الطرفان في بناء لغوي تتحكم
بتوجيه قواعد انشاء الجملة العربية كأن يكون التشبه مبتدأ أو ماني حكم المبتدأ
ويكون التشبه به غيراً أو ماهر في حكم الخبر وكأن يكون التشبه به مضافاً والتشبه
مضافاً إليه ، أو يكون التشبه فعلاً مستنداً والتشبه به مصدرأ مبيئاً لنوعه :

وثانيها : أن التشبه جملة أو مجموعة جمل مستقلة متصلة عن التشبه به الذي
يجري جملة أو طائفة من الجمل أيضاً :

وثالثها : أن التشبه يشير فكرة فيها غرابة وادعاء فلا يسلّم بها القاريء سلباً
مبادراً وإنما يحتاج في القبول بها إلى دليل يقتضيه ويرسخ اعترافه بها .

ورابعها : أن التشبه به يستوي مثلاً وشاعداً نقره العقول بداهة وتطمئن القلوب
إلى صحته سليقة كأن يكون مستقراً في الطباع أو جارياً مجرى السنة والقانون
في الحياة والملاحظة :

وخامسها : أن حال التشبه وحال التشبه به اللذين يلحقهما القاريء تتكافأان وتتساويان
بلا زيادة لأحداهما على الأخرى وبلا نقصان لأحدهما عن سواه :

تحليل التشبيه القسمني :

وفي ضوء هذه الخصائص يحلل البلاغيون المتأخرون شواهد التشبيه القسمني
من ذلك قول المتنبي :

(١) اسرار البلاغة ص ١٠٩ - ١١٠ .

مَنْ يَهْنُ يَسْهُلُ الْمَوْدُ عَلَيْهِ مَالِجُزْجُ بَيْتِ إِسْلَامٍ
 أي : إن الذي يصاد إلى الغوان ، يسهل عليه تحمله ، ولا يتألم له ، وليس
 هذا الادعاء باطلاً ، لأن البيت إذا جرح لا يتألم .

وفي ذلك تلميح بالشبيه في غير صراحة ، وليس على صورة من صور التشبيه
 المروقة ، بل أنه تشابه يقتضي التساوي ، وأما التشبيه فيقتضي التفاوت (١)
 ومن ذلك قول أبي تمام :

لَا تُشْكِرِي حَمَلَكَ الْكَرِيمُ مِنَ الْفَنَى فَالْمَسْئِلُ حَرْبٌ لِمَكَانِ الْعَالِي
 ففي هذا البيت ندرك أن الأديب قد بنى معنى من البلاغة يوحى فيه بالتشبيه
 من غير أن يصرح به في صورة من صور المروقة بفعل ذلك نزوعاً إلى الابتكار ،
 وإقامة للدليل على الحكم الذي أسته ، ورواية في إعطاء التشبيه ، لأن التشبيه
 كلما دقّ وعفي كان أبلغ وأقفل في النفس ، وأبو تمام في هذا البيت يقول لمن
 يخاطبها : لا تشكري حملك الكريم من الفنى فإن ذلك ليس عجيباً لأن قسم
 الجبال وهي أشرف الأماكن وأعلاماً لا يستر فيها ماء السيل ، فنحن نلمس هنا
 تشبيهاً يشبه الرجل الكريم المحروم الفنى ضمناً بقمة الجبل وقد غلت من ماء السيل
 ولكن الشاعر لم يفسح ذلك صريحاً بل أتى بجملة مستقلة وضممتها هذا المعنى في
 صورة برهان : (٢)

(١) راجع جواهر البلاغة ص ٢٧٤ .

(٢) راجع البلاغة الرانسة ص ٤٥-٤٦ .

البحث السادس أغراض التشبيه وبلاغته

أغراضه :

التشبيه لون من ألوان التعبير الجميل المؤثر ، تعتمد النفوس البشرية بالقطرة حين يدعوها إلى ذلك غرض أو أثر من أغراضه التي رصدتها البلاغيون القدماء (١) ، والمعاصرون (٢) فرسخوا بخصوبتها وغناها آفاقه الرحب التي اتسعت لغات الأمم وطبقاتها في تحقيق مآربهم الفكرية وعلاجهم الشعورية ومقاصدهم اليومية :

ولما يتعلق بهذه الأغراض التي جرت بها نصوص أدبية عربية في شتى بيتاتها وأزمانها ، أكد علماء البيان الغربي أن هذه الأغراض تعود بمجملها إلى الأمر الحامل على انشائه وإبداعه وأنه لا بد لكل تشبيه من غرض وإلا كان وقوعه في الكلام عبثاً وإن هذه الأغراض تتعلق في أصولها بركن التشبيه إلا في حال قليل التشبيه فإنه يعود إلى التشبيه به .

وهذه الأغراض هي :

الأول : بيان حال التشبيه ، ويشتمل هذا الغرض حين تكون صفة التشبيه معلومة لدى المخاطب وتكون صفة التشبيه مجهولة فيساق التشبيه تمكيداً للمخاطب من ادراك حال التشبيه ومثله ، كقول المتنبي :

وما السوت إلا سارق دق شخصه
بصوت بلا كف ويسعى بلا رجل
فحال التشبيه الذي هو " ت جهول وأراد الشاعر أن يشخصه لقراءه فأتى بتشبيه به معروف لدى الناس وهو السارق وفصل أوصافه المخصوصة من دقة شخصه وصولاته وسعيه بلا رجل .

(١) ينظر الملل السائر ج ٢ ص ١٢٤ ، الإيضاح ص ٢٢٦ .

(٢) ينظر فن التشبيه ج ١ ص ١٢١٨ وقانون بلاغية ص ٦٧ .

الثاني : بيان مقدار حال المشبه ، ويتحدد هذا الغرض في تجسيد قوة المشبه وضعفه وزيادته وتقصيه وسموه وانخفاضه واتساعه وضيقه وما إلى ذلك من الصفات التي تخضع للمقاييس وتستجيب لتحديد : وملاك هذا الغرض أن يكون المشبه معروفا لدى المخاطب في صفته بشكل عام وبألي المشبه به لتحديد هذه الصفة : مثال ذلك قوله تعالى : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنفَسٍ عَاسِرٍ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » (١)

للمخاطب المسلم يعرف أمر الساعة في قربها معرفة عامة ، إذا أن الساعة آتية لا ريب فيها : وقد جاء المشبه به « نفح البصر » وحده مقدار هذا القرب ودرجته ويبين أن إتيانه أقرب من القرب في سرعة حصوله ودنو وقوعه ، وكقول عنزة : فيها التسان وأربعون حلوبية سؤفا كخافية الغراب الأشحيم فقد بين الشاعر مقدار سواد تلك التباين يجعلها مشبها لخافية الغراب التي يكون سوادها على أشد الدرجات وأعماقها :

الثالث : بيان إمكان حصول المشبه المقصود من هذا الغرض : أن المشبه أمر جائز الوقوع على صفة مخصصة ، وذلك في وجه غريب لا يظهر إمكان حدوثه : فيقرن بمشبه به حاله مسلم بوقوعه فيأتي دليلا على صحة صفة المشبه وبرهانا يبالغ المازين فيما نسب إليه ، وذلك كنقول ابن الرومي :

قالوا أبو الصخر من شيان قلت لهم

كلا لعسري ولكن منه شيان
كتم من أبي قد علا بين ذرا شرف كما عكست رسول الله عذنان
فاين الرومي في هذين البيتين زعم أن بني شيان من ممسوحة أبي صخر وانهم قد سوا به وارفعوا مجدا وشرقا وأن الآباء الذين قالوا السود والعزة بأبائهم كثرة :

وهذا الامر لا يسلم بإمكان حصوله الناس فجعله مشبهاً للشبه به متحقق وهو
علو عدنان برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء هذا المشبه به الحاصل
تاريخاً وواقعاً ليستوي حجة على ما تشبهه إلى مدحوه من صفات وقطع بها ألسنة
المجادلين المتكبرين له قبل سماع تشبيهه والوقوف على حال المشبه به فيه ؟

الرابع : تقرير حال المشبه ، ويتحقق هذا الفرض بتوضيح حال المشبه في ذهن
السامع ، وترسيخها في نفسه وتمكينها من خاطره : ويتم ذلك بإيراد المشبه في
صورة أقوى وأظهر وذلك عندما تشبه الأمور الخفية المجردة بالأشياء الحسية
المشاهدة عياناً والتخيلة تحقّقاً ، كقول الشاعر :

إنّ القلوب إذا تنافسوا وذوهاً مثل الزجاجة كسرها لا يجبر
فتألم القلوب بسبب ما يعكّر صفاء الود أمر معنوي لا يدرك بالحواس فتمنع على
التألم ، لذلك شبه الشاعر بصورة الزجاجة المكسورة التي كسرها لا يجبر وهي
صورة عسوة لتروكها العين وتلمسها اليد ، ففررت حال المشبه التوهم وأخرجتها
في قالب منظور متحقق ؟

الخامس : تحمين حال المشبه والترغيب فيه ، والطريق إلى تحقيق هذا الفرض
هو الموازنة بين وبين مشبه به يستحسنه المخاطب ويميل إليه ، فتسري منه إلى ذلك
الشبه صفاته التي يتعلق بها القلب وتأنس بها الشاعر كقول النابغة الغدياني في
مدح النعمان :

كأنك شمسٌ وللكوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبد منها كوكبٌ
فالشاعر قد حسن حال مدحوه المشبه وورع فيه وأجرى الألسنة بتخليصه ،
وذلك بربطه بالشمس مشبهاً به تجلّ النور وبالكواكب عظمته وفوائده وسره
على سائر الأجرام النيرة في السماء ؟

السادس : تقيح حال المشبه والتفكير منه ، والطريق إلى حصول هذا الفرض هو
تقيح طريق تحسين حال المشبه والترغيب فيه ، إذ يقرن المشبه بشبه به لتسقيحه

النفس ولا ترضى فيه فيكتسب صفاته الموجبة للاستباح والتغير ، كقول ابن
الرومي في المجامع :

وإذا أفسارَ مجدنا فكأنه قُردٌ بَنَهقه أو عجوزٌ تلطم
ففي هذا البيت يفتح التشبيه في نظر القاريء الذي لم يعرفه وتعمل عنه نفسه
وتستمر من أوصاله لا للنبذ القرفه غير ربط الشاعر له بالفرد في أتيح حالاته
وبالعجوز في شر أوضاعها :

٧ بلاغته :

إن أغراض التشبيه هذه وسواها لا ينبغي أن تؤخذ على أنها مقاصد في ذاتها
وأن محققها من الأدباء لا يهتمون إلا بالوصول إليها دون العناية ببلاغته صحتها
والتوصل لجمال تعابيرها وقد اتبع السلف من علمائنا البلاغيين إلى هذه الحقيقة
واسهبوا القول في تفصيلها وتبع مظاهر بلاغة التشبيه وعلموا لها في ضوء شواهد
من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والآثار والأشعار وما انعقد الرأي
عليه بهذا الصدد أن العقلاء يفتقون على شرف قدر التشبيه وقخامة أمره في فن
البلاغة . وإن تعقيب المعاني به - لاسيما قسم التمثيل منه - يضاهف قوامها في
تحريك النفس إلى المقصود بها مدحا كانت أم ذما ، أو اختارا ، أو غير ذلك ،
ويحقق ذلك بتلمس الفرق بين قولنا : وأرى قوما لهم منظر وليس لهم مخبر
وتلطم الكلام ، وأن نتبعه نحو قول ابن تكتك :

في شجرة السرفي منهم منسل له رواء ، وماله تسمت
ولننظر في جميع ذلك إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يتزايد شرفه عليه في
الحالة الأولى ؟

ولذلك أسهب ، منها : ما يحصل للنفس من الاتساع بانعراجها من غنى إلى جلي
كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة ، إلى ما يعلم بالقطرة ، أو بانعراجها مما لم تألفه إلى

ما ألفت أو بما تعلمه إلى ما هي به أعلم ، كالاتقال من المعقول إلى المحسوس فنحن ربما نقول : «فلان إذا هم» بالشيء لم يزل ذلك عن ذكره وقصر خواطره على أعضاء عزمه فيه ، ولم يشغله عنه شيء ، فلا يصادف السامع له أريحية حتى إذا سمع قول الشاعر .

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكبت عن ذكر المواقب جالبا (١)
استأثرت نفسه سرورا ، وأدركته حزة لا يمكن دفعها عنه .

وقد جسد القزويني حالتك الأسباب بقوله : «ومن الدليل على أن للاحاس من التحريك للنفس وتمكين المعنى ما ليس للمعنى ، أنك إذا كنت أنت وصاحب لك يسعى في أمر ، حل طرف سر ، وأنت تريد أن تقرر له أنه لا يحصل من سعيه على طائل ؛ فادخلت يدك في الماء ، ثم قلت له : انظر ، هل حصل في كفّي من الماء شيء ؟ كذلك أنت في أمرك ، كان لذلك ضرب من التأثير في النفس وتمكين المعنى في القلب زائد على القول المجرد » (٢) .

ومن فضائل التشبيه ومظاهر بلاغته وتفنن أساليبه أنه يأتي من الشيء الواحد بأشياء عدة ، نحو أن يحلّي من القمر الكمال عن نقصان ، كما قال أبو تمام :

لتهمني على تلك السواعد فيهما لو أمهلت حتى تصير شمائلنا
لنداسكوئهما حجباً ، وصياهما حلماً ، وتلك الأريحية نائلنا
ولا عتب لتتجهم الرذيل يديهما ولعماد ذلك القل جوداً وإبسلنا

(١) هم : عزم . ألقى بين عينيه عزمه : تصوير لما به يتفقد ما عزم عليه ، حيث وغسه وغماً لا يقبض فيه عن عينيه . نكبت عن ذكر المواقب : عدل ونكس وقالته .

سعد بن ناسب وهو شاعر أموي ، عن شراء الحسان .
(٢) الأيضاح ص ٢١٧ .

إنَّ الحلالَ إذا وأيتَ نسوةً . أبنتَ أنْ سيصيرُ بدمراً كاملاً (١)

والنقصان عن الكمال ، كقول أبي العلاء المرعي :

وإن كنتَ في العيشِ قائمٌ نوسطاً . فعندَ شتاهي يكتسِرُ السطاولُ
توَلَّى البدرُ النقصَ وهي أمةٌ . ويُدركها النقصانُ وهي كواملُ (٢)

وتتفرع من حالتي كماله ونقصه فروع لطيفة ، كقول ابن بابك :
وأمرتَ شَطْرَ المثلِكِ شَطْرَ كماله . والبدرُ في شَطْرِ السالةِ يكتُمُ (٣)

وكلما ينظر إلى بعده وارتفاعه ، وقرب ضوئه وشماعه ، وإلى ظهوره في كل مكان كما في قول أبي الطيب :
كأبدر من حيثُ انصرفتْ وجدته . يُهْدِي إلى عيبك نوراً شافياً (٤)

إلى غير ذلك من المعاني التي يبدعها الأديب بالوان تخيله أوجها من التشابه والتشابه بين طرفي التشبيه ، فيبلغ من خلال ذلك إلى التأثير في سامعيه والتأثير عما في ضميره .

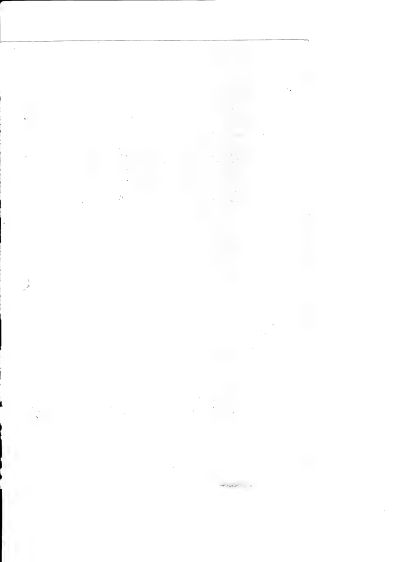
والتشبيه مثل أي أسلوب بياني ليس على درجة واحدة من البلاغة في الواعه كانه ، كما أنه ليس بمستوى رفيع من الجمال في الواعه جمعاء ، وإنما يتفاوت ويتباين وفق مقاييس نقدية سمي عبد القاهر إلى تحريرها وترسيخها فقال إنَّ كلَّ شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً ، فالتشبيه مقترن عليه نازل مبتذل ، وما كان بالبعد من هذا وفي للغاية لتقصوى من مخالفته ،

١ - الخبي : الخلل . المراد : السطو الرذاذ وهو المطر الخفيف . الدبة : المطر في سكون دون رعد أو برق ، المطر : المطر الضعيف . الجود - يفتح الجيم وسكون أواد - المطر الغزير . الوابل : المطر الشديد .
٢ - الوقتي : النقص . تسلّم منه وتنجو ، أمة : جمع هلال .
٣ - أمرت : أعطيت . شطر المثلك : نصفه .
٤ - راجع الإيضاح ص ٢١٧ - ٢١٩ .

فالتشبيه للردود إليه غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات التي تنجيها واست-
لذين الطرفين بحسب حالها منهما فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب ، فهو
أدنى وأزول وما كان إلى الطرف الثاني أذهب ، فهو أعلى وأفضل ، وبوصف
القريب أجدر ، (١) :

وواضح أن هذه المقاييس تعود في جوهرها إلى ركن وجه الشبه الجامع بين
الطرفين ومن منطلق تقسيمات هذا الركن على أساس الحسي والعقلي ، فهي من
هذه الناحية تستمد معايير فكرية لا بد أن نصيب إليها في مجال التطبيق معايير ذوقية
وجمالية إبداعية تستمد أحكامها من مدى ابتكار الأديب في التشبيه وتقل تجربة
صادقة له مع المشبة من خلال مقارنته بالمشبه به وخلق علاقة جديدة بينهما لم يشككها
السنة الأدباء قبله ، ولم تتكرر في المخططات اليومية عبارات أقصى غاياتها الإيهام
والتعليم .

(١) أسرار البلاغة ص ١٥١ .



الفصل الثالث
الحقيقة والمجاز
البحث الأول
تعريفهما

إذا جمعنا المباحث التي تناولت المجاز في كتب اللغة ومصنفات البلاغة لأتينا
فصل إلى نتيجة تؤكد أن ملاك المجاز يتبدى بدراسة المعنى السابق على مدلول
اللفظة المجازية .

واللفظة في معناها السابق هذا يطلق عليها مصطلح الحقيقة :

الحقيقة لغة :

إن هذا المصطلح في أصل اشتقاقه، إما «فعل» بمعنى «معلوم» ، من قولك :
حكمت الشيء الحق ، إذا أثبتته ، أو «فعل» بمعنى «فاعل» من قولك : حق الشيء
يعني ، إذا ثبت أي الملية أو الثابتة في موضعها الأصلي (١) .

والفاء فيها في - رأى الجمهور - للتأنيث وفي ضوء هذا المنحى من التماس اشتقاق
المصطلح وبيان أصله بادر اللغوي المعروف ابن فارس إلى تعريفه قائلاً : «الكلام
الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ، ولا تقديم فيه ولا تأخير» (٢) :
وجه ابن جني في ميدان اللغة أيضاً واعطى تعريف الحقيقة ذاك حداً متميزاً
فقال : «الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة» (٣) :

(١) الأيضاح ص ٢٦٩ .

(٢) السامعي ص ١٩٧ .

(٣) التوضيح ج ٢ ص ١١٢ .

واعلمنا تلاحظ أن مصطلح الحقيقة في الدراسات اللغوية ينهض تعريفه على أساسين متلازمين .

أولهما : تأكيد القطاع التعبير الحقيقي عن أية دائرة غير لغوية ،
وثانيهما : القطع بأن اللفظة الحقيقية بانية على أصل وضعها الذي حدده الاستعمال ،
الحقيقة اصطلاحاً :

لقد استفاد البلاغيون بهذين الأساسين وسعوا إلى أن يفسحوا للحقيقة في الدراسات البلاغية تعريفاً جامعاً مانعاً ، ويأتي عبد القاهر الجرجاني في مقدمة هؤلاء البلاغيين ، إذ عرف الحقيقة في اللفظة المفردة كالآلة : « كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وتضيق واضع ، وإن شئت قلت : في مواضع ، وقوماً لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة » وهذه عبارة تنظم الوضع الأول وما تأخر عنه كلمة تحدث في قبيلة من العرب أو في جميع العرب أو في جميع الناس مثلاً أو تحدث اليوم ، ويدخل فيها الإعلام منقولة كانت كزبد وعصرو ، أو مرتجلة كمنطقان ، وكل كلمة استوفت بها على الجملة مواضع أو ادعى الاستئناف فيها » (١) .
وفي يقيننا أن عبد القاهر كان مشغولاً بالذهن بحدّ المجاز حين ساق تعريفه هذا ، ذلك لأنه لم يشترط للكلمة الحقيقية سوى شرط واحد هو أن لا تستند إلى غيرها في الدلالة على معناها .

وهذا الشرط - بلا ريب - يؤكد أبرز خاصية للكلمة المجازية وهو الدلالة على مدلولها بالاستناد إلى قرينة لفظية أو معنوية .

ثم أنه حين لم يقيّد للكلمة الحقيقية بالوضع الأول الذي خصص به وأطلقها لتشتمل على الوضع الآخر استثناءً لمعنى جديد حصل اليوم وبعد معناها الذي وضع له أولاً ، أراد أن يوسع من دائرتها لنضم إليها معاني حقيقية أخرى فرعها

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢٤ .

فيما يمد البلاغيون الآخرون . ومن هذا النطلق أيضا عرف الحقيقة في الجملة بقوله : « لكل جملة وضعها على أن الحكم للقاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه فهي حقيقة ولن تكون كذلك حتى تمرى من التأول ، ولا فصل بين أن تكون مصيبا فيما احدث بها من الحكم أو مضللا وصادقا أو غير صادق » (١) ، واذن فهو لا يتخذ كل التقيد بمسألة الوضع الأول الذي أقره اللغويون وكذا أساسا للحقيقة ، وإنما يعتمد معيار العقل الذي يتخله فيصلا بين الحكم الحقيقي والحكم غير الحقيقي للتأول وللجاذي .

وفي ملاحظتنا أن هذا المعيار يستمد مقومه من النظرة الدينية ، وآية ذلك أنه ساق ما يوضح تعريفه ذاك قائلا : فمثال وقوع الحكم للقاد موقعه من العقل على الصحة واليقين والقطع قولنا : « خلق الله تعالى الخلق والشألعالم وأوجد كل موجود سواء » ؛ فله من أسس الحقائق وأرسلها في العقول ، وانتمها تسبكي للعقول وإنما مثال أن الوضع الجملة على أن الحكم للقاد بها واقع موقعه من العقل واليقين كذلك إلا أنه صادر عن اعتقاد قاصد وظن كاذب فمثل ما يجيء في التنزيل من الحكاية عن الكفار نحو : « وما يهلككم إلا لديركم » (٢) فهذا ونحوه من حيث لم يتكلم به قاله على أنه متأول بل أطلقه بجهله وعماء اطلاق من يضع الصفة في موضعها ، لا يوصف بالجاز ولكن يقال عندئذ أنه حقيقة ، وهو كلب وباطل » (٣) ، أنواع الحقيقة :

ولعلنا نئين من هذا التعريف أن مبحث الحقيقة يأخذ على يدي عبد القاهر لونا فكريا اعتقاديا بالإضافة إلى أساليب اللغويين ، وقد تروى على هذا كنهه نتيجتان : أولاها : أن مبحث الجاز قد اختلط بالدراسات النقدية والفكرات اللغوية

(١) اسرار البلاغة ص ٣٥٥ .

(٢) الباقية ٢٤ .

(٣) اسرار البلاغة ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

فظهر من الباحثين من رأى أن النصوص الدينية عالية من المجاز وأن لغة القرآن الكريم وأحاديث النبي الشريف لم تأت فيها إلا الحقائق من الكلم المفردة والراكب، ولايتهما : اختيار الكلمات الشرعية التي لم ترد على أصولها الأول في المواضع حقائق : ومن هنا فإن جلّ البلاغين يذهبون إلى أن الحقيقة لغوية ، وشرعية وعرفية : عامة ، أو عامة : لأن واضحها أن كان واضح اللغة لغوية ، وإن كان الشارح شرعية وإلا فعرفية ، والعرفية إن تميزت بخاصية نسبت إليه ، كقولنا : كلامية ، ولغوية ، وإلا بقيت مطلقة :

مثال اللغوية لفظ وأسد إذا استعمله المخاطب بعرفه اللغة في البيع المخصوص ، ومثال الشرعية لفظ وصلاته إذا استعمله المخاطب بعرفه الشرع في العبادة المخصوصة ومثال العرفية الخاصة لفظ وفعل إذا استعمله المخاطب بعرف النحو في الكلمة المخصوصة ، ومثال العرفية العامة لفظ ودابة إذا استعمله المخاطب بالعرف العام في ذي الأربع (١).

إن هذا اللغز يجعل الكلمة الحقيقية أربعة أنواع هي الحقيقة اللغوية ، والحقيقة الشرعية ، والحقيقة العرفية الخاصة أي الاصطلاحية ثم الحقيقة العرفية العامة ، وفي ميدان دراسة حياة الكلمة العربية وتتبع خطوات نمو تداولها يروى الباب أمام الباحثين ويستهم من تلمس تاريخ هذه الكلمة ويروى نقلها على أكثر من معنى بحكم عوامل اجتماعية وفكرية وحضارية وفوقية وغير ذلك . الحقائق بين المعنى الوضعي والتداول المجازي :

ويدهي أن هذا اللغز لا يمثل رأي العلماء الأسلاف أجمعين ، فقد قال ابن برهان مثلاً في الأسماء الشرعية أي الحقائق الشرعية : واختلف العلماء في الاسامي هل نقلت من اللغة إلى الشرع ؟ فنقضت للفقه والمعتزلة إلى أن من الاسامي ما نقل

(١) الإيضاح ص ٢٦٨ .

كالصوم والصلاة والزكاة والحج (١)؛ وعليه فلا غير في أن نتصلك بالوضع الاول للكلمة ونعدنا على ذلك المعنى حقيقة ، ثم نعد أي معنى آخر نقلت عليه مدلولاً مجازياً لما فتحت بذلك لباحثين مجال وضع المعجم التاريخي للغةنا ورسم الخط البياني لحياة الكلمة العربية ، فتتمكن بذلك من دراسة أسس انتقال الكلمات العربية في النصوص الشرعية الى مدلولات مجازية اقتضاها تطور الفكر العربي بعد ظهور الدين الاسلامي الحنيف ، وتبين مدى هذه المصطلحات العلمية والثقافية والسياسية التي يستوجب وضعها لتعبير عن شؤنة الحياة ، وتكتشف الحقائق التي تنبئ بها الكلمات في لغتنا اليومية وهي تزدحم في عضم الحياة وتستوجبها الأعراف الاجتماعية بشئ مصادرها .

المجاز لغة :

إن كلمة المجاز قد تقلت في المعجمات على معان لغوية متقاربة ، وقد حكى لنا الخليل بن احمد القرامدي بعضها في تعرضه لمادة (جوز) قاللاً : « ونقول : جرت الطريق جوزاً ومجازاً وجوزاً » ، والمجاز المصدر والوضع ، (٢) : إن القراميدي صاحب معجم العين الذي يعد أول معجم عربي وصل إلينا يرصد لكلمة المجاز معنيين لغويين أساسيين :

أولهما : قطع الطريق وسلوكه . ثانيهما : الوضع للتطوع والسلوك .

لقد تقيّل واضع المعجمات العربية (٣) خطي القراميدي في تحديد المعاني اللغوية لكلمة المجاز ، فلم يقتسوا للباحث في مدلول هذه الكلمة الاصطلاحي مادة تحكّم من متابعة تطور معاني هذه الكلمة قبل أن تستوي مصطلحاً بلاغياً :

لأما اشتغالها في صورتها الاصطلاحية فالرأي معقود على أنها متشكّل ، وأصله مجرّد وقد تقلّت فيه حركة القول الى الساكن قبلها فقلت ألفاً لتحريكها حسب الأصل

(١) المزهر ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) العين ، المصنف الثاني ص ١٣٧ غلطوط ، مكتبة الآثار تحت رقم ٥٠٩ .

(٣) راجع مقاييس اللغة ولسان العرب مادة (جوز) .

واقطع ما قبلها بحسب حلقا الآن ، نقول : جاز المكان جوازا وعجازا وهذا جاز القوم ، فالجاز إذن اسم للمكان الذي يجاز فيه ومصدر ميمي لقطعه .

يمكن أن نشير إلى أن المدلول الاصطلاحي لكلمة الجاز في هذا أوضح صوره مقتبس من اسم المكان ، فجعل ذلك لفظ الانقضاء من محل إلى محل .

إذا سمى الباحث إلى أن يؤرخ لورود هذا المدلول في النصوص العربية يستطيع أن يؤكد أن أصحاب التفرق واللل والنحل (١) هم أول من أداروه واعتملوه في مناقشتهم المقدية والفلسفية .

فقد نُقِلَ من أبي إسحق النظام حديث ورد فيه اصطلاح الجاز إذ رُوي أنه كان يخطي للفلسفين في قولهم أن الحرارة تورث البس ، لأن الحرارة إنما ينشئ أن تورث السخونة وتولد ما يشاكلها ولا تولد ضربا آخر ليس منها في شيء ، ولو جاز أن تولد من الاجتناس التي تخالفها شكلا واحدا لم يكن ذلك بأسبق من كلام آخر إلا أن يذهبوا إلى سبيل الجاز ، فقد يقول الرجل إنما رأيتك لأنني لفتت ، وهو إنما رآه لطبع في البصر الدارك عند ذلك الانفتاح (٢) .

وإذا فسر الجاز في هذا النص هو دلالة اللفظ على مدلول جديد ، لعلنا نتعجب شيئا من اللائحة بين هذا المدلول الجديد ومعنى التفتع الدائر على ألسنة الناس : وقد اعتمد الجاحظ المحزلي الذي كان على صلة وثيقة بالتفرق والنحل مدلول مصطلح الجاز ذلك ، فدرس قلب كلمة «أكل» على معناها الحقيقي ومدلولات مجازية فقال : قول الله عز وجل : «إن الذين يأكلون أموال» الجاني ظلماء (٣) وقوله تعالى : «أأكلون لأسمحت» (٤) .

(١) ينظر كتاب الفصل في اللل والأعواء والنحل ج ٤ ص ١٥٣ حيث لورد نعا لجند ابن دريم القنري المرق سنة ثمان عشرة واثنا للهجرة فيه مصطلح الجاز

(٢) الحويان ج ٥ ص ١٢٤ .

(٣) النساء ١٠ .

(٤) الواقعة ٥٢ . السمت بالفهم : ما عبت من المكسب .

وقد يقال لهم ذلك وان شربوا بئس الاموال الاثيلة ، وليسوا الخلل ، وركبوا
الدواب ، ولم ينفقوا منها درهماً واحداً في سبيل الاكل : وقد قال الله عز وجل :

«انما يأكلون في بطونهم ناراً» (١) وهذا مجاز آخر .

وقال الشاعر (٢) في اخذ السنين من أجزاء الخمر :

أَكَلْتُ لِلدَّهْرِ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا وَتَبَقَّى مُصَابِعُهَا الْكَسَوَاتُ (٣)
قال الشاعر :

مرت بنا نخسالت في أربع يأكل منها بعضها بعضاً (٤)
وهل قول : « وقد أكلت أظفاره الصخر » الا كقولہ :

كفَسَّ بِالسَّيِّبِ الْكَسْدِي (٥) أَقْبَى بِرَأْسِهِ لِلْعَبَثِ

واذ قالوا : « أأكله الأسد » وانما يلعبون الى الاكل المروق : واذا قالوا :

« أأكله الأسود » فانما يعنون النهش واللعغ والعض فقط : وقد قال الله عز وجل :

« يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً » (٦) : ويقال هي لحوم الناس :

وقال قائل لاسماعيل بن حماد : وأي اللحمان أطيب ؟ قال : لحوم الناس ، هي

والله أطيب من الدجاج ، ومن القراخ ، والمعوز الحمر :

ويقولون في باب آخر : « فلان يأكل الناس » وان لم يأكل من طعامهم شيئاً :

(١) النساء ١٠ .

(٢) هو ايوناس من مخبرية له .

(٣) تجسم بالسين التي صار جسماً ، نقي : اي ابقى بترك . وتصاص بالضم اعاد الص كل شيء .

(٤) أي اربعون من حواصلها .

(٥) الكسدي ، جمعه كدية بالضم : هي الارض الخليفة .

(٦) المخبرات ١٢ .

وأما قول أوس بن حجر :

وفو شطيات قده ابن مجدع له رولق ذربته بتأكسل (١)

فهذا على خلاف الاول ، وكذلك قول دعيان النهري :

سأكني عن أناس أكلوا شرب للدمر عليهم وأكل

فهذا كله مختلف ، وهو كله مجاز ، (٢)

ففي هذا النص نستقبل كلمة وأكل ، وقد انضمت في آيات قرآنية ونصوص

شعرية وأحاديث نوحى عن معناها اللغوي الحقيقي المعروف الذي هو تناول بالضم

إلى مدلولات جديدة سماها الباحث مجازات . وهو في هذا كله يفسح بين أيدينا

أسس منهجه لدراسة الكلمة العربية :

أولها : اعتماد موضوع محدد وجمع النصوص التي دارت فيه بمعنى كلماتها

الحقيقية ومدلولاتها المجازية .

والثاني : بيان المدلول اللغوي للكلمة بالموازنة بينه وبين المدلولات المجازية

الأخرى التي خالفتها ثم الإشارة إلى معناها المعروف .

والثالث : التنوع في النصوص التي تدرس الكلمة للمجازية في مضامينها بين آيات

قرآنية وشواهد وأقوال شعرية وأقوال معاصرة وأمثال ، وفي اعتقادنا أن هذا

المنهج الذي يبدو عليه الطابع المجمعى لو راعى فيه الباحث الترتيب التاريخي لا

سرد فيها من المعاني الحقيقية لكلمة أكل ، وما أوضح من مدلولاتها المجازية لكان

هو باسمه تلك السبيل القويم الذي نستطيع اعتماده في دراسة حياة الكلمة العربية

(١) الشطيات ، بضم الشين والفاء ، جمع شطة بالضم ، وهي الطريقة من طرائق السيف

أي الخط فيه وقد عني به السيف ، قده : صنده ، ابن مجدع : أحد صناعات السيوف ،

الرولق : داء السيف وصفه وحسنه . وذرى السيف : كالنسب إلى القدر : مأوذ

وفرقه .

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٢٥٠ - ٢٩٠ .

ابتداء من معناها الوضعي الأول ومروراً بمدلولاتها المتجددة لها والتي رأينا معظم البلاغيين يسمونها حقائق لغوية وشرعية وعرفية عامة وخاصة ، في حين أنها في غيومتها الجاحظ مجازات يمكن أن تفرق فيما بينها بمصطلحات المجازات الشرعية دلالة على الحقائق الشرعية والمجازات الاصطلاحية دلالة على الحقائق العرفية الخاصة والمجازات العرفية دلالة على الحقائق التي اكتسبت مدلولاتها من الاستعمال اليومي في لغة الحياة اليومية :

وأياً كان ما ندعو إليه في وقتنا مع مصطلح المجاز في مدلوله ذلك فإن علم البلاغة قد تلقف هذا المصطلح وأقامه على حد وتعريف مخصوص .

ولعل عبد القاهر الذي يعدّ بحق مبتدع هذا العلم بموضوعاته المتصلة ومنهجيته المتميزة أول من بحث المجاز بحثاً متكاملًا فحده في المفرد والجملة وبين شرائطه وفصل ما قد يلتبس به من الأسماء المشتركة والاعلام وتبع طائفة من علاقته المرسة والقائمة على التشبيه :

ومما يتعلق بهذا البحث أن المجاز يذكر بوزنه « مكشّر » وبمحل اشتقاقه على ماورد في المعجمات العربية فيقال : « المجاز مكشّر من جزل شيء يحوزه إذا تعاد . وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللفظ وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي ، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً » (١) .

وفي موضع آخر يسوق تعريف المجاز اصطلاحاً فيبين أن المجاز « كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها للملاحظة بين الثاني والأول » ، ويحدث عن مسألة الملاحظة بين معنى الكلمة الحقيقية ومدلولها المجازي التي سميت فيما بعد بملاحظة المجاز فقال : « ومعنى للملاحظة هو أنها تستند في الجملة إلى غير هذا

(١) اسرار البلاغة ص ٣٦٥ .

الذي نريده بها الآن إلا أن هذا الاستناد يقوى ويضعف ، بياته ما مضى من القل
إذا قلت : هـ رأيت أسداً تريد رجلاً شبيهاً بالأسد لم يشبه عليك الأمر في حاجة
الثاني إلى الأول إذ لا يتصور أن يقع الأسد للرجل على هذا المعنى الذي أردته على
التشبيه على حد المبالغة وإيهام أن معنى من الأسد حصل فيه إلا بعد أن يجعل كونه
اسماً للسبع إزاء عينيك : فهذا استناد تعلمه ضرورة ولو حاولت دفعه عن وجهك
حاولت محالاً فبشي عقل فرع من غير أصل ومشبه من غير مشبه به ٩ وكل ما
طريقة التشبيه فهذا سبيله : أضحى كل اسم جرى على الشيء للاستعارة ، فالاستناد
فيه قائم ضرورة .

وأما ما عدا ذلك فلا يقوى استناده هذه القوة حتى لو حاول يحاول أن ينكره
أمكنه في ظاهر الحال ، ولم يلزمه به خروج إلى الحال ، وذلك كالكيد للنعمة ،
لو تكلفت متكلف فزعم أنه وضع مستأنف أو في حكم لغة مفردة لم يمكن دفعه
إلا برق وباعتبار عني وهو ما قدمت من أنا رأيتهم لا يرقعون هذه القنطرة على
ما ليس بينه وبين هذه الخارحة التباس واختصاص : ودليل آخر وهو أن اليد لا تكاد
تقع للنعمة إلا وفي الكلام إشارة إلى مصدر تلك النعمة وإلى الثوب لها (١) :

ومن هذا التحليل الذي يضيئ فيه شرحاً للشواهد ويسمياً للفوائد ثم اظهاراً
لثبوت البلاغة ، نستنتج أن مدلول المجاز اصطلاحاً لدى عبد القاهر على أساس
العلاقة بين ما نقلت منه الكلمة وما نقلت إليه يشمل ضربين من المجاز :

المجاز بالاستعارة ، وهو ما علاقته المشابهة ، والمجاز المرسل وهو ما علاقته
ملازمات متنوعة غير المشابهة .

مقومات المجاز :

يعنى عبد القاهر بمسألة العلاقة في المجاز عناية كبيرة فينتج الكلمات التي ربما
يتوهم في أنها مجاز بدعوى أنها منقولة فيقول : « ولوجوب اعتبار هذه النكتة في

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

وصف اللفظ بأنه مجاز لم يجز استعماله في الالفاظ التي يقع فيها اشتراك من غير سبب يكون بين المشتركين كعوض الاسماء المجموعة في التلاحن مثل ان الثور يكون اسماً للقطعة الكبيرة من الالط والنهار اسم للفرخ الحيارى والليل لولد الكروان ، (١) كما قال :

أكلت النهار بنصف النهار
وليلاً أكلت بليل بهيم
وذلك ان اسم الثور لم يقع على الالط لأمر به وبين الحيوان العلوم ولا النهار على الفرخ لأمر به وبين ضوء الشمس أداه به وساقه نحوه .
والغرض المقصود بهذه العبارة - أعني قولنا المجاز - أن تبين أن لفظ أصلاً مبدوء به في الوضع ومقصوراً ، وإن جربه على الثاني إنما هو على سبيل النقل إلى الشيء من غيره ، وكما يعين الشيء بواجده ما يجاوره ، ويتصغير بلون ما يدانيه ، ولذلك تراهم لا يطلقون المجاز في الاعلام الاطلاق لفظ النقل فيها وإن حجراً حقيقة في الجساد ومجاز في اسم الرجل ، وذلك أن الحجير لم يقع اسماً للرجل لأنبساط كان بينه وبين الصخر على حسب ما كان بين اليد والنعمة : : : : : ولا كما كان بين الظاهر الحامل وبين المحمول في نحو تسميتهم للزادة واوية وهي اسم للبعير الذي يحملها في الأصل وتسميتهم للبعير حكتاً وهو اسم لشاة البعير الذي يحمل عليه ، (٢) .

ان عناية عبد القاهر بتتبع ما ليس من المجاز ورصد علاقاته وترسيخ مقوماته المميزة استهدفت تحقيق غرضين :
أولهما : إقامة مبحث المجاز في البلاغة العربية على أسس ذوقية وعقلية وفنية تتجاوز به النظرة البغزية والتبعثر في التناول واختلاط المفاهيم إلى مرحلة للدراسة العامة للنظمية المحددة .

- (١) الالط يفتح الحزنة : الجبن المشط من اللبن الخامض ، والحيارى : طائر يفر به اللئ في البلاغة ، والكروان : طائر طويل الرجلين وله صوت حسن .
(٢) أسوار البلاغة ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

وثانيهما: الأخذ على أيدي متأولي النصوص الدينية الذين اعتصموا بدعة المجاز في تحميل آي الذكر الحكيم والأحاديث النبوية مالا تتحمل من مدلولات مذهبية وترسيخ القواعد التي يمكن التماس المجاز وفقاً في هاتيك النصوص . وفي بقلينا أن بحث المجاز بتفاصيله تلك على يدي عبد القاهر في القرن الخامس للهجرة سبقني ثمالات متجددة في كل عصر تستطيع أن تحتكم إليه في منع من يتجاوز بالقاط لغتنا إلى مدلولات اعتباطاً وبلا أساس وتقليداً لمدارس الأدب الأوروبي التي تشمد مقوماتها الفكرية والفنية من ثقافة غير ثقافتنا ويعصر للتشون إليها عن رسالة غير رسالتنا كالمزمية والسريالية واللامعقول .

وبدا مصطلح المجاز بأخذ صورة جامدة على يد البلاغيين المتأخرين ، وكان السكاكي إمام هؤلاء ورادهم في هذا الاتجاه ، وقد حدد المجاز قائلاً : «هي الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مألوفة عن إرادة معناها في ذلك النوع ، وقولي «بالتحقيق» احتراز أن لا يخرج الاستعارة التي هي من باب المجاز نظراً إلى دعوى استعمالها فيما هي موضوعة له ، وقولي «استعمالاً في الغير» بالنسبة إلى نوع حقيقتها احتراز عما إذا اتفق كونها مستعملة فيما تكون موضوعة له بالنسبة إلى نوع حقيقتها كما إذا استعمل صاحب اللغة لفظ العاطف مجازاً فيما يفضل عن الإنسان من متعصم متناولاته ، أو كما إذا استعار صاحب الحفيظة الشرعية الصلاة للدعاء أو صاحب العرف الدابة للحمار ، والمراد بنوع حقيقتها المقوية إن كانت إياها أو الشرعية أو العرفية أية كانت ، وقولي «مع قرينة مألوفة عن إرادة معناها في ذلك النوع» احتراز عن الكتابة (١) :

نلتفي في هذا النص يبحث عبد القاهر للمجاز مقننا ، فنستنتج أن للمجاز أربعة أركان أولها : المعنى الحقيقي للكلمة ، وثانيها : مدلولها المجازي ، وثالثها : العلاقة بين المدلول المجازي والمعنى الحقيقي ، ورابعها : القرينة التي تدل على أن للكلمة مجاز في استعمالها وأنه لا يراد بها معناها الحقيقي .

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٠ .

وفي ضوء أركان المجاز هذه وما جرى فيه ، أهو كلمة أو جملة قسّمه المتأخرون
اقساماً لخصها السكاكي قائلا : «اعلم أن المجاز عند السلف من علماء هذا الفن
قسمان .

الغوي ، ويسمى مجازاً في القرد ، وعقلي ويسمى مجازاً في الجملة ، والغوي
قسمان : قسم يرجع إلى معنى الكلمة ، وقسم يرجع إلى حكم لها في الكلام ،
والراجع إلى معنى الكلمة قسمان . حال عن القائدة ومتضمن لها ، والمتضمن
لقائدة قسمان : حال عن المبالغة في التشبيه ومتضمن لها ، وأنه يسمى الاستعارة (١) ،
وبدهي أن لكل قسم حدّه وفورده وتفرعاته ، ونحن نتحدث فيما تبقى من
هذا الفصل عن قسمين من أقسام المجاز هما : المجاز المرسل والمجاز الغوي .



(١) مفتاح العلوم ص ١٧٢ .



المبحث الثاني المجاز المرسل

لقد ثبت في تاريخ البلاغة العربية (١) أن السكاسي هو أول من أطلق مصطلح المرسل على هذا النوع من المجاز موزناً بينه وبين الاستعارة التي تدرج معه في ضرب المجاز المعنوي أو المجاز للقرء ، إذ قال : «وغير معناها - أي معنى للكلمة - أما أن يقدر قائماً مقام معناها بوساطة البالغة في التشبيه أولاً يقدر ، والاول هو الاستعارة والثاني المجاز المرسل » (٢) :

تعريفه :

وفي ضوء هذه الموازنة عرف القزويني المجاز المرسل مستقيماً من جملة الآراء التي أدارها عبد القاهر في بحثه للمجاز فقال : «هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملازمة غير التشبيه ، كإلاد إذا استعملت في النعمة ، لأن من شأنها أن تنسدر عن الجارحة ، ومنها تصل إلى المقصود بها ، ويشترط أن يكون في الكلام إشارة إلى المولي لها ، فلا يقال : اتسعت اليد في البلد ، أو اتسعت يداً ، كما يقال : اتسعت النعمة في البلد ، أو : اتسعت نعمة ، وإنما يقال : جلت يده عندي وكثرت أياديه لدي» (٣) .

ومصطلح الأرسال في اللغة يعني الإطلاق وعدم التقييد؛ ولما كان هذا المصطلح قد جاء لتمييز بين الاستعارة وبين هذا النوع من المجاز فإن البلاغيين قد التمسوا على هذه التسمية على أساس طبيعة العلاقة بين المعنى الحقيقي والدلول المجازي في الكلمة : وهذه العلة تتجه اتجاهين :

- (١) ينظر كتاب فنون بلاغية ص ١١٠ .
- (٢) مفتاح العلوم ص ١٩٥ .
- (٣) الانشراح ص ٢٧٠ .

أولهما : أن المجاز الاستعاري مثبّد بأدعاه أن التشبّه من جنس التشبّه به ،
والمرسل مطلق من هذا التقيد .
وثانيهما : أنه سمي مرسلًا لأرساله عن التقيد بعلاقة مخصوصة بل ردّه بين
علاقات بخلاف المجاز الاستعاري قائم بعلاقة واحدة وهي التشابه (١) .
علاقته :

علاقات المجاز المرصّة غير محدّدة ولا مقيّدة بعدد معيّن من اللابسات وإنما
تتسع وتثقل في معجم اللغة العربية التي له القدرة على استيعاب المدلولات المتجددة
في غضم الحياة لتبقى لفته أبداً الدهر لغة الحضارة والثقافة والعلم .
وبعضي أن هذا لا يعني أن الكلمة العربية مهملّة في هذا المجال ترك حيلها
على غاربها بلا ضابط ، ذلك لأن الملازمة بين معاني الكلم الحقيقية ومدلولاتها
المجازية وكمن لا يمكن إغفاله بل لا بد أن يوطد دائماً وفق العرف القوي والتوفيق
السليم والحس العربي المرفه .

لقد اتبته القويون والبلاغيون منذ أول العهد بالتأليف إلى توسع العرب في
استعمال للكلمات بأكثر من معنى ، فرصدوا طائفة من العلاقات التي سوغت
ذلك التوسع ولبيتها ، وتقبل خطاهم المتأخرون فانتبهوا إلى وضع اليد على طائفة
من هذه العلاقات التي نظمها الشيخ أحمد السجاعي النوني (١١٧٩هـ) في منظومة
لستخلص منها أنها بلغت على أيامه (٢) عشر علاقات عدداً وحسراً : وواضح
أن هذا العدد أقل بكثير مما بسطه جلال الدين السيوطي (٣) (٩١١هـ) :

- (١) راجع حاشية السوي في شروح الفيلسوف ج ٤ ص ٤٢٩ ولذون بلاغية ص ١١٠
- (٢) انظر إلى منظومة الإعراف في بيان علاقات المجاز ، ورقة ط مخطوطة في مكتبة جامعة
الأزهر .
- (٣) راجع الاقنانات في علوم القرآن ٢٥ ص ٢٦ - ٤٠ .

وأشهر هذه العلاقات وأسبغها في التلخيص القرآنية والأدبية ، ما يأتي :

الاولى : الجزئية وهي أن يذكر جزء الشيء ويراد كله ، كقوله تعالى : « وتضرب رقبة مؤمنة » (١) فقد ذكر الرقبة في الآية والمقصود بها العبد ، وكقول الشاعر :

وكم علت نعلني القوافي فلما قال قافية هجائي

فذكر الشاعر القافية ومقصده القصيدة كلها التي تأتي القافية جزءاً من نظمها ،

الثانية : الكلية وهي على عكس الجزئية يذكر الكل ويراد به مذكول جزئه

كقوله تعالى : « يجعلون أصابعهم في آذانهم » (٢) ،

فالمقصود بالأصابع في الآية الكريمة هو الأناامل التي هي رؤوس الأصابع فقط ،

الثالثة : السببية وهي أن يطلق السبب ويراد به نتيجة ومسيبه ، كقوله تعالى :

« ما كانوا يستطيعون السمع » (٣) : فالمراد القبول والعمل بالقرآن الكريم إذ أن هذا العمل والقبول نتيجة لسمع القرآن ومسيبه عن وعيه .

وكقول الرصافي* :

لئبها لبني ما كتبت ألقاها تحشي وقد أثقل الشلاق عشاها

فالشاعر هنا ذكر الشلاق وأراد الرض الذي هو نتيجة للاملاق ومسبب عن القشر ،

الرابعة : المسبية التي هي بخلاف السببية إذ يذكر السبب والنتيجة والمراد مسبيه

الذي كان علته في ذلك كقوله تعالى : « ويترك لكم من السماء رزقا » (٤)

فالذكر هنا السبب والمقصود هو المطر الذي يسبب الرزق من زرع وما يحتاج

على هذا الزرع من الماء .

الخامسة : اعتبار ما كان في الماضي وما سبق من الزمان ، كقوله تعالى :

« وآتوا إليهم أموالهم » (٥) أي الذين كانوا يتلمس فيها مضي ، أما حين يحق

لهم أخذ ميراثهم فأنهم يكونون قد تجاوزوا السن التي يسمون فيها يتلمس ،

(١) النساء ٩٢ .

(٢) البقرة ١٩ .

(٣) هود ٢٠ .

(٤) غافر ١٢ .

(٥) النساء ٣ .

السادسة : اعتبار ما سيكون في المستقبل ، كقوله تعالى : « إني أراي أميصرُ عَصْرًا » (١) ، « فالخير لا يُعْتَصَرُ » وإنما يعصر العنب الذي سيؤول إلى الخير في المستقبل .

السابعة : المكانة والمحلية وهو ان يذكر مكان الشيء وعمل الكائن فيه والمراد من هذا الكائن وذلك الشيء كقوله تعالى : « فليُتَدْعُ ناديه » (٢) والمقصود من النادي في هذه الآية الكريمة ، القوم الذين يقيمون في النادي لان النادي مكان جلوسهم وعمل مشاورتهم .

الثامنة : الخالصة : وهو ان يذكر ما يحل في المكان ويستقر بمحل والمراد به المحل والكان كقوله تعالى : « وأما الذين ابيضتْ وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » (٣) ، فلذلك ذكر هنا كلمة الرحمة ، والمقصود الجنة التي هي مكان الرحمة وعملها يوم الآخر .

التاسعة : تسمية الشيء باسم آله ، كقوله تعالى : « واجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » (٤) أي ذِكْرًا حسنًا ، واللسان أدلة الذكر .

العاشرة : تسمية الشيء باسم ضده ، كقوله تعالى : « فَيَشْرِبُهُمْ » يطالب بهم (٥) والبشارة حقيقة في الخير السار وإطلاق على ضده مجازاً .

الحادية عشرة : اللزومية : وهي إطلاق اسم اللزوم على اللازم ، كقوله تعالى : « أم أُنزلنا عليهم سلطانًا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » (٦) ، أي أنزلنا برهانًا يستدلون به وهو يدلهم : بمعنى الدلالة كلامًا ، لأنها من لوازم الكلام .

(١) يوسف ٢٦ .

(٢) الملق ١٧ .

(٣) آل عمران ١٠٧ .

(٤) الشعراء ٨٤ .

(٥) آل عمران ٢١ .

(٦) الروم ٣٥ .

الثالثة عشرة : الخصوص : وهي اطلاق اسم الخاص ، والمراد به العام كقوله تعالى : « هم العدو فاحذرهم » (١) أي : الأعداء .

الثالثة عشرة : العموم : وهي اطلاق اسم العام ، والمراد الخاص ، كقوله تعالى : « الذين قال لهم الناس » (٢) ، فالقصد بالناس في هذه الآية للكرامة - كما تذكر كتب أسباب النزول - شخص واحد هو نعيم بن مسعود الأشجعي .
تبيين لنا هذه العلاقات وسواها مما تتبعها القدامى والمعاصرون (٣) ، أن المجاز المرسل فن متع وجبه ينسبط بين يدي الأديب البالغ ليتمر عما يشهد في حياته من مثاولات وليجسد مشاعره وأفكاره بلا عائق من قيد لغوي غير الفوق السليم والاسلوب العربي الأصيل الذي ترسم شواهده لفنية أسس التعبير وسبيل الفنون :

(١) المائدة ٤ .

(٢) آل عمران ٧٣ .

(٣) راجع كتاب أنون بلاغة ص ١١١ - ١١٨ حيث حلل الدكتور أحمد مطلوب إحدى وعشرين علاقة هذا التفردات الكتابية للعلاقة الحادية والعشرين علاقة إقامة صيغة مقام أخرى .

المبحث الثالث

المجاز العقلي

يتعلق المجاز العقلي في صورته العامة بالتركيب والجملة ، ويخرج عن دائرة الكلمة . ويحدثنا تاريخ (١) البلاغة العربية : ان القدامى من اللغويين والمشتغلين في دراسة فن القول قد انتهبوا الى هذا الضرب من المجاز وأوردوا بعض شواهد من أي الذكر الحكيم والشعر العربي وان لم يسموه بهذا الاصطلاح ولم يجرؤوا حده أو يحلوا أركانه ، وان عبد القاهر هو الرائد في هذا الميدان ، اذ أنه قد تناول به بالتفصيل ورسم حدوده وانقضى في شرح المقصود منه .

بين المجاز العقلي واللغوي :

ليبدأ الصورة التفصيلية للمجاز العقلي لدى عبد القاهر بفريقه بينه وبين المجاز اللغوي قائلا : «واعلم ان المجاز على ضربين ، مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمقول ، فاذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كنقولنا : «اليد مجاز في النعمة ، «والاسد مجاز في الانسان وكل ما ليس بالسبع المعروف كان حكما شريفا على ما جرى عليه من طريق اللغة لأننا اردنا أن التكلم قد جاز باللغة اصلها تشبيها وقعت له ابتداء في اللغة وأوقعها على غير ذلك اما تشبيها ، واما لصلة وملازمة بين ما نقلها اليه وما نقلها عنه .

ومنى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق القول دون اللغة وذلك ان الاوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل لا يصح ردها الى كلمة ولا وجه لتبنيها الى واضعها ، لان التأليف هو اسناد فعل الى اسم ، أو اسم الى اسم وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم فلا يصير ضرباً خيراً عن (١) راجع : فنون بلاغية ٩٥ .

زيد يوضح اللغة بل بمن قصد الثبت الضرب فعلاً له (١) . وفي ضوء هذا النص
وما تحدثنا عنه فيما مضى من حد المجاز والسماع يظهر أن "المجاز المقري الذي
يجري في الكلمة ينقسم على أساس طبيعة العلاقة بين معنى الكلمة الحقيقي ومدلولها
للمجازي إلى مجاز بالاستعارة إذا كانت تلك العلاقة مشابهة وإلى مجاز مرسل إذا
كانت العلاقة ملازمة وصلة من الصلات التي حددنا طائفة منها في البحث السابق :

أركان الجملة :

أما المجاز العقلي فهو يستمد مقوماته من الجملة ، ومن هنا حلل عبد القاهر
بناء الجملة ، وتفهم من تحليله أن مدار القائفة من الجملة يكون على الآليات والتي :
أن الخبر أول معاني الكلام وأقدمها ، والذي تستند سائر المعاني إليه وتترتب
عليه وهو ينقسم إلى هذين الحكمين . وإذا ثبت ذلك فإن الآليات يقتضي مثبتاً ومثبتاً
له ، نحو أنك إذا قلت : «ضرب زيد» أو «زيد ضارب» ، فقد أثبت الضرب فعلاً أو
وصفاً ، وكذلك التي يقتضي مثبتاً ومثبتاً عنه فإذا قلت : «ماضرب زيد» ومازيد
ضارب ، فقد أثبت الضرب عن زيد وأخرجته عن أن يكون فعلاً له : فلما كان
الأمر كذلك احتج إلى شيتين يتعلقن بالآليات والتي بهما فيكون أحدهما مثبتاً
والآخر مثبتاً له ، وكذلك يكون أحدهما مثبتاً والآخر مثبتاً عنه ، فكان ذلك
الشيطان المبتدأ والخبر والفعل والتفاعل ، وقيل للمثبت والمثبت «مسند» و«محدث»
وللمثبت له والمثبت عنه «مسند إليه» و«محدث عنه» (٢) وإذا فالجملة سواء أكانت
اسمية أم فعلية مثبتة أم منفية تتألف من ثلاثة أركان متحدة في العقل :

أولها : الآليات في الجملة الثبته وهو الترابط بين المثلث والمثبت له ، والتي
في الجملة المنفية ، وهو تقي الترابط وسلبه عن المثلث والمثبت له ،
ولانها : المثلث في الجملة الثبته والتي في الجملة المنفية :

(١) اسرار البلاغة ص ٣٢٦ .

(٢) اسرار البلاغة ص ٣٣٨ .

وفي هذه الساحة التي تقوم عليها اركان الجملة الثابتة وثقيا الشمس عبد القاهر
والبلاغيون الذين تقيده موضوع المجاز العقلي الذي تاورته في تحليلات عبد القاهر.
أربعة اصطلاحات هي المجاز العقلي ، والمجاز الحكمي ، والمجاز في الاثبات ،
والاستناد المجازي .

وعلى ابن يعقوب المغربي تسميات هذه الاصطلاحات فقال : «ومن الاستناد مطلقاً
مجاز عقلي ، لان حصوله بالتصرف العقلي ، ويسمى مجازاً حكماً لوقوعه في
الحكم بالسند اليه ، ويسمى ايضاً مجازاً في الاثبات لحصوله في اثبات أحد
الطرفين للأخر والسلب حقيقته ومجازه تابع لما يحقق في الاثبات . ويسمى
ايضاً استناداً مجازياً نسبة إلى المجاز بمعنى المصدر ، لان الاستناد جاوز به للتكلم
حقيقته وأصله إلى غير ذلك (١) .

وأياً كان فان اعتماد اصطلاح المجاز العقلي دون سواه من تلك الاصطلاحات
يجسد الفرق الرئيس الذي نوهنا به بين هذا الضرب من المجاز والمجاز اللغوي .
حد للمجاز العقلي :

ويشمل حد المجاز العقلي الذي تعرضنا له في مطلع هذا البحث اذا ما وقفنا
مع عبد القاهر وهو يحتل شواهد التي منها قوله تعالى : «فما ربحتم تجارتهم» (٢) ،
فالمجاز في هذه الآية الكريمة ليس في «ربحت» ولكن في استنادها إلى التجارة :
ومنها قول الفرزدق :

مقاهم غروقي في السامع لم تكن^٣ حيلاناً ولا مبطوطة في اللامع (٣)
فقوله : «مقاهم غروقي ليس التجوز في كلمة «مقاهم» ولكن في ان استنداها
إلى الغروقي .

- (١) مواهب اللقائح - شرح الشفا - ج ١ ص ٢٣١ ، وفنون بلانية ص ٩٦ .
(٢) البقرة ١٦ .
(٣) حط الناقه ، وسها بالعلاء وهي صفحة المثل أو حيل يعمل في حق التبريد .
اللمم : القم والائف وما حوفا ، والجبع : ملانم .

أفلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه
وحقيقته فلم يرد به «أريد» غير الريح ولا بدست» غير السقي كما أريد في قوله :
«وسالت بأعناق اللهي الأياطع» (١) غير السيل.

ركنا المجاز العقلي :

والمجاز العقلي - شأنه شأن مائر ضرب المجاز - ينبغي أن يتوفر فيه ركنا
أساسيان هما : القرينة الثالثة على أن في الجملة مجازاً والعلاقة التي تسوّج ذلك
المجاز في العقل والتدقيق .

أما القرينة فقد تكون لفظة كقول أبي النجم :

قد أصبحت أم الخيال تدعي حليّ ذنباً كله لم أصنع
من أن رأيت رأسي كمراسي الأصابع ميز عنه قترعاً عن قترع (٢)
جذب الخيال : أبطشي أو أسرمي

فهذا مجاز يدل على قوله بعده :

أفناه قيل الله للشمس اطلمي حتى إذا وافاك أفق فارجمي
فهو قد استعمل تمييز شعر رأسه واستقاهه إلى جذب الخيال على سبيل المثال بقرينة
قوله :

أفناه قيل الله للشمس اطلمي حتى إذا وافاك أفق فارجمي
وقد تكون غير لفظة تتجلى في استحالة صدور المسند من المسند إليه كقوله :
«أبي نبي الشوق إلى لفائفك» و«ساربي الحنين إلى رؤيتك» و«أبي الأمير
المدبنة» (٣) .

ففي هذه الجملة لا تصدق عقلاً أن «الشوق» فاعل لفعل «أبي» ، وأن «الحنين»
هو الذي أجرى الفعل «سار» ، وأن «الأمير» هو الذي قام وحدة بينه والمدبنة .

(١) دلائل الأعيان ص ٢٢٧ .

(٢) القترع : الشعر حوالي الرأس .

(٣) دلائل الأعيان ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

علاقات المجاز العقلي :

أما الثلاثة في المجاز العقلي فتشتمل على أشهرها (١) :

الأولى : المفعولية : فيما بُني للفاعل واستند إلى المفعول به الحقيقي نحو قوله تعالى : « عيشة راضية » (٢) فالراضية مبنية للفاعل وحقيقته امرضية : وكقوله تعالى : « ماء دافق » (٣) أي مدفوق .

الثانية : التفاعلية : وهي على خلاف الأولى ، إذا بُني للمفعول واستند للفاعل الحقيقي مثل « سَبَّحَ مُنْقَضَمٌ » ، لأن السبيل هو الذي يقم ويبدأ .

الثالثة : المصدرية : فيما بُني للفاعل واستند إلى المصدر مجازاً كقول أبي فراس الحمداني :

سبذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم وفي الميلة للظلماء يُغْتَكَنُ اللَّيْدَرُ
فقد استند « جدَّ » إلى المصدر « الجدة » وهو ليس بفاعل له ، بل فاعله الجادُّ .
الرابعة : الزمانية : فيما بُني إلى الزمان مثل « نهارٌ صائمٌ » وليثمة قائمٌ ، إذ أن النهار لا يصوم والليل لا يقوم وإنما يُصَامُ في النهار ويُقَامُ في الليل والفاعل الحقيقي هو الصائم والقائم : وكقول الشاعر :

لقد شئتُ بألمٍ خيلانٍ في السرى ولَيْمْتُ وما ليلُ المطيِّ ينائم
فليل المطي لا ينائم وإنما يُنَامُ فيه :

الخامسة : المكانية : فيما بُني للفاعل واستند للمكان ، كقوله تعالى : « وجعلنا الأنهار تجري من تحتهن » (٤) لأنه مكان يجري الماء وإنما يجري ما فيه وهو الماء .

(١) راجع الإيضاح ص ٢٢٦ ، وقول بلاية ص ١٠٥ .

(٢) القارعة ٧ .

(٣) الطارق ٦ .

(٤) الأنعام ٦ .

السابعة : السبية : فيما بين الفاعل واسند السب كقول الشاعر :
 إني لمن معشر أئني أو اللهم قيل الكساة : ألا أين الحاسونا
 والليل لم يُعْشَر ، وإنما الذي أئني هو الشجعان ، وذكر الليل لانه السب في
 دفع الكساة إلى القاتلة والتزال بلا تردد .

أقسام للمجاز العقلي :

صنف المجاز العقلي باعتبار طرفيه - السند والسند اليه - أربعة أقسام (١) :
 نوعا : المجاز العقلي الذي طرفاه حقيقيان ، كقول الشاعر :

وشيب أيامُ السراقرمِ مغارقِي وأنشزن للمسي فوق حيث تكون
 الثاني : ما طرفاه مجازيان ، كقولنا : « أحيأ الأرض شبابُ الزمان » .

الثالث : ما السند فيه مجاز والسند اليه حقيقة ، كقول الرجل لصاحبه : « أحييني
 رؤيتك » أي : آتني وسررتي ، فقد جعل الحاصل بالرؤية من الاتس والمررة
 حياة ، ثم جعل الرؤية فاعلة له ، ومثله قول أبي العلي :

وتحيسي له المال الصورمُ والقتل ما تحيي التيسمُ والجدد (٢)
 جعل الزيادة والوفور حياة المال ، وتخريفه في العطاء قتل له ، ثم أثبت الأحياء
 فعلا للصورم ، والقتل فعلا للتيسم ، مع أن الفعل لا يصح منهما .

الرابع : ما يكون فيه السند حقيقة والسند اليه مجازاً كقولهم : « أثبت البقل
 شبابُ الزمان » فاسند إثبات البقل وهو حقيقة إلى شباب الزمان الذي هو مجاز ،

(١) الانفتاح ص ٢٦ .

(٢) الصورم السيوف ، والقتل : جمع قتلة ، وهي الرمح ، والجدد : السقاء .

الفصل الرابع
المجاز بالاستعارة
المبحث الأول
تعريفها وأركانها

تعريفها :

إن "كلمة الاستعارة لغة مأخوذة من توهم : و استعار المال : طلبه عارية «
أما اصطلاحاً فإن تعريفها قد قلب (١) على أيدي المغويين والصنفين للكتب
العامه وعلماء البلاغة بين السعة لتشمل المجاز المرسل وبين التقصور والفساد وعدم
الدقة .

ولعل الجاحظ أول من عرف الاستعارة في ميدان الدراسات العامة بقوله :
« الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه » (٢) .
يستمد هذا التعريف مقوماته من المعنى المغوي لكلمة الاستعارة ولا يوضح
أركانها وعناصرها توضيحاً دقيقاً :

وتناول ابن المعتز الاستعارة لأول مرة في كتاب بلاغي متخصص وجعلها
الباب الأول (٣) من أبواب البديع ، وأورد لها شواهد من آي الذكر الحكيم
وأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكلام الصحابة والعرب ،
والاستعارة عنده هي : « استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بهاء »
وهذا التعريف على غموضه واتساعه يجمع في النصوص التي ساقها ابن المعتز

(١) فنون بلاغية ص ١٢٢ .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٣ .

(٣) البديع ص ٣ .

بشيء التعبيرات التي مالت عن معانيها الحقيقية إلى مدلولات جديدة ، فاضمت إليها المجاز ببعض الوانه التي وضع البلاغيون بعده اليد عليها .

ويظهر هذا من أنه أورد قول الطائي مخاطب متزلاً :

بامتزلاً أعلى الجوائد حكمتها لا تطل في عبدة ولا تسوقا
أرسي بناديك القدي وثقتك لكتسا بعفوك الرياح ضيقاً
ولكن ثوى بك مقلقاً يجيرانه ضيف الخطوب لقد أصاب مضيقاً
ثم علق عليها قائلاً : « المعنى أنه أصاب موضعاً مضيقاً إليه فيه أي يحيل إليه
لأنه قد قارقه ومضيق محال لأن البلد لا يشق ولأن الزمان لا يحتاج
وإنما المعنى أن الزمان مال عليك فأصاب موضع محل ومتزل » (١) .

فهو في هذا النص يتحدث عن كلمة مضيق التي استعمالها الشاعر فيما لم يعرف
به من مدلول وهي مجاز مرسل علاقته بالكناية في حين أنه أوردنا في باب الاستعارة
مبتدأ قريتها التي من أجلها انصرف القدر إلى أنها لم تستعمل في المعنى الذي عرفت

به

إن ابن المعتز لم يعرف الاستعارة تعريفاً دقيقاً يميزها عن المجاز بشي
الواقع ، وإنما كان ذلك منه لطبيعة منهجه الأدبي التاريخي الذي صمى في ضوئه
إلى البرهان على أن فنون البديع لم يتدعها الشعراء المحدثون من أمثال بشار (٢)
وصلم وإبي نواس ومن تبقيلهم وسلك سبلهم بل جرت به الغالبين اللغة العربية
منذ سالفات عهودها :

وتجلى قيمة تعريف ابن المعتز للاستعارة على أساس منهجه ذلك في أنه شبه
على طائفة من النصوص أدار فيها أصحابها كلمات فيما لم تعرف به من قبل ، فبين
أنهم قد خرجوا على اللوق والسليقة العربية الأصلية في صياغة الكلام فقال : وهذا

(١) البديع ص ٢٢ .

(٢) البديع ص ١ .

وامثاله من الاستعارة ممّا عيب من الشعر والكلام وإنما تخير بالقليل ليعرف فيجيب :
قال المهلب لرجل من الأزد متى أنت ؟ قال : أكلت من حياة رسول الله صلى
الله عليه وسلم . فقال أطمعك الله لحملك . وقال عبيد الله بن زياد يوما ، وكانت
فيه لكفة : افتحوا سيفي ، يريد سلّوه (١) .

فذلك الأزدي في قوله : «أكلت من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم» شذّا
بصغيره هذا وخالف الحسن القنوي السليم فيما أثر عنه من التعبير عن المعاصرة
والمصاحبة . وكذلك عبيد الله بن زياد لم يقتل سنن العربية في التعبير عن المازلة
بالسيف فبصر عن جردها لقتال بما عرف عن غيرها من الأشياء التي تغلق ويوضع
عليها الغطاء :

فإن ابن المعتز قد وضع لاستعمال الكلمة فيما لم يعرف بها من مدلول قيوماً
من العرف القنوي واللوق السليم والأصالة العربية ، فرسم بذلك للاستعارة مدارها
تعريفاً واستعمالاً وأتى عبد القاهر في ميدان الدراسات البلاغية فعرف الاستعارة
تعريفاً ميزها به عن المجاز المرسل فقال : «الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بآخر
وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره للمشبه وتجرّبه عليه» (٢) .

فهو هنا يقيم الاستعارة على أساس التشبيه ويضع الحد الفاصل بينها وبين
المجاز المرسل الذي علاقته بالمعنى الحقيقي هي غير التشابه فتصبح معه من المجاز
القنوي :

إن تعريف عبد القاهر الجرجاني هذا ليس جامعاً شاملاً ، وآية ذلك أنه حصر
الاستعارة في المشبه به الذي حذف من تشبيهه ركن التشبيه ، فحصر بذلك الاستعارة
على أحد ضربيهما الذي هو الاستعارة التصريحية وأبعد عن التعريف الاستعارة
الكنية التي هي تشبيه حذف منه المشبه به ، وقصور هذا التعريف ربما يعود إلى أن صاحبه

(١) البديع ص ٢٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٠ .

كان يردود فيها، فجعلها مجازاً عقلياً مرة ومجازاً لغوياً أخرى. وجعله أباه من المجاز العقلي أو بما هي أقرب إليه يستند إلى أنه نظر إلى تعريف ابن المعتز للاستعارة قرأها ليست ونقل اسم عن شيء إلى شيء ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء (١) :

وأما كان شأن هذا التعريف فإن ربطه بين الاستعارة والتشبيه قد رسم له دائرة ضيقة وضع للكاشي ومن ثقبه (٢) من البلاغيين في إظهارها حداً راسخاً للاستعارة لم تخرج عن مداه حتى إيماناً هذه فأصبحت تعرف بأنها : هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيًا دخول التشبيه في جنس التشبيه بدلاً على ذلك بالتأنيك للتشبيه ما يخص التشبيه به (٣) .

فهذا التعريف يجري في دائرة تعريف عبد القاهر ذلك متسعاً بعض الشيء ليتلائم تصويره ويضم إليه الاستعارة بضربها المذكورين .

أركانها :

إن للاستعارة في تعريفاتها الخلقة أربعة أركان :

أولها : المستعار منه ، وهو التشبيه به .

وثانيها : المستعار له ، وهو التشبيه .

وثالثها : المستعار ، وهو اللفظ المقول والمستعمل فيما لم يعرف به من معنى .

ورابعها : القرينة اللفظية أو المعنوية التي تمنع أن يكون القصد بالاستعارة معناه الذي ورد به المستعار منه .

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٢ .

(٢) الإيضاح ص ٢٨٠ .

(٣) مفتاح العلوم ص ١٧٤ .

ففي قوله تعالى : « حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً » أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ حَقِيمٍ (١) ، كلمة « حَقِيم » مستعارة ، والمستعار منه التي لا تحصى بولد ، والمستعار له هو إن ذلك اليوم لم يأتِ بمنفعة حين جاء ، ولم يبقَ غيراً حين مرَّ ، والقرينة معنوية ذلك لأن المقام من صفات المرأة :

وفي قول الرسول الكريم (ص) : « غير الناس رجل محسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيمة طار إليها » : فقطط طار مستعار ، والمستعار منه الطيران ، والمستعار له الاسراع بقرينة أن الرجل لا يطير .

وفي قول الاخوه الأودي :

مَلَكُنَا مَلَكٌ لَشَخَّ أَوْكُ وَأَبُونَا مِنْ بَنِي لُؤْدٍ خِيَارُ
لفظ «القحاح» مستعار ، والمستعار منه القاح الأبل ، والمستعار له هو الاستغناء بما عندهم من العز عن غيرهم ، والقرينة معنوية :

بين التشبيه والاستعارة :

إن الجمع بين التشبيه والاستعارة في الكتب البلاغية وجعلهما بمثابة الأصل والفرع نتج عنه خلط بينهما لدى بعض علماء البلاغة ، وقد حكى ابن الأثير هذا الخلط قائلاً : « على أن أبا القاسم الحسن بن بشر الأمدى كان ألقت القوم قلماً في فن الفصاحة والبلاغة ، و... وما أعلم كيف غني عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمرة الأداة ؟ »

من ذلك قول امرئ القيس :

قللت له لماً تمطى بصليبه وأردفت أعجازاً وللة بكلكل
وهذا البيت من التشبيه للمضمرة الأداة ، لأن المستعار له مذكور - وهو القبل (٢) ،

(١) الحج ٥٥.

(٢) مثل السائر ج ٢ ص ١١٠.

وقد اتى ليف من علماء البلاغة لازالة دواعي ذلك الخلط **بقرار** المقارقات
العقلية واللوغية بين التشبيه والاستعارة ، من هؤلاء العلماء عبدالقاهر (١) والقاضي
أبو الحسن الجرجاني (٢) والفسر الرازي (٣) :

وهذه المقارقات التي استقرت بصورة رئيسة على يدي عبدالقاهر تناولت
الاستعارة التصريحية وتجنبت الاستعارة المكنية لعل ربما تعود إلى انه رأعا لا يثتم
منها التشبيه مثل التصريحية وانما تقوم على التوهم والتخيل :

وتحس اذا تعد الاستعارة المكنية تشبيها حذفت منه التشبه به وأقيم التشبه مقامه ،
لستطيع أن نطبق عليها تلك المقارقات التي هي : -

أولا : في الاستعارة يسقط ذكر التشبه حتى لا يهمل من ظاهر الحال أنك أردته
مثل « عنت لنا ظبية » وللقصود امرأة . أما التشبيه فهو أن تذكر كل واحد من
التشبه والتشبه به ، على قول أبي نواس :

والحب ظهراً أنت راكبه
فإذا صرقت عتاته انصرفا
فهذا البيت ليس فيه استعارة لأن معناه أن الحب مثل ظهر ، أو الحب
كظهر فظهره كيف شئت اذا ملكت عتاته .

ثانياً : ان حقيقة الاستعارة في اللغة والعادة يوضح الفرق بين الفنين وذلك ان من
شرط المستعار أن يحصل للمستعير منفعة على الحد الذي يحصل للمالك ، اما في التشبيه
فلا يقع ذلك الواقع ففي قولنا : « عنت ظبية » يعقل من إطلاقه أننا قصدنا الجنس
العلوم من الحيوان ولكن استعناؤه للمرأة ، ولا يقع مثل هذا في قولنا « زيد أسد »
ثالثاً : ان الحالة التي يختلف في الاسم اذا وقع فيها أبسئ استعارة أم لا
يسمى هي الحالة التي يكون الاسم فيها غير مبتدأ أو متزلاً متزكك كخبر « كان » أو

(١) راجع اسرار البلاغة ص ٣١٩ وما بعدها وص ٢٩٩ وما بعدها.

(٢) راجع القوسامة ص ٤١.

(٣) راجع نهاية الإيجاز ص ٨٩.

المفعول الثاني لباب « علمت » أو الحال . والاسم في هذه المواضع يكون لإثبات معناه في مثل : « زيد متعلم » فالاسم هنا لإثبات الانطلاق لزيد ، في حين لا يكون مثل ذلك في « زيد أسد » لأننا لا نستطيع أن نثبت للجنس لزيد على حقيقته .

إن هذه المفارقات إذا ما ضممنا إليها مفارقة عدم جواز ذكر أداة التشبيه وطرفي التشبيه معاني الاستعارة وذكر الأداة وجواز حذفها وجوب ذكر التشبيه والتشبيه به في التشبيه تشكل قواعد علمية منطقية لتتبيح بين الاستعارة والتشبيه ، بيد أن أساس هذا التمييز كما توهم به ابن الأثير ينبغي أن يؤسس على قضية ذوقية فنية ، ذلك لأنك إذا أظهرت الأداة والمستعار له في الكلام ذهب حسه ، ألا ترى أننا إذا أوردنا هذا البيت الذي هو :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وتستت
ورداً وعصفت على العناب بالبرد
وهو بيت فيه استعارة وقلت : وأمطرت دمعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسقت خدّاً كالورود وعصفت على أمانيل منضوبة كالعناب بأمان كالبرد صرنا إلى كلام غث لاطلاوة عليه .

أقسام الاستعارة :

لقد قسم البلاغيون (١) للتأخرون الاستعارة إلى أقسام كثيرة استعملها عبد القاهر بن قيمها على أساس الأداة أي استعارة مفيدة واستعارة غير مفيدة (٢) ويريد بالمفيدة ما كان لفظها قائداً ، ويريد بغير المفيدة ما لا يكون لها فائدة في الفيل ، وموضعها حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق لزيد به التوسع في اوضاع اللغة والفروق في مراعاة دقائق في القروق في المعاني الدلول عليها كوضعهم للعضير فواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان نحو وضع الشفة للسان والمغفر للجير والحفلة للقرص .

(١) الملل السائر ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) اسرار البلاغة ص ٢٩ .

وقسمت باعتبار ماذكر من الطرفين الى استعارة تصريحية واستعارة مكنية ،
وباعتبار تحقق المستعار له حسا وعقلا وعدم تحققه الى استعارة تحقيقية واستعارة تخيلية ،
وصفت باعتبار اللفظ المستعار الى استعارة اصلية وتبعية تصريحية وتبعية
مكنية اذا كان المستعار اسما مشقفا ، أو اسما مبهما : وباعتبار مايتصل بها من
العلامات وعدم اتصالها الى استعارة مطلقة ومرشحة ومجردة . وبوبت باعتبار
الجامع بين المستعار منه والمستعار له الى خمسة اقسام هي :

الاول : استعارة حسي لحسي بوجه حسي .

الثاني : استعارة حسي لحسي بوجه عقلي .

الثالث : استعارة معقول لمعقول والجامع أمر عقلي :

الرابع : استعارة محسوس لمعقول بوجه عقلي :

الخامس : استعارة معقول لمحسوس لاشتراكهما في أمر عقلي :

وواضح من هذه التقسيمات أن معظمها يرجع الى الباحث التي عقدتها علماء
البلغة لكن التشبيه متناولين مادة طرفيه أي حسية أم عقلية أم وهمية والى طبيعتهما
أي جامدة مشقة كما تعود الى الألوان وجه شبه الجامع بين الطرفين تحقفا وتخيلا
وتوهما .

ونحن في الباحث القادمة سوف نتطرق من بين هذه التقسيمات الى مايتعلق
بالتنوع الفرعيين إلزاما لمصوء على التقسيمات الرئيسة التي لم يرد لها ذكر في هذا المنهج :

البحث الثاني الاستعارة التصريحية

التصريح لغة واصطلاحاً :

التصريح لغة :

مصدر منه الفعل صَرَّحَ بكذا (١) إذا أظهره : واصطلاحاً يأتي صفة لأحد ضربي الاستعارة وهو الاستعارة التصريحية التي حدثها البلاغيون بقولهم : هي ما صرَّح فيها بلفظ الشيء به دون التشبيه .

وقد تسمى هذه الاستعارة مصرحة أو تحقيقية ، ولفظ المصراحة هو من مادة التصريح ويدل على ما دلل عليه من أن الشعار المذكور ومتنوع عليه : اما الحقيقة : وفمن تحقق معنى الشعار حساً أو عقلاً أي : التي تتناول أمراً معلوماً يمكن أن ينص عليه ويشار إليه إشارة حسية أو عقلية ، فيقال : ان اللفظ لقل من معناه الأصلي ، فجعل اسماً له على سبيل الاعارة للمبالغة في التشبيه .

اما الحسي فكتقولك رأيت أسداً ، وأنت تريد رجلاً شجاعاً ، وعليه قول زهير :
لدى أسدٍ شاكٍ السلاح مَنَكَنٍ له لبدٌ أَظْفَارُهُ لم تُفَكِّم (٢)
واما العقلي : فكتقولك : « أهدبت نوراً » وأنت تريد « حجة » فإن الحجة مما يدرك بالعقل من غير وساطة حس ، اذ المفهوم من الالفاظ هو الذي يتوّر القلب ويكشف عن الحق ، لا الالفاظ أنفسها : وعليه قوله تعالى : «اعدنا الصراط للضيم » (٣) أي : للذين الحق (٤) :

(١) اسس البلاغة (صرح)

(٢) شاكى السلاح : قويه ، منكَنٍ : شجاع . لبد : جمع لبة ، وهي الشعر المتكاثف

بين كفائي الاسم . أَظْفَارُهُ لم تقلم : عزيز متبع قوي ، بطريق الكتابة .

(٣) الفاتحة ٦ .

(٤) الاصحاح ٢٧٨ .

لماذا الاستعارة التصريحية :

تسم المتأخرون الاستعارة التصريحية باعتبار طرقها - المتعار والمتعار له -
أو التشبه والتشبه به إلى قسمين :

أولهما : الاستعارة التصريحية الوفاقية وهي التي يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد لعدم التناقض ، مثل : اجتماع الحياة والهداية في كلمة وأحياء التي جاءت في قوله تعالى : « أَوْ مَنْ كَانَ مُبْتَلًى فُاجِحِينَ » (١) فالمراد بأحيائه هديته أي : أو من كان ضالاً فهديته ؟ والهداية والحياة لا شك في جواز اجتماعهما في شيء (٢) ، ولأنهما : الاستعارة التصريحية العادية وهي التي لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد لثانيهما كاجتماع الموت والفضلال كما في الآية السابقة : « أَوْ مَنْ كَانَ مُبْتَلًى فُاجِحِينَ » أي ضالاً فهديته . فكلمة «مبتلاء» استعارة تصريحية عادية إذ شبهت الضلال بالموت ، بجمع تربى لفي الانقراض في كل ، واستعير الموت للضلال ، واشتق من الموت بمعنى الضلال ، «مبتلاء» بمعنى «ضالاً» ، وهي عادية ، لأنه لا يمكن اجتماع الموت والضلال في شيء واحد :

والاستعارة العادية في ضوء السياق والفريضة ربما تكون تملجية ، أي المقصود منها التمليح والظرافة . وقد تكون تهكمية - أي المقصود منها التهكم والاستهزاء - بأن يستعمل المقلد الموضوع لمعنى على عكسه وتقليبه : نحو قولك للذئب تملحاً «رأيت بذرأ» ونحو قوله تعالى : «فَبَشِّرْهُمْ بِضَابِ أَلَمٍ» (٣) أي : أقدروهم فاستعيرت البشارة التي هي الخبر السار ، للاندثار الذي هو عكسه بادخال الاختلاف في جنس البشارة على سبيل التهكم والاستهزاء

(١) الانعام ١٢٢ .

(٢) راجع الايضاح ص ٢٨٩ .

(٣) آل عمران ٢١ .

المبحث الثالث الاستعارة للكناية

الكناية لغة واصطلاحاً :

الكناية لغة^(١) : اسم مفعول من كنى بمعنى ألقى وستر ، واصطلاحاً هي صفة مميزة للضرب الثاني من الاستعارة الذي سمّاه القزويني الاستعارة بالكناية ايضاً وحده^(٢) قائلا : « قد يضمّر التشبيه في النفس ، فلا يصرّح بشيء من أركانه سوى لفظ التشبيه ، وبذلك عليه (١) بأن يثبت للتشبيه أمر مختص بالتشبيه به ، من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً أجري عليه اسم ذلك الأمر فيسمى التشبيه استعارة بالكناية ، أو مكيناً عنها ، وإثبات ذلك الأمر للتشبيه استعارة تخيلية والعلم في ذلك قول لبيد :

وغداة ربيع قد كَشَفَتْ وَقرّةٌ
إذا أصبحت بيد الشمال زمامها (٢)
فانه جعل للشمال بدءاً ، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً تجري اليد عليه ، كاجراء الأسد على الرجل الشجاع ، ولكن لما شبه الشمال - لتصرفها للقرّة على حكم طبيعتها في التصريف - بالإنسان المصروف لما زمامه يده ، أثبت لها بدءاً على سبيل التخييل ، مبالغة في تشبيهها به ، وحكم الزمام في استعارته للقرّة - حكم اليد في استعارتها للشمال ، فجعل للقرّة زماماً ، ليكون أتم في ألبانها مصروفة ، كما جعل للشمال بدءاً ، ليكون أبلغ في نصيبها مصروفة فوفى المبالغة حقها من الطرفين (٣) :

(١) عليه : أي على التشبيه المنسب في النفس .

(٢) كشفت : هزمت وأزلت وتخلّط عليها .

قرّة : فر : برد . الشمال : الريح القاهية من جهة الشمال . وهي أبرد الرياح .

زمامها : قيادتها .

(٣) الألبان : من ٣٠٩ .

لازم الاستعارة اللمنية :

لقد اعتمد المعاصرون حدّ القزويني ذاك للاستعارة اللمنية وتحليله لشواهدهم ، فاستخلصوا تعريفاً قوامه حذف طرف التشبيه من التشبيه مؤكدين أن الاستعارة اللمنية أو بالكناية : « هي التي اعتنى فيها لفظ التشبيه واكتفى بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه » (١) :

ومن هنا فإن استكمال صورة الاستعارة اللمنية لدى القزويني ألزمه بتتبع لازم التشبيه بالمحذوف وعلاقة هذا اللازم بعملية التشبيه فقال : « واعلم أن الأمر المخصص بالتشبيه به التثبيت للتشبيه ، منه مالا يكمل وجه التشبيه في الشبه به بدون ، كما في قول أبي ذؤيب الهذلي :

إذا النية أنشئت أنشأتها ألفيت كل نعمة لا تشفع (٢)
فانه شبه النية بالسبع ، في اغتيال النفوس بالقهر والظلمة ، من غير تفرقة بين تساع وحسار ، ولا رقة لمرحوم ، ولا يقيا على ذي فضيلة ، فأثبت لعمية الاظفار التي لا يكمل ذلك في السبع بدونها ، تحقيقاً للمبالغة في التشبيه .

ومنه ما به يكون قوام وجه التشبيه في التشبيه به ، كما في قول الآخر :
ولئن نطقت بشكر برك مفضيحا قسان حالي بالشكاية أنطق
فانه شبه الحال الدالة على القصد بانسان متكلم في الدلالة ، فأثبت لها اللسان الذي به قوام الدلالة في الانسان (٣) »

ان ما جعله القزويني استعارة تخيلية ينبغي أن يرافق الاستعارة اللمنية وبأن يفي معها ويبرز في سياقها ، ذلك لانه يكمل وجه التشبيه في التشبيه به ويتتبع قواما له في كيانها ، وهو يرتبط من خلاله بالتشبيه :

(١) فنون بلاغية ص ١٣٣ .

(٢) تشبيه الثغرة وذهبها يستصغرون بها الآلات ويصفون بها من شر ائمن .

(٣) الايضاح ص ٤١٠ .

السكاكي والاستعارة التخيلية :

ان هذه النتيجة منطقية مادامت الاستعارة المكتبة هي أحد طرفي التشبيه المفسر
يبد أن السكاكي نظر الى الاستعارة التخيلية نظرة أخرى وفسرها وبما استعمل في
صورة وعمية محضة قدّرت مشابهة لصورة محققة هي معناه كلفظ الاظفار في
قول الهذلي ، فانه لما شبه النية بالسبع في الاختيال على ما تقدم ، أخذ الزعم في
تصويرها بصورته ، واختراع مثل ما يلائم صورته ويتم به شكله لما ، من الهيات
والحوارج ، وعلى الخصوص ما يكون قوام اختياله للفارس به ، فاخترع للمنية
صورة مشابهة لصورة الاظفار المحققة ، فأطلق عليها اسمها (١) .

حقيقة الاستعارة التخيلية :

ردّ القزويني على تفسير السكاكي هذا بوجود عقلية ومنطقية أُنعت معظم
الباحثين المعاصرين برأيه ، ولكننا ننتد إلى ما انعقد عليه رأي جمهور البلاغيين
من أن الاستعارة المكتبة والاستعارة التصريحية كلتيهما تشبيه مختصر ، ونستذكر
ما بيناه من أن الاستعارة التخيلية ستد هؤلاء الجمهور هي لازم التشبيه
للحذوف من التشبيه الذي هو اساس الاستعارة المكتبة فنقرر مطمئنين أن الاستعارة
التخيلية ليس لها كيان مستقل وأنها قريبة الاستعارة المكتبة (٢) .

وعليه فلا داعي في رأينا من القامة الاستعارة التخيلية ضرباً ثالثاً لضيفه إلى
ضربي الاستعارة : التصريحية والمكتبة ونقرّع ونصنّح الاقسام بلا اساس من
حقيقة الشواهد الادبية والفنون التعبيرية .

غرض الاستعارة المكتبة:

ان النصوص التي جرت بالاستعارة المكتبة قد اعتمدتها أدلة قنية لتحقيق
أحد غرضين حسب طبيعة التشبيه بالحدوف ولازمه للثبث للمتشبه :

(١) الايضاح ص ٢١٣ .

(٢) راجع قنن بلاغية ص ١٣٨ .

الأول هذين الفرضين هو تجسيد الأمور المعنوية وإبرازها للحس في كيان مادي ملموس من ذلك قوله تعالى في تجسيد ذل الولد لوالديه : « وَاتَّقِ اللَّهَ مَا جَاءَكَ مِنَ الذِّكْرِ » من الرحمة وقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِي كَمَا رَحِمْتَ رِيبَانِي صَغِيرًا » (١) .

فالذِّكْرُ في هذه الآية الكريمة يتجسد في هيئة ماله جناح عقيقس ويرز للبيان في أضعف صورة ارتضاه الله تعالى للولد تعبيراً لقطاعه والبر .

ومنه قول الامام علي (رضي) في كتابه إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة في بعض كلامه : « أَرْغَبُ رَأَيْتُهُمْ وَاحْتَلَّ عَقْدُ الْخَوْفِ عَنْهُمْ » (٢) .

فالخوف في هذه الرسالة استعارة مكتوبة ، اذ شبهت بما يعتقد من المواد ويلتص حول الاعناق ثم حذفت هذا التشبيه ورمز اليه بكلمة العقد التي هي من لوازمه وثبتت هذه العقد إلى الخوف فتجسد في هيئة قيد يدل الاعناق والأبدى ويمنع الناس عن الحركة ، واذاً فلا بد أن تحل هذه العقد ليعود أولئك الناس إلى التجاوب والعمل ؟

والثاني الفرضين : هو تشخيص الجمادات وبث الحياة فيها ومنحها الحركة بشئ مظاهرها ، من ذلك قول أشجع :

وجارية لم تشرق الشمس نظرةً إليها ولم يعبثت بأياها الدهسُ
فالشمس التي هي من الجمادات تتشخص في حركات من له نظر ، ومع ذلك فهي لم تستطع أن ترى تلك الجارية وتكحل عينها بجمالها .

(١) الاسراء ٢٤ .

(٢) البصير ص ٤٠ .

المبحث الرابع

الاستعارة المرسحة والمجردة والمطلقة

أولع البلاغيون المتأخرون (١) بتقسيمات الاستعارة وتخرج أنواعها ، فتعطيها في خارج أركانها الأربعة التي هي المستعار منه والمستعار له والقرينة ، ووفقا لها مع التاليفات التي تذكر للمستعار منه أو للمستعار له أو لكليهما أو يهمل ذكره فتقسمها في ضوء أحد هذه الاعتبارات إلى ثلاثة أصرب :

أولها الاستعارة المرسحة :

إن الترشيع لغةً يعني التفضيد والتفوية ، واصطلاحاً هو أن يقرن اللفظ المستعار بعلامت المستعار منه بأي التشبيه به ، كقوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » (٢) : فكلمة « اشتروا » استعارة بقرينة الضلالة إذ أن الضلالة ليست مما يباع ويشتري ، والمستعار له هو الاستبدال والاختيار ، ثم وشحت هذه الاستعارة وتوفيت بذكر ما يلائم المستعار منه من الربح والتجارة .

ثانيها : الاستعارة المجردة :

المجردة لغةً اسم مفعول من الفعل جرد بمعنى قشر ونزع وسلب (٣) . واصطلاحاً هو أن يقرن اللفظ المستعار بوصف المستعار له أي التشبه وملائمته وذلك لتجريد عن بعض المبالغة ، وسلب ما يجعل التشبه به متحدداً مع التشبه كما هو أساس الاستعارة المرسحة والمطلقة : من ذلك قول كثير :

عَسَمُ الرِّدَاءِ : إِذَا لَبَسَ ضَاحِكًا خَلَقَتْ لَضَحِكِهِ رَقَابُ الْمَالِ (٤)
فإنه استعار الرِّدَاءَ المعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه كما يصون الرِّدَاءَ ما يلقى عليه ،

(١) راجع الإيضاح ص ٢٠٠ .

(٢) البقرة ١٦ .

(٣) القاموس في السبب (جرد) .

(٤) غير كثير ، أو واسع . الرِّدَاءُ : العطاء التشبه بالرداء في صون العرض وسر الميوس فقلت : انتقل ملكها إلى أيدي السائلين ، كما ينتقل ملك الزمن إلى الزمن إذا فلت ، أي عبر صاحبه من احتكاكه .

ووصفه بالغمز الذي هو وصف المعروف لا الرداء ، فنظر الى المستعار له ؟
وعليه قوله تعالى : «أَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ» (١) حيث قال :
«أَذَاقَهَا» ولم يقل «كَسَاها» فإن المراد بالإذالة أصابتهم بما استعبر له اللباس ، كأنه
قال : فأصابها الله بلباس الجوع والخوف (٢) :

الثالث : الاستعارة المقلقة :

والمقلقة لغة اسم مفعول من الفعل أطلق بمعنى أرسل ولم يقيد : واصطلاحاً صفة
للاستعارة التي لم تلتزم بما يلائم المستعار منه أو بما يلائم للمستعار له ، كقوله تعالى :
«وَقَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا» (٣) فلفظ اشتعل مستعار
والمستعار له الشيب الذي شبهه بشوائب النار في يافسه والنارته وانتشاره في الشعر
وقشوه فيه واتخذته منه كل ما عدل باشتعال النار (٤) . وكلمة الشيب قريبة الاستعارة
«واشتعل» وإذا لم يذكر في الآية ما يلائم المستعار منه الذي هو الاشتعال وملاتم
للمستعار له الذي هو انتشار الشئ حسيل ذلك التحو فإن هذه الاستعارة مقلقة :
وإذا ذكر ملاتم المستعار منه وملاتم المستعار له معا ، فإن تلك الاستعارة تعد
مقلقة أيضا كقول زهير بن أبي سلمى :

لدى أسد شاكى السلاح مقلق له ليد أنقاره لم تُقسَم
فكسار بنا استعار الشاعر لفظه الأسد لرجل الشجاع وقد ذكر ما يلائم المستعار له
في قوله «شاكى السلاح مقلق» فجرده ثم ذكر ما يناسب المستعار منه في قوله
«وله ليد أنقاره» لم نعلم «فرشحه» واجتماع التجريد والترشيع يؤدي الى تعارضهما
وتناقضهما فكان الاستعارة لم تلتزم بشئ ، وتكون في صورة المقلقة وربيتها من
قوة المبالغة .

-
- (١) التيسر ١١٢ .
(٢) الأيضاح ص ٣٠١ .
(٣) سورة .
(٤) التكتات ج ٣ ص ٤ .

للبحث الخامس

الاستعارة التمثيلية

يشكل مبحث الاستعارة التمثيلية مقومات موضوعية بالوازنة مع الاستعارة المفردة التي تقع في غير الصورة المركبة من متعدد والمتزعة من أمور في هيئة : وقد تعددت في كتب البلاغة المصطلحات الدالة عليه ، فذكر منها القزويني (١) « المجاز المركب » والتمثيل على سبيل الاستعارة والتمثيل مطلقاً ونص على أنه متى قُسا استعماله كذلك سمي مثلاً .

تعريفها :

حد الاستعارة عند القدماء والمعاصرين (٢) هو القفز المركب المتعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي تشبيه إحدى صورتين متزعتين من أمرين أو أمور بالآخرى ، ثم تدخل التشبيه في جنس التشبيه بها ، مبالغة في التشبيه ، فذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه : كقوله تعالى : « والارضُ جميعاً قَبَسَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٣) « اذ للعنَى - والله اعلم - أن مثل الأرض في تصرفها تحت أمر الله تعالى وقدرته مثل الشيء يكون في قبضة الآخذ له منّا ، والجامع يده عليه » (٤) .

فهي بيان معنى تلك الآية الكريمة شبهت صورة ثم حدثت صورة التشبيه وأداة التشبيه وقيمت صورة التشبيه به على سبيل الاستعارة التمثيلية وكقول الرسول الكريم رواية عن أبي هريرة : « إنا أهدكم إذا تصدق بالشر من الطيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - جعل الله ذلك في كفه ، فبرئها كما يراني أهدكم فلو » ، حتى يبلغ بالمرءة مثل أحد » (٥) .

(١) راجع الإيضاح ص ٣٠٤ .

(٢) الإيضاح ص ١٣٠٤ ، فنون بلاغية ص ١٤٣ .

(٣) الزمر ٦٧ .

(٤) الإيضاح ص ٣٠٥ .

(٥) فلو : مظهر على وزن مثلوه لو وعدوه لوه سموه .

والمعنى في الثالين على التزاع الشبه من المجموع : (١)

مضان الاستعارة التمثيلية :

ان الاستعارة التمثيلية كثيرة الجريان في الامثال نحو: « الصبغ صبغت اللبن »
بضرب لمن فرط في تحصيل أمر في زمن يمكنه الحصول عليه فيه ، ثم طلبه في
زمن لا يمكنه الحصول عليه فيه .

وكما يقال لمن يعمل في غير مهله : « أراك تفتح في غير فحم » ، وتخطأ على الماء »
والمعنى : انك في فعلك كمن يفعل ذلك ، وكما يقال لمن يعمل الحيلة حتى يميل
صاحبه الى ما كان ينتج منه بما زال يقتل منه في اللزوة والقارب حتى يبلغ منه
ما أراد ، والمعنى أنه لم يزل يرفق بصاحبه وقتا يشبه حاله فيه حال من يهيئ الى
البحر الصعب ، فيحسبته ، ويقتل الشعر في ذروته وغاربه حتى يسكن ويستأنس (٢) :
وفي قول الشاعر :

منى يسلخ البنيان يوماً تمامه اذا كُنتَ بينه وغيره يتهلّم
استعارة تمثيلية ايضا اذا شبهت حال المصلح بجهد نفسه في الإصلاح ثم يأتي غيره
فيبطل ثمار جهده بحال البنيان ينهض به حتى اذا اوشك أن يتم جاء من يهدمه ،
ووجه الشبه بين هاتين الحالتين هو الحالة الحاصلة من عدم الوصول الى الغاية لوجود
ما يقصد على المصلح جهوده الإصلاحية ثم حلف المشبه واستعير التركيب الدال على
الشبه به للمشبه وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية :

(١) الايضاح ص ٣٠٧ .

(٢) راجع الايضاح ص ٣٠٥ .

المبحث السادس بلاغة الاستعارة وسرّ جمالها

تحدث السلف من البلاغيين والباحثين المعاصرون عن بلاغة الاستعارة وسرّ جمالها ، وحديث القوم في هذا المجال البلاغي من جوانب موضوع الاستعارة ربما يأتي عاما مطلقا مادام مديجوه يستقبلون الاستعارة أداة فنية لتصوير ويلمسونها لغة مبهجة للتخييل .
مدار بلاغة الاستعارة وجمالها .

ويتقيد هذا الاطلاق ويخصص ذلك العموم لدى بعض البلاغيين والنقاد القدامى في موضوعين :

اولهما : تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع بين المتعار منه والمتعار له الى قسمين هما : الاستعارة العامة والاستعارة الخاصة ، فالعامة المبتلاة لظهور السامع فيها ، كقولك : « رأيت أسدا » ، ووردت بغيره . والخاصة القريبة التي لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة كقول طهيل الفتوي :

وجعلت كؤوري فوق ناصية يفتات شحّم سلميها الرحل^(١)
وموضع اللطف والفراة منه أنه استعار الاقتيات لأذهاب الرحل شحم السنام ، مع أن الشحم مما يفتات^(٢) :

وعلى أساس هذا التقسيم فإن الاستعارة العامة التي يدنو فيها وجه الشبه من الطالب حتى يلمسه في أحاديثه اليومية وعباراته العابرة لا يمكن أن تكون بليغة مؤثرة وأن البلاغة واسرار الجمال تكمن في الاستعارة التي يصعد وجه الشبه على أجنحتها في مراتي التخيل ويبعد عن المألوف المبتذل .

(١) الكور: الرحل، الناصية : الشقة القريبة تنجر براكها.

(٢) راجع الايضاح ص ٢٩٢.

والتيهما : ترسيخ الاسس الفنية من الذوق السليم والحس اللغوي الزاهف والاستعمال
 العربي الاصيل : وهذا الموضع ربما يبدو معاكساً في نتائجه وأعدائه للموضع الاول
 ذلك لان الذين كتبوا فيه لم يروا الاستعارة المنطلقة بلا قيود وبلا حدود بلغة ،
 أسس الاستعارة البليغة الجميلة :

والحقيقة ان تقوم هذه الاسس في تحديد الاجزاء التي تحلّى فيها الاستعارة
 مسألة تاريخية ترجع مجذورها الى حركة شعر المولدين والمحدثين التي اثمرت صوراً
 بيانية واساليب تعبيرية خرجت على عمود الشعر العربي فتحزب ازامها علماء اللغة
 والنقاد والبلاغيون فريقين ، فريق يناصرها ويشد من أزر متقليها وفريق يتذمّر
 بها وينتقص من ملكات مبتدعيها . وفيما يتعلق الامر من هذه المسألة ببلغة الاستعارة
 نرى جماعاً تصدّى الآمدي لاستعارات أبي تمام المفرطة في الانطلاق والاغراب
 مارس تصديه الاسس اللغوية واللغوية والعرفية للاستعارة البليغة الجميلة :

ومن صور تصديه هذا أنه أورد قول أبي تمام :

لم تستق بعد الموى ماءً أقل قدّى من ماء قافية يسقيك قوسم
 ثم علق عليه قائلا : « فجعل للقافية ماء على الاستعارة فلو أراد الرواق تصليح
 ولكنه قال : « يسقيك » ففسد معنى الرواق ، لآنك اذا قلت : « هذا ثوب ماء »
 أو « فقط له ماء » لم تجعل الماء مشروباً على الاستعارة فتقول : « ما شربت ماء أعذب
 من ماء ثوب شربته عند فلان » أو « رأيت على فلان » وكذلك لا تقول : « وما شربت
 ماء أعذب من ماء قفا نيك » أو « أعذب من قصيدة كذا » ، لأن للاستعارة حدّاً
 تصلح فيه فإذا جاوزته فسدت وقبحت (١) .
 فني هذا النص يرى الآمدي حدّاً للاستعارة التي تصلح ذوقاً ولا تصد لغة

مرفاً :

سر بلاغة الاستعارة وجمالها :

في
الاستعارة

ولعل عبد القاهر هو البلاغي القديم الذي تمكن أن يرسم لبلاغة الاستعارة وجمالها مضمناها الحقيقي بالتماس هذا المجال وتلك البلاغة في النظم الذي يجمع الاستعارة بناءً هيكلاً متكاملًا مع سائر الالفاظ التي وردت في تركيبها فقد أشار إلى ضروري الاستعارة العامي المتبدل والخاصي النادر وأكد على أن الضرب الثاني لا يوجد إلا في كلام النحول ، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال كقول الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحقاد ^{هتيت} بيتنا وسالت بأعناق المطي ^{الأيام} الأباطح
أراد أنها سالت سيراً حيثما في غابة السرعة ، وكانت سرعة في إن وسلامة كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها ، ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللفظ وعلو الطبقة في هذه القطة بعينها قول الآخر :

سالت عليه شيعاب ^{الحي} حين دعا أنصاره ^{بوجوده} كالدنانير
أراد أنه مطاع في الحي ، وأنهم يسرعون إلى نصرته ، وأنه لا يدعهم لحرب أو نزال خطب ، إلا أنوه وكثروا عليه ، وازدحموا حواياه ، حتى تجدهم كالسيل تجري من ههنا وههنا ، وتنصب من هذا وذلك حتى يقص بها الوادي ويطلق منها ، ومن ينسج الاستعارة ونادرها - إلا أن جهة الفرابية فيه غير جهتها في هذا قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك يصف فرسانه ، وأنه مؤدب ، وأنه إذا نزل عنه والتقى حنانه في قروبس مرجه وقف مكانه إلى أن يعود إليه :

صودته ^{فيما} أزور ^{حياتي} إهماله ، وكذلك كسل ^{مخاطر}
وإذا احبب ^{قربوت} بيعة ^{الشكيم} إلى انصراف ^{الزائر}
فالفرابة ههنا في الشبه نفسه ، وفي أن استترك أن هيئة العنان في موقعه من

فربوس المرسج ، كالهيئة في موقع الثوب من ركني المحني (١) . وليست الغرابة في قوله : « وسالت بأعناق الطلي الأباطح » على هذه الجملة ، وذلك أنه لم يغرب لأن جعل الطلي في مرة سيرها وسهولته ككلاء يجري في الأبطح ، فإن هذا شبه معروف ظاهر ، ولكن الدقة والتلفظ في خصوصية أفاذا بأن جعل « سال » فعلا للأباطح ثم عداه بالياء ، ثم بأن ادخل الأعناق في البيت فقال « بأعناق الطلي » ولم يقل بالطللي ، ولو قال : « سالت الطلي في الأباطح » لم يكن شيئا :

وكذلك الغرابة في البيت الآخر ، ليست في مطلق معنى سال ، ولكن في تعديته بعل والياء ، وبأن جملة فعلا لقوله « شعاب الخي » . ولولا هذه الأمور كلها لم يكن هذا الحسن (٢) :

ففي هذا النص يتجلى لنا في ضوء منهج تحليلي موازن أن الاستعارة لن تكون بليغة جميلة بلبانها وبلفظها القرد وأن ما يعد منها عاميا مبتلا إذا ما تناولها الشاعر الفنان في نظم دقيق وبناء رصين استوى خاصيا نادرا

وعلى هذا الأساس فإنه رأى أن اللفظ المستعار بعينه يبدو بليغا آعلا بمجامع القلوب في بيت من الايات ثم يظهر قبيحا سمجا ينير عنه اللوح في بيت آخر ، وفي بيتنا أن ما ذهب اليه عبد القاهر في تقويم بلاغة الاستعارة وبيان سر جمالها يمثل دعوة نقدية اساسها النظر الشامل في النص الادبي وتلمس وشائج اللفظ المستعار المحتدة في نفس مبدعها والتداخلة مع الالفاظ المتكاثرة في سياقها لرسم الصورة بالخطوط والالوان والاشكال والحجوم :

شروط حسن الاستعارة:

ان المورخ لبلاغة العربية لا يكاد يلمس صدق هذه الدعوة العلمية الفنية بشكل واضح فيمن جاء بعد عبد القاهر من البلاغيين بل ان بعض هؤلاء البلاغيين من امثال

(١) التشبيه هنا واقع بين مفردين باختيار ماقتضيه كل منهما من الهيئة لا أنه واقع بين شيئين وفي « احاديث » استعارة شائعة من اطلاق الاحياء على قتاة المدن .

(٢) دلائل الايجاز ص ٥٩ - ٦٠ .

السكاكي ومن تتبع خطاه قد حولوا دراسة بلاغة الاستعارة وسر جمالها إلى وصايا ونصائح مفتنة في قواعد :

فقد تصدى السكاكي نفسه لهذه المسألة الدوقية الفنية بقوله : « فاعلم أن الاستعارة لها شروط في الحسن أن صادفتها حسنت وإلا عريت عن الحسن ، وربما اكتسبت قبحاً وتلك الشروط رعاية جهات حسن التشبيه : بين المستعار له والمستعار منه في الاستعارة بالتصريح التحليلية والاستعارة بالكناية وأن لا تنضمها في كلامك من جانب اللفظ رائحة من التشبيه ولذلك نوصي في الاستعارة بالتصريح أن يكون التشبيه بين المستعار له والمستعار منه جلياً بنفسه أو معروفاً سائراً بين الأقسام والأخرجت الاستعارة عن كونها استعارة ودخلت في باب التعمية والافتاز كما إذا قلت : « رأيت حوراً مسجياً ألوان الفرس » وأردت انساناً مؤدباً في حياءه أو قلت : « رأيت ابلاً مائة لا يجد فيها راحته » وأردت الناس ، وأما حسن الاستعارة التحليلية فيحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعة لما كما في قوله فلان بين أنياب النية ومخالبها ثم إذا انضم إليها المشاكسة كما في قوله عز اسمه : « يدٌ الله فوق أيديهم » (١) كانت احسن وأحسن وقلما تحسن الحسن البليغ غير تابعة لها ولذلك استهجن في قول الطائي :

لأنسيتني ماء السلام فأنسى صبّاً ، قد استلذتُ ماءً يكاكي (٢)
المظاهر الحقيقية لبلاغة الاستعارة وجمالها :

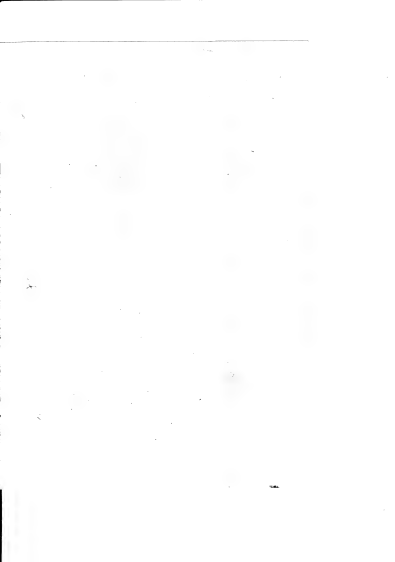
ولمنا للاطلاع هنا أن قواعد بيان حسن الاستعارة بالاضافة إلى ما قلنا تغفل قضية الإبداع في صياغة الاستعارة وتهمل دور الخيال في اتخاذها وسيلة للتعبير بالتصوير والتأثير بشحناتها النفسية ومضاتها الحسية والفكرية التابعة عن التجربة الصادقة :

والاستعارة (٣) بعد ذلك تفيد شرح المعنى وتعمل في النفس مالا تفعل الحقيقة ، وتفيد تأكيد المعنى والمبالغة فيه والابحاز وتحسين المعنى وإبرازه ، ثم هي إلى جانب ذلك كله طريق للتوليد والتجديد ، لأنها تكشف عن صور جديدة ومعان بدئية :

(١) الفتح ١٠.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٨٣.

(٣) راجع قانون بلاغية ص ١٦٠.



كتاب
التعريض

الفصل الخامس

الكتابة والتعريض

المبحث الأول

الكتابة وأنواعها

الكتابة لغة :

الكتابة : هي مصدر وفعله ثلاثي جاءت لامة ياء واولوا ، قليل كنى بكنى
وكنا يكنو : وذكر ابن منظور في كنى (١) ثلاثة لوجه :
أحدها : أن يكنى عن الشيء الذي يستحش ذكره .
والثاني : أن يكنى الرجل باسم توفيراً وتعظيماً :
والثالث : أن تقوم الكنية مقام الاسم فيعرف بها :

وتلغني هذه الالوجه الثلاثة في مادة كنى معنى اللوبا رئيساً هو أن لا نمر عن
الشيء بظاهر ما وضع له من تعابير : وقد اثار العلماء الاسلاف (٢) مصدر هذه
الذي هو الكتابة في مؤلفاتهم بدلولات متقاربة :

الكتابة اصطلاحاً :

ولعل ابن المعتز أول من حدد لهذا الفن عنوانه التعريض والكتابة (٣) في الكتب
البلاغية المتخصصة وساق له شواهد من الترو الشعر : ومما يلاحظ على عمله هذا
انه لم يعرف الكتابة ، ولم يفرق بينهما وبين التعريض كما انه لم يوجه شواهدهما
ولم يجرهما على حد مقرر ، وإنما ساقها سوفاً بلا شرح وتبيين : ويبدو أن الكتابة
قيمت على هذه الحال في العهود
القرن الرابع للهجرة وقلت وجوه
معانيها اللغوية الثلاثة نتجكم
في دراسة البره لشواهد الكتابة ومنتهاها والموال القضاء في النصوص القرآنية

(١) راجع لسان العرب (كنى) .

(٢) راجع فنون بلاغية ص ١٦١ .

(٣) راجع البديع ص ٦١ .

إني أوكوها على غير ظواهر معانيها ، وإن كان له فضل في ذلك على ابن المعتز البلاغي ، ذلك لأنه لم يترك مواضع الاستشهاد بلا تبين وشرح بل حللها ووجه معانيها حسب المراد منها فقد أورد قوله تعالى في المسيح واهمه مريم : « كائناً ما كائناً الطعام » (١) : ثم شرح الكناية في هذه الآية قائلا : « كناية باجماع من قضاء الحاجة ، لأن كل من أكل الطعام في الدنيا أتى ، يقال : نجا وأنجى إذا قام لحاجة الإنسان » (٢) . وربما يلتبس العذر للمبرد في ذلك بما عرف عنه من اشتغاله بالدراسات اللغوية والنحوية ، ولكن هذا العذر لا يمثل لابي هلال العسكري الذي تجرد في كتابه الصناعتين لمباحث بلاغية ونقدية صرفة . فلقد خلط بين الكناية والتعريض كما فعل ابن المعتز وأدار مصطلح الارادف مدار الكناية ، واعتمد مصطلح المماثلة في شرح ما هو من الكناية قائلا : وهي وأن يريد المتكلم العبارة عن معنى فيأتي بنفسه تكون موضوعة لمعنى آخر ، إلا أنه ينبغي إذا أوردته عن المعنى الذي أرادته كتقولهم : « فلان نقي الثوب » يريدون أنه لا عيب فيه : وليس موضوع نقاء الثوب البراءة من العيوب وإنما استعمل فيه تحيلاً (٣) .

فصير « فلان نقي الثوب » كناية عن النسبة وبدل على معنى لازم له هو البراءة من العيوب ، ولكن أبا هلال — كما يظهر — من ذلك كله لم يكن على بينة من مدلول مصطلح الكناية كما لم تستقر لديه مدلولات اصطلاح التعريض والارادف والمماثلة .

وقد كان هذا شأن ابن رشيق القيرواني أيضاً ، ذلك لأنه قد ادخل الكناية في باب الإشارة وعدده من أنواعها : الروحي والتفخيم والأيام ، والتعريض ، والتلويح ، والتشليل ، والرمز ، واللفظ ، والجن ، والحاجة ، والتعبية ، والحذف ، والتورية (٤) وسواها مما استوى بعضها أنواعاً من للكنايات واستقل بعضها الآخر عن علم البيان والنظري تحت موضوعات من علم الاليج كما سنرى .

(١) الآية ٧٥ .

(٢) الكامل ج ٢ ص ١٢١ .

(٣) كتاب الصناعتين ص ٢٥٢ .

(٤) راجع العدة ج ١ ص ٢٧١ .

تعريف الكتابة :

اتخذت الكتابة طابعها المميز ومدلولها الاصطلاحي العلمي وترسخت شواهدنا على يدي عبدالقاهر الذي عرفها بقوله : « الكتابة أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردده في الوجود ليوحي به إليه ويحصله دليلاً عليه .

مثال ذلك قولهم : « هو طويل التجاد » يريدون طويل القامة ، « وكثير رعاد القدر » يعنون كثير القرى ، وفي المرأة « تقوم الفضي » والمراد : أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفئها أمرها . فقد أرادوا في هذا كله - كما ترى - معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر ، من شأنه أن يردفني الوجود وإن يكون إذا كان : أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال التجاد ؟ وإذا كثرت القرى كثرت رعاد القدر ؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفئها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الفضي » (١) .

ويعد عبدالقاهر عاش معظم البلاغيين على ما كتبه عن الكتابة مستبشرين بتعريفه أياها ومكررين شواهد. ومن بين هؤلاء البلاغيين يبرز السكاكي (٢) منظرًا بتعريف الكتابة ضمن مبحث دلالات الالفاظ ، كما يأتي القزويني ليجسد ذلك التعريف في قالبه المنطقي قائلا : « الكتابة : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حيث » (٣) .

الفرق بين الكتابة والمجاز :

وفي ضوء هذا التعريف فرّق مابين الكتابة والمجاز بقوله : « الفرق بينهما وبين المجاز من هذا الوجه ، أي من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه ، فإن المجاز يتأني ذلك فلا يصح في نحو قولك : « في الحمام أمدد » أن تريد معنى الأسد من غير تأورك ، لأن المجاز مؤزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة ، ومؤزوم معاند الشيء بمعاند لذلك الشيء .

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٢ .

(٢) راجع مقتايع العلوم ص ١٨٩ .

(٣) الايضاح ص ٣١٨ .

وفرق السكاكي وغيره بينهما بوجه آخر أيضاً ، وهو أن مبنى الكتابة على الانتقال
من اللازم إلى اللازم ، ومبنى الخباز على الانتقال من اللازم إلى اللازم .
وفيه نظر ، لأن اللازم ما يمكن مازوفاً ينتج أن ينتقل منه إلى اللازم ، فيكون
الانتقال حينئذ من اللازم إلى اللازم .

ولو قيل : القزوم من الطراوين من الكتابة دون المجاز أو شرط لها دونه ، القاطع
هذا الاعتراض ، لكن إليه منع الاختصاص والاشتراف (١) :

إن هذه الأوجه من التفریق بين الكتابة والخباز في أصلها وودعها لا تستوي حدوداً
فاصلة في ضوء الشواهد ، وذلك لأن الكتابة والخباز في جوهرهما من أساليب البيان
وعليه فلا يمكن أن تملك الكتابة مثلاً على ظاهر معناها ولا يمكن أن تكون كذلك
دائماً والأخيراً فقد تيسرنا الفينة ونصبح ميزانها التباين ونصبح لفظاً ظاهراً للمنى
حقيقي الملول .

ومن هنا فإن محاورات تولد البلاغيين بهذا الصدد صحت إلى أمثال تعريف
الكتابة وإقامته حداً بوضوحاً واضحاً ما .

أركان الكتابة :

تتألف الكتابة في بنائها لتعبري من ثلاثة أركان :

أولها : اللفظ ، وهو دلالة اللفظ الظاهرة التي تقوم دليلاً على مراد التكلم :
والثاني : المعنى ، وهو المعنى اللازم للمعنى به الذي يرمي إليه الناظر
بالكتابة .

والثالث : القربة الظلية التي يفرزها سياق الكلام لترشد إلى المعنى عنه وتنتج
لرادة المعنى اللفظي به .

(١) الإيضاح ص ٣١٩ .

أقسام الكتابة :

قسم البلاغيون الكتابة أنواعاً متعددة نستطيع أن نبينها على مجموعتين :
أولاهما : مجموعة أنواع الكتابة على أساس طبيعة المكتنى عنه ، وتشمل على ثلاثة أنواع هي الكتابة عن الصفة والكتابة عن الموصوف والكتابة عن النسبة .

والثانيهما : مجموعة أنواع الكتابة في ضوء السياق والوسائل التي نوصفنا إلى المكتنى عنه ، وبرزها أربعة أنواع ، هي التعريض والتأويل والرمز والاشارة .

أنواع الكتابة :

النس البلاغيون المتأخرون (١) أنواع الكتابة وفق المكتنى عنه ، وفي ضوء ماهيته وطبيعته تقسموها على ثلاثة أنواع متميزة :

أولها : الكتابة عن الموصوف : وهو المراد به غير صفة ولا نسبة ، حيثما ماخر معنى واحد كقولنا : والضيفاء كتابة عن زيد ، ومنه قوله كتابة عن القلب :

الضالوبين بكل أبيض تقدم والطاهين بملح الإنسان (٢)
ونحوه قول البحري في قصيدته التي يذكر فيها قتلته الذئب :

فأنبتتني أخرى ، فأنشئت تصلتها بحيث يكون القلب والرسالة والحيث (٣)
لقوله : وبحث يكون القلب ، والرحب ، والحقد ثلاث كتابات لا كتابة واحدة ، لاستقلال كل واحد منها بالادة المقصود .

ومنها ما هو مجموع معان ، كقولنا كتابة عن الإنسان : هـ حي يستري لقامة عريض الاظفار ، وشرط كل واحدة منهما أن تكون مخصصة بالمكتنى عنه لاستعلاء ، ليحصل الانتقال منها إليه (٤) .

(١) راجع مفاتيح العلوم ص ١٩٠ ، والإيضاح ص ٢١٩ .

(٢) أبيض : حيث أبيض . مقدم : تقاطع الاصطاف : الاحتاد .

(٣) أنشئت : دفنت . غلبت : التصل : حميدة الرعب والضمير في حمله ، تصور أحد به .
اللب : العقل الذكي .

(٤) راجع الإيضاح ص ٢١٩ .

واللاحظ أن ما كنى عنه في هذه الشواهد : زيد والقلب والاكسان ، وكل واحد منها موصوف بمكن لعه . وعليه قوله تعالى كتابة عن النساء : « أَوْ مَنْ يَشْتَأْ فِي الْحَبْلَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مَبِينٍ » (١) .

لأنها : الكتابة عن الصفة : والمراد الصفة المعنوية ، كالجود ، والكرم ، والشجاعة ، وأمثالها ، لا التعت كتقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » (٢) . فجعل اليد مغلولة إل العنق في هذه الآية الكريمة كتابة عن البخل ويجعلها مبسوطة كل البسط كتابة عن الاسراف ، والبخل والاسراف كلاهما صفتان معنويتان : ومن ذلك قول ابن الدبيرة :

أَبِيحَى أَلَى يَمْنَى يَدِيكَ جَعَلَنِي فَطَرَحَ أُمُّ صَبْرَتِي فِي شِمَالِيكَ ؟
لقوله : « في يمنى يديك جعلني » كتابة عن إكرام المنزلة ، وقوله جعلني في شماله كتابة عن هوان المنزلة . ولما كان الكنى عنهما إكرام للمنزلة وهوانها صفتين معنويتين فتوح الكتابة فيهما : كتابة عن الصفة وكتول الشاعر :

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمِيْ كَلِمَاتٍ وَلَكِنْ عَلَى أُنْقِدَامِنَا تَقَطَّرُ الدَّمَا
ففي هذا البيت كتابة عن الصفة لأن الكنى عنه هو الثبات في المعركة ومواجهة الأعداء وجهها لوجه ، وعدم الفرار والتجبر الدال عليه هو قوله ولسنا على الأعقاب تدمي كلمات .

واللهي : الكتابة عن النسبة ، وهي أن يأتي بالمراد منسوباً إلى أمر يشتمل عليه من هي له حقيقة والثابة (٣) منها تلخيص صفة أو مجموعة صفات بموصوف كتقول زياد الأصم :

إِنَّ السَّلَاحَةَ وَالرُّومَةَ ، وَلَتَنَدَى فِي قُبَيْرِ صَبْرَتِنَا عَلَى ابْنِ الْحَرْجِ
قَالَ حين أراد أن لا يصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحرج جمعها في قبة ،

(١) الزخرف ١٨ .

(٢) الاسراء ٢٩ .

(٣) راجع البرهان في وجوه البيان ص ١٠٠ .

تبيهاً بذلك على أن محلها ذو قبة ، وجعلها مضمومة عليه ، لوجود ذوي قباب في الدنيا كثيرين ، فأعاد اثبات الصفات المذكورة له بطريق الكتابة (١) .
 وإذا كانت المكتوبات عنها صفات انصف بها المدحج عن طريق نسبتها إلى قبة كانت تلك الكتابة على هذا الأساس كتابة عن نسبة . ومنها قول الشافعي في وصف امرأة بالغة :

بَيْتٌ بِمَنْجَلٍ مِنَ الْقَوْمِ بَيْتُهَا إِذَا مَا يَبُوتُ بِالْمَكْلَمَةِ حَلَا .
 فالشاعر هنا وصف بيت تلك المرأة بالنجاة من اللامة ، وكان مراده أن .
 المرأة نفسها بهذه الصفة على سبيل الكتابة عن النسبة .
 وقسم البلاغيون للناحرون الكتابة في ضوء السياق الذي يفهم منها ، وفي ضوء الوسائط التي توصل القارئ إليها على أربعة أنواع :

أولها : التعريض :

والتعريض لغة هو خلاف التصريح ، والتعريض جمع معراض من التعريض وفي حديث ابن عباس : أحب بمعارض الكلام حمر التعمد أما اصطلاحاً فهو أن يطلق الكلام ، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق ومن ظرف القول : وعند السكاكي : متى كانت الكتابة عرضية كان إطلاق اسم التعريض عليها مناسباً (٢) :
 وقد فصل ابن رشيق بين الكتابة والتعريض وجعلهما نوعين مستقلين من باب الإشارة ، فقال : ومن أنواعها أي أنواع الإشارة التعريض كقول كعب بن زهير ،
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فِي فَيْتَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَاتِلُهُمْ يَطْرُقُ مَكَّةَ لَمَّا أَمْلَسُوا زُؤُلُوا

(١) راجع الإيضاح ص ٢٢٤ .

(٢) راجع مفتاح العلوم ص ١٩١ .

فأعزاهن - من بين الخطاب - وقيل: بأي بكر رضي الله عنها - وقيل:
 رسول الله صلى الله عليه وسلم - شريفي - مدح ثم قال:
 "فأعزاهن" أي: جعلهن الحجاب الزمير، فاعلمن - فخرن - إذا عرد السود التائب
 قيل: أنه عرس في غدا البيت بالانصار، ففضبت، الانصار، وقال المهاجرون:
 "فأعزاهن" أي: فاعلمن، حتى صرح بمحهم في آيات يقول فيها:

من حوله كبر الحياة فلا يزال في منقب من صافي الانتصار
ومن ملج القدر على نوال ابن بن حريم الأسدي ليشرب من مروان يمنحه ويعرض
يكفك كالنار في أعقاب عبد العزيز حين قتله من مصر على يدي نصيب الشاعرون لاء:
"أنا" "لناج" "نجا" في حيرتك
بصالحه "أنا" "نشر" حين يُحشي
فإذا من غفي الشعرى ، لأنه أوهم السامع أنه أراد التالفة بذكر الظلما لاسما
أنا قال من غفي الشعرى - وإنما أراد الكلف.

ومن أقوال النحويين مما يؤول عن جميع الكلام قول الله عز وجل : وذوق
ذلك أنث العزير الكريم: (١) أي : الذي كان يقال له هذا أو يقوله ، وهو أبو جهل
لأنه قال : ما بين جليلها - يعني مكة - أعزمني ولا أكرم ، وقيل : بل ذلك
على معنى الاستنزاء (٢) (٧).

يتضح من هذه التوافقات تطابقات ابن رشيون عليها ، أن التعريض قد يكون مدحاً وقد يكون ذمّاً ، وأن القارئ لا يترك منه المعنى المكنى عنه إلا إذا كان ملماً بالسياق الذي ورد فيه ، وأن هذا السياق يظهر بوسائل تنوع بين ظرف القول ومناصبه كما هو الحال مع آيات كعب بن زهير وبين أحدث القارئ كما هو أمر أبي ابن خريم الأسدي وبين أسباب القول ودواعيه كما هو شأن الآية الكريمة :

(١) المجلد ٤٩.

(٢) المبدأ ٢٧٢، ج ٢

وسمى هذا فان متارلس مصطلح التعريف لهذا في لا يتيسر عند ابن رشيق ، ولا يستري في نفسه ذلك تعريفاً محدداً بغيره عن سائر أساليب الكتابة .
 وقد اتفق ابن الأثير إلى هذه الحقيقة وأكد أن بلاغرين قد خطوا بين الكتابة وتعريف وتوضيح لهذا شاهد صدق في الذين : ومن هنا عرف التعريف بقرئ : وإنما التعريف : فهو القيد الذي يدل على الشيء من طريق المقهورم - لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي - فالتقيد إذا قلت أن تتوقع سلة ومعرفة بغير طلب : هو القيد الذي لا يحتاج ، وليس في شيء ، وأنا عريان والبرد قد أكلت ، فان هذا واشتاده تعريف بالطلب ، وليس هذا القيد موضعاً في مقابلة الطلب لاحقة ولا مجزأ ، إنما دل عليه من طريق المقهورم ، وإنما سمي التعريف تعريفاً لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أي من جانبه ، وعرض كل شيء جليته (١) .
 وبهذا التعريف المتوازن بين الكتابة والتعريف وضع الحد الفاصل لهذا الفن ومميزه نوعاً من أنواع الكتابة الذي يستخلص منه المعنى عنه بواسطة السباق وسامية القول .

ثانياً : التلويح :

والتلويح لغة : هو أن تشير إلى شيء من بعد .
 واسطلاحاً : هو الكتابة التي بينها وبين المعنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما في كثير الرماد (٢) .
 فالمعنى عنه في هذا الشاهد هو الكرم ويتوصل القارئ إليه بخمس وسائط :
 أولاً : اعداد ما يطبخ من جزور وسواء .
 وثانياً : إيقاد الخيران .
 وثالثها : الطبخ واستهلاك الوفود :
 ورابعها : دعوة الضيفان .

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) الألبان ص ٢٢٧ .

وخاستها : ترك الرماد الكثير الذي يستل من عل الكئي عنه صفة للممدوح .
ونحو قول الشاعر :

ومالكُ فسيُّ من حَبِيبٍ لِقَاتِي جبانُ الكُتُبِ مهزولُ الفَصِيلِ
فقد كُتِيَ عن كرمِ الممدوح بأنه جبان الكلب ، مهزول الفصيل ، فان الفكر
ينتقل إلى جملة وسائله .

واللهي : الرمز :

والرمز لغة : أن تشير إلى قريب منك خفية - بنحو شفة - أو حاجب ، وأصله
الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم ، ثم استعمل حتى صار الإشارة وقال القراء :
الرمز بالشفين خاصة (١) .

واصطلاحاً : هو الكتابة التي قلّت وسائلها إلى الكئي عنه مع غطاء نحو :
« فلان عريض القفا » أو « عريض الوسادة » كتابة عن بلادته وبلاسته . فالكئي عنه
خفي غير ظاهر ويتوصل إليه السامع بواسطة واحدة هي عرض القفا وكبير الرأس
وهما صفتان تعارفت العرب على أن المتصف بهما ليس من الأذكياء وكقول أحد
القديماء يصف امرأة قتل زوجها وسيئ :

عَلَّتْ لَهَا مِنْ زَوْجِهَا عَدَّةُ الْحَصَى مع الصبح أو معْ جُنْحٍ كُلِّ أَصْبَلٍ
يريد أنني لم أعطها عقلاً ولا قوياً بزوجها ، إلاّ اللهم الذي يدعوها إلى عدّة
الحصى (٢) .

(١) السدة ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) السدة ج ١ ص ٢٧٤ .

وابعها : الأيماء أو الإشارة :

والأيماء لغة : أن تشير إلى قريب منك إشارة واضحة :

واصطلاحاً: هو الذي قلّت وسائله ، مع وضوح المقصود ، كقول أبي تمام (١) :

أَبِينُ ، فَمَا يَزُونُ سِوَى كَرِيمٍ وَحَسْبُكَ أَنْ يَزُونَ أبا سعيدٍ
لأنه في إقادة أن أبا سعيد كريم غير خاف ، وكقول البحتري :

أَوْ مَا رَأَيْتُ لِلْجَدِّ أَلْفَى رَحْلَةً فِي آلِ طَلْحَةَ ، ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلْ ؟
لأنه في إقادة أن آل طلحة أُمَاجِدٌ ظَاهِرٌ .

(١) داسع الأيقاع ص ٢٢٨ .

مبادئ البلاغة :

رعد البلاغيون القديس المبادئ التي تنظم الكتابة وتسير عن طريقها لتسري
واللوتية من شؤون الحياة والأخلاق بالشبهة . ومن هؤلاء البلاغيين ابن أبي
الاصح للمصري الذي قال بهذا التصدد : « الكتابة هي عبارة عن تعبير لتفكيركم
عن المعنى الصحيح بالنقطة . وعن الشخص بالطاهر : وعن القادر
بالتعريف ، هذا إذا قصد التشكك في لغة كلامه عن العيب ، وقد يقصد بالكتابة
عن ذلك ، وهو أن يستر عن نفسه بالسهل ، وعن القبيح بالاجتهاد ، أو يأتي
لتصميمه والاعلان أو لتسري ومحاكاة (١) .

فالكتابة بشئ أنواعها التي سر بها تفصيل أساليبها تحقق أهدافاً لغوية وفنية
وفكرية يمكن تجسيدها بعبارة تؤكد أن هذا الفن اللغوي يمتاز بحسن التعبير وعمق
التأثير .

سر بلاغة الكتابة :

كشف عبد نقاهر عن السري قدرة الكتابة على ذلك كله وعلى البلاغة ،
فبين قبل كل شيء : أنه قد يجب الجميع على أن الكتابة تبلغ من الإفصاح ،
والعريض أوقع من التصريح ، (٢) ثم فصل ما أوسع عليه التجميع وأورد شواهد
من الكتابة والمجاز والامتداع التمثيلية موازناً بينها وبين معانيها الحقيقية ، وطرح
السؤال الذي يستفسر عن علة بلاغة هذه الشواهد ومثالاتها ، وأجاب عنه بقوله :
« اعلم أن سبيلك .

أولاً : أن تعلم أن ليست المزية التي تتبعها لهذه الاجتناس على الكلام الشرورة على
ظاهر ، والمبالغة التي تدعى لها في نفس المعاني التي يقصد التشكك بها بخبره ، ولكنها

(١) يدع القرآن من . . .

(٢) دلائل الامجاد من . . .

في طريق إثباته لها وتقريره إياها : تفسير هذا : ان ليس نفس اللفظ من الكتابة
أبلغ من التصريح بالك لما كتبت عن المعنى زدت في ذاته ، بل انطوى ذلك
زدت في الباطن ، فجعلته أبلغ وأكد واشد : فليت الثرية في فوهي : بعد قراءة
الله دل على قرى أكثر ، بل انك اثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ : وان كنت
أبغايا هو اشد ، وأدعيت دعوى بها أنطق ، وبصحتها أوثق : (١٦) :

وبعد هذا أوضح رأيه في أن مزية للكتابة وسر بلاغتها بفيضان من آيات طريفة
تصير واسلوب اقادة معنى ، فربط الامر بنظريته في النظم وقال : لقد سطر
يفرلون : ان من شأن هذه الاجناس ان تكسب المعاني قبلا وعصلا ، وتوحيها
شرقا ، وأن تقطعها في القوس السامعين وترفع القدارها عند فتحها
لايريدون الشجاعة والقرى : واشبه ذلك من معاني الكلام القرملة : وانما يعرف
أثبت معاني هذه للكلم لأن تثبت له ويخير بها عنه :

هذا ما ينبغي للعقل أن يبحث على ذكر منه ابدأ وأن يعلم أن ليس لنا انما نحن
نكلمنا في البلاغة والقصة مع معاني الكلام للقرعة شغل : ولا هي شغل
وانما نعود إلى الاحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب : (١٧)

والكتابة في ضوء هذا النص ليست مجرد أداء معنى بألفاظ لا : هي عناصر
مدلوها ، وانما هي صياغة فكرة تتبع من وجدان صاحبها فتستند للخطاب وتسبق
تعبيرا لكل لفظ منه مكانة ووشجته التي تربطه بما أتى قبله وما يزد بعده ما يؤول
بالعالي وظلال المعاني والاحاسيس إبداعاً لو تعرض ذلك اللفظ أو سواه
موقعه لمعجز التعبير كله عن أداء مهمته البلاغية :

تأثير الكتابة في الخطاب :

هذا من جانب الكتابة لتعبير وأداة تؤدي عن صاحبها ، اما من جانب
تأثيرها في الخطاب وعقل موقف له مما يسمع فان عبد القاهر قد قال : (١٨) واد

(١) دلائل الامجاز ص ٦٦ .

(٢) دلائل الامجاز ص ٥٧ .

عرفت مكان هذه الثروة والمبالغة التي لا تزال تسمع بها ، وإنها في الآليات دون
الميث فإن لها في كل واحد من هذه الاجناس سبباً وعلّة .

أما الكتابة : فإن السبب في أن كان للآليات بها مزية لا تكون لتفصيل ان كل
عقل يعلم - اذا رجع إلى نفسه - أن البات الصفة باثبات دليلها وإيجابها بما
هو شاهد في وجودها أكد وأبلغ في الدعوى من أن تنجي إليها فقيتها هكذا ساذجاً
خفلاً : وذلك أنك لا تدعى شاهد الصفة ودليلاً إلا "والامر ظاهر معروف ، وبحيث
لا يشك فيه ، ولا يظن بالمخير الجوز والغلط " (١) .

ويبدو من هذا التحليل أن عبد القاهر يقيم بلاغة الكتابة على أساسين متلازمين :
أولهما : أساس لغوي في ينهض على رؤية في أن الكتابة أسلوب ، ونظم وصوره ،
وإنها ليست كلمات مفردة وجمل متفككة وأجزاء ملققة .

والثاني : أساس نفسي عقلي يمتد ما بين الأدب المنشيء للكتابة والمبدع لأفانيها
وبين المخاطب السامع لها ، ويشتمل فيما تصطب مع الكتابة من دليل وشاهد
يختاره الأديب عن وعي أو عن غير وعي فيكون رسولاً منه لاقتناع مخاطبه
وسامعه : وعلى هذين الأساسين تتولد من الكتابة معانيها المسترسلة المتتابعة المتجددة
التي تصل من وجدان مبدعها وفكره إلى عقل منلقها وقلمه .

بلاغة الكتابة بين القدامى والمعاصرين :

يحدثنا تاريخ البلاغة العربية بالشواهد والنصوص ، ان البلاغيين الذين أتوا
بعد عبد القاهر واستمروا راية البحث البلاغي من بعده ، لم يزلوا على مقالته في
بلاغة الكتابة وإنما لمصوه وكرروا شواهده أو أطالوا فيه ونسجوا على منوال
أسلكه ، فتركوا لنا بعد ذلك كله الموضوع في أثناء كتابه « دلائل الإحجاز » ،

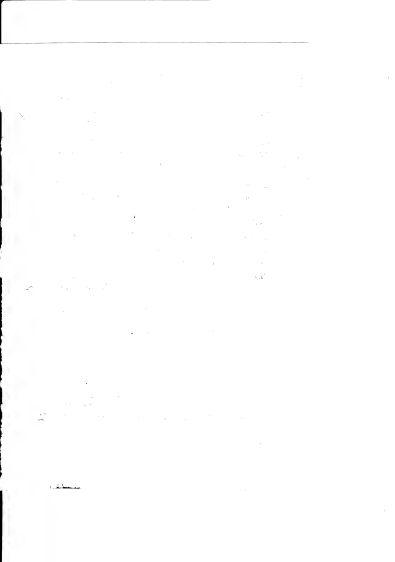
(١) دلائل الإحجاز ص ٥٧ .

وأية ذلك أن القزويني الذي يعدّ وارث علم البلاغة عن السكاكي بتلخيص آرائه وإذاعة تلخيصه أيضاً تلقفه مع تلخيصه الشراخ ومتقدّوه لم يزد في الكلام على بلاغة الكتابة عن إيراد آراء عبد القاهر وتلخيص علمه بقوله : « والسبب في ذلك (بلاغة الكتابة) أن الانتقال في الجميع من المألوم إلى اللازم ، فيكون اثبات المعنى به كدعوى الشيء ببيّنة ، ولا شك أن دعوى الشيء بيّنة أبلغ في البتة دعواه بلاينة » (١) .

وأما كان الأمر فإن الدراسات المعاصرة في الكتابة وسائر أساليب البيان العربي لم تفتح باباً جديداً على مسألة بلاغة الكتابة ، وإن كان بعض الباحثين المعاصرين قد ربط بين الموضوع وبين تداعي المعاني (٢) والرمز إلا أن هذا الربط ينبغي ألا يتخلل على علته ولا سيما إذا كان يؤكد الصلة الوثيقة بين الرمز الأدبي المعاصر والكتابة العربية الأصيلة ، ذلك لأن مفهوم الرمز في البلاغة العربية لا يمكن أن يدخل في الألفاظ والمعاني التي أولع بها طائفة من أدبائنا المعاصرين الذين تجرّدوا لتقليد مدرسة الشعراء السرياليين الذين ظهروا في أوروبا ، وإنما هو فن من القول وفرع في دوحة الكتابة يدل على المكتسب عنه دلالة خفية تكشف عنها القوافي والوسائل ويدل عليها السياق المعقول والمفهوم .

(١) الإيضاح ص ٢٢٩ .

(٢) راجع كتاب دراسات في علم النفس الأدبي ص ٤٩ ، وتكون بلاغة ص ١٩١ .



الفصل السادس

تطبيقات

(١)

لاخت أكثر ورويت نصوص في البلاغة العربية بمسند أثر شيان في الجمع ومينة سلطانته على النفوس

فلش من هذا المعلق رأي عبد القاهر الجرجاني (١) في أن البيان يعرض العالي الذائقة ، ليجد من السامعين رضا وقناعة .

(٢)

عند سيويه أصاليب بيانية مستقيمة في التركيب كلبا في الدلول فقال في تصنيف التعاليف : وأما المستقيم للكلب فهو ك : حملت الحمل ، وشربت ماء البحر ونحوه (٢) وشاع في الدراسات النقدية والبلاغية القديمة قولهم : وغير الشعر أشبه ، وقال البحري في بشارة له مع الفلاسيف والناطقة :

كلقصونا حكود متعلقكم في الشعر يكفي عن حيدله كذبته
وحل القيسى من هنا قول بعضهم : وغير شعر أسدده ، وروي قول الشاعر في هذا المعنى :

ولئن أحسن بيت أنت ذلك بيت يقال إذا انشدته صدكسا
والحقيقة أن هذه القضية البلاغية والنقدية التي أثارها سيويه على ذلك الشعر ووجدت لها مدى في مواقف الشعراء والبلاغيين (٣) والنقاد - تقوم أساسا على نظرية صدق التجربة الأدبية في تقويم الأصاليب لبيانية .

(١) تراجع كتب اسرار البلاغة ص ١٠٨ وما بعده نواتف على هذا الرأي

(٢) في كتاب ج ١ ص ٧٠

(٣) تراجع اسرار البلاغة ص ٢٢٩

أعرض الخطوط العامة لهذه النظرية مقوما نصين أدبيين : أحدهما من عصر
ما قبل ظهور الاسلام ، والثاني من العصر الحديث :

(٣)

مما يدل على أن نظرية البيان في البلاغة العربية أصيلة في نشأتها بعيدة عن التأثير
الاجنبي في تطورها ، أن عبد القاهر الجرجاني ربط بين مصطلح البيان وأي من
الذكر الحكيم (١).

نتج في ضوء هذا الربط مادة «بين» ومشقاتها في القرآن الكريم (٢) :
وفي الحديث النبوي الشريف (٣) محلا للنصوص التي وردت فيها لتجسيد أصالة
نظرية البيان العربي وملاحمها الفكرية والفنية .

(٤)

الملاحظ :

أن البلاغيين (٤) مذاهب مختلفة في حصر موضوعات البيان وترتيب مباحثه ،
أعرض أبرز هذه المذاهب مثبنا رأيك فيما تستحسنه خطة للدراسة للبيان العربي :

(٥)

تعرض للبرد تشبيهات في ضوء منهج لغوي تقريبي تبين اسمه تفصوص منها
قوله :

ومن تمثيل امرئ القيس العجيب قوله :

«كَأَنَّ عَيْنَ الْوَحْشِ حَوْلَ عِيَالِنَا وَأَرْحَافَ الْجَزَعِ الَّذِي لَمْ يُشْفَسِ» (٥)

(١) يراجع اسرار البلاغة ص ٢.

(٢) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٣) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف.

(٤) يراجع اسرار البلاغة ص ٢٨.

(٥) الخبز : عزه أبو يونس ص ٥٥.

ومن ذلك قوله :

إذا ما ألريا في السماء تعرّضت تعرّض الرشح الفصل (١)
وقد اکتروا في ألريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ولا بما يقارب سهولة هذه
الالفاظ

ومن عجيب التشبيه قول ذي الرمة :

وَرَدَتْ أَعْصافاً والرّيا كأنّها على فِجَمِ الرّاسِ ابْنُ مَاهٍ مُحَكَّمٌ (٢)
وقوله :

فجاعت بنسج العنكبوت كأنه على عَصَوبِها سَابِرٌ مُشَبَّرٌ (٣)
وتأويله أنه يصف ماءً قديماً لا عهد له بالوراد ، فقد اصفرّ واسودّ ، فقال :
وماء قديم العهد بالناس آجِنٌ كأنّ الدّيا ماء الغضا فيه يَبْصُقُ (٤)
وقد اجاد علقمة بن جعدة الفحل في وصف الماء الآجِن ، حيث يقول :
إذا وردت ماءً كأنّ جِمامَه من الأَجْنِ حنّاء معاً وصَبِيبٌ (٥)
فقال ذو الرمة في وصف هذا الماء ، فثرون بتغييره بعد مطلبه فقال :
فأدلى غلامي دَلْوَه يبتغي بها شفاءً الصدى والليل أدْهَمُ أبلنُ
يريد أن الفجر قد نجم فيه ، فجاءت - يعني الدلو - بنسج العنكبوت كأنه على
عصوبها سَابِرٌ مشبّرٌ والسابري : الرقيق من الثياب والدروع . والمشبّر : الممزق .
والشد أبو زيد :

- (١) تعرضت أي : أُرْسِطَ عرضها ، أي لاحتها . والرشح الفصل : الذي جعل بين كل حرفين فيه لَوْنٌ
والأشياء : جمع لُحْي .
(٢) الأعصاف : السور على غير حدّ . وابن مَاهٍ : طير من الطيور ملقّن على مرتفع .
(٣) العَصَوبان : عروقها الدلو ، والمرفوفان : عشبها .
(٤) آجِن : متغير الطعم واللون ، والمدا : الجراد . والغضا : شجر له حطب ، إذا أكلته الأبل اشتكت
بطونها .
(٥) المهام : اجتماع الماء . الصبب : الدم ، عصا العنم ، والعنم : عشب نبات يصنع به ، ويقال له
أيضاً دم الآخوين .

- لهذا سريال الشاب سلاوة فأصبح سريال الشاب شبارقا (١)
وفي هذه القصيدة من التشبيه المصيب :
بيضاء في دمع صفراء في دمع كأنها لفة قد سنها ذهباً (٢)
ومن التشبيه المستحسن قول علقمة بن عبدة :
كان إربقتهم ظني على شرف مقدم بها الكتان مكنوم (٣)
لهذا حسن جداً .

ومن التشبيه المتجاوز قول الخنساء :

وإن صخرأ لتأثم الهدأة به كأنه عظم في رأس لسان
فجعلت المهندي يأنم به ، وجعلته ككاف في رأس علم ، والعلم : الجبل
ومن تشبيه الحداثين المستطرف قول بشار :

كأن قلاده كسرة تنزى حذرأ بين إن شفع الجدار
برووه السرا بكل أسر مخالفة أن يكون به السرا (٤)
فاللورد (٥) - كما يظهر - من هذه النصوص يعتمد منها على أن تكت
له أربعة أسس :

أولاً : بيان مدلولات الكلمات الغريبة وشرح بعض الشواهد وتأويل مقاصدها ،
والثانياً : إصدار الأحكام المطلقة في استحسان التشبيهات بخدمة مصطلحات

(١) اللانوة : الخبز من القمح .

(٢) دمع : حواء العين . والدمع : العيش الخالص .

(٣) الدرف : جارتهم من الأزد واشتد على صاحبها . مقدم : عطفي بالقدم ، أي عوين
وصف الأبريق . وهذا الكتان : يريد حجاب الكتان ، والدياب : جمع حبة ، وهي
شفة بيضاء . مكنوم : من المكنم . وهو مكنوم على الفم واحتجازه للأبريق .

(٤) السرا : أسر ليلة من الشعر ، وهي التي يتستر فيها القمر ويخفي .

(٥) راجع كتاب الكامل ج ٢ ص ٢٢ - ٢٧ .

هي : «عجيب ، وإجادة ، ومعجيب ، ويستحسن ، ومستطرف» وإدراكها بلا ضابط وبلا تحليل واعتماد مصطلح تجاوز ومقرط في الاستهجان .
والثالث : إدارة تشبيهات شعراء في موضوع موحد كما فعل في إشارته إلى أكثر الشعراء في وصف القريا تطبيقا على بيت امرئ القيس وروايته لآيات في وصف الماء الآجن :

ورابعها : تجنب تحليل أركان التشبيه واستعمال مصطلحاته من التشبيه ، والمقشبه به ووجه الشبه ، وإدانة التشبيه .
وتقول ابن الأثير تشبيهات في ضوء منهج آخر فقال :

قول بعضهم :

ملا حاجبيك الشهب حتى كأنه ظباء جرت منها منيع وبسارج (١)
وكذلك قول الآخر بصف السهام :

كسأها وطيب الريش فاعتدلت له قيداع كأعناق الظباء للصوراري
فإنه شبه السهام بأعناق الظباء ، وذلك من أبعاد التشبيهات ، وعلى نحو منه قول القرطبي :

يمشون في حثك الحديد كما مشت جررب الجمال بالأكحليل المشعل (٢)
فشبه الرجال في ذروع الزرد بالجمال الجرب ، وهذا من التشبيه البليد ،
لأنه إن أراد السواد فلا مقارنة بينهما في اللون ، لأن لون الحديد أبيض ومن أجل
ذلك سميت السيوف بالبيض ، ومع كون هذا التشبيه بعيداً فإنه تشبيه سخيف :
ومن التشبيهات الباردة قول أبي الطيب المتنبي :

وجرى على الورق النجيع القاني فكأنه السارنج في الأغصان (٣)

(١) السباع : أي يأتي من جانب اليمين ، ويقابله البارح وهو الذي يأتي من جانب اليسار . ولشرب تينين بالسباع وتشامم بالبارح .
(٢) الأكحيل : القفران ، وحن الحديد : التدوج ، والمشعل : الحديدة التي يجرى بها الخلد ويروجه كأنه موضع « كما مشت » .
(٣) النجيع : قلم ، والذي : الأصغر التشبيه الحمراء .

وهذا تشبيه ينكره أهل التجسيم ، وإذا قمست التشبيهات بين البعد والورد
حاز طرفي ذلك التقسيم .

وأشبع من هذا قول أبي نواس في الخمر :

كان يواسر رواكد حولها وزرق ستائر تشبه عمو لها (١)
والعجب أنه يقول مثل هذا الفث الذي لاملامة بينه وبين ما شبه به ، ويقترنه
بالبدع الذي أحسن فيه وأبدع ، وهو :

كانا حُلُولَ بين أكتاف روضة إذا ما سلبناها مع الليل طينتها
فانظر كيف قرّن بين وردة وسعدانة ، لايل بين بكرة ومرجانة .

وقد أكثر في تشبيه الخمر ، فأحسن في موضع وأساء في موضع ، ومن أساءته
قوله أيضاً في أبيات لامية :

وإذا ما المساء واقعتها أظهرت شكلاً من الغزل
لؤلؤات يتحدرن بها كانهدار الدر من جبيل
فشبه الحبيب في انهداره بتدل صفار يتحدر من جبل ، وهذا من البعد على غاية
لا يحتاج إلى بيان وإيضاح (٢) .

ففي هذا النص يتضح لنا أن ابن الأثير لا يقرر أحكامه تقريراً ولا يغل الإشارة
إلى بعض أركان التشبيه كالأفعال كما فعل المبرد ، وإنما يسعى جاهداً أن يعالج
لأحكامه ويبيد تقويمه لما حكم عليه من الشواهد بعد بيان طرفي التشبيه : كما أنه
يورد أكثر ممن شاهد لأبي نواس في موضع وصف الخمرة فتوه بأساس
منهجي له صلة بأحد أسس منهج المبرد وهو أساس جمع الشواهد في موضوع
محدد .

(١) هكذا في الأصل ، ولم اتفق لهذه الكلمة على معنى ، ولكني رأيت في القاموس (٣٧٢) أن الياصرة جبل بالمتة تطأهم التواحدة لصارفة العدو الواحد يسري . والتواحدة :
هم أهل السفن ، فغلل الياصار منها .
(٢) للعل الصائر ج ٢ ص ١٥٦ - ١٥٨ .

ومن هنا يمكننا أن نميز منوع ابن الأثير هذا بصفة المنوع التعليلي الموضوعي
لأن فيه من تعليل للأحكام البلاغية والتقديرية والتسامح لشرح الشواهد في موضوع
بعينه ولشاعر بعينه :

وفي ضوء هذين المنهجين وملاحظاتنا عليهما نستطيع أن ندعو إلى منوع متكامل
في تحليل التشبيهات يقوم على أربعة أسس :

أولها : اعتماد المصطلحات البلاغية بدقة في تحليل أركان التشبيه .

ثانيها : تحليل التشبيه جزءاً متكاملاً مع سائر أجزاء النص الأدبي الذي ورد فيه ،
وتجنب الاكتفاء به شاهداً قائماً بذاته .

ثالثها : الاستفادة بالقضايا النفسية والاشارات البيئية في تتبع مصدر مادة التشبيه
وكشئته به والتماس انعكاسهما عن وجدان الشئ وتأثيرها في شعور القارئ .

ورابعاً : تقوم التشبيه على أساس ما حقق من أغراض مضمونية وشكلية.
حال في ضوء هذا المنهج النصوص الآتية :

١ - قال أبو نواس في وصف الخمرة (١) :

فإذا ما لمستها فليسا	تضع الشمس ما يبيع العيون
دَرسٌ قدهرٌ ما تجسم منها	ويبقى ليايها المكنونا
فهي بكر كأنها كل شيء	يشئ مخبر أن يكوننا
في كلوس كأنهن نجوم	جاريات يروجها أهدينا
طالعات مع السقاة علينا	فإذا ما غرين يخرن فينا

٢ - قال أحمد شوقي في المسلمين :

لو لم يسودوا بدين فيه منبهة	لناس كانت لهم أخلاقهم ديناً (٢)
لم تشر من حرم إلا إلى حرم	كالبحر من يابل سارت للدارينا (٣)

(١) الكليل ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) منبهة: غرقة ورفقة .

(٣) يابل ودارينا: مدينتان مشهورتان بجودة الشر .

٣- قال ابن المعتز :

ظلت يلهي حجر يوم وليلة تدور علينا الكأس في قبة زُهر
بكف غزال ذي حنار وطرّة وصديقين كالفانين في طرقي سطر
لدى ترجس غصن وسرو كاله قدود جوار ملن في أزر خضر

٤- قال الزهاوي :

أشدُّ يا طير لامتدّك غير صوتك القصد وحده غير
لا تخف ما عليك مني غير أنا أيضا يا طير مثلك طير
قلبي في شدة الحوى منكاري

٥- قال شاعر يصف كومة من الفحم تأجج في داخلها نار :

كأنا نار في تلهبها والفحم من فوقها يطفئها
زاجية شبكت أاسلها من فوق ناريجة لتطفئها

(٦)

قال تعالى : **وَإِنَّمَا تَرْمِي بِشَرٍّ رَجَمَ كَالْقَصْرِ** : كأنه جمالة صغرة (١)

وجاء في التفسير : أن القصر واحد القصور ، وقيل : القصر جمع قصرة وهو التلطيظ من الشجر. وقوله : **كأنه جمالة صغرة** بكسر الجيم ، جمع «جمالة» كما تقول : «بيوت وبيوتات» ، وهو جمع الجمع ، ويقال للابل السود التي تضرب إلى الصفرة «هي ابل صفرة».

والشرر : قطع من النار تطاير في إلهات وأصله : الظهور ، من قولك : وشررت الثوب إذا أظهرته للشمس. وشبه الشرر بالقصور في العظم : ثم قال : **كأنه جمالة صغرة** ، أي : سود فضيحه في اللون وفي العظم. والعرب تشبه الأبل بالقصور ذهابا إلى تمام خلقها وحسن صورتها •

(١) الرسائل ٢٢-٢٣.

وفي ضوء هذا البيان اللغوي لكلام الآيتين علق ابن تاتيا البغدادي على تشبيه الشرر بالنصر ثائرة وبإجمالة الصفر ثائرة أخرى بقوله : «وانما ظاهر في تشبيه الشرر تأكيداً للتخويف من النار التي ترمى بها وتعتقها لشأنها وازعاجاً للكافرين من سطوتها والتشبيه على هذا النحو بغير حرف المعطف أكد في صفة الموصوف ، وأبلغ في تمتع من التشبيه للمعطوف» (١) .

ودرسنا فيما مضى بيان حالات طرفي التشبيه من وجوه كافة وأكدنا أثر المشبه به في تصوير المشبه في ضوء اعتبارات تعود إلى طبيعته ومصدر مادته وبنائه اللغوي .

حلل في ضوء ذلك طرفي التشبيه في النصوص الآتية شارحاً دور كل مشبه به في تصوير المشبه ومبينا الغرض منه : -

١ - قال طرفة :

وفي المني أحوى بنفوس المردة شادن^(٢) مظاهر^(٣) سمطي لوتلي وزرجار^(٤)
عزلولا^(٥) سراهي دبراً^(٦) بخميلة^(٧) تناول اطراف التبرير وترندي^(٨)
في هذين البيتين تشبيه للمرأة بالفزال في عفتها ، وبالبقرة في حسن عيبتها .

٢ - قال أبو القاسم الشابي :

عدّية^(٩) أنت كالطغولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كإشمام الوليد
أنت من^(١٠) أنت ؟ أنت دسم جميل عثمري من فن هذا الوجود

(١) الجبان في تنبيهات القرآن ص ٣٧٤ .

(٢) الاحوى : التي في ثقله سريرة . الشادن : الفزال التي تربي واستنق من لحد السمط : الضبط الذي تلتفت فيه الجواهر والجميع سوط .

(٣) خلول : قد خللت الولادها . الربوب : التقطيع من الشفاء وبشر الوحش . التبرير : شجرة الاراك .

٣- قال دريد بن الصمة :

ولما رأيت الخيل قبلاً كأنها جراد يباري وجهة الريح مفندي
أمرتهم أُمري بمنعرج السوي فلم يشينوا الرشد إلا ضحى الغد

دعاني أمي والخيل بيني وبينه فلما دعاني لم يمدني بفتعة

فجئت إليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في الشج المسدود
وكننت كذات البوزيع ، فأقبلت إلى قيطع من جلد بزة مجلدة (١)

(٢)

به عبد القاهر الجرجاني إلى أن مجرد التقاء طرفي التشبيه في صفة لا يجعل التشبيه
مستغنياً التوق مقبولا في العقل ساريا في العرف والعادة :
فثبت قول البحري :

ويأض البازي أصدق حسناً إن تأملت من سواد الغراب
ثم خلق عليه قاللا :

فوليس إذا كان البياض في البازي أكثر في العين وأخلق بالحسن من السواد في
الغراب ، وجب لذلك أن لا يلزم التشبيه ولا تنفر منه طباع ذوي الآليات ، لانه ليس
للقذب كله التحول الصغير وتبديل اللون ، ولا أنت اللواني ما أنت من الصدف
والاعراض لمجرد البياض ، فإنهم يرونه في قباطي (٢) مصر فيأتسن ، وفي أنوار

(١) الخيل : اسم جنس للأفراس ، ويطلق على الفرسان . قبلاً : بضم القاف أي

مقابلة وعياناً ، منعرج السوي : منطقة ، والري : الموضع . لقد : جنان

لهم يمتد من الحرب والكرام . الصياصي : جمع صيصة وصريصة بالتحايف

وهي أشوكة التي يمدى بها الساج يحيط نسيجه المدودة أمامه . ذات البير :

كناية من الذقة أو البقرة يذبح ولدعا أو يموت فيمضى جلده ثياباً ويجعل لديها

فرداه وتطلى عليه وتدار البير . والبر : هو هذا الجلد المشعر .

(٢) القباطي بالضم : جمع قبطية ، وهي ثياب من كتان تشبه مصر .

الأرض وأوراق النرجس الغض فلا يعين ، فما التكرن ايضاً شعر الفتي
 نفس اللون وفاته ، بل للعباب بهجته ، وادباره في حياته ، وانك ترى الصفرة
 الخالصة في لوراني الأشجار المتناثرة عند الخريف والقبال الشتاء وهبوب الشمال
 ففكرها وتفر منها ، وراها بعينها في اقبال الربيع في الزهر المتفتح ، وفيما ينشئه
 ويشبه من التبرياج الموق ، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية ، وتمثل من
 الاربعية ، ذلك لانك رأيت اللون حيث النماء والزيادة ، والحياة المستفادة ،
 وحيث ابشرت أرواح الرياحين وتبشرت أنواع النحاسين (١) ، ورأيت في
 الوقت الآخر حين ولدت السعد ، واقتصر العود (٢) ، وقصبت البشاشة والبشر ،
 وجاء العيوس والعسر ، كذلك لم يحسن سواد الشعر في العيون لكونه سواداً
 فقط : بل لانك رأيت رونق الشباب وقصارته ، وبهجته وطلوته ورأيت برقه
 وبصيصه بعد انك الاقبال ، ويرياك الاقبال (٣) ، ويحضر انك لثقة بالبقاء ،
 ويبعدان عنك الخوف من الفناء (٤) .

وفي ملاحظتنا أن عبد القاهر في تعليقه هذا وفي تشبيهه ذلك يدعو بمقاييسنا
 النقدية والبلاغية المعاصرة الى وجوب توفير الجو النفسي المنسجم في التشبيه واتساع
 وحدة عاطفية ملائمة لخلق التجاوب الشعوري مع النفس الادبي ، كما يدعو الى
 قاعدة بلاغية تؤكد أنه لا يكفي في التشبيه أن يتلاقى طرفاه في وجه الشبه المادي ،
 بل ينبغي ان يخلق جواً نفسياً ملائماً لذلك .

توأم في ضوء هذه الدعوة النصوص الآتية :

(١) يقال ابشرت الأرض اذا اخرجت بشرتها أي ماظهر من نباتها واما بشر التلا في فهو
 من بشر في فلان أي لغني وهو حسن البشر طلق الوجه . والمتعالمين . الاشياء
 المستعدة جميع تحسين .

(٢) القتر العود : أي ليلتين وقطر لونه لعدم الري .

(٣) الاقبال : استئناف الامر وتجاوبه .

(٤) اسرار البلاغة ص ٢١٧ - ٢١٨ .

١ - قال دحبل بن علي في صفة الصلوب :

- لم أرَ صَبًا مثلَ صَبِّ الزُّطْرِ تَمِينٌ مِنْهُمْ صَكِيوا في غَسَطِ (١)
من كلِّ عالٍ جَذَعُهُ بالثَّدِ كَأَنَّهُ في جَذَعِهِ المُنْتَضِ (٢)
أَمَرُ نَعَامٍ جَدُّ فِسي لَمْعِي قد خَامَرِ التَّوَمَ وَلَمْ يَغْطِ (٣)
٢ - قال أحمد شوقي في القصود التي طغى عليها فبقان الليل ففرقت منها أجزاء

وعامت أجزاء :

- فَبِغْ بِلَظِّ القَصُورِ في اليَمِّ غَرَفِي مُنْكِكًا بِمُضْئِهَا مِنَ الدَّهْرِ يَغْضَا
كَطَلَوِي أَخْفِيَنِ في الظَّامِ بَقْصًا سَابِحَاتٍ بِهِ وَأَبْدِينَ يَغْضَا
٣ - قال شاعر حبه للبرد قوية بن الحميز وروى أبو الحسن الله لجون بني عامر وهو الصواب .

- كَأَنَّ القَلْبَ لِقَّةٌ قِيلَ يَغْضَى بِلِيلِ العَامِرِ بِلِيلٍ أَوْ بِسَرَّاحِ
قَطَاةٌ خَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاوِزُهُ وَقَدْ عَلِقَتْ الجَنَاحِ
لَهَا فَرَعَانِ قَدْ خَلَقَا يَوْكِرُ فَعَشَّهِنَّ تَصَفَّحَهُ الرِّيحُ (٤)
٤ - قال ابن وكيع التنجني :

- وَسَحَابٍ إِذَا مَسَى السَّاءُ مِنْهُ أَلْهَبَ السَّعْدُ فِي حَنَاءِ الْيُوقَا
مِثْلَ مَاءِ الْعَيْنِ لَمْ يَجْزِ إِلَّا ظَلٌّ يَدْكِي عَلَى القُلُوبِ حَرِيقَا
(٨)

لقد برع عبد القاهر في تحليل شواهد كثيرة من تشبيه الصورة ، فتح اضربها
والوانها وأسهب في بيان الترابط بين المشبه والمُشَبَّه به مُتَوَهِّجًا بِأَسْسِ هَذَا التَّرَايُطِ
الحبيبة والعظيمة والقصبة

(١) الزط : جيل اسود من السد أو الخد .

(٢) المنتض : الطويل .

(٣) النطيط : صوت نفس النائم .

(٤) ظلاً : من الظل ، وهو الحيس .

ولعلّ المثال الذي يصح تطبيقاً في هذا الميدان قوله : «أن مما يزداد به التشبيه
دقةً وسراً أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات وهذه الهيئة قد تفتقر
بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما» ، مثال ذلك قول الشاعر :

والشمس كالمرآة في كشف الأشمل

أراد أن يربط مع الشكل الذي هو الاستدارة ومع الاشراف والتأؤلؤ على الجملة
الحركة التي تراها الشمس إذا تمتع التأمل . ثم ما يحصل في نورها من اجل تلك
الحركة ، وذلك أن الشمس حركة متصلة دائمة في غاية السرعة ولتورها بسبب
تلك الحركة تموج واضطراب عجيبي ، ولا يتحصل هذا الشبه الا بأن تكون
المرآة في يد الأشمل ، لان حركتها تدور وتصل ويكون فيها سرعة وتلق شديد
حتى ترى المرآة لا تفر في العين وبداوم الحركة وشدة التلق فيها يتموج نور المرآة
ويقع الاضطراب الذي كأنه يسحر الطرف وتلك حال الشمس بعينها حين تمد
النظر وتنفذ البصر ، حتى تتبين الحركة العجيبة في جرمها وضوئها فانك
ترى شعاعها كأنه بهم بأن ينسبط حتى يفيض من جوانبها ثم يلو له فيرجع
في الانسباط الذي بدأه الى القياض ، كأنه يجمع من جوانب الدائرة الى الوسط :
وحقيقة حالها في ذلك مما لا يكمل البصر لتفريده وتصوره في النفس ، فضلاً
عن أن تكمل العبارة لتأديته ويبلغ اليان كنه صورته (١) :

١ - قال تعالى : «مَنكُلٌ لِّلَّذِينَ حَسَبُوا الثَّوْرَةَ» ثم لم يحملوها كمنكُل الحمار
يتحمل أسفاراً (٢) .

٢ - قال الرصافي في قصيدته منترك الحياة :

وليس الفنى إلا غنى العلم انه لنور الفنى يجلو ظلام الغتقار
ولا تحسن العلم في الناس منجياً اذا تكبت أفعالهم عن ملز

(١) اسرار البلاغة ص ١٦١ - ١٦٥ .

(٢) الجصة .

٣ - قال أبو نؤاس :

والله بفصل بين روض الزهر في الشطين فصلا
كباط وكشي جردت أيدي القيون عليه نصلا (١)

٤ - قال فوزي العلوف من قصيدته : شاعر في طيارة :

هو في معة الشباب ولكن جسم في بردية شيخاً هزلاً
شارد الطرف ، تائه الفكر يحكي مدليجاً في اللطام غل السيل
فوجين ألفت عليه شجون له نفس غلا من العيوس قليلا

(٩)

يزعم المستشرق غارثا غوث في فصل عقده للكلام على ابن قزمان أحد
الشعراء الأندلسيين المتأخرين :

« إن الصناعة اللفظية هي موضع العناية الكبرى في الأدب العربي ، بين غير
مقيد بالأسجاع وبين ألوان من المجازات والأشياء ، والطلاوات والتوازم ، تعوزها
الحرارة والشعور ، وكأنها هي كلها عرس من العروض المنقعة بالبراقع حيث
لبسات لآلي والعيون أزهار بتفسيحات ، والرياحين ، والجدلول سيوف ،
وإن القارئ ليجهده اجتهداه بين ترجمات بير pes أو شاك Sevak فيثوه
ذعنه بما يطبق عليه من النسق المطلق المتواتر . حضور كالأغصان تنشق من أكام
الرمال ، أو شاعر يشبه نفسه بالطير الذي أقلل لدى المدح جناحيه فأعياه أن يطير ،
أو برق يومض بين الغمام كأنه ضرام العشق في قلب الشاعر ، يتوهج من خلل
دموعه ، ونصفها - أو أكثر من نصفها - قوالب منقولة يحكيها النظمون من
وحي الذاكرة . »

وقد فسر الأستاذ عباس محمود العقاد المجاز العربي بخاصة وتسايب البيان
بعمامة فقال : « والمجاز هو الأداة الكبرى من أدوات التعبير الشعري ، لأنه تشبيهات

(١) القيون : جمع قن وهو الجدار .

وأخيلة وصور مستعارة وإشارات ترمز إلى الحقيقة المجردة بالأشكال المحسوسة، وهذه هي العبارة الشعرية في جوهرها الأصلي ،

ولا تسمى اللغة العربية - فيما نرى - بلغة المجاز لكثرة التعبيرات المجازية فيها ، لأن هذه التعبيرات قد تكرر في لغات عديدة من لغات الحضارة . وإنما تسمى اللغة العربية بلغة المجاز لأنها تجاوزت بتعبيرات المجاز حدود الصور المحسوسة إلى حدود المعاني المجردة . فيستمع العربي إلى التشبيه فلا يشغل ذهنه بأشكاله المحسوسة إلا ريثما ينتقل منها إلى المقصود من معناه . فالتقعر عنده جهاد ، والزهرة تقفارة ، والفنن اعتدال ورشاقة ، والفلود وقار وسكينة (١) .

إن هذا التفسير - بلا شك - هو رد على آراء المستشرقين الذين لماذا أعطوا هذا المشرق وغيره من المستشرقين في فهم أساليب البيان العربي .

وفي اعتقادنا أن هناك علة أخرى لهذا الخطأ تكمن في أن معظم المستشرقين الذين درسوا الأدب العربي تشبعت عقولهم بالأسس المنطقية العقلية التي أقام عليها الراسخون ليس منهجه في دراسة المجاز إذ عرّف المجاز وبين العلاقات بين الدلالات المجازية والمعاني بقوله : والمجاز نقل اسم يدل على شيء إلى شيء آخر : والنقل يتم إما من جنس إلى نوع ، أو من نوع إلى جنس ، أو من نوع إلى نوع أو بحسب التشثيل . وأعني بقولي : من جنس إلى نوع ما مثاله « هنا توقفت سفينتي » ، لأن « الأرساء ضرب من التوقف » (٢) وأما من النوع إلى الجنس فمثاله : « أجل ، لقد قام أودوسوس بألف من الأعمال الجليلة » (٣) ، لأن « ألاف » معناها كثير والشاعر استعملها مكان « كثير » . ومثال المجاز من النوع إلى النوع قوله : « انتزع الحياة سيف من نحاس » « عندما قطع بكأس متين من نحاس » : لأن « انتزع »

(١) اللغة الشاعرة ص ٣٧ .

(٢) التوقف : جنس ، من الرواثة المترجمة تحت « الأرساء »

(٣) كثير : جنس من الرواثة « الألاف » .

ههنا معناها قطع ، و قطع ، معناها الترفع ، وكلا القولين يدل على تعميم الالجل
(الثوث) .

واعني بقولي : « بحسب التمثيل » - جميع الاحوال التي فيها تكون نسبة الحد
الثاني إلى الحد الاول كنسبة الرابع إلى الثالث ، لان الشاعر يستعمل الرابع بدلا
من الثاني والثاني بدلا من الرابع ، وفي بعض الاحيان يضاف الحد الذي تتعلق به
الكلمة كبديل بها المجاز . ولا يضاعف ما أعني بالامثلة أقول أن النسبة بين الكأس
وديونوس ، هي نفس النسبة بين القرمز وأرس ، ولهذا يقول الشاعر عن الكأس
انها « قرمز ديونوس » ، وعن القرمز انه « كأس أرس » .

وكذلك : نسبة بين الشبخوخة والحياة هي بعينها نسبة بين العتية والتهار ،
ولهذا يقول الشاعر عن العتية ما قاله أنبا دقليس أنها « شبخوخة التهار » وعن الشبخوخة
انها « عتية الحياة » أو « غروب الشمس » .

وفي بعض احوال التمثيل لا يوجد اسم ، ولكن يمرر عن نسبة ، فعلا نثر
الحب يسمى « البذر » ولكن للتعبير عن فعل الشمس وهي تشر اشعتها لا يوجد لفظ ،
ومع ذلك فان نسبة هذا الفعل إلى اشعة الشمس هي بعينها نسبة « البذر » إلى الحب ،
ولهذا يقال : « تبذر نورا بالحب » .

ويمكن أيضاً استعمال هذا الضرب من المجاز بطريقة أخرى : فبعد للدلالة على
شيء باسم يدل على آخر ، تنكر صفة من الصفات الخاصة بهذا الأخير ، فعلا
بدلاً من أن نقول عن القرمز انه « كأس أرس » نقول عنه أنه « كأس بلاخمر » (١)
وبدعي ان منهج استبطانيس يأسه المنطقية هذه يقف على طرفي تقبيض
من المنهج العربي الاصيل الذي يعتمد استقراء التصوص لترسيخ أسس التنوع
الثلوثية في تجديد والتساع لرصد علاقات المجاز واجرائه في شيء أصحبه : المجاز
المرسل والمجاز العقلي والمجاز بالاستعارة ، فلا ينتهي بهذه العلاقات إلى انواع

(١) فن الشعر ص ٥٥ .

محددة ولا يحصر طريقة الانتقال والجواز بالكلمة الحقيقية في أطر محصورة
وإنما يقرر القواعد والضوابط العامة ثم يترك للأديب المبدع حرية صياغة مجازاته
ومن المجازات العربية الأصلية :

- ١ - قال تعالى : « وأسأل القرية التي كنا فيها » (١)
- ٢ - قال المتنبي واصفاً إحاطة جيوش سيف الدولة بأعدائه :
والأعوجية ميل الطريق شغلهم والمشرقية ميل اليوم فوقهم (٢)
ملء اليوم يراد به ملء القضاء الذي يشرق عليه النهار ، فالجواز مرسل
علاقته الحالية .

- ٣ - قال أبو تمام في المديح :
تكاد عطاياه يمن جنتولها إذا لم يوردها يرقية طالب (٣)
لقوله : « تكاد عطاياه يمن جنتولها » استدل فيه فيه للصلو « جنتون » إلى فعله
« يمن » فهو إذن مجاز عقل علاقته المصدرية .
أجتر في ضرو هذه الأمثلة المجازات المرسل والمجازات الثقلية التي وردت
في النصوص الآتية :

- ١ - قال تعالى : « ولعلكم تشكركم الذي غنم بركم أرواكم » (٤) :
- ٢ - قال تعالى : « وترع عنهما لابسهما » (٥) :
- ٣ - قال رجل من بني تميم :

إن الذين يورغ في أعناقهم زاد يسن عليهم للسام
لعن الله لعنة بن مسافر لعنا يسن عليه من قدام

- (١) يوسف ٨٢ .
- (٢) الأعوجية : الخيل المنوبة إلى أعوج وهو فرس كريم لبي هلال
والمشرقية : السيل .
- (٣) يوردها : يصبها ، والرقية : العودة سمها رقي .
- (٤) فصلت ٤٣ .
- (٥) الأعراف ٢٧ .

- ٤- قال أبو نواس :
فالمعسر لا تمشن عليّ بدأ
منك المروف من كثرته
- ٥- قال أحمد شوقي في لبنان :
البحر من سود العيون لقيه
والبابلي بلحظهن صبيته
- ٦- وقال أحمد شوقي :
وإذا أراد الله إشقاء القرى
جعل الخداة بها دعاة شقاق
- ٧- قال طرفة :
سبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
وبأيك بالآخيار من ثروتي
- ٨- قال الشاعر :
يُعْثِي كما صدحت أبكة
وقد فيه الصبح أطيارها
- ٩- قال المتنبي :
صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من أسره ما عانا
وتولوا بصفة كلهم منه
ولكن تكدر الاحسانا
ربما نحن الصنع لباله
الدهر حتى أعانه من أعانا
وكأننا لم نترضى فينا بربيب
ركبة المرء في القنا سنانا
كلما أثبت الزمان قناة
- ١٠- قال الشاعر :
تبل على حد الظبات قنونا
ولبت على غير الظبات تبل
- ١١- قال المتنبي :
إني تزكيت بكذابين ضيفهم
من القرى وعن الشرحال عدود
- ١٢- قال عترة :
فتكككت بالرمح الأصم فيابه
ليس للكريم على القنا بحرير

أجرى البلاغيون المتأخرون الاستعارات في ضوء المصطلحات التي وضعوها
تصبح أقسامها وتوزيع فروعها ووفق قواعد مرتب بعضها وتبديل بعضها
الأخر فيما يأتي :

١ - إذا كان اللفظ المستعار « اسماً جامداً للذات » كاليد إذا استعير للجمل
« أو اسماً جامداً لمعنى » كالقتل إذا استعير لضرب الشدود ، سميت الاستعارة
« أصلية في كل من التصريحية والكنية » وقد سميت أصلية لعدم بنائها على تشبيه
أخر معتبر أولاً .

٢ - إذا كان اللفظ المستعار « فعلاً » أو اسم فعل ، أو اسماً مشتقاً ، أو اسماً
مبهماً أو حرفاً ، فالاستعارة « تصريحية تبعية » .

٣ - إذا كان اللفظ المستعار اسماً مشتقاً ، أو اسماً مبهماً دون باقي أنواع
التبعية الثلاثة ، فالاستعارة « تبعية مكتنية » وسميت « تبعية » ، لأن جريانها في
المشتقات ، والحروف تابع لجريانها أولاً في الجواند ، وفي كليات معاني الحروف ،
بما أنها سميت تبعية لتبعيتها لاستعارة أخرى ، لأنها في المشتقات تابعة للمصادر ،
ولأنها في معاني الحروف تابعة لمتعلق معانيها ، إذ معاني الحروف جزئية لا تصور
الاستعارة فيها إلا بواسطة كل مستقل بالمفهومية ، لينأى كونها مشبهة ومشتبهة
بها أو محكومة عليها ، أو بها .

أجبر الاستعارات في النصوص الآتية معهداً للمصطلحات التي تبين أنواعها
وتوضح علاقاتها :

- ١ - قال تعالى : « وَلَا صَلَاحَ لَكُمْ فِي جُلُوعٍ فَتَحْذَرُوا » (١) .
- ٢ - قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « رب تابل تونبي واعسل حونبي » .

٣- قال الجيزي .

يُسودون الصحبة من بعيد إلى تسير من الأبرار باد
٤- نظر أعرابي إلى رجل جيت لكدة (١) فقال : يا هذا، إني لأرى عليك
قطيفة محكمة من نسج أضراسك .

٥- قال الرصافي :

دعوت غُرَّ قنواي وهي شاردة فأقبلت وهي تشني مشي معقد
وسلنتي عن طوع مقادتها فرحت فيهن أجري جري مقنن
٦- قال أبو ماضي من قصيدته القراثة للحضرة :

باروغة في سماء الروض طائفة وطائراً كالأقاصي ذا شفا ذاكي
مضى مع نصيف عهد كسلاهي فيه على رقرق بالزهر ضحك
قراثة الخقل في روعي كآبته عاء ومما قد تولاك
خلت أرائك كانت أمس آكلة غشاء فاليوم لا شاد ولا شاك
أرض خلاء وجو غير ذي أن بل هناك ضباب فوق أشواق

(١١)

وأما في دراستنا لتشبيه التمثيل والاستعارة التمثيلية : أن معظم الباحثين البلاغيين
نصروا أفلامهم بمشكليات :

أولهما : الخلط بين التشبيه التمثيلي والاستعارة التمثيلية وجعلهما فني مترادفين
يقوم أحدهما مقام الآخر ويؤدي عنه في الأسلوب البلاغي .

ثانيتهما : تعدد المصطلحات التي سميت بها الاستعارة التمثيلية :

ولو وقفنا بين يدي القرآن الكريم لنحسم بآياته الليات هاتين المشكلتين ونسفر
على مذهب لأحب في هذا الأمر القضا بقوله تعالى : لو أنزلنا هذا القرآن على

(١) كدة : قوة الجسم ، قال ابن القوطية في الافعال كدت الشفة كدنا : اسودت ،
كدن البير : كثر شحمه .

جنتك رأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الامثال "تفسرها للناس
لعلهم يتفكرون" (١) لقد فسر الزمخشري هذه الآية قائلاً:

"هذا تمثيل وتخييل ... وقد دل عليه قوله "وتلك الامثال تفسرها للناس"
والفرض توبيخ الانسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوله
وزواجه" (٢) :

ويبدو من هذا التفسير ان الزمخشري على رأي من خلط بين التمثيل والاستعارة
التمثيلية ، وأنه يؤثر مصطلح التمثيل على مصطلح المثل الذي ورد في الآية للكرامة
جمعاً .

وفي رأينا أن هذه الآية للكرامة تعني لنا الدرب لاستخلاص ثلاث قواعد
من نصها الصريح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

اولها : ان التشبيه التمثيلي غير الاستعارة التمثيلية ، ففي الآية للكرامة لم يرد
ذكر لمشيته الذي هو الانسان في حاله تلك كما لم تذكر أداة التشبيه ، ولم ينس
على وجه التشبيه ، وعليه فان تصوير الجبل على وضوء فذلك مشبه به في تشبيه حذف
منه طرف هو التشبيه ، فهو إذن "استعارة تمثيلية وليس بتشبيه تمثيلي" .

الآية : ان المصطلح الذي نص عليه القرآن الكريم دالا على هذا الفن التصويري
هو المثل ، ومن هنا فان المصطلحات الاخرى التي ذكرها علماء البلاغة لم تحرها
هذه الآية للكرامة .

للآية : ان الفرض من فسّر الامثال هو حمل الناس على التفكير والتدبر
وإذن فإن هذا الفن التصويري ليس غاية بنفسه ، وإنما هو وسيلة لتحقيق أهداف
وأهداف .

(١) البدر ٢١ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥٠٩ .

أعرض في ضوء هذه القواعد القصص الآتية عيزاً تشبیهة تشبیهة من الاستعارة
التشبیلة وبملا سر بلاغتها وجمالها:

١ - قال تعالى: واعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتغالغُرُ بئسَكم
وتكاثُرُ في الأموال والأولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَسْفَجَ عَلَى أَنْفِهِ غُثًى كَثْفًا حَتَّىٰ إِذَا
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا (١).

٢ - قال الشاعر:

إذا جاء موسى وأنتى العصا قد بطلَ السحرُ والساحِرُ

٣ - قال المتنبي:

ومن بكُ ذا غيرِ مَرٍ مريضٍ يجدُ مرأً به الماءُ قُرًى

٤ - قبل الرمي يُرَاشُ السهمُ:

٥ - قال الشاعر:

إذا بسطَ الزمانُ يَدَيْهِ لِيَمِ قَصِيرًا لَدُنِي فَعَلَّ الزمانُ

قد غطو على الرأسِ الدنانِ كما غطو على النارِ الدخانُ

(١٢)

مرّ بنا في الباحث التي عدناها لتعريف الأساليب اليبالية من تشبيه ومجاز
واستعارة وكتابة وتحديد الواحها أن بينها مفارقات تميز كل واحد منها عن الآخر.
وقد حرص البلاغيون القدماء على التحدث عن هذه المقارقات، وتصدى الرازي
للذين عدّوا الكتابة مجازاً ورد عليهم بقوله: «ويقال أن الكتابة عبارة عن أن
تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثالثاً هو المقصود، وإذا كانت تفيد المقصود بمعنى
اللفظ ويجب أن يكون معناه معبراً، وإذا كان معبراً، فما قلت اللفظة عن
موضوعها فلا يكون مجازاً، مثاله إذا قلت: «كثير الرماد» فأنت تريد أن تجعل

(١) الحديد ٢٠.

حقيقة كثرة الرماد، سبلا على كونه جوادا، فأنت قد استعملت هذه اللفظة في معانيها الأصلية، ولكن غرضك في افادة كونه كثير الرماد معنى ثان يازم الأول وهو الجود، وإذا وجب في الكتابة اعتبار معانيها الأصلية لم تكن ملزم أصلا (١)»

ثم ان لفظة المجازية قريبة لفظية أو معنوية تمنع ارادة معناها الحقيقي، وتناول ابن الأثير ما يميز الكتابة عن التعريف فقال: «التعريف أخفى من الكتابة، لان دلالة الكتابة لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريف من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا للمجازي، وعلّم أن الكتابة تشمل اللفظ للفرد والركب معا، فتأتي حل هذا تارة، وحل هذا اخرى، وأما التعريف فانه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ للفرد البتة،

والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنما يفهم من جهة التلويح والاشارة، وذلك لا يستل به اللفظ للفرد، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب» (٢).

اعتمد ماددست من المقارقات بين الأساليب البيانية وما يميز أنواع كل أسلوب عن بعض ثم حدد الأسلوب البياني في النصوص الأدبية فذكر اسمه ومحللا مركباته،

١ - قال تعالى: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» (٣) .

٢ - قال تعالى: وقالوا: آئت فعلن هذا بالكهنة بالبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون» (٤) .

(١) نهاية الإيجاز ص ١٠٣ .

(٢) الخلل السائر القسم الثالث ص ٧٧ .

(٣) آل عمران ٧ .

(٤) الأنبياء ٦٢ - ٦٣ .

٣ - ويُرَوَّى عنه حبل الله عليه وسلم أنه قال: «السلعون تنكأوا دماؤهم ويحس
بظنهم أذقانهم، وهم يدُّ على من مواعص، والرء كثير بالحب»؛

٤ - يروى عن لثمان الحكيم أنه قال لأبيه: «يا بني إذا جئت مجلس قوم فارهم
بهم الإسلام، ثم اجلس، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك مع سهامهم
وإن أفاضوا في غيره فخطهم وانهم»؛

٥ - وكان الحجاج بن يوسف يقول على المنبر: «أيها الناس، اقدعوا هذه
الأنفس فإنها أسأل شي إذا أعطيت، وامتع شي إذا منلت، فرحم الله امرأ جعل
لنفسه خطاما وزماما فتادها بخطامها (١) إلى طاعة الله، وعطفا بزمامها عن
معصية الله، فإني رأيت الصبر عن محرم الله أبصر من الصبر على عذابه».

٦ - قال أبو الفتح، وهو عبد المؤمن بن عبد القدوس:
مقدمة فزأ كان رقابها رقاب بنات الماء أفرعها الرعد

٧ - قال عمران بن حطان في الحجاج:
هلا يزلت إلى غزالة في الوضي بل كان قلبك في جناحي طائر

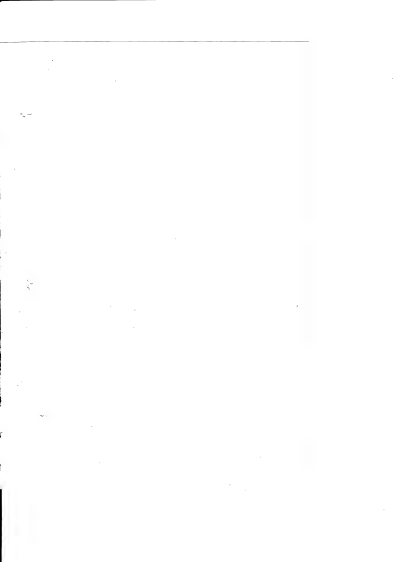
٨ - قال بشار بن برد يذكر عبيد الله بن قرعة:
قتل لابي يحيى متى تذررك الملا وفي كل معروف عليك يعين
إذا جئت في حاجة سد بابته قلم ثلثته إلا وأنت كمين

٩ - قال أحمد شوقي:
ضحكت إلي من السرور، ولم تزل يثنى للكروم كريمة الأعراف

١٠ - وقال أيضاً في عمر المختار:
واقاه مرفوع الجبين كأنه سقراط جسر إلى القضاة ردا

(١) اقدعوا: استنوا. الخطام: حبل من ليف أو شعر أو كنان يثنى طرفه على مشط
الصبر ليقاد به، والزمام: حبل دقيق يجعل في الفم.

- ١١ - وقال أيضاً من قصيدته - الدلبية - :
 فان بك الجنس يابن الطلح فترقنا إن المصائب يجمعن المصائبنا
- ١٢ - قال الرصافي في قصيدته - العالم شعر - :
 أسكان بطن الأرض هلا ذكرتم عهداً مضت منكم ولستم على التفتن
 وضيمت باكتفان ليلي حلالاً لكم وكنتم أولي الديباج والحلكر الحمر
- ١٣ - كان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه السان بسوء لم يجته ويقول إني لا تركك
 رفقاً لنفسك عنك فجری بينه وبين علي بن عبد الله بن عباس كلام قاسر إليه
 عروة بسوء فقال إني اتركك لما تترك الناس له .
- ١٤ - قال شاعر في مهنة رجل :
 أيوك أب ما زال الناس موجعاً لاعتاقهم تفرّ كما يتفرّ الصفر
 إذا حوج الكشاف يوماً سطورهم فليس بمعوج له أبداً سطر
- . . .



الباب الرابع
علم البديع

فصل الأول

البدع

المبحث الأول

نشأته وتطوره

يشتمل معنى مدلول البدع اصطلاحاً مؤدياً عن علم مخصوص من علوم البلاغة أن نلمّ بالمداني القوية التي تثبت عليها هذه الكلمة في المعجمات .

البدع لغة :

من يطالع في هذه المعجمات يدرك أن كلمة البدع «فعل» من الفعل «بدع» التي ورد بمعان (١) ، منها «بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه : انشأ وبتأه» و«بدع التركية : استبطنها وأحدثها» و«ابتدعت الشيء : اخترعته لأجل مثال :

وعلى هذه المعاني القوية لتلك الأفعال دارت كلمة البدع ، فهي الفرقان الكريم : البدع من أسماء الله تعالى لأبداعه الأشياء وأحداثه إياها ، وذلك في قوله تعالى : «بدع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون» (٢) وفي قوله جلّ اسمه : «بدع السماوات والأرض أنس يكون له وكند ولم تكن له صاحبة» ، ونحو ذلك كل شيء وهو بكل شيء عليم (٣) .

وركي بدع : حلبة الحفرة : والبدع : المحدث للعجيب ، والبدع : البدع ، وحيل بدع : جنيد .

وعلى هذا فإن لكلمة البدع لغة ثلاثة معان متقاربة تستمد مفاهيمها من الاختراع والحداثة والجدّة في أمور مادية ومعنوية :

(١) لسان العرب (بدع) .

(٢) البقرة ١١٧ .

(٣) الانعام ١٠١ .

تاريخ مصطلح البديع :

لقد تتبع المؤرخون الماصرون (١) لبلاغة العربية تطور كلمة البديع ودخولها ميدان الدراسات البلاغية اصطلاحاً مخصوصاً ، فنبهوا على أن بين القدماء خلافاً في نفس على الذين استعملوا مصطلح البديع أول مرة :

فقد ذكر الجاحظ (٢) (- ٢٥٥هـ) أن الرواة هم الذين أطلقوا مصطلح البديع أول مرة على المستطرف الجديد من القنن الشعرية وعلى بعض الصور البيانية التي يأتي بها الشعراء في أشعارهم فتزيدها حسناً وجمالاً : في حين أن أبا الفرج الأصفهاني (٣) ذكر أن الشاعر العباسي مسلم بن الوليد (- ٢٠٨هـ) كان أول من أطلق هذا المصطلح :

وأياً كان فإن مصطلح البديع قد ولد في أوائل القرن الثالث للهجرة واعتمده الرواة والباحثون من النقاد والبلاغيين واللغويين ليدلوا على ما انتصف به الشعراء المؤلفون من أمثال كلثوم بن عمرو ومنصور النعمري وبشار بن برد ومسلم بن الوليد ، وإني تمام ، فليكن أكثرنا من الأساليب البيانية في قصائدهم وألغوا فيما بينها من الحسن واللمع :

قنن البديع :

والعل عبد الله بن العنز (- ٢٩٦هـ) هو أول من صنف في هذا الميدان كتاباً سماه «البديع» ، فهو يقول : «وما جمع قنن البديع ولا سبتي إليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين» (٤) وللألف في كتابه هذا لا يعرف البديع ولا يسمى إلى تحديد قنونه وأبوابه بما يجعله موضوعاً راسخاً للعالم متفلق اللامع متميز الأركان ، وغاية ما يقرره

(١) راجع البلاغة تطوره تاريخ ٢٥٨هـ وكتاب قنن بلاغة ص ١٩٦ .

(٢) راجع البيان والتبيين ج ٤ ص ٥٥ .

(٣) راجع الاغانى ج ١٩ ص ٣١ .

(٤) البديع ص ٥٨ .

بهذا الصدد ، بعد أن يذكر أبوابه الخمسة التي هي : الاستعارة ، والتشبيه والمطابقة ورد " أصحاز الكلام على ما تقدمها ، ولذهب الكلامي قوله : وقد قلنا أبواب البديع الخمسة وكمل عدتها وكأني بالمعادن المرم بالاعتراض على الفضائل قد قال البديع أكثر من هذا ، وقال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قلناها فيقول من يحكم عليه لأن البديع اسم موضوع لقنون من الشعر يذكرها الشعراء ولقد اتفاد المتأديين منهم فأما العلماء باللغة والشعر فقد هم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يعرفون ماهو (١) :

ثم يعطف على ذكر بعض محاسن الكلام والشعر ويعلم أن محاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الاطاعة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ثم يقول : " وأحيينا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأديين ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختصارا من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة فمن أحب أن يقتل بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليعمل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره " (٢) :

ومحاسن الكلام والشعر التي ذكرها ثلاثة عشر وهي : الالتفات ، واعتراض كلام في كلام لم يسم معناه ثم يعود إليه فيقسمه في بيت واحد ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيده مدح بما يشبه الذم ، ونجاهل العارف ، وهزل يراد به الجدل ، وحسن التضمين ، والتعريض ، والكناية ، والأقراظ في الصفة وحسن التشبيه ، وإحداث الشاعر نفسه في القوافي وحسن الابتداءات :

ويتضح من هذا أن ابن المعتز إلى جانب ما قلنا من تجنبه تعريف البديع وتحديد أبوابه ، ينسب إلى أبواب البديع ثلاثة فنون من أبواب علم البيان وهي : التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، وبذلك من " الذين صنوا في هذا الباب من بعده سنة

(١) البديع ص ٥٨ .

(٢) البديع ص ٥٨ .

توسع في معنى البديع ليقيم في معناه مقام البلاغة حتى بعد أن استقلت فيها علوم البيان والبديع والمعاني .

وعلى هذه السنة جرى المصنفون في إعجاز القرآن والمثلثون في علم البلاغة والمتحدثون في موضوعات الأدب منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فأخذوا يضيفون إلى ما اكتشف ابن المعتز من فنون البديع ومحاسن الكلام والشعر ما رأوه سبقا توصلوا إليه وكشفوا عنه إذ لم يلبث أن تقلد تقدمه بن جعفر إلى زيادة ثلاثة عشر بحثا ، ثم تلاه أبو حلال العسكري بعد من المحصنات خمسة وثلاثين ، وكذلك صنع ابن رشيق في كتابه والعمدة (١) .

وقد ظل مصطلح البديع على هذا النحو من الخلل تعريفة وإقامة حدوده وتركه شاملا متصفا حتى لدى اللذين أخذوا لفظه وأقلوه عنوانا لمصنفاتهم ، فأسامة بن منقذ (- ٨٥٨٤) سمي أحد كتبه « البديع في نقد الشعر » جمع فيه خمسة وتسعين فنا بلاغيا ، لم يعرف البديع أو يتحدث عنه وإنما أشار إلى أنه جمع في كتابه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين المصنفين في نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ليكون متباينا عن تلك الكتب لتضمنه أحسن ما فيها (٢) .

وكذلك فعل ابن أبي الأصم المصري (- ٨٦٥٤) في كتابه « بديع القرآن » إذ جعل منه الإشارة إلى مصادره ولقد من سبقه وفتويه بما انتهى إليه فذكر : أن شرف الدين النيفاعي جمع في كتابه البديع ما لم يجمع غيره ، لولا مواضع نقلها كما وجدها ولم ينعم بالنظر فيها ثم روى قصة جهوده مع البديع في مصنفاته فقال : « غير أني توجيت تحرير ما جمعته جهدي ، ودققت للنظر حسب طاقتي ووسعي ، فتجشبت التذاعل ، وتحرست من التوارد ، ونقحت ما يجب تنقيحه ، وصححت ما فلتت على تصحيحه ، ووضعت كل شاهد في موضعه ، وربما أيقنت اسم الباب وغيرت مسماه ، إذا رأيت اسمه لا يطابق محتاه ، إلى أن

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٥٨ .

(٢) راجع البديع في نقد الشعر ص ٤ .

جست من ذلك خمسة وتسعين باباً أصولاً وفروعاً ، فأصول منها ما اشترك
 المفسران الأولان لتكوينه ، وهما مقدمة ابن جعفر الكتاب وابن المعتز ، وعندهما
 ثلاثون باباً بعد حذف ما تواردا عليه منها ، وما تداخل عليهما فيها ، وخمسة
 وستون باباً لمن جاء بعدهما ، إلى زمني هذا على ما تقدمت من الشروط ، ورأيت
 أن أخيف إلى ذلك الأصل والمضاف فذلك أنا مخرج اسمائها ، ومستخرج
 شواهدنا فاستنبطت واحداً وثلاثين باباً لم أسبق في غلبه ظني إلى شيء منها ، إلا
 أن يوجد في زوايا الكتب شيء من ذلك لم أقف عليه ، فأكون أنا ومن سبقتني
 متوآخين عليه ، وما اتعالم ذلك أن شاء الله تعالى .

فأضفت ما استنبطت إلى الأصل والمضاف الذي جست لعصارت فذلك مائة
 باب وستة وعشرين باباً كلها في كتابي الجامع ليدفع جميع الكلام الموسوم بتحرير
 التحرير ، ولما فتح علي بعمل الكتاب الذي وسعته «بيان البرهان في اصحار القرآن»
 وعلمت أنه لا يدرك له من ثمة تتضمن ما في الكتاب العزيز من أبواب اليديع فأفردت
 ما يخص بالقرآن . فكان ذلك مائة باب وثمانية أبواب ، (١) :

ثم يسرع في سوقه الأبواب مبتدئاً باب الاستعارة كما فعل ابن المعتز قبله
 بثلاثة قرون من غير أن يعرف اليديع ويقصّر من اطرائه ويفرق ما بينه وبين البلاغة
 بل أدخل فيه بعض أبواب المعاني مثل الاطناب والتكرار والتلبييل والاستقصاء
 والايضاح والبسط والابجاز .

اليديعات :

وبعد هذا دخل اليديع في دائرة القريض فتجرد طائفة من الشعراء لتنظم فنونه
 وترصيع فصائلهم بألوانه وفق طراز مخصوص ، وعندها تاريخ البلاغة (٢)
 العربية بهذا الشأن أن علي بن عثمان الأربلي (- ٨٧٠هـ) ، نظم قصيدة في مدح

(١) يديع القرآن ص ١٣ - ١٥ .

(٢) راجع البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٦٠ .

بعض معاصره مضمناً كل بيت منها محسناً من محسنات البديع ، وبإزاء كل بيت الحسن الذي يشير إليه .

ونظم صفي الدين الخلي (- ٨٧٥٠) قصيدة في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - على غرار يرده البوصيري المشهورة ، وقد امتدت إلى مائة وخمسة وأربعين بيتاً وضمن كل بيت فيها محسناً من محسنات البديع ، بحيث ضمت مائة وخمسين محسناً وسماها « الكافية البديعية في الدلائل الثبوتية » وألف عليها شرحاً سماه « التلخيص الالهي في شرح الكافية البديعية » .

ثم اتخذ العلماء بنارون في نظم قصائد بديعيات على غرار بديعية صفي الدين الخلي يمدحون بها الرسول الكريم ويضمنون كل بيت فيها محسناً بديعياً : ومن هذه البديعيات بديعية ابن جابر الأندلسي (- ٨٧٨٠) السماة والحلة السرا في مدح غير الثوري ، وبديعية الشيخ عز الدين الموصلي (- ٨٧٨٩) وبديعية ابن حجة الحموي (- ٨٨٣٧) وبديعية عائشة الباعونية النمشية (- ٩٢٢٢) وبديعية صدر الدين بن معصوم الحسيني المدني (- ١١١٧ هـ) التي صنف عليها فاضلها شرحاً سماه « أنوار الربيع في أنواع البديع » وهي من طراز بديعية ابن حجة وعز الدين الموصلي .

ولعبد لغني النابلسي الصوفي (- ١١٤٣ هـ) بديعيتان : أولاهما على مثال بديعية صفي الدين الخلي وعائشة الباعونية ، أي أن « آياتها لا تتضمن أسماء الحسنات البديعية وانتظر لها اسم وأسماء الاسفار في مدح الذي المختار » .

وثانيتهما من طراز بديعية عز الدين الموصلي وابن حجة الحموي أي أن آياتها تتضمن أسماء الحسنات البديعية .

وجرى شعراء معاصرون في هذه الحيلة فظفروا بديعيات لتتقي مع البديعيات التي تنادوها في أنها تأخذ شكل مختصرات جملة تكاد تكون رموزاً ، ولذلك كان فاضلها أو غيره يمد إلى شرحها ، فوصلنا مع علم البديع في هذه البديعيات إلى .

وصلنا إليه مع البلاغة العربية كلها عند السكاكي ومن جاء بعده . فاللآلف يمدد
 إلى التلخيص الشديد ، ويحتاج عمله إلى الشرح ، وتوضيح الشروح ، ولقدما يظهر
 البديع نفسه بدراسة غنية سوى الإفراط والتفريط في تصنع أنواع البديع واعتلاؤها
 وتسميتها بهذا المصطلح أو ذلك من المصطلحات التي كان للشغل الشاغل لتأجيلها
 أن يكتروها عدداً ويزيدوها احصاء حتى ولو لم تكن مسيبتها من البديع في شيء .
 لذلك انتبه البديع ليشمل الصور اليبانة وكثيراً من صور علم الماني ، وأخذ المقتنون
 فيه يشيقون الشيء واسماء لا يمكن أن تدخل في المحسنات كالقسم والاستدراك
 والتقليد ، وذكر أوصاف عدة لموصوف والبسط والاعتراض ، والتكرار ،
 ونوعوا في تسمية صوره ، وعموم الخطاب مثل : يا أيها الناس ، والتغليب والتسليم
 والألحاح إلى غير ذلك (١) ، مما أحال الكلام في البديع ومحسناته إلى صورة غلة ،
 ضررها أكثر من نفعها ، لأنها خلطت بينهما مزيجاً بالبديع الحقيقي (٢) .

أهمية البديع

إن هذه الحقيقة التاريخية لا تغفل أهمية البديع في البلاغة العربية ولا تنكر دور
 فنونه البشكرة في بناء الأسلوب الفني للأدب العربي ، ذلك لأن هذه الفنون
 أصلية في هذا الأدب جرت في أوصاله منذ أقدم عصوره وفي شتى موضوعاته
 وأفرازه وأنها لم تكن بدعة شكلية اصططنها الشعراء اللولون في العصر العباسي
 الأول وفرضوها فرضاً على اللغة العربية .

وقد انتبه ابن المعتز إلى هذه المسألة واعتمدها منهجاً تاريخياً في تأليف كتابه
 الذي هو بالكررة المصنفات في البديع فقال : "قدما في أبواب كتابنا هذا
 بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأما حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام
 الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتعلمين من الكلام الذي سمعناه للمحدثون

(١) راجع البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٦٦ .

(٢) المقتنون بلاغة ص ٢١١ وما بعدها .

البديع يُعْتَمَدُ أَنْ يَشَارَ وَمُسَلِّماً وَأَيَّاماً نَوَاسٍ وَمَنْ تَكْتَبُهُمْ وَمَنْ سَيَلَهُمْ لَمْ
يَسْأَلُوا إِلَى هَذَا لَقْنِ ، (١) ٥
أصالة فنون البديع :

لقد سعى عبد القاهر الجرجاني إلى ترسيخ معايير تطبيقية لتمييز فنون البديع
الأصيلة عن التزويج اللغوي والصناعة الشكلية مقررأً بذلك أهمية هذه الفنون
وهدداً سبيل تحقيقها وتجنب الإفراط فيها فقال متحدثاً عن البديع عامة وفن
التجنيس والسجع خاصة : وإن ما يعطي للتجنيس من التفصيـلة أمر لم يتم إلا بتصرف
المتنـي إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيبه
مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ولهذه الحالة كان
كلام المتفهمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، وتركوا سجية الطبع ، أمكن
في القول ، وأبعد من التلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوي التحصيل ،
وأسلم من التفلوت وأكشفت عن الأغراض ، والنصر لجهة التي تنحو نحو العقل ،
وأبعد من التعمد الذي هو ضرب من الخداع بالتزويج ، والرضى بأن تقع التضيعة
في نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من الوشم والتفشي ، والقل صاحبها
بالحلـى والوشى ، قياس الحلـى على السيف الدان (٢) ولتوسع في الدعوى بغير يرهان ،
كما قال :

إذا لم تشاهد غير حُسْنِ شَيَانِهَا وَأَعْضَائِهَا غَالِحُسْنُ عَيْتِكَ مَغْيِبُ (٣)
وقد نجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع
إلى ماله اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبيـن ، ويخجل
ليه أنه إذا جمع بين القسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ماعناه في عساء وأن

(١) البديع ص ١٠٠

(٢) المداد بالفتح : التكليل فهو كاللحماء وزناً ومعنى ويطلق على عنه وهو التقطاع .

(٣) الثبات : جميع شيء كعدة وحدات ، وهو كل لون في الشيء يخالف معظم
لونه الأصلي وهو من الوشي . والكلام في الخيل .

يوقع السامع من طلبه في غيظ عشواء وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على الخفى
واقصده ، كمن لقل العروس بأصناف الخلل ، حتى ينالها من ذلك مكروه في
نفسها (١) .

فهذا بلا غير عبد القاهر أربعة معايير لبيان دور فنون البديع ووضع اليد على
عائقة التفريط فيها :

أولها : ملازمة في البديع الخفى والتسجيم معه والتجاذبه به .
والثاني : صدوره عن الطبع وإيقاظه عن السليقة والأساكن به اذا ما جاء عن تصنع
وتكلف :

والثالث : توظيفه من اجل الانباه والابانة .
ورابعها : تجنبه للاكتثار والتراكم بلا طائل وبلا هدف .

ان هذه المعايير - بلا ريب - تصح في ميدان التطبيق مؤشرات لتمييز البديع
الاصيل عن المزيف ووضع حد للاكتثار من فروعها وشعبه حتى يفسح معها
دوره الاصيل في اشراق الاسلوب العربي ووضوحه وبيانه وتأثيره :

(١) أسرار البلاغة ص ٨-٩ .

البحث الثاني

الحسنات المعنوية والفنية

رأينا فيما مضى ان مصطلح البديع ولد في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ليدل على مفهوم عام اتسع لموضوعات من علم البيان والمعاني ، وأنه ظل كذلك طوال العصور المختلفة حتى كاد يقوم في مثوله مقام علوم البلاغة كلها ويضم اليه فنون القول وألوان التعبير المتعددة .

السكاكي وتقسيم البديع :

وفي هذا الخضم من قلب مصطلح البديع تصدى السكاكي (١٢٢٦هـ) لطائفة من فنونه فتناولها بمنهجه الكلامي وأولع بتقسيماتها وتفرعاتها ، وما يلاحظ بهذا الصدد أنه لم يُسمَّ ما تناول من فنون البديع بديعاً ولم يعتمد مصطلحه ، كما أنه لم يدخلها في البلاغة وإنما سمّاها محسنات ورأها وجوهاً (١) مخصوصة كثيراً ما يشار إليها لقصد تحسين الكلام ، وذكر منها ستة وعشرين لونا وترك باب التنبيه على المزيد منها مفتوحاً لباحثين والتأمليين . والسكاكي في تصديقه لأنواع البديع تلك صنفها إلى قسمين : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ . فمن الضرب الأول : المطابقة ، والمقابلة ، والمشاكلة ، ومراعاة الظهير ، وهو الجمع بين التشابهات كقوله :

وحرف كتون تحت رام ولم يكن بدال يؤم الرسم غيرهُ النشط والزوجة وهي أن تراوج بين معنيين في الشرط والجزاء ، كقوله :

إذا ما نهى الناهي فلجَّ يسى المسوى أصبح إلى الواسي فلجَّ بي العجسرُ والقف والنشر ، وهو أن تلف بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاماً متشداً

على متعلق بواحد ويكثر من غير تعيين لغة بأن السامع يرد كلاماً متشداً إلى ما هو له كقوله عزّ وجلّ : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا

من فضله » (٢) .

(١) راجع مفتاح العلوم ص ٢٠٠ .

(٢) اقتضص ٧٣ .

والجمع هو أن تدخل شيئين فصاعداً في نوع واحد كقوله :
 إن الفراع والشباب والجيد مفسدة للرم أي مفسدة
 والفريق ، وهو أن تصد إلى شيئين من نوع فتوقع بينهما تاباً كقوله :
 ما نوال الله ام وقت ربيع كوال الأمير وقت سخا
 فنوال الأمير بكرة عين ونوال الطعام قطرة ماء
 والتقسيم : وهو أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو أكثر ثم تصيف إلى كل واحد من
 اجزائه ما هو له عندك كقوله :

أديسان في يبلغ لا ياكلان إذا صحبا المرأة غير للكيد
 فهذا طويل كظلل القناة وهذا قصير كظلل الويد
 والجمع مع الفريق : وهو أن تدخل شيئين في معنى واحد وتفرق جهتي
 الإدخال كقوله :

قد اسود كالسك صدغاً وقد طاب كالسك غكنا
 فانه شبه الصدغ والخلق بالسك ثم فرق بين وجهي المشابة كما ترى
 والجمع مع التقسيم : وهو أن تجمع أموراً كثيرة تحت حكم ثم تقسم ، أو تقسم
 ثم تجمع ، مثال الاول قول النبي :

الدعز مخز والسيف منتظر وأرضهم لك بمطاف ومرتب
 لسي ما نكحوا وقتل ما ولدوا ونهس ما جمعوا والنار ما زرعوا
 فانه جمع في البيت الاول أرض العدو وما فيها في كونها خالصة للعدو
 وقسم في الثاني ، ومثال الثاني قول حسان رضي الله عنه :

قوم اذا حاربوا غرروا عدوهم أو حاولوا التفع في اشياعهم نقصوا
 سجية تلك منهم غير محذو إن الخلاق فاعلم شرها ليدع
 فانه قسم في البيت الاول حيث ذكر ضررهم للاعداء وقلعهم للارباب
 جمع في الثاني فقال : وسجية تلك .

والجميع مع الثفرين والضم ، كما اذا قلت :
 فكانتار غيرةً وكانار حَسْرًا محبًا حيسي وحسرة بالسي
 فذلك من ضوئه في التجبال وهذا لغزقه في اختلال
 والايام ويقصد به الثورية ، وتأكيذ اللوح بما يشيه اللم .
 والتوجيه : وهو ايراد الكلام محملا لوجهين مختلفين :
 وسوق العلوم ساق غيره ، كقوله تعالى : «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُنَّ أَوْ فِي ضِلَالٍ
 مِين » (١) ؟
 والاعتراف : ويسى الخسر ، والاستيعاب ، وهو اللوح بشي على وجه يستيع
 منها آخر كقوله :
 تَهَبَّتْ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوِيَتْ لَهَبَّتْ السَّعْدِيَا بِأَنَّكَ عَالِيْدُ
 وَالْأَلْفَاتِ ، وَتَقْلِيلُ الْقَطْرِ وَلَا تَقْلِيلُهُ :
 ومن القسم الثاني : لتجيب ورد المعجز الى العسر ، والقلب ، والاسجاع ،
 والقواصل للقرآنية ، والترصيع ، وهو ان تكون الالفاظ مستوية الاوزان متلفة
 الاعجاز او مقاربتها كقوله عز اسمه : «إِنَّا إِنَّا أَبَانَهُمْ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حَابِنَهُمْ » (٢) ،
 وواضح من هذا : ان السكاكي (٣) يقسم لأول مرة فنون البديع الى ضربين :
 اولهما : المحسنات المعنوية .
 للهيما : المحسنات المنطقية .

(١) س٢٤ .

(٢) اثناثية ٢٥-٢٦ .

(٣) راجع مفتاح العلوم ص ٢٠٠-٢٠٤ .

وعتصما لخص بدر الدين بن مالك (٨٦٨٦-) القسم الثالث من «مفتاح العلوم»
السكاكي في كتابه «النصائح في علم المعاني والبيان والبدیع» أطلق مصطلح
«البدیع» على القسم الثالث من البلاغة (١).

وعطفه بالنصائح ، إذ مهد له بقوله : «وهو معرفة أنواع النصائح فلا بد للخواص
فيه من تقديم ذكرها فتقول : والنصائح هي صرخ الكلام على وجه له توفية بتمام
الافهام لمناه وتبيين المراد منه ، وهي نوعان : معنوية ولنظمية» (٢).

وبعد ان ذكر طائفة من شروط النصيحة النظرية والنصائح المعنوية استرسل في
حديثه عما يتعلق بشئون البدیع فقال : «ولقد ظهر من هذا ان لا بد من تكميل
النصائح من إتيان المعنى بالمفرد المختار وهي من صفات البلاغة وما يكسو للكلام
حلة التزين ويرقيه أعلى درجات التحسين ، ويتفرع منها وجوه كثيرة يصار
اليها في باب تحسين الكلام ، فلتعرض للذكر الاهم منها في ثلاثة فصول لانها
اما راجعة الى النصيحة النظرية واما راجعة الى المعنوية ، والراجعة الى المعنوية
اما مختصة بالافهام والتبيين ، واما مختصة بالتزين والتحسين» (٣).

وذكر مما يتعلق بالنصائح النظرية اربعة وعشرين نوعا، وما يخص النصائح
المعنوية تسعة عشر نوعا ، وما يرجع الى النصائح المختصة بتحسين الكلام وتزيينه
للدالة على قوة عارضة للكلم وتمكنه خمسة عشر نوعا ، فهذه ثمانية وخمسون
نوعا من فنون البدیع التي اربعه وعشرين فنا من كتاب «مفتاح العلوم» وتلقت
سائرنا من الكتب الاخرى التي رأيناها تتفنن منذ أيام ابن المعتز في الاكثار منها
وزيادة عددنا .

(١) ينظر البلاغة عند السكاكي ص ٣٧٠ وفنون بلاغية ص ١٢٠ ومصطلحات
بلاغية ص ٨٨ ومناقب بلاغية ص ٣٢٢ .

(٢) النصائح ص ٧٥ .

(٣) النصائح ص ٧٦ .

أما قسمته هذه الثلاثة فليس لها أي أساس موضوعي وإن تميزه بين الحسنات المعنوية وتفرعها إلى قسمين لا يتضح ولا يستقيم ثم إنه قد خالف البلاغيين بأدخاله المطابقة والمقابلة في الحسنات العقلية وهو في مخالفته هذه لا يكاد يستند إلى شيء ذلك لأنه لا يشك أحد في أن هذين النوعين اللذين يتفقان بالمعاني ولا يمتان إلى الالفاظ بصفة فنية : ومهما يكن فإن عمل بدر الدين بن مالك مظهر لما وصلت إليه البلاغة العربية لدى اتباع المدرسة الكلامية من الجمود والولع بالتصنيفات والتفريعات .

فنون البديع بين محسنات معنوية ومحسنات لفظية :

لقد أثاره الخطيب القزويني (٨٧٣٩هـ) بقسمة السكاكي فنون البديع إلى محسنات معنوية ومحسنات لفظية ، مضيفاً إلى ما أورد السكاكي فنونا جديدة ذلك لأنه ذكر من المحسنات المعنوية الثمين ولثلاثين نوعاً ومن المحسنات اللفظية تسعة أنواع وفصله عن البلاغة فصلاً تاماً إذ أعد البلاغة علمين هما : علم المعاني وعلم البيان .

ومن هنا فقد حدد البديع بقوله : «علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة» (١) .

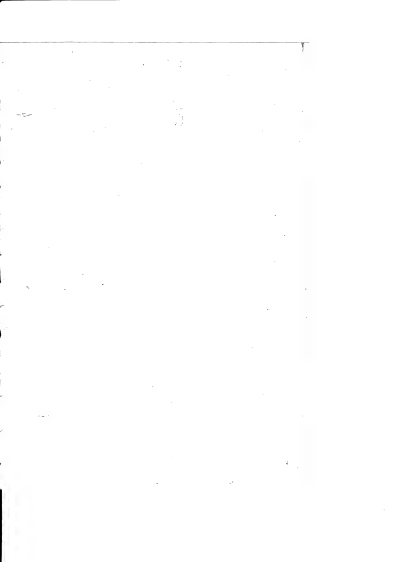
وفي ضوء هذا التعريف ألقى عن البديع ماعده بعضهم من فنونه ونحو ما يرجع في التحسين إلى الخط دون التقط مع أنه لا يخلو من التكلف ، ككون الكلمتين متماثلتين في الخط ، وكون الحروف منقوطة أو غير منقوطة ، ونحو ما لا أثر له في التحسين ، كما يسمى التريديد .

أو لعدم جدواه ، نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين مما هو داخل فيما ذكرناه ، كما ساء الأيضاح ، فإنه في الحقيقة راجع إلى الأطناب أو خلط فيه ، كما ساء حسن البيان (٢) .

(١) الأيضاح ص ٢٢٤ .

(٢) الأيضاح ص ٢٠١ .

ان البلاغيين بعد القزويني لم يأتوا بشيء ذي بال في قسمة المحسنات البدعية الى
 محسنات معنوية ومحسنات لفظية وغاية ما انتهى اليه أنهم علقوا المحسنات المعنوية
 بما يدخل في التحسين المعنوي وتزيين الكلام من حيث مضمونه .
 اما المحسنات اللفظية فقد جعلوها خاصة بالمسجع من ظواهر الالفاظ وأجراسها
 فاصلين بذلك بين اللفظ والمعنى في بنية النص الادبي الذي لا يمكن تصور ذلك
 الفصل فيه إلا فرضاً وتوهماً :



الفصل الثاني المحتملات النورية البحث الأول النورية

النورية لغة :

النورية لغة (١) : مصدر وريت الخبيث : اذا أغفبه وأظهرت فيه ، قال أبو حبيدة : لا أراه إلا مأخوفاً من وراء الامسان ، فانما قال : وريته فكأنه جعله وراءه بحيث لا يظهر .

النورية اصطلاحاً :

أما في الاصطلاح (٢) : فهو أن يذكر لها معنيان ، أما بالاشتراك ، أو التواطؤ ، أو الحقيقة والجاز أحدهما قريب ودلالة التقط عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ودلالة التقط عليه خفية ، فيقصد للكلم المعنى البعيد ، ويؤري عنه بالقرب ، فيتوهم السامع أنه يريد القريب من أول وهلة ، ولهذا سمي ابهاماً : كما سمي توجيهها وتخيلاً ، والنورية أول في التسمية لقربها من مطابقة المسمى ، من ذلك قوله تعالى : « قالوا تالله إنك لفي شككك القديم » (٣) ، فانظر إلى كون الضلال ههنا يحتمل الحب وضد الهدى ، وكيف استعمله أولاد يعقوب عليه السلام ضد الهدى ، فوردوا به عن الحب ليعلم أن المراد ما أعملوا لا ما استعملوا (٤) . ومن ذلك قول أبي العلاء المعري :

وحرف كنون تحت راء ولم يكن بدال يؤم الرسم غيرهُ التقط
فمن سمع هذا أثبت توهم أنه يريد برام ودال حرفي المفجاء لانه صدّر بيته

(١) راجع خزائن الاديب ص ٢٣٩ والنوار الرابع ج ٥ ص ٥ .

(٢) الساققان والاصطلاح ص ٣٥٢ .

(٣) يوسف ٦٦ .

(٤) راجع بديع القرآن ص ١٠٢ .

بذكر الحروف واتبع ذلك بالرسم والنقش ، وهذا هنا هو المعنى التقريب المتبادر
أولا إلى ذهن السامع :

والمراد غيره وهو المعنى البعيد المورى عنه بالتقريب لان مرادها بالحرف الثالث هو حرف التثنية
تشبه الثالثة به في تقويسها وضمورها وبراء اسم الفاعل من رأى اذا ضرب الرقعة
وبدال اسم الفاعل من دلا بدلو اذا رقت في السير ، وبالرسم : أثر الدار ، والنقش :
الطير (١) ومعنى هذا البيت : ان هذه الثالثة لضعفها وانحائها مثل نون تحت
رجل يضرب رثيها ولم يرق بها في السير فهو غير دال وقد تقدم ان الدالي هو
الرقين ويؤم بها داراً خبير للطير رسمها : واجتماع هذه الاوصاف دليل على
ضعف الثالثة لانها لو كانت قوية لما احتاجت إلى ضرب رثيها والى الرقن بها مع
شدة شوقه إلى ديار أحبابه وذلك باعث على شدة السير .

وكذا التورية :

ويظهر من تعريف التورية وتحليل فنيك الشاعرين أن لهذا الفن من فنون
اليدج ركنين معنويين :

أولهما : المورى به وهو المعنى التقريب للنقطة الذي لا يقصد إليه التكلم ويستمر به
سواء .

ثانيهما : المورى عنه وهو المعنى البعيد المستور الذي يعنيه التكلم *
أقسام التورية :

لقد قسم القزويني التورية (٢) على اساس ما يذكر معها إلى ضربين هما :
للجدة والمرشحة : ثم زاد في هذين الضربين للتأخرون فأوصلوها إلى أربعة باضافة
المبينة والمهياة إلى النوعين الاولين :

(١) راجع حزانة الادب ص ٢٢٩ .

(٢) راجع الايضاح ص ٣٠٣ .

أما المجردة : فهي التي تنجرّد عما يلائم كلا من المعنيين ، أي المورّي به والمورّي عنه : مثال ذلك قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » (١).

فإن الاستواء يطلق على معنيين هما الاستقرار في مكان ، والقابضة :

والثبوتية في الآية الكريمة لم تجامع شيئا يلائم المورّي به ولا المورّي عنه : واعترض بعض المحققين بأن فيه ما يلائم المورّي به وهو على العرش ، لانه ملائم للاستقرار . ومثله قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في خروجه إلى بدر ، وقد قيل له : من أنتم ؟ فلم يرد أن يعلم السائل فقال : من ماء ، أراد أنما مطلق من ماء فوري عنه بقبيلة من العرب : ومن ذلك قول النابغة الجعفي :

كَأَنَّ كَسَانُونَ أَعْدَى مِنْ مَلَابِسِهِ لَشَهْرٍ تَمُوزُ أَنْوَاعاً مِنْ الْحِكْلِ
أَوْ الْفَزَالَةِ مِنْ طُولِ الْمَدَى خَرَفَتْ قَمَا تَفَرَّقُ بَيْنَ الْجِدْيِ وَالْحَمَلِ
يَحْيَى كَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ كِبَرِهَا وَطُولِ مَسْنَاهَا صَارَتْ عَرَقَةً قَلِيلَةً لِعَقْلِ فَتَزَلَتْ
فِي بَرَجِ الْجِدْيِ فِي أَوَانِ الْخُلُولِ يَبْرُجُ الْحَمَلُ : والشاهد في الفزالة ، فإنه لم يذكر معها شيء من لوازم الفزالة الوحشية ، وهو المورّي به كطول العنق ، وحسن الالتفات وسرعة التنفوس ، وسواد العين : ولا شيء من لوازم الفزالة الشمسية ، كالإشراق ، والطلوع ، والأفول .

وليس لقائل أن يقول : إن الفزالة قد ترشحت بالجدى والحمل ، وهي مرشحة لهما ، لانه يشترط في لوازم الثبوتية أن لا يكون لفظاً مشتركاً ، والفزالة هنا مشتركة ، وكذا الجدى والحمل فأنهما يطلقان على الحيوان المعروف وعلى بعض البعوض ؟

وأنا أتاني في الثبوتية بلازم لكل من المعنيين فكأنما ولم يترجع أحدهما على الآخر فكأنك لم تذكر شيئا من اللاتزمين ، وصار المعنى للقريب والمعنى البعيد

(١) ط . د .

بذلك في درجة واحدة فلتحق هذه الثورية بالجردة ، وتعد منها قسماً ثانياً وتصير
جردة بهذا الاعتبار .

كقول ابن الوردى :

قَالَ إِذَا كُنْتُ تَهَوَّى وَصَلَى وَخَشَى لَهَوَى
صِفْ وَرْدَ عَدَى وَإِلَّا أَجُورُ نَادِيَتْ جُورَى

قوله : ورد عدى يلائم أن يراد بقوله : جورى اسم نوع من الورود ،
وهو المعنى البعيد المورى عنه وهو المقصود ، وقوله : « وإلا أجور » يلائم لأن يراد
به فعل الأمر المستند إلى ضمير الواحدة ، وهو المعنى القريب المورى به .

ولما الرشحة : فهي التي تجتمع ملائمة للمعنى القريب المورى به وهي قسمان :
أولهما : ما جامع ملائمة قبل الثورية ، كقول الشاعر :

حِطَّاهُمْ طَرّاً عَلَى الدُّهْمِ بَعْدَ غَلْمَا عَلَيْهِم بِالطُّغْمَانِ مَلَابِئَا
الشَّاهِدِي كَلِمَةً وَالدُّهْمُ ، فإنه يحتل الخيل الدغم وهو المعنى القريب المورى
به ، وقد تقدم لازمه للرشح له وهو لفظ الخيل ، لأنه من لوازم الخيل .

ويحتل التقيود وهو المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد ، لأنه أراد تقييد العدى
ولأنهما : ما جامع ملائمة بعد الثورية ، كقول الشاعر :
اسمها شجر :

يَا حَبِيبَا شَجَرٍ وَطِيبٍ نَسِيبَا لَوْ أَنَّهَا شَفَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ
الشَّاهِدُ فِي شَجَرٍ ، فإنه يحتل ماله ساق من الثبات وهو المعنى المورى به ،
وقد رشحه بعد الثورية بما يلائمه وهو طيب نسيم والسقي بماء واحد ، ويحتل
اسم المرأة وهو المعنى المورى عنه وهو المقصود .

لما البيت : فهي التي تجتمع ملائمة للمعنى البعيد المورى عنه إما قبلها أو بعدها
فهي أيضاً قسمان :

الاول : ما جامع ملائمة قبل التورية كقول الشيخ بمجاء :
 قالوا أما في جائق نسزعة^١ تنسبك من أنت به مغسرى
 يا عاذلي دولك من لحظه سهماً ومن عارضه سطرًا
 للشاعر هنائي السهم هو السطر وكان المعنى البعيد المورى عنه هما الموضوعان المشهوران
 من متزجات دمشق ، وقد جامعا ما يلائمهما قبلهما وهو ذكر التزجة ، وأما المعنى
 القريب سهم الحظ ، واطر العارض^٢ :

الثاني : ما جامع ملائمة بعد التورية ، كقول ابن سناء لذلك :
 أما والله لولا خوف سخطك لكان علي^٣ ما ألقى برحطك
 ملكك الخالقين فتهت عجباً وليس هما سوى قلبي وقرطك
 لأنه أراد بالخالقين قلبه وقرط محبوبته ، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه ،
 وقد يته بالنس عليه في الصراع الأخير . ويحتمل أن يريد الشرق والغرب ،
 وهذا هو المعنى القريب المورى به .

أما النهاية : فهي التي تنظر الى ذكر شيء يبيها لاحتفال المعنيين اما قبلها ،
 أو بعدها ، ولا تم تهيأ التورية ، او تكون بلفظين أو أكثر لولا كل منهما لم تنها
 تورية في الآخر . فهي بهذا الاعتبار ثلاثة اقسام :

الاول : ما نهيات بلفظ قبلها كقول الشيخ احمد بن عيسى للرشدني في شداد
 نالة لشرىف مكة للشرقة ، والشداد في حرف أهل الحجاز الرحل :

ألفق الشداد ببلدت به شمس الخلافة والهيلال
 ومن السجائب جمعه لبت شرافة والخيزال

لشاعر في الهلال والفرال ، فانها يحتملان أن يكونا بمعنى القمر وواللهيلي ،
 وهذا هو المعنى القريب المورى به ويحتمل أن يراد به جزآن من الرحل^٤ فان
 الهلال في اصطلاحهم مخرج مقدم الرحل ، والفرال الرحل كالقريوس للرجح .

وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه : ولولا ذكر التشديد قبلهما ما تهيأت للتورية
فيهما

الثاني : ما تهيأت بلفظ بعدها كقول ابن الربيع :

لولا التطيرُ بالخلافِ وانهم قالوا مريض لا يعود مريضاً
لأنه ثبت تحضي في جنبك خلعة لاكون مندوباً قضى مقروضا
فإن المندوب يحتمل أن يكون اسم مفعول من وندب المبتدأ ، لهذا بكاه ، وهو
المعنى البعيد الذي قصده الناظم وورى عنه ، ويحتمل أن يكون خلاف المقروض
وهذا هو المعنى القريب المورى به ، وذكر المقروض بعده هو الذي هيأ للتورية ،
ولو لم يكن ما كان فيه تورية لينة .

الثالث : ما وقعت فيه التورية بلفظين أو أكثر ، لولا كل منهما لم تهيأ للتورية ،
في الآخر ، كقول عمر بن أبي ربيعة في ثريا بنت عذابة بن الحارث بن أمية
الاصغر ، وقد تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف :

أيها النكحُ الثريا سهيلاً عَمْسَكَ اللهُ كيف يستغيثان
هي شابة إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يساني
فإن كلا من الثريا وسهيل هي صاحبة التورية ، فلفظ الثريا هي سهيلاً لاحتمال أن
يراد به الكوكب المعروف ، ولفظ سهيل هي الثريا لاحتمال أن يراد بها المتزلة
المعروفة ، لكون أحدهما شمالياً والآخر جنوبياً ، وهذا هو المعنى القريب المورى
به : ومراد الشاعر إنما هو صاحبة الشابة الدار والقييلة ، لأنها من بني أمية
الاصغر بن عبد شمس ، وسهيل هي الدار لا القليلة ، وهذا هو المعنى البعيد
المورى عنه ، ثم لما أراد من الانكثار على من جمع بينهما بالغت وجه .
ومنه قول النري :

إذا صدق الجذع انقضى العسم للنسي مكارم لا تكري وإن كلب الخال
فإن كلا من الجذع والعسم والخال يعني صاحبة التورية بظاهر معناه ، ومراده
بالجذع : الحظ ، وبالعسم : الجماعة ، وبالخال : المخيلة .

المبحث الثاني

حسن التعليل

بطل عبد القاهر الجرجاني هو أول بلاغي درس موضوع حسن التعليل والضماع (١) له حده وتعريفه وروياً شواهد وأمثله ومنهياً بأنواعه وأضرابه، وذلك في أثناء بحثه التعليل وأضرابه من تشبيه الصورة وسوق الملل. فقد تحدث عنه بصورة مباشرة قائلاً: وهو أن يدعي في الصفة الثابتة لشيء أنه إنما كان لعله يضعها الشاعر ويختلفها، إما لأمر يرجع إلى تعظيم المملوح أو تعظيم أمر من الأمور (٢). ومثل لما يدخل في هذا الفن يقول المتنبي:

لَمْ يَتَحَكَّمْ تِلْكَ السَّحَابُ ، وَإِنَّمَا حُمِّلَتْ بِهِ ، فَصَيَّبَهَا الرَّحْمَاءُ (٣)
ثم حله مولانا بين أسلوبه وبين التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فإنه وضع المعنى وصوره في صورة خرج معها إلى مالا أصل له في التشبيه فهو كالواقع بين الضربين وقريب منه في أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعة في تشبيهه، وغلط عنه صورته خطأ قوله:

وما ربح الرياض لها ولكن كساعا دلفهم في الترب طيا
ومن لطيف هذا النوع قول أبي العباس الضبي:

لَا تَرْكَبُنِ إِلَى الْفَسْرِ قَرِ وَإِنْ سَكَنْتَ إِلَى الْعَسَاقِ
قَالَ شَمْسٌ عِنْدَ غُرُوبِهَا تَعَفَّتْهُ مِنْ فَرْقَرِ الْفِرَاقِ
أدعى لتعظيم الفراق أن ما يرى من الصفرة في الشمس حين يرق نورها يدنوها

(١) اسرار البلاغة ص ٢٥٦ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٦ .

(٣) الرحضاء : الفرق في الر الحس ، أي للصوب من السحاب هو عرق الحس .
فتزول القطر من السحاب وصف ثابت لما لا يتغير له في المادة مادة وقد علق به عراق
ساعدا أخاذاً بسبب غائل المملوح وتنفرد به .

من الارض اما حولانها تفارق الاقن الذي كانت فيه أو الناس الذين طلعت عليهم،
وانت بهم وأنسوا بها وسرهم رؤيتها (١) .

ثم عقد عنوان فصل «وهذا نوع آخر في التعليل» وقال:

«وهو أن يكون للمعنى من المعاني والقمل من الاعمال حجة مشهورة من طريق العادات
والطباع ثم يجه الشاعر فيمنع أن يكون لتلك المعروفة ويضع له حجة اخرى» (٢)؛
وأورد لهذا النوع شواهد كثيرة حلل معانيها ووزن بين حللها المخترعة وتبين
حللها الحقيقية التي يتعارف عليها الناس واتخذ بعضها منها لأغرائها في المبالغة وضعفت
أسيابها وتمكن النظر الدقيق من الأخذ عليها؛ ومن الشواهد التي ارتضاها في هذا
الباب قول أبي طالب المأموني في التلبيح:

مفرم بالتشاء صب يكسبه إذا جد بهتر للسماح ارتيساحا
لا يذوق الاغشاء إلا رجاء أن يرى طيف مستبج رواحا
ثم خلق عليه بقوله: «وكانه شرط الرواح على معنى أن الغفاة والراحين إنما
يحضرونه في صدر النهار على عادة السلاطين فإذا كان الرواح ونحوه من الاوقات
التي ليست من اوقات الاذن قلوا فهو يشناق اليهم فينام لئلا يرى برؤية طيفهم» (٣)؛
ويظهر من هذا كله أن عبد القاهر الجرجاني درس حسن التعليل ضمن موضوعات
البيان وفي معرض النقد التحليلي عارضها للعلل المخترعة على اللوق السليم مبرزاً لها
ما يلائم هذا اللوق مما يخالفه؛

تعريف حسن التعليل :

وتلقف علماء البلاغة المتأخرون دراسة عبد القاهر وأدخلوها في انواع التلبيح
مقروين له حداً جامعاً مانعاً وجاعلين آياه من المحسنات المعتبرة متجهين أمورها
وأقسامه من اشاراته وفي ضوء شواهد؛

(١) المصدر السابق ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٤ .

وملاك الامر عندكم حذاً وتعريفًا: أن حسن التعليل هو أن ينكر الاديب صراحة، أو ضمناً، علة الشيء المروفة، ويأتي بذلك اثنى اديبة طريقة، لها اعتبار لطيف، ومشتملة على دقة النظر، بحيث تناسب الغرض الذي يرمي اليه؛ وعليه فان الاديب في هذا الفن يدعى لوصف علة مناسبة غير حقيقية، ولكن فيها حسناً وطرافة، فيزداد بها المعنى المراد الذي يرمي اليه جَمَلاً، وشرفاً .

المحروب حسن التعليل :

أما اضربه فهي عندكم اربعة اقسام (١) ، لان الوصف الذي ادعي له علة متاسبة، أما ثابت لريد الياته أو غير ثابت، والاول اما أن لا يظهر له في العادة علة أو يظهر له علة غير المذكورة والثاني اما ممكن أو غير ممكن .

أما الاول: وهو الذي لا يظهر له في العادة علة فكتقول الشيخ جمال الدين الحلبي:
ولسا نفساً وجهه الريح تقابه وفاحت بأطراف الرياض القنائم
فطارت حقول الطير لما رأينه وقد بهت من بينهن الحماشم
عشقين جشولاً بالرياض وحشها فرحن وفي أصنا فهن القنائم
وأما الثاني: وهو الذي يظهر له في العادة علة غير المذكورة، فكتقول الشاعر:
أنتنى تؤلبنى بالككا مقاعلاً بها وبنايها
تقول وفي عينها حشمة أتكسي بعين ثراني بها
قللت اذا استعنت غيركم أسرت للنعوع بتأديها
فان العادة في دفع العين أن يكون اللب فيه إعراض الحبيب واعتراض الرقيب
ونحو ذلك من الاسباب الموجبة للاكتئاب، لاجتماعه من التأديب على الاساءة
بامتصان غير الحبيب .

(١) داجع انوار الربيع ج ٦ ص ١٣٦.

وأما الثالث: وهو الوصف غير الثابت الذي أريد إثباته وهو ممكن، فנקقول الشاعر:
 ولقد همت بقتلها من حبها كما تكون عصيتي في المحشر
 حتى يطول على الصراط وفوقنا فليد عيني من لذيذ النظر
 لما ادعى أمراً غير ثابت ولا معتاد، وهو همّ العاشق بقتل محبوبته، علّة يطول
 الوقوف معها للمخاصمة يوم المحشر على الصراط، لتتبد عنه بالنظر إليها.
 وأما الرابع: وهو الوصف المذكور غير الممكن، فנקقول الشاعر:

لوم تكن نية الجوزاء غسلته لما رأيت عليها عقيد منقطعة
 فنية الجوزاء خدمة الممدوح وصف غير ممكن، أراد الشاعر إثباته، فجعل
 الاستعانة حلة له. وإلى جانب هذه الأضرب الأربعة ألق بحسن التعليل ما يبي
 على الشك، وإنما الحق به ولم يجعل منه، لأن حسن التعليل فيه ادعاء واصرار
 والشك ينافيه، ومثاله قول أبي تمام:

دأى شفت ربح الصبا بنسبها إلى المزن حتى جادها وهو هامع
 كأن السحاب الفر شين تحتها حياء فما ترقى لهن مدايع
 فعلى على سبيل الشك نزول المطر من السحاب بأنها غيبت حياء تحت تلك
 الرى لحي ليكي عليه.

طبعة حسن التعليل وآثره:

لقد لاحظ باحثون معاصرون (١) أن الأسس التي أقام عليها البلاغيين القدماء
 قسمة حسن التعليل إلى تلك الأضرب الأربعة لا تتحدى النظر العقلي ومساءلة الممكن
 وغير الممكن المنطقية، في حين أن هذا الفن مرده إلى التمثيل الذي ربما لا يكون
 ممكنًا. ومن هنا فإنهم رأوا أن التعليل الأدبي الذي سمّاه البلاغيين «حسن التعليل»
 أساسه الخيال والعاطفة، والفرض منه التأثير في الوجدان وادخال السرور على السامع
 بدمحه أو التخفيف من وقع مصيبة أصابته أو شدة ألمه به. ثم وأزولوا بينه وبين

(١) راجع دراسات في علم النفس الأدبي ص ٤٩ - ٥٦ وفنون بلاغية ص ٢٩٢

التعليل العلمي مهيئ أن التعليل مرده التعلل والتدبر العقلي والبحث في طبائع الاشياء
ثم انه تعليل واقعي موضوعي يرجع فيه العالم إلى الواقع والحقيقة ، وان التعليل
الأدبي تعليل ذاتي نفسي يرجع فيه الأديب إلى ذوقه الفني وخياله الأدبي وعاملته
الجمالية .

نص

للبحث الثالث

الطباق

الطباق لغة:

الطباق ويقال له المطابقة والتطبيق لغة - على رأي الفراهيدي - من قولهم :
« طابقت بين الشئين اذا جمعتهما على حد واحد (١) »

وقيل بل هو في اللغة «أن يقع البعير رجله في موضع يده فإذا فعل ذلك قيل طابن البعير» وقال الأصمعي: المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي فوات الأربع:
الطباق اصطلاحاً:

أما اصطلاحاً فهو الجمع بين الضدين في كلام أو بيت شعر كالإيراد والأصدار
والقيل والتهار والياض والسواد (٢) »

ولاحظ بعض البلاغيين أنه لامناسبة بين معنى المطابقة لغة ، ومعناها اصطلاحاً
فإنها في اللغة الموافقة ، والجمع بين الضدين ليس «واقفة»

وذهب ابن أبي الحديد إلى إيجاد صلة بين المعنى اللغوي للطباق وبين مدلوله
الاصطلاحي فقال : «الطباق بالتحريك في اللغة : هو المشقة»

قال الله سبحانه : «وَلَنَشْرَحَّنَّ لَكُم مَّا كُنَّا فِيهِ غُلُوفًا» (٣) أي : مشقة بعد مشقة »
لما كان الجمع بين الضدين على الحقيقة شاقاً بل متعباً ، ومن عاداتهم أن
تعطى الإلفاظ حكم الحقائق في أنفسهم توسعاً ، سموا كل كلام جمع فيه بين
الضدين مطابقة وطباقاً (٤) »

- (١) البديع ص ٣٦ .
- (٢) راجع عزارة الادب ص ١٥ .
- (٣) الانشقاق ١٩ .
- (٤) راجع الوار القريع ص ٢٢ .

نصوص من فن الطباقي :

وأما كان وجه المناسبة بين المعنى القوي والمداول الاصطلاحي لكلمة الطباقي ، فإن نصوص اللغة العربية قد زخرت بالشواهد التي حملت علينا هذا الفن من البديع .

لقد نقل لنا ابن المعتز في ضوء منهجه التأريخي طائفة من هذه النصوص التي منها قوله تعالى : «ولكم في القصص حياء» بأولي الألباب ، (١) إذ جاء الطباقي بين القصص والحياة ، وقول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - «للا نصار وإنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع» فالطباقي في هذا الحديث شريفة بين «تكثر» و «تقلون» وبين «الفزع» و «الطمع» .

وقول عيسى بن طلحة لعمرو بن الزبير حين ابتلي في رجله «إن ذهب أهونك علينا فقد بقي أعزك علينا» فالطباقي هنا بين «ذهب» و «بقي» وبين «أهون» و «أعز» . (٢)

أقسام الطباقي :

لقد قسم البلاغيون الطباقي قسمين رئيسيتين :

أولهما : قسمته على أساس الآليات والنفي ، وصنفوا الطباقي على هذا الأساس صنفين :

أولهما : طباقي إيجاب وهو الجمع بين لفظين مثبتين متضادين مثل : لفظ «أبناؤنا» و «رقوده» في قوله تعالى : «وَنَحْنُ سُبُّهُمْ أَبْنَاءُ» وهم «رقوده» (٣) .
وثانيها : طباقي سلب وهو الجمع بين لفظ ومنفي نحو «لا يعلمون» و «يعلمون» في قوله تعالى : «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . (٤)

(١) البقرة ١٢٩ .

(٢) راجع البديع ص ٣٦ .

(٣) الكهف ١٨ .

(٤) الروم ٦ - ٧ .

ولانتهما : قسمته في قسمين نوع التقنين المتضادين ، وبهذا الاعتبار لاحظوا
أن الطباق ثلاثة أقسام :

أولها : الطباق الذي يأتي فيه اللفظان المتضادان راسمين نحو « الحى » و « الميت »
في قوله تعالى : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ » (١) ، ونحو
« ساعرة » و « نائمة » في قول الرسول الكريم : « خير المال عين ساعرة
لعين نائمة » .

وثانيها : الطباق الذي يكون فيه اللفظان المتضادان فعلين مثل :
« تَوَيَّ » و « تَبَرَّع » و « نَزَعَ » و « نَدَلَ » في قوله تعالى : « يُكْوِي الشَّكَّ مِنْ ثَشَاءٍ وَتَنْشُرُ
الشَّكَّ مِنْ ثَشَاءٍ وَتُكْرِ مِنْ ثَشَاءٍ وَتُدَلُّ مِنْ ثَشَاءٍ » (٢) ،
وثالثها : الطباق الذي استوى اللفظان المتضادان فيه حرفين : كالحرفين :
« لَمَّا » و « عَلَيْهَا » في قوله تعالى : « لَمَّا مَكَسَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » (٣) .
بين الطباق والمقابلة :

لقد ادخل لبيب من علماء البلاغة في الطباق المقابلة ومن هؤلاء الزويبي الذي
قال : « ودخل في المطابقة ما يخص باسم المقابلة ، وهو : أن تؤتى بمعنىين متوافقين
ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب ، والراد بالتوافق خلاف التقابل .
وقد تتركب المقابلة من طباق وملحق به : مثال مقابلة التين بالتين قوله تعالى :
فَلْيَنْصَحُوا قَبِيلًا وَلِيَكُوا كَثِيرًا » (٤) ، وقول النبي - عليه السلام - « أن الرق
لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه » ومثال مقابلة ثلاثة بثلاثة
قول أبي ذؤلمة :

- (١) الروم ١٩ .
(٢) آل عمران ٢٦ .
(٣) البقرة ٢٨٦ .
(٤) البقرة ٨٢ .

ومثال مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى: وَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وصَدَّقِي بِالْحُسْنَى: فَتَسْتَبِيرُ فَتَسْتَبِيرُ وأما من تَحِيلَ واستغنى: وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَتَسْتَبِيرُ فَتَسْتَبِيرُ (١).

ومثال مقابلة خمسة بخمسة قول المتنبي:

أزورهم وسواد الليل يشتد لي والقي وياض الصبح يغري بي (٢)
وردة بعض الباحثين (٣) على أولئك البلاغيين الذين أدخلوا المقابلة في الطباق
مقررين أن المقابلة أهم من المطابقة وهي التنظير بين شيئين فأكثر وبين ما يخالف
وما يوافق فيما يوافق صارت المقابلة أهم من المطابقة فإن التنظير بين ما يوافق
ليس بمطابقة وهذا مذهب ابن أبي الأصم (٤) فإنه قال صحة المقابلات عبارة
عن توحيي التكلم بين الكلام على ما ينبغي فإذا اتى بأشياء في صدر كلامه
اتى بأعدادها في عجزه على الترتيب بحيث يقابل الأول بالأول والثاني بالثاني
لا يخرم من ذلك شيئاً في المخالف والموافق ثم أن المطابقة لا تكون
إلا بالجمع بين ضدتين والمقابلة تكون غالباً بجمع بين أربعة أضداد، ضدان في
صدر الكلام ، وضدان في عجزه وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد خمسة
في الصدر ، وخمسة في العجز .

وإلى جانب ذلك فإن المطابقة لا تكون إلا بالأضداد والمقابلة بالأضداد وغير

الأضداد ولكن بالأضداد أعلا رتبة وأعظم موقفاً •

ولعلنا نلاحظ بعبارة أن أوجه التفريق بين المقابلة والطباق على ذلك النحو
لاستقيم حدوداً فاصلة تقطع ما يصل بين الفئتين كل القطع ، وآية ذلك أن أولئك

(١) الليل ١٠ - ٥ .

(٢) على أن المقابلة الهندسية بين بي وبي غير نظر ، لأن اللام فيها فيها صلتا الفعلين .
فيها من تاملهما . (راجع الإيضاح ص ٣٤١) .

(٣) راجع الوار الرابع ج ١ ص ٢٩٨ .

(٤) راجع بدع القرآن ص ٧٢٠٣١ .

الباحثين انفسهم اقربا بان المقابلة أعظم من الطباق ، ومعنى هذا أنهما يتلزمان تلازم العام والخاص ، كما أن حصرهم للطباق في لفظين متضادين وأطلاق هذا العدد للمقابلة إلى العشرة أمر شكلي لا يثير من وحدة طبيعة الفنين .

زء هل هذا أنهم حين رأوا المقابلة تكون بالاضداد وغير الاضداد ، عادوا فأكدوا أن ما يكون بالاضداد أعلانية ، وهذا يدل على أن المقابلة إذا كانت أعلانية فهي فيني أن تكون بالاضداد مثل الطباق ، وإذا فلا خير أن نوجد مصطلح المقابلة والطباق وندخل الفنين في نوع واحد نسبه الطباق ونجيب بحث هذا الموضوع بجملة الخلافات بين البلاغيين الأسلاف .

ترشح الطباق :

أكد بعض البلاغيين أنه لا يكفي أن يؤتى بالطباق بعيداً عن أي هدف ومجرداً من كل تأثير ، وإنما ينبغي أن يأتي مرشحاً بنوع من البديع لكي يكتب جمالاً وبهاء . ومن هؤلاء البلاغيين ابن حجة الذي قال بهذا الصدد : وإن الطاقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر ونهاية ذلك أن يطابق القصد بالقصد وهو شي سهل اللهم إلا أن ترشح بنوع من أنواع البديع تشاركه في البهجة والرواق كقوله تعالى : **وَنُورِجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَنُورِجُ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَنُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَنُزْزِقُ مِنَ ثَنَاءٍ بغير حساب (١) ، ففي العطف بقوله تعالى : «ونزق من ثناء بغير حساب» دلالة على أن قدر تلك الأفعال العظيمة قدر على أن يبرز بغير حساب من شاء من عباده وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة قرب سبحانه وتعالى فانظر إلى عظم كلام الخالق هنا فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقية والعكس الذي لا يدرك لوجزه وبلاغته ومبالغة التكميل التي لا تليق**

بغير قدرته (٢) .

(١) آل عمران ٢٧
(٢) خزائن الأدب ص ١٠

تأثير الطبايق :

إن الطبايق - فنا بديعاً خالصاً - تأثيره الخاص المتميز ، ويتجلى هذا التأثير في أنه يجمع بين الأضداد يخلق صوراً ذهنية وتقسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارئ ووجدانه فيبين ماهو حسن منها ويفصله عن ضده ومن هنا فإن هذا الفن البديعي يستوي بمدى ذاته معرضاً للمعالي للهجنة وللنقبة والمثلية المتنافرة فتترك في الشعور آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن المقارن

المبحث الرابع المشاكلة

المشاكلة لغة واصطلاحاً :

إن المشاكلة في اللغة هي المشابهة والموازنة (١)، وفي الاصطلاح البلاغي هي ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحته كقوله تعالى: «وجزاء سيئة سيئة مثله» (٢). فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة والاصل وجزاء سيئة عقوبة مثلاً، وقد استبدلت كلمة «عقوبة» بكلمة سيئة لمشاكلة كلمة سيئة في صدر الآية. ومثله قوله تعالى: «اتَّعَلَّمْ مَآيَ نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَآيَ نَفْسِكَ» (٣) والاصل تعلم مآي نفسي ولا أعلم ماعدلك فإن الحق تعالى وتقدس لا يستعمل في حقه لفظ النفس إلا أنها استعملت هنا لمشاكلة لما تقدم من لفظ النفس.

ومن ذلك ما حكى عن بعضهم أن أصحاباً له أرسلوا يدعونه إلى الصبح في يوم بارد، ويقولون له، ماذا تريد أن نصنع لك طعاماً؟ وكان فقيراً، ليس له كسرة تقيه البرد، فكتب إليهم يقول:

أصحابنا قصدوا الصبح بسحرة وأنس رسولهم إلى عقيمنا
قالوا اقترح شيئاً نُجِدُّ لك طبعه قلت: اطبخوا لي جُبَّةً وقميصاً
أي: عيطوا لي جبة وقميصاً، فذكر الخياطة بلفظ الطبخ لوقوعه في صحة طبخ الطعام. والقرر في هذا الفن أنه لا يلزم تقديم الصاحب لجبته متأخراً، كقول النبي الكريم: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» فليكن من الأعمال بما تطيقون فإن الله لا يملأ حتى تملوا، فعبر عن قطع الثواب باللفظ لوقوعه في صحته وهو متأخر عنه.

(١) راجع غرارة الأدب ص ١٠٦ ج ١، والوارد الرابع ج ٢ ص ٢٨٤.

(٢) الشورى ١٠.

(٣) الثالثة ١١٦.

ضربا المشاكلة:

ان المشاكلة ضربان:

أولهما: المشاكلة التي وقعت تحقيقا كما في الشواهد التي مرت بنا .

ثانيهما : المشاكلة التي وقعت تقديرًا وهذا كما نقول لمن يفرس الأشجار
«الفرس كما يفرس فلان» تريد رجلا يصططع الكرام ويحسن إليهم ، فتعبر عن
الاصططاع بلفظ الفرس للمشاكلة ، وقرينة الحال ، حيث كان مشغولا بالفرس وان
لم يكن له ذكر في القال:

المبحث الخامس

تأكيد المدح بما يشبه الذم

وتأكيد الذم بما يشبه المدح

يتناول البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح في معرض واحد ، ذلك لأن الموضوعين مبنيان على أسلوب بلاغي واحد هو بناء حكم معنوي موهم بخلاف المقصود ثم الاستثناء منه بما يثبت غرض التكلم .

تسميات موضوع تأكيد المدح بما يشبه الذم :

لقد تعددت تسميات موضوع تأكيد المدح بما يشبه الذم منذ أن استخرجه ابن المعتز وعده "مُحَسَّنًا" من محاسن الكلام (١) ، فقد سمي والمدح في معرض الذم والثاني والجوهر (٢) كما سمي "الاستثناء" ، لأن حسنة المعنوي من أثر أداة الاستثناء التي ينشأ عليها .

حده تأكيد المدح بما يشبه الذم :

وحده قائم على تقي صفة ذم أو صفة مدح ثم يستثنى صفة مدح كقوله تعالى : ولا يسمعون فيها لغوا ولا تأليماً : إلا قبيلاً سلاماً سلاماً (٣) .

ففي هاتين الآيتين تقيت صفة ذم في قوله تعالى : ولا يسمعون فيها لغوا ولا تأليماً ثم ذكرت أداة الاستثناء وإلا ، وبعدها وردت صفة مدح في قوله تعالى وسلاماً سلاماً ، فتأكد بذلك مدح ما يقتضيه الالذان في الجنة من عدم سماع اللغو والتأليم وذلك بإيراد صفة مدح أخرى هي القول "سلاماً سلاماً" .

(١) أبلج ص ٦٢ .

(٢) انوار الرابع ج ٦ ص ٢٧ .

(٣) الواقعة ٢٥ - ٢٦ . ومثل أداة الاستثناء في ذلك ، أداة الاستدراك في قول الشاعر : وجوه كالمطار الرينس نضارة ولكنها يوم الحجاج صفود

ضرباً تأكيد المدح بما يشبه الذم :

ويستنتج من ذلك الحد أن تأكيد المدح بما يشبه الذم ضربان :

الاول: أن يستثنى من صفة ذم منقبة عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقول النابغة الذبياني :

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم بين غلول من قراع الكتائب
ففي هذا البيت ثلثي الشاعر عن ممدوحه صفة ذم هي العيب فيهم ثم استثنى
بأداة الاستثناء «غير» صفة مدح هي أن سيوف أولئك الممدوحين فيها غلول من
قراع الكتائب وتنازلتها فدخلت صفة المدح هذه في صفة المدح السابقة مؤكدة
إياها ومثبتة حكمها :

الثاني : أن يثبت لشيء صفة مدح ، ثم يأتي بعدها بأداة استثناء تليها صفة
مدح أخرى كقول النابغة الجعدي :

ففي كَمَلَتْ أخلاقه غير أنه جواد فما يُبْغِي من المال بالقياس
فالشاعر قد أثبت لممدوحه صفة مدح هي كمال أخلاقه ثم أتى بأداة الاستثناء
«غير» فوهم أنه سيأتي بصفة ذم ، ولكنه أورد صفة مدح ثانية هي أنه جواد
فما يُبْغِي من المال بالقياس ، فتأكد مدحه وتزُجُّجُه
طبيعة تأكيد الذم بما يشبه المدح :

أما تأكيد الذم بما يشبه المدح فهو مثل تأكيد المدح بما يشبه الذم قائم على الاستثناء
وهو ضربان : (١) .

الاول: أن يستثنى من صفة مدح منقبة عن الشيء صفة ذم بتقدير دخولها فيها
نحو قوله :

حكلا من الفضل غير ألسي أراه في الخُصْم لا يُجَسَّارى

(١) راجع الايضاح ص ٢٧١ .

فها تقي عن المهجو صفة مدح هي غلوه من الفضل ثم ذكرت أداة استثناء
وغيره وأعقب بصفة ذم هي عدم مهارته في الحق ، فأكدت صفة الذم هذه
صفة المدح المنفية فثبت ذم المهجو بصفتين متداخلتين .

الثاني : أن يثبت لشيء صفة ذم ، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى
له ، نحو قول الشاعر :

لَيْسَ الطَّيَّاعُ سِوَى أَرْثِهِ جَبَانٌ يَهْوَنُ عَلَيْهِ الْهَوَانُ
قال الشاعر في هذا البيت أثبت لمهجو صفة ذم هي لؤم الطباع ثم بنى عليها أداة
الاستثناء وسوى صفة ذم ثانية : البخل وهوان الهوان عليه ، فالفتت الصفتان
المتبستان لتأكيد ذمه .

بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم وتقليبه :

تقوم بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح في الأصل على
مهاذنة السامع بخلاف ما يتوقعه ، ذلك لأن للكلم عندنا بسوق صفة مدح ثم يورد
أداة استثناء يتوقع السامع أن يسمع منه صفة ذم يحكم هذه الأداة التي تنبئ أن
ما بعدها يأتي بخلاف ما قبلها حكما ومفهوما .

أما حينما يسمع مدحا أثر فانه يباغت ويضع في حالة الشعور بما طلع عليه من
أمر توقع تقليبه وخلافه . وكذلك عندما يتلقى صفة ذم بعدها أداة استثناء يتوقع
أن يسمع صفة مدح ترشحها أداة الاستثناء وتنتفسيها ، ولكنه حين يسمع صفة
ذم أخرى يشعر بخيبة توقعه ويباغت بخلاف ما تنبأ له يقينا (١) :

(١) ينظر فنون بلاغية ص ٣٠٨-٣٠٩ .

الفصل الثالث
المحسات النقطية
البحث الأول
الجناس

يبدو أن "الجناس من أقدم الموضوعات البلاغية التي صنف فيها اللغويون كتباً، وعيّن له علماء البلاغة مباحث من مصنفاتهم، فقد ألف فيه الأصمعي كتاباً سماه "الاجناس" (١) وصنف فيه أبو عبيد القاسم بن سلام كتاب "الاجناس من كلام العرب وما أشبه في اللفظ واختلف في المعنى"، وذكر فيه الالتقاط المتفقة في الشكل والمختلفة في المعنى.

كما بحث عبدالله بن المعتز في الباب الثاني من كتابه (٢) "البديع التجنيس وحنده" إذ "واصطلاحاً وأورد له شواهد ثم تلقفه المؤلفون في علم البديع وناقشوا البديعيات وشرحوها فأقرطوا في النواع والتفريع على هذه الأنواع.

الجناس اشتقاقاً ولغة :

والباحث للمعاصر إذ يريد أن يقدم عن الجناس صورة واضحة منسقة لا بدّ قبل كل شيء - من أن يلمّ به اشتقاقاً ويحدد معناه لغة.

والمقرر في كتب البديع أن "الجناس والتجنيس واللجاسة والتجانس كلها ألفاظ مشتقة من الجنس، فالجناس مصدر جانس، والتجنيس تعجيل من الجنس، واللجاسة مفاعلة منه، لأنّ إحدى الكلمتين إذا شابهت الأخرى وقع بينهما مفاعلة، والتجانس مصدر تجانس تشيئان إذا دخل تحت جنس واحد (٣) : وقال الخليل : "الجنس لكل ضرب من الناس، والظير والعروض والنحو (٤)، كما حكى عنه قوله : "بهذا يجانس هذا أي يشاكله" (٥) :

(١) راجع كتاب الصناعات ص ٢٢١، وأنوار الربيع ج ١ ص ٩٧.

(٢) راجع البديع ص ٢٥.

(٣) راجع أنوار الربيع ج ١ ص ٩٧.

(٤) البديع ص ٢٥.

(٥) أنوار الربيع ج ١ ص ٩٧.

الجناس اصطلاحاً:

لقد بين البلاغيون (١) وعلماء البديع (٢) على ما حكى عن الخليل حدّ الجناس اصطلاحاً فقررُوا أنَّ الجناس بين اللفظين هو تشابهُهُما في اللفظ أي في التلفظ وفي ضوء هذا الحد يعدّ الجناس عند جمهور البلاغيين من المحسنات اللفظية يَتَبَيَّنُ أنَّ عبد القاهر أكّد دور هذا النوع في تصوير المعنى وتمكيته من العقل تعبيراً وتأثيراً فقال : « أما التجنيس فأنك لا تستحسن لجناس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرعى الجامع بينهما مرعى بعيداً ، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله :

ذَهَبْتُ بِمَذْهَبِهِ السَّاحَةِ فَالْتَوْتُ فِيهِ الظُّنُونُ مُذْهَبٌ أَمْ مَذْهَبٌ ؟
واستحسن تجنيس القائل حتى تجا من عوفه وما تجا » (٣) ، وقول المحدث :
نَاطِرَاهُ فِيمَا جَنَسِي نَاطِرَاهُ أَوْ دَعَايَ أُمْتُ بِمَا أَوْدَعَايَ
لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لآنك رأيت القائلة ضلعت عن الأول وقويت في الثاني ؟ ورأيتك لم يزدك : « مَذْهَبٌ » و « مَذْهَبٌ » على أن اسمك حروفاً مكررة ، تروم لها غائدة فلا تجعلها إلا مجهولة منكورة ، ورأيت الآخر قد أعاد إليك اللفظة كأنه يمددك عن القائدة وقد أعطاه ، ويوهبك كأنه لم يزدك وقد أحسن التريادة ووقاه . فبهذه السريرة صار التجنيس - ونصوصها المستوفى منه للفق في الصورة - من حل الشعر ومذكوراً في القسام البديع » (٤) ؟

يلتصق هذا التأكيد إلى حدّ الجناس ذلك مسألة معنى اللفظين المتجانسين ، وتوضح هذه المسألة في أن حيلة الجناس هي أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً (٥) ،

(١) راجع الإيضاح ص ٢٨٢ .

(٢) الوار الربيع ج ١ ص ٩٧ .

(٣) لنا الأول بمعنى : أحدث ، والثانية بمعنى : خلص .

(٤) إسرار البلاغة ص ٦ - ٨ .

(٥) راجع القل السائر ج ١ ص ٢٤٦ .

أو بمعارة العلوي : «أن تتفق اللفظان في وجه من الوجوه ويختلف معانيهما» (١).

السواع الجناس :

لقد تبارى بعض البلاغيين وعلماء البديع في تلمس أنواع الجناس واندها في ذلك إلى الغاية القصوى في التقسيم والتفريع ، والقرب التشبيحات لك حقيقة الموضوع هو أن الجناس شريكان رئيسان :

أولهما : الجناس التام : وهو أن تتفق اللفظ في أربعة أمور هي : أنواع الحروف ، وأعدادها ، وهيئاتها ، وترتيبها ، نحو قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة » يُقسمُ المجرمونَ ما لبثوا غير ساعة » (٢) : فلفظة « الساعة » الأولى معناها يوم القيامة ولفظة « الساعة » الثانية معناها وحدة قياس الزمن ، واللفظتان متطابقتان في أنواع الحروف إذ أن كل واحدة منهما مؤلفة من السين والالف والعين والثاء . وفي عدد الحروف ، فبني كل واحدة منهما أربعة أصوات ، وهيئاتها الحركات والسكنات غير الأعرابية متحدة ، كما إن أصواتها متساوية في الترتيب ، ذلك لأن الصوت الأول فيهما هو السين والصوت الثاني هو الالف والصوت الثالث هو العين والصوت الرابع هو الثاء :

ثانيهما : الجناس غير التام : وهو أن يختلف اللفظان في أمر واحد من الأمور التي ينت الجناس التام ويتفقا في سائرهما وهو بذلك على أربعة أنواع :

أولهما : اختلاف اللفظين في لفظة ويسمى جناسا محرفا . ثم إن الاختلاف من هذا القبيل قد يكون في الحركة فقط نحو قوله تعالى : « ولقد أرسلنا فيهم مُنذرين فأنظر كيف كان عاقبة المنذرين » (٣) .

ففي هذه الآية الكريمة اللفظان المتجانسان « منذرين » و« المنذرين » المتعلقا في

(١) راجع الفخر ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) الروم ٥٥ .

(٣) الصفات ٧٢ - ٧٣ .

حركة (١) حرف الذال اذ هو مكسور في اللفظ الاول لانه اسم فاعل ، ومفتوح في اللفظ الثاني لانه اسم مفعول .

وقد يكون الاختلاف في الحركة والسكون نحو قول ابي العلاء المرعي :
والحسن يظهر في يبين رونقه يَبِينُ من الشعر أو يَبِينُ من الشعر (٢)
الشاهد في اللفظي « الشعر » و « الشعر » اذ حرف العين في اللفظ الاول ساكن وحرف العين في الثاني متحرك بالفتح .

فاليهما : اختلاف اللفظين في أعداد الحروف وهو ما يسمى جناسا ناقصا ، ويكون ذلك حل وجهين :

احدهما : ان يختلفا بزيادة حرف واحد في الاول كقوله تعالى : « وَاتَّقِ السَّاقِ » بالساق إلى ربك يومئذ الساق (٣) ، فاللفظان « الساق » و « الساق » اختلفت فيهما عدد الحروف فالاول مؤلف من ثلاثة حروف والثاني من أربعة حروف بزيادة حرف الهم في أوله . أو تكون زيادة الحرف في الوسط كقوله : « جدي جهدي » فاللفظان « جدي » و « جهدي » يختلف فيهما عدد الحروف بزيادة حرف الفاء في وسط اللفظ الثاني . أو تكون زيادة الحرف في الآخر ، كقول البحري :
لئن صدفت عن فريضة أنفسي صواد إلى تلك الوجوه الصوادف (٤)
الشاهد في اللفظين « صواد » و « الصوادف » إذ زاد اللفظ الثاني على اللفظ الاول بحرف الفاء في آخره (٥) .

(١) والمشتد في هذا الباب يقوم مقام اللطف نظرا إلى الصورة. (الايضاح ص ٢٨٥).

(٢) رونقه : علوه ، وحسنه ، واشراقه .

(٣) الآية ٢٩ - ٣٠ .

(٤) صدفت أمرضت وانصرف ، رب : ولحائها اثناء تأريث اللفظ وهي في الأصل تشليل . صواد : جمع صادية أي عطشاة . الصوادف : جمع صادفة أي مائلة منصرفة .

(٥) وربما سمي باختلاف فيه اللفظان المتجانسان في الحرف الأخير جناسا مطرنا

(الايضاح ٢٨٦) .

الوجه الثاني : ان يختلفا بزيادة أكثر من حرف واحد (١) نحو قول الخشاعة :
 «إنَّ البسكاءَ» فهو الشفاعة من الجسوى بين الجوالسح (٢)
 فلفظ الجوانح الذي يمتاس لفظ الجوى يزيد عليه بحرفين هما التون والحاء .
ثالثها : اختلاف اللفظين في النواع الحروف (٣) ويشترط ان لا يقع الاختلاف
 بأكثر من حرف . والحرفان المختلفان نوعاً إما ان يكونا في أول اللفظين كقول
 الحريري : «بني وبين كتي ليل داس وطريق طاس» (٤) «الشاهد في اللفظين
 «داس» و «طاس» : إذ اختلف فيهما الحرفان الأولان للثال والطاء .
 وإما في الوسط كقوله تعالى : «وهم يشهون عته» و «يتأون عته» (٥) .
 فاللفظان المتجانسان «يتأون» و «يتأون» قد اختلف فيهما حرف التاء وحرف
 الهزة للوسطين ، وإما في الآخر ، كقول النبي - صلى الله عليه وسلم - :
 «الحبل موقوف بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» (٦) . الشاهد في لفظ «الخير»
 ولفظ «الخيرة» المختلفين نوعاً في الحرفين الأخيرين للام والراء :

- (١) وربما سمي هذا الضرب مبيلا (لا يذبح ص ٢٨٦) .
- (٢) الجسوى : لغة الوجد من الحزن أو امل ، الجوانح : الضلوع فوق التراب
 واحد جالحة .
- (٣) الحرفان المختلفان ان كانا متتارين في المخرج سمي التماس مضارعاً نحو قولهم :
 «البرايا اهداف اليا» فاللفظان المتجانسان البرايا واليا قد اختلفا في حرف
 الراء وحرف اللام وهما حرفان متتاران في المخرج . وإن كانا غير متتارين في المخرج
 سمي جانبا لا حقا نحو قوله تعالى : «ويل لكل همزة لغة» (الآية ١ من سورة
 المزنة) والحرفان الراء واللام المختلفان نوعاً في لفظ همزة ولغة متجانسان
 في المخرج .
- (٤) كتي : يعني .
- (٥) الانعام ٢٦ .
- (٦) موقوف : مربوط ومتوسط . النواصي : جمع ناصية ، وهي مقدم الراس .

والبحر : اختلاف اللطين في ترتيب الحروف ويسمى جناس القلب ، وهو ضربان :

أولهما : قلب الكل كقولهم : «حسامه فتح لاولياته حُثِّث لاعدائه » ، قال لفظ «حُثِّث» قد اختلف ترتيب حروفه الهاء والياء والفاء اختلافاً كثيراً عن ترتيب حروف اللفظ فتح ، اذ جاء فيه حرف الهاء في الاول وحرف الفاء في الاخير ، وجاء حرف الفاء في لفظ فتح ، في الاول وحرف الهاء في الاخير :

وثانيهما : قلب البعض كما جاء في الخبر «اللهم اسر عوراتنا وآمن روعاتنا » ففي المظنين للتجانسين «عور كمت» و«روعات» تبدل مكان حرف العين فقط اذ انتقل من الحرف الاول في اللفظ الاول الى الحرف الثالث في اللفظ الثاني ، اما سائر الحروف فقد بقيت في مواضعها :

سر جمال الجناس :

لعل السؤال الذي لا بد منه هنا بعد أن أوردنا بعض ضرب هذا الفن هو : ما سر جمال الجناس وما عسى أن تكون أهميته في النص الأدبي ؟
لقد أجاب عبد القاهر عن هذا السؤال بصورة غير مباشرة ، فقال : وعلى الجملة فذلك لا يجد تجنيساً مقبولا ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون للمنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا يفتني به بدلا ولا يجد عنه حولا ، ومن هنا كان أصل تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد عن التكلم الى اجتلابه وتأهب لقلبه ، أو ما هو لحسن ملامته - وإن كان مطلوباً - بهذه المترلة وفي هذه الصورة : (١) .

ففي هذا الجمال يحرر عبد القاهر أربعة معايير لبلاغة الجناس وشروط حسنة أولاً : أن يكون المنى مقتضياً إياه وموجباً لا يراه : وفي ضوء هذا المعيار يرفض

(١) اسرار البلاغة ص ١٠ .

كل جناس جي. به زخرفاً صوتياً وصناعةً لفظية ، ذلك لانه في هذه الحالة لا يتداعى مع اللغائي ولا يسهم في ادائها بقصد التعبير والتأثير .

ثانيها : ان يستوي في بناء النص الفني ركناً لا يُستغنى عنه ولا يستبدل بسواه ، ومعنى هذا المعيار أن الجناس اذا كان مقحماً على التعبير دعيلاً بين القاطن بدا غريباً متكلفاً ، وهو في هذا الوضع لا يؤثر في النفس احساساً ولا يجد في الذوق استجابة .

ثالثها : أن يطالع في كلام المتحدث عن سليفة وفطرة ، وعلى أساس هذا المعيار فإن الجناس الذي يتكلف له مجتسه ويأتي به عن ارادة لا يحمل بين طياته أية شحنة شعورية ولا يؤدي عن أية فكرة .

رابعها : ان يتساق مع سائر ألفاظ النص متلاهما معها في موسيقى أجراس الحروف ومتجاوبا في تعاطف مع اصداؤه أبنيتها .

ولعل هذا المعيار يؤكد بجلالة أهمية الجناس في خلق الموسيقى الداخلية في النص الأدبي وبناء ما بين ألفاظها من وشائج التناغم .

لقد سعى بعض المعاصرين الى الاجابة عن ذلك السؤال ايضا ، فتحدث الدكتور ابراهيم سلامة عن جمال هذا الفن قائلا : انه لا يخرج عن نظرية تداعي الالفاظ وتداعي اللغائي في علم النفس ، فهناك ألفاظ متفقة كل الاتفاق أو بعضها في الإحساس وهناك ألفاظ متقاربة أو متشابهة في المعنى بحيث تذكر الكلمة اختها في الإحساس واختها في المعنى ، كما يولد المعنى الاول معنى ثانيا وثالثا ، وهذه الناحية النفسية هي التي تشرح لنا كيف يقع التخييل للشاعر دون معاناة اذا كان ملما بلفظه ، محسا بملوفها ، عالما بتصاريفها وأشتقاقها (١) :

ورد الأستاذ علي الجندي جمال الجناس الى ثلاثة اسباب :

(١) راجع بلاغة أرسطو عن العرب والبولان ص ١١٧ ، وقرون بلاغة ص ٢٢٢ - ٢٢٧ .

الأول : تناسب اللفاظ في الصورة كلها أو بعضها ، وهو مما يطمئن إليه الذوق ويرتاح له .

الثاني : التجارب الموسيقي الصادر من علاقات الكلمات تقاليد كاملاً أو ناقصاً فيطرب الأذن ويوقن النفس ويهز أوتار القلوب .

الثالث : لتلاعب اللفاظ الذي يلجأ إليه المجنّس لاعتلاب الأذهان واعتناء الأفكار (١) .

وما قاله عبد القاهر قبل الدكتور إبراهيم سلامة وعلي الخندي يوضح هذا الفن (٢) ، ولا يكاد كلامهما يخرج عما ذهب إليه ، وإن كان الدكتور إبراهيم سلامة قد استخدم المصطلحات الخبيثة كتداعي اللفاظ وتداعي المعاني وغير ذلك مما لم يكن معروفاً عند القدماء .

(١) فن الجنس ج ١ ص ٢٩ .

(٢) رابع فنون بلاغية ص ٢٣٦ .

البحث الثاني الاقباس والتضمن

لقد أدار علماء البديع المتأخرون مصطلح الاقباس ومصطلح التضمن بصورة عامة باحسين ما يورده الاديب في اتاجه مما ليس من انشائه .
الاقباس لغة واصطلاحاً :

واللفظ عليه ان الاقباس في اللغة : مصدر اقبس اذا اخذ من معظم النار شيئاً ، وذلك للأخذ قيساً - بالتحريك - أما في الاصطلاح فجمهور البلاغيين بحلوه على أنه تضمن النظم أو الشر بعض القرآن لعل انه منه ، بان لا يقال فيه : قال الله أو نحوه ، فان ذلك حيث لا يكون اقباساً (١) .
الاقباس بين الشعر والجواز :

لقد اعتنقت المذاهب الفقهية الاسلامية في مسألة الاقباس من أي الذكر الحكيم ، فذهب المالكية الى تحريره وتشديد التكرير على قاعله ولم يتعرض المتقدمون من الشافعية المتأخرين منهم له مع شيوعه في أعصارهم ، واستعمال الشعراء له قديماً وحديثاً ، وقد تعرض له جماعة من الفقهاء المتأخرين ، فسُئِل عنه الشيخ حرالدين بن عبد السلام فأجابه ، واستدل بما ورد عن النبي الكريم في قوله في الصلاة وغيرها : «وجهت وجهي» وقوله : «اللهم فائق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسياناً اقض عني ديني واغنني من الفقر» وفي سياق كلام أبي بكر : «وسلمم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» وفي آخر حديث لابن عمر : «قد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» (٢) .

فهذه النصوص المحررة عن النبي - صل الله عليه وسلم - وبعض الصحابة - رضي الله عنهم - تقوم أدلة على جواز الاقباس من القرآن الكريم في مقام الروايع والثناء والدعاء في الشعر ، ولا دلالة فيها على جوازها في الشعر .

(١) راجع انوار الربيع ج ٢ ص ٢١٧

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٧ .

ويقين ان هذه القضية تستوي - بلا ريب - وجهة نظري دينية واجتهاداً
 ملهياً. ولما كانت تصوص اديبة لتستفيض بهذا الفن الاديبي نراً ونظماً وتنبئ عليه
 فان بعض علماء البديع حاولوا ان يوفقوا بين الامرين فقصوا (١) الاقتباس من
 القرآن على ثلاثة اقسام : محمود مقبول ومباح مبدول ومردود مردفول : فالاول
 ما كان في الخطب والواعظ والعهود ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك .
 والثاني ما كان في الغزل والرسائل والقصص : والثالث على ضربين : أحدهما
 ما نسب الله تعالى الى نفسه ، ونعوه بالله من ينقله الى نفسه كما قيل عن احد الرواة ، أنه
 وقع على مطالعة فيها شكاية من صاله «إن البيا إياهم ثم إن» علينا حسابهم ، (٢)
 والآخر تضمين آية كريمة في معرض هزل أو سخر .

وأضاف الشيخ بهاء الدين السبكي الى القسم الثالث ما اذا أخذ شيء من القرآن
 وجعل بيتاً أو مصراعاً كقول الشاعر

كتب المحبوب مظهرأ في كسب الله موزون
 لن تسالوا البئر حصى تُنظفوا منها تحبون

أحرب أساليب الاقتباس :

لقد حرر علماء البديع قاعدة تنص على أن المتنبس ليس بقرآن حقيقة بل
 كلام يمثله ، وهم بهذه القاعدة إنما ارادوا اطلاق ايديهم في دراسة أساليب
 الاقتباس ما دام حقيقة والمة لا سبيل الى انكارها ودفعها : وعليه فإنهم قد صنغوا
 هذه الأساليب الى ثلاثة احرب :

أولها : ضرب لا ينقل المتنبس فيه عن معناه الاصل ، كقول الشاعر ، وقد طلب
 من بعض اصحابه الذين بمكة حباً فاعتلروا منه :

طلبنا منكم حباً أجبنم فيه بالمتنبر
 هزلواكم لأنكم هم بواو غير ذي زرع

(١) رابع خزنة الادب ص ١٤٢ ، والوار الربيع ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢) التالية ٢٥ - ٢٦ .

فالمراء يواد غير ذي ذرع مكة المشرقة كما في قوله تعالى : وَرَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ
 مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ (١) .

فانها : ضرب ينقل عن معناه الاصل بناء على أنه ليس بقرآن حقيقة كقول
 ابن الرومي :

لشئ أعطت في مدحك ما أعطت في معصي
 لقد التزلت بجاهليتي بسواد غير ذي زرع
 فانه قد كتني بقوله تعالى في الآية المذكورة عن الرجل الذي لا تقع لديه :
 لاله : ضرب تثير فيه المتنبس بزيادة أو نقصان ، أو تقديم أو تأخير ، أو
 ابدال الظاهر من الضمير ، أو نحو ذلك بناء على القاعدة التي تؤكد أن المتنبس هو
 غير القرآن : ومثاله قول أبي تمام في قصيدة يرثي بها ابنا له :

كان الذي عفت أن يكونا إنسا إلى الله راجعوننا
 أسى المرجسى أبو علي موسداً في قسرى يمينا
 حين استوى وانتهى شبابه وحقق الرثي والظفونا
 كنت عزيزاً به كثيراً وكنت صباً به غشينا
 دافعت إلا الشون عنه والسرء لا يندفع التونا
 لقوله : « إننا إلى الله راجعون » القياس لكنه زاد الالف في راجعون على جهة
 الاشباع ، وإلى الظاهر مكان الضمير في قوله : « إننا إلى الله » ومراده آية الاسترجاع
 وهي قوله : « لا اله الا الله وانا اليه راجعون » (٢) :

الاقباس من الحديث الشريف :

لقد تبين علماء البديع في جعل الأعل من الحديث النبوي الشريف القياس ، إذ
 حصر فريق منهم في القرآن الكريم وذهب فريق آخر إلى أن الأعل من الحديث
 النبوي الشريف القياس أيضاً . أما الخلاف المذكور في القياس من القرآن الكريم وعنه
 فلا يجري في الحديث ، وذلك لتجوز روايته باللعني وغير ذلك مما لا يجوز في القرآن (٣) ،

(١) البراهين ٢٧ .

(٢) البقرة ١٥٦ .

(٣) جامع التواتر الرابع ج ٢ ص ٢٢٢ .

وأما كان فتال الاقتباس من الحديث ، في الشعر قول الحريري : « كتمان القفر
زهادة والتظار الفرج بالصبر عبادة » . ومثاله من الحديث في الشعر قول الشاعر :

قال لي : ان رقيبني سيئ الخلق فـ
قلت : دعي وجهك والجنة حقت بالكثرة

التضمن لغة واصطلاحاً :

لم يفرق معظم علماء البديع في الاستعمال بين مصطلح الاقتباس والتضمن
وأما أداروها لفظين مترادفين (١) ، ذلك لأن معنى التضمن لغة هو مصدر
العمل ضمن الذي من معانيه أن « ما جعله في وعاء فقد ضمنه إياه » (٢) .
فالتضمن مثل الاقتباس يلتقي معه في إدراج شيء في شيء « بئد أن بعض
من كتب في فنون البديع من المتأخرين (٣) عرّف التضمن في الاصطلاح بقوله :
« هو أن يضمن الشاعر كلامه شيئاً من مشهور شعر الغير مع التنبيه عليه أن لم
يكن مشهوراً لدى نقاد الشعر ، وذوي اللسان كقول الشاعر بن عباد :

إذا ضاقت صدري وغفت العدا تـ
نظمت يشا بحالسي يلبق
(نباقة أبلغ ما أرنجسي وباقه أدفع مالا أطيقت)

فقوله في الشعر الثاني من البيت الأول نظمت يشا تنبيه على أن البيت الثاني تضمن .
أما إذا كان مشهوراً لدى القوم فيجوز ألا ينبه عليه كقول الشاعر :

قد قلت لما اطلعت وجنتاه حـ
حول الشقيق النفس روضة أمر
أعداره الساري المجلول رفقا ما في وقوفك ساعة مسن بأمر

فالمصراع الأخير مطلع قصيدة مشهورة لأبي تمام :

ما في وقوفك ساعة من بأس نفسي فوق الأربع الأعراس

(١) انوار البديع ج ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) القاموس المحيط (ضمن) .

(٣) راجع الايضاح ص ٤١٩ .

أهمية الاقتباس :

وفي رأينا أنه لابد من تخصيص مصطلح الاقتباس بما يؤخذ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وجعل مصطلح التضمين قاصراً على ما يتبرع من فنون الأدب شعراً ونثراً ، وذلك دعماً للاقتباس بينهما وحسباً لأهمية كل منهما في ميدان البلاغة

ومن هنا فإن للاقتباس أهمية مشهودة في السمو بأساليب المقتبس ورفعة فنون قولهم ، لأن المقتبس من القرآن الكريم الذي هو أعلى رتبة من البلاغة والأخذ من أحاديث النبي الكريم وهو أفصح العرب يزيد قدر ثمار قريحته ويزينها بأجمل العبارات وأبلغ الصياغات ؛ أما الذي يضمن كلامه بضاعة غيره ويحاكي أسلوب سواه من الأدباء فإن في قيمة عمله نظراً لآبد من تقريره والوصول به إلى قاعدة .

حسن التضمين :

لقد ذهب بعضهم (١) بهذا الصدد إلى أن أحسن التضمين أن يزيد المضمن في كلامه ذكناً لا توجد في الأصل كالتورية والتشبيه ، كما في قول ابن أبي الأصم مضماً :
إذا قوم أهدى لي لهاها ونفراها تذكرت ما بين الطيب وبارق
ويذكرني من قدها ومداسي مجرى عواليها ومجرى السوايق
فالتصراعان الأخيران مطلع لآبي الطيب التنبلي :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرى عواليها ومجرى السوايق
يريد التنبلي أنهم كانوا نزولاً بين هذين اللوحين ، يهرون الرماح عند مطاردة الفرسان ، ويسايقون على الخيل ؛ أما الشاعر المضمن فأراد بالعذيب تصغير العذب وعنى به شفة الحبيبة . وأراد ببارق نفراها تشبيه بالبرق ، وبما بينهما ريقاً ، وهذه تورية بديعة نافذة في بابها ، وشبه تبحر قدها بتأويل الرماح ، وتناجى دموه بمجرى الخيل السوايق .

أما المضمن الذي لا يزيد في كلامه ذكناً لا توجد في الأصل فإنه مقلد يحاكي بملاب غير ويقتل عن ابتداع سواه ، فلا يقدم بذلك شيئاً جديداً بل ربما يشتمه ماض من منه ويؤول به عن رتبته إلى مستوى التكرار الملل والمملوج

(١) الألباق ص ١١٦ .

المبحث الثالث

حسن الابتداء

درس البلاغيون وعلماء البديع بناء النص الأدبي وترايب أجزائه وتماطف موضوعاته ، فالتفتوا إلى جملة قواعد تحدد أوجه الحسن في ثلاثة مواضع هي : حسن الابتداء وبراعة الطبع والتخلص ، فقد ذكر ابن المعتز مصطلح حسن الابتداء (١) في محاسن الكلام ، واختار نطالع القصائد من عصرنا قبل الإسلام وعصر صدر الإسلام وغيرهما ، ومن هذه اللطائف قول النابغة الذبياني :

كثيبي لهسر بالنبية ناصيب
وليل أفساه بيلي الكواكيب

وقول بعضهم :

كان اللواتي قلن لي أتيسر
فصون رسالتي فرفهن يسودر

وقول أبي تمام :

بأي وغير أبي وذلك قليل
ان ابن المعتز لم يبين مقصده من هذا الحسن البديعي ولم يشر إلى خصائص الطالع التي اختارها وإنما ثبتها تحت ذلك المصطلح بالاعتناء :

شروط حسن الابتداء :

وتتلف علماء البلاغة (٢) وشرائح البديعيات (٣) مصطلح حسن الابتداءات وأوردوه مفرداً وحسن الابتداء وعقدوا في دياجته التحدث عنه فصولاً تعرضت لتأني التحدث في أول كلامه مؤكدين فيها أنه ينبغي ان يأتي بأعذب الألفاظ وأجزلها وأرقها وأسلمها ، وأحسنها ، تظناً وسبكاً ، وأصحها مبنى ، وأوضحها معنى وأتقنها من الحشو ، والركرة والتعقيد :

(١) راجع البديع ص ٧٥ .

(٢) راجع الايضاح ص ٤٢٨ .

(٣) راجع خزائن الادب ص ٢ ، والوارد الزريع ج ١ ص ٢٤ .

ويتروا أن جميع فوائد السور من القرآن المجيد أتت على أحسن الوجوه وأبلغها
وأكملها، كالتحسينات، وحروف الهجاء، والتداء وغير ذلك (١).
وعلموا لما بسطوه من تلك الشروط قائلين: لأنه أول ما يفرع السمع، فإن كان
كما ذكرنا أهل السامع على الكلام، فلهي جميعه، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه
ورفضه وإن كان في غاية الحسن (٢):
براعة الاستهلال:

ويبدو أن تلك الشروط التي بسطها علماء البلاغة وشراح البديعيات عامة تتناول
ابتداءات المنثور والمنظوم، لذلك فإن بعضهم (٣) قد خص مصطلح «براعة الاستهلال»
بالتنظوم وذهب إلى أن أحسن الابتداءات ما تناسب المقصود، ويسمى «براعة الاستهلال»
كقول أبي تمام يهني للمتعص بالله يفتح عمورية، وكان أهل التنجيم زعموا أنها
لا تفتح في ذلك الوقت:
السيف أصدق أنباء من الكتب
في خلد الخلد بين الجند والعبي
براعة التطلع:

واعتمد بعضهم الآخر مصطلح «براعة التطلع» (٤) بدلا من حسن الابتداء
وأداره مرادفاً لمصطلح حسن الاستهلال وخصه بابتداءات القصائد ومطالعاتها،
وعرفه بأنه عبارة عن طلوع أهلة المعاني واضحة في استهلالها وأن لا يتجافى بجنوب
الانفلاط عن مضاميع الرقة وإن يكون التشبيب بنسبها مرفصاً عند السماع وطرق
السهولة متكلفة لها بالسلاسة من تجشم الخزن. وعرض في غرضه شروطاً إضافية
ينبغي توفرها في مطالع القصائد إلى جانب الشروط العامة التي لابد أن تتوفر في
ابتداءات فنون المنثور ومن هذه الشروط: ألا يكون مطلع القصيدة متعلقاً بما بعده
من الأبيات، وإن تناسب بين قسميه أتم المناسبة، بحيث لا يكون أحد الشطرين
أجنباً عن الآخر للفظاً ومعنى.

(١) راجع النوار: الربيع ج ١ ص ٣٤.

(٢) راجع الانضاح ص ١٢٨.

(٣) الانضاح ص ١٣١.

(٤) راجع عزلة الأدب ص ٣.

وسائل اجادة مطالع القصائد :

لقد تعمق مشايخ الجديع في الوسائل التي يتوصل بها الشاعر إلى اجادة مطالع قصائده فنبهوا على نقطة النظم في حسن الابتداء ونبهوا انه ينبغي عليه ان ينظر في احوال المخاطبين والمندوحين ويتفقد ما يكرهون سماعه ويتطهرون منه ليتجنب ذكره ويختار لافادات المدح ما يناسبها وعطاب الملوك في حسن الابتداء هو العمدة في حسن الادب.

وروا تجسيدا لهذه التوصيات أن ذا الرمة أنشد هشام بن عبد الملك قصيدته التالية:

ما بال عيشك منها الماء يسكب؟ كانه من سكر مغربة سرب^(١)

فقال هشام: بل عيشك:

وحكوا أنه لما بنى المتصم بلك قصره بالميدان ، وجلس فيه ، أنشده اسحق الرصلي :

يادار غيرك البلى ، ومحسك باليت شعري مساللي أهلك؟
فتعير المتصم بهذا الابتداء ، وأمر بهم القصر .

ولذلك قرروا انه من أراد ذكر الدبار والاطلال في مدح فليقل مثل قول القنطاري:
إن محبتك قاسم أيها الطير^(٢) وإن بليت ، وإن طالت بك الطير^(٣)
أو مثل قول الشجع السلي:

قصر عليه تحية وسلام عككت عليه جمالها الأيام

(١) كلى : اسم جنس واحدة كلية يضم لونه . وهي العضو المعروف في حشا الانسان مغربة : مشقة شاقة . سرب : سائل .

(٢) الطل : الاثر الشائع من آثار الدبار ، الطير : آراء الشعر ، واحدا طيلة .

المبحث الرابع

حسن التخلّص

اعتمد ابن المعتز مصطلح «حسن الخروج» وأداره تروطة لشواهده وبين مقصده منه قالاً: «ومنها أي من - حسنات الكلام - حسن الخروج من معنى إلى معنى» (١)، من هذه الشواهد قول أبي العتاهية:

وَأُحْبِبْتُ مِنْ حَيْثُ الْبَاعِلِ نَحْنُ وَمَعْتِ ابْنُ سَكْنَرٍ سَعِيدَا
إِذَا سَبَلَ حَرْفًا كَمَا وَجْهَهُ ثِيَابًا مِنَ التَّلَحُّ صُفْرًا وَسُودَا
يَتَخَرَّجُ عَلَى النَّالِ لَعْلُ الْخَسْرَادِ وَتَأْنِي عِلَاقَتَهُ أَنْ يَجْسُودَا
لم يبين ابن المعتز وجه حسن الخروج في هذا الشاهد وفي سائر شواهد التي تنوعت في أمصراها وبيئاتها العربية بيد أن صحة استشهاده ذلك واضحة لأن أبا العتاهية قد انتقل في الشطر الأول من البيت الأول عن التنزل إلى المجاء في الشطر الثاني منه متوسلاً بيقول صاحبه ليبان بكل سعيد بن سلم وهجوه.

تعريف حسن التخلّص:

لقد تناول علماء البلاغة (٢) وشرّاح البديعيات (٣) مقصد ابن المعتز من مصطلحه ذلك وقصّوا القول فيه محتملين مصطلح حسن التخلّص الذي حدّوه بقولهم: هو أن يستطرد الشاعر الممكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه يتخلّص سهل ينقله اختلاصاً رشيماً دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة المماثلة والالتصام والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد.

وبدعي أنه لا يشترط أن يمين للتخلّص منه في غرض محدد بل يجري ذلك في أي معنى كان فالشاعر ربما يتخلّص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصف روض أو

(١) البديع ص ٦٠.

(٢) راجع الإيضاح ص ١٢٢.

(٣) عزالة الأدب ص ١٤٩، والوارد الربيع ص ٢١٠.

وصف ظل بال أو ربع خال أو معنى من المعاني يؤدي إلى ملح أو حبر أو
وصف حرب أو غير ذلك .

موازنة بين الاستطراد وحسن التخلص :

لقد فرق الأسلاف من البلاغيين بين الاستطراد وحسن التخلص فبينوا أن
يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الأول أو قطع الكلام فيكون المستطرده أكثر كلامه
والشرطان معدومان في التخلص فإنه لا يرجع إلى الأول ولا يقطع الكلام بل يستمر
على ما يتخلص إليه .

مقاييس حسن التخلص :

وقد علقوا لوجوب الثالث في هذا الموضع من النص الأدبي بقولهم : أن السامع
مترقب للانتقال من الافتتاح إلى المقصود كيف يكون ، فإذا كان حسنا تلازم
الطرفين حركة من نشاط السامع ، وأعلن على اصطفا ما يندبه : والأول في العكس ؛
لقد حاول بعض علماء البديع للتأخيرين تقرير مقاييس لتحديد الصور البليغة من
المخالص ، فذكروا مقاييسين : نص أولها : على أن الأحسن أن يتخلص الشاعر
من القول إلى اللوح . ويقين أن هذا المقياس يتناقض مع ما أكدته جمهور البلاغيين
من أن التخلص لا يتخذ بغيره دون غيره ولا يقتصر على معنى دون سواه ، وإنما
يمتد منه وشجعة لجميع ما بين الأغراض المختلفة وتشد معنى بمعنى .

أما ثاني المقاييسين : فيجزم بأن أحسن التخلصات ما كان في بيت واحد نحو
قول زهير بن أبي سلمى :

إن البخليل ملوم حيث كانوا كمن الجسود على علاقه "هرم"
فالشاعر في هذا البيت قد انتقل من ذم البخليل ابتداء إلى مدح هرمين صانعه .
إن هذا المقياس بلا شك يرسخ قاعدة التلازم التي بين التخلص منه والتخلص
إليه كما يؤكد أن هذا التلازم يكون على غير وجه إذا ماتم التخلص في بيت واحد ،
لأن البيت الواحد هو وحدة البناء الأساسية في القصيدة العربية القديمة .

المبحث الخامس

حسن الانتهاء

لقد أدار علماء البديع المشاعرون ثلاثة مصطلحات للدلالة على ما ينبغي أن تكون عليه خاتمة النص الأدبي :

أولها : مصطلح حسن الانتهاء (١) ، وثانيها : حسن القطع ، وثالثها : حسن الخاتمة (٢) .
 حد حسن الانتهاء :

ويبدو أن مقصدهم من هذه المصطلحات لاختلاف فيه ، ذلك لأنهم حددوه بقرعهم : هو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه الخطيب أو المترسل أو الشاعر مستقلاً حسناً وأحس ما أذن بانتهاء الكلام حتى لا يبقى للنفس تشوقاً إلى ما ورائه .

بلاغة حسن الانتهاء :

وقد علقوا لوجه بلاغة هذا الحسن القضي مقرونين : أنه آخر ما يقرع السمع ويرسم في النفس ، وربما حكيماً تقرب العهد به ، فإن كان مستقراً حسناً تلقاه السمع واستلذه حتى جبر ما وقع فيما سبق من التقصير .

لقد نبه علماء البديع على أن سور الذكر الحكيم هي مستند مقاييس هذا النوع البديعي ، ذلك لأن جميع عوالم السور كلها فيها ، واردة على أسنن وجوه بلاغة وأكملها ، لأنها بين ادعية ، ووصايا ، وفرائض ، ونهيية وتنهيل ، ومواعظ ووعود ووعيد ، إلى غير ذلك مما يتناسب الاختتام (٣) ، ومن المعجز في ذلك قوله تعالى : «إذا زلزلت الأرض زلزالاً ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ، يرسل محدثات أخبارها » بأن ربك أوحى لها .

(١) راجع الإصلاح ص ١٣٤ .

(٢) راجع عزلة الأدب ص ١٦٠ .

(٣) انوار الربيع ج ١ ص ٣٢٠ .

يودع تصدُّرُ الناسُ اشتتاً ليُروا أفعالهم ؛ فمن يعمل مقالاً ذرةً خيراً يره . ومن يعمل مقالاً ذرةً شراً يره . (١) فهذه السورة الكريمة أبدلت بأهوال يوم القيامة واختتمت بقوله تعالى : ومن يعمل مقالاً ذرةً خيراً يره ؛ ومن يعمل مقالاً ذرةً شراً يره . فلهذا هذا الختام مثلاً سائراً وحكماً قاطعاً جمع إلى إيجازه البليغ حكماً عادلاً يستوي قائلواً أساساً في الكفاية والمجازاة .

لقد تبارى الأدباء في كل فن من فنون المنثور والمنظوم ليحوزوا نصب السبق بين أرجاء هذا الميدان الفسيح من ميادين البلاغة والفصاحة العربية .

ومن دان لهم علماء البلاغة بالوزن الحريري الذي قال في ختام إحدى مقاماته :
وهم دنوت إليه كما يدنو المصانع ، وقلت : أوصني أيها العبد الصالح ، فقال :
اجعل الموت نصب عينك ، وهذا فراق بيني وبينك فودعه وعبراني بتدبر
من المآتي ، وزفرائي تنصعدن إلى الرائي ، وكانت خاتمة الثلاثي .

وأبو نواس الذي قال في خاتمة قصيدته التي مدح بها الخطيب :
واني جديراً إذ بلغتك بالمنى وأنت بما أمّلتُ منك جديرٌ
فإن ثوليتي منك الجميل فأهلُهُ وإلا فاني عاذِرٌ وشكورٌ
وابن هالي اللعربي الذي قال في ختام إحدى قصائده في المدح :

فنى كل مسمى من مساميه قبله يصلّي إليها كل عبد ونائل
وفي كل يوم فيه لشعر مـلـحـبـ على أنه لم يُبتـر قولاً لقائل
وحدة النص الأدبي :

إن الباحث المعاصر حين يقوم بحث البلاغين لأوجه الحسن في تلك المواضع من بناء النص الأدبي وبحل شروط الحسن التي فرروها لشواهدهم في ميدان التطبيق لابد له من تأكيد حقيقة رئيسة تنص على شروط حسن الإبداعات والتخلصات والخواصم لا ينبغي أن تقتصر على موضع دون آخر في فنون المنثور وألوان المنظوم بل ينبغي أن تتجسد في سائر أجزاء النصوص الأدبية ، وأن صفات القبح فيها يجب

(١) سورة الزلزلة.

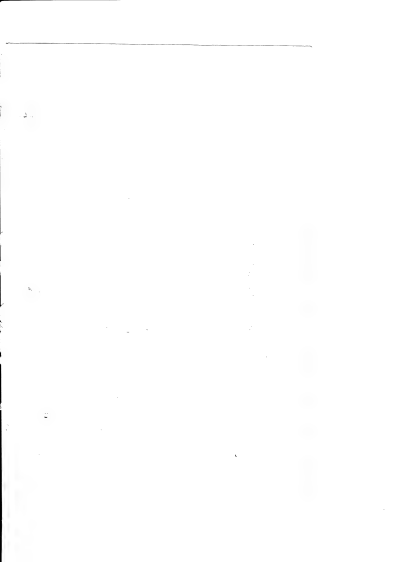
أن يتجنبها الأديب في كل منقطع من منقطات إنتاجه الفني ، كما أن مظاهر
الحسن في هذا الوضع أو ذاك لا يمكن أن تشفع لما تنصير به المقطوعة الأدبية من
عيوب وقصور ، ذلك لأن ثمار القرائح وحدة متكاملة تتكاثف أجزاؤها وتتعاون
أقسامها في تحقيق الحسن الأدبي والجمال الفني .

لقد انتبه ابن طباطبا العلوي (- ٨٣٢٢هـ) إلى الكثير مما تفرره هذه الحفيظة من
أحكام نقدية وبلاغية حول بناء النص الأدبي فقال :

«وأحسن الشعر ما يتنظم القول فيه انتظاماً يشق به أوله مع آخره فان تقدم
بيت على بيت دخله الخلل ، فإن الشعر اذا أسس تأسيس كلمات الحكمة
المستقلة بذاتها ، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها ، لم يحسن نظمها ، بل يجب
أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها قبحاً وحسنًا ،
وفصاحة وجزالة ألفاظ ، ودقة معاني ، وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر
من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً : : : : حتى يخرج القصيدة
كأنها ملحقة تقتضي كل كلمة ما بعدها ويكون ما بعدها متعلقاً بما افتقر إليها (١) »
ولذلك ينبغي أن تدرس الموضوعات الثلاثة : حسن الابتداء وحسن التخلص
وحسن الانتهاء في مبحث واحد يشتمل النص الأدبي لتبدو صور الفن الرابع
متجانسة يشد بعضها بعضاً ويأخذ فن بأطراف الفن الآخر ، وقد كانت دراستها
في مباحث مستقلة استجابة للمنهج الذي وضع أمامه الجالب التعليمي وتيسير
المادة وتقرئها إلى الأذهان :

١

(١) حار الشعر ص ١٢٦ .



الفصل الخامس

تطبيقات عامة

(١)

مرّ بنا: ان علماء البلاغة قد تباروا في زيادة انواع البديع وسجرا إلى الكشف عن غزوة حتى بلغوا بهذه القنون وتلك الانواع إلى ما ينفد على ثلاثين ومائة نوع، ورأينا أيضا ان الخطيب القزويني الذي تامل منهج السكاكي في قسمة انواع البديع وتصنيفها إلى محسنات معتوية ونظمية قد وضع اليد على اثنين وثلاثين محسنا معتويا، وافرز تسعة من المحسنات النظرية:

كما مرّ بنا ان قصائد البديعات في نظم المحسنات البديعية غربان: غريب أودع ناظم قصائده كل بيت من أبياتها محسناً لفظياً أو معنوياً بلا ذكر للمصطلح الذي سُمي به، وغريب ثبت ناظموها في شطر من بيت أو أكثر اسم المحسن الذي أوردوه في الشطر الأخير من أمثلة بديعات هذا الضرب بديعية عز الدين الموصل وبديعية ابن حجة الحموي، ومن شواهد هذه البديعات بيت: بديعية عز الدين الموصل في نوع الاستخدام:

والذين قرأت بهم لا بها سمحوا واستظلموها من الاعداء قلم تشمر
وبيت بديعية ابن حجة الحموي في نوع الف والنشر:

فالطبي والنشر والتفسير مع قصر الظهور والعظم والاحوال والهمس
وبيت بديعية الشيخ عز الدين الموصل في نوع الازدال المراد به الجذ:

هزّك أريد به جد هتاك في كما كنتت يياض الشيب بالكنير (١)
وبيت بديعية الشيخ عبد القادر الشافعي في نوع التثوير:

تجمن أصير تثلثل أرض عزّامن ته احضل مراطع صل مفولا أدم

(١) الكتم معركة بالفتح: ثبت يغلب به اشتر ويصنع منه مواد لكتبة.

تبع في آيات بديعيات هذا الضرب للحسنات المعنوية والحسنات الظنية التي
أوردتها الخطيب القزويني (١).

(٣)

نظر رجل إلى روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب وهو واقف باب التصوري
الشمس - فقال: قد طال وقوفك في الشمس ؟ فقال روح: ليطول وقوفي في
الظل (٢).

إذا أخذنا كلمة «الظل» في هذا النص وأردنا أن نحدد نوعه البياني أو البديعي
ربما جاز بعضنا بين أن يقول هي من أساليب البيان مجازاً أو استعارة أو كناية وبين
أن نقول أنها ثورية، بيد أن هذه الأخيرة تزول إذا ما ذكرنا تعريقات كل أسلوب
من أساليب البيان وحدود كل نوع من أنواع البديع.

ولما يتعلق الأمر بهذه الحدود وتلك التعريقات هو أن أي أسلوب من أساليب
البيان يقوم على أربعة أركان متلازمة:

أولها: المعنى الحقيقي للكلمة، وثانيها: الدلول المقصود المجازي أو الاستعاري له
أو للكناية عنه، وثالثها: العلاقة المترتبة المقررة بين المعنى الحقيقي للكلمة ومداولها
المقصود من استعمالها، ورابعها: القرينة الظنية أو المعنوية التي ترشد إلى أن المعنى
الحقيقي للكلمة غير مقصود في النص.

أما الثورية التي تسمى أيضاً: «الأيهام» والتمويه والتخييل والغالطة، فإن المعنى
الوهمي عنه مخفي عن قصد، وعليه فإن مقولتها غير الظاهر لا يرتبط بمعناها
الظاهر بملازمة موطنة مقررة كما أنها تخطر أو تكاد من القرينة التي ترشدها وتكشف
عن المقصود منها.

(١) بحث في حل هذا التطبيق لموسم التطبيق نعوس البديعيات أو كتاب أنوار
الربيع في أنواع البديع حيث ذكر مؤلفه على صدر التين المدني في نهاية كتابه.
باب آيات البديعيات التي نقلت الثمن البديعي الذي بحثه.

(٢) راجع الكامل ج ١ ص ١٧٣.

وفي ضوء هذا كله فإن كلمة «الظل» لا يمكن أن تكون ثورية لأن في النص أكثر من قرينة تدل على مدلولها وتكشف عنها كما أن مدلولها غير الحقيقي يبدو بوضوح في علاقته بمعناها الحقيقي.

١ - حين نوع الأسلوب البياني لكلمة «الظل» ثم حلل أركانها .

٢ - تتبع في النصوص الآية ما فيها من مجازات واستعارات وكتابات وتوريات مرآة فيها بينها وكاشفا عما يميز كل نوع عن الآخر :

١ - رؤي من الأصمعي أنه قال : حطم علي شهر رمضان وأنا بمكة ، فخرجت إلى الطائف لأصوم بها غرباً من حر مكة ، فلقيني أخو أبي قتلت له : أين تريد؟ فقال أريد هذا البلد الذي يصوم هذا الشهر المبارك فيه ، فقلت له : أما تخاف الحر؟ فقال : من الحر أُر .

٢ - قال رجل لربي بن خديم وقد صلى ليلة حتى أصبح : أصبت نفسك ، فقال : راسها أطلب .

٣ - قال عروة بن الورد :

لولا سكرتي لو ألفت بارحنا
لعل الذي عرفتنا من ورائنا
١ - قال سراج الدين التبراني :

أصون آدم وجهي عن أناس
ورب الشعر عندهم ينقض
٢ - قال الحماسي :

أنا ابن زبابة إن تقفسي
لا تلقني في نسيم العسايب
٣ - قال الطائي :

باليلة في بمركب من ساهرة
حتى تكلم في نصيح الصائير
٤ - قال الفرعابي :

لما تبسكت الذي لم أظنه
وللي لأبدي في قريضي شكني
٥ - غربت كمن يستاء كفاً على كفى
وهذا الذي أبديه بعض الذي أخفي

٨ - قال الشاعر :

تسبل على حد الظلمات نفوسنا وليست على غير الظلمات تسبل

٩ - قال الشاعر :

خلقت عيونا لا أرى لابن حرة علي بدأ أغضي لها حين يغضب

١٠ - قال الشاعر رشيد سليم الخوري في عيد القطر المبارك :

صباحاً إلى أن يقطر السيف بالدم وصمتاً إلى أن يصبح الحق بالقي

أفطر وأحرار الحمى في مجاعة وعيد وأبطال الجهاد بمأسم

بلادك قد مئتها على كل ملّة ومن أجلها أظن ومن أجلها صبر

(١٢)

قال الشنقي :

بقي مائشكوه من راح طرفه ونرجسه مما دعا حسه ورد

أراقت دمي عدداً محاسن وجهه فأضحى وفي عينه آثاره تسبلو

تعرض حمرة العين للانسان عن مرض : رأى الشاعر بارقة دمه تعليلاً في

عيني حبيته من علة . ووضح أن هذا التعليل لا يثير في النفس راحة ولا يخلق الجور

الشعوري الذي يقيم على العاشق الوهمان ، كما أنه يصور العاشق قبلاً ويمثل حبيته

عطلة في طرفها ، فأى جمال في يبرز في هذا التمثيل وذلك التصوير ؟

مما لا ريب فيه أن مثل هذا النص لا يمكن أن يقبل بما فيه من تعليل على

أنه حسن تعليل . هذا من جهة ومن جهة أخرى :

حكى ابن رشيقي قال : كنت أجالس محمد بن حبيب وكان كثيراً ما يبالغ في الغلام

ذو خال تحت حنكه ، فنظر إلى ابن حبيب يوماً وأشار إلى الخال ، فقهرت أنه

يريد أن يصنع فيه شيئاً ، فصنعت أنا بيتين فلما رفع رأسه قال لي : اسمع ، وأنتدلي :

يقولون لي من تحت صفحة حنكه تنزل خال كان منزله الخشد

فللت رأي حسن الجمال فهابه فحطّ عضواً مثل ما يخضع العبد

قلت له : أحسنت ، ولكن اسمع :

خيلاً الخال كامداً منه بين الخشد والجسد رقة وحذرنا

رام تقييله اتصالاً ولكن عاف من سبب لحظه فسواري
فقال : فضحتي قطع الله لسلك (١).

وهذه المطارحة الشعرية تبين أن موضوع حسن التعليل يتسع للموازنة بين شاعرين
إذا ما تناولوا معنى بيته .

فترى في ضوء ذلك ما جاء من تعليل في النصوص الآتية محتسماً للوق الأدبي
والاحساس الفني والخيال المبكر والموازنة بين العالي :

١ - قال ابن المعتز :

قالوا : اشكت عينه فقلت لهم : من كثرة القتل نالها الوصيب
حمرتها من مصاء من فتكت
والدم في النعل شاعد حجب

٢ - قال المبري في الرثاء :

وما كئسك البدر المبري قديمة
ولكنها في وجهه أنثر القطمير

٣ - قال ابن الرومي :

أما ذكاه فلم تصغر إذ جنتحت
إلا فقرة ذاك المنظر الحسن

٤ - قال المتنبي في اللديع :

ما به قتل أعدائه ولكن
بضى إغلافة مازجو اللثاب

٥ - قال ابن نباتة في اللديع :

لم يزل جوده يبور حل السال
إلى أن كما التفتار اصفرارا

٦ - قال شاعر في وصف فرس أدغم ذي غرة :

وأدغم كالضراب سواد لون
يطير مع الرياح ولا جناح
كاه الليل شملته وولسى
قبيل بين عينيه الصباح

٧ - قال الأرجاني :

أبدى صنيك تقصير الزمان في
وقت الربيع طلوع الورود من عجل

٨ - قال شاعر يروي كتاباً :

استنعم الكتاب ففدك سالفا
وقفت بصحة ذلك الأهم

(١) أنوار الربيع ج ٦ ص ١٣٧ .

فذلك سوت الدُّوي كسآبة استفا عليك وشفت الاسلام

(٤)

لقد اُخذ الخطيب القزويني بالطباق شين (١) :

الاول : نحو قوله تعالى : واشداه على الكفار رحمة بينهم (٢) فان الرحمة
سببة عن الذين الذي هو ضد الشدة .

الثاني : ما يسي ايهام التضاد كقول دجيل :

لا تمنني بياستكم من رجلكم فيحك الشيب برأسه ، فيكي
إن ضحك الشيب من جهة المعنى ليس ضد والبكاء لانه استدارة عن كثرة
الشيب ، ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة .

وذهب ابن ابي الاصم إلى أن الطباق على ضربين : حقيقي ومجازي ، وكل من
الضربين على قسمين : لفظي ومعنوي ، فما كان منه باللفاظ الحقيقية أبقوا عليه اسم
الطاق ، وما كان كله بالفاظ المجاز أوبضه سموه تكافؤاً (٣)

وبدهي أن أي علم من العلوم يهدف إلى تحديد مفاهيمه دليلاً للخلط واللبس ،
كما يعتمد في كل موضوع من موضوعاته مصطلحاً واحداً تحقياً للغة العلمية
التي من خصائصها الميزة الدقة في الالفاظ والعبارة .

ناقش في ضوء هذه الشواهد التصور الآتي مستخلصاً منها الطباق ومخرجاً
ماعداه مما ادخل في هذا الباب وضع له مصطلحاً آخر :

١ - قال تعالى : ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا به ،
وليتفرغوا من قضاياه (٤) ،

٢ - قال المتنبي :

إن تطلب الدنيا إذا لم تُردّها مروّج عبة أو اساءة محروم ؟

(١) راجع الاصلاح ص ٢٤٠ .

(٢) التلح ص ٢٩ .

(٣) راجع بنوع القرآن ص ٣١ .

(٤) التلح ص ٧٣ .

٢- قال أبو تمام :

ما إن ترى الاحساب يمشوا وضحا
إلا حيث ترى الدنيا سكوناً (١)

٤- قال أبو تمام أيضاً :

وتنظري عيب الركاب ينصها
حيث القريظ إلى ممسيت المال (٢)

٥- قال أده بن مالك بن زيد بن كهلان في وصيته لولده : ولا تكونوا كالجراد
أكل ما وجد وأكله من وجده .

٦- وقيل لابن عمر رضي الله عنهما : ترك فلان حالة ألف . قال : لكننا لا نتركه .

٧- قال الحسن البصري : «ما رأيت قبلي لاشك فيه أبه يملك لأبني فيه من
الوقت :

٨- وقال أيضاً : « وقد أنكر عليه الإفراط في تحريك الناس : أن من عرفتك
حتى تبلغ الأمن غير ممن أمك حتى تبلغ الخوف »

(٥)

ظهر لنا من بحث المشاكلة والجناس اتّام أن هذين المصطلحين يلتقي مدلولهما على
أن في كل منهما لفظين متفقين في التعلق : وعند التماس الفرق بينهما ثبت لدينا
أن اللفظ المشاكلي لا يقصد به مدلوله الحقيقي بخلاف اللفظ المجانس الذي له معناه
الخاص به .

إن هذا الفرق لم يعد ينطو عشاء البلاغة من الخلط بين المشاكلة والجناس اتّام ،
لقد حكى ابن حجة الحميري بهذا الصدد قال : « قد تقرر أن هذا النوع أعني
المشاكلة القسمة أن يأتي المتكلم في كلامه باسم من الأسماء المشتركة في موضعين
فهما كل إحدى المشاكليتين القسمة الأخرى في الخط واللفظ ومفهومهما مختلف :
ومن التشادات التبريزي في هذا الباب قول أبي سعيد الخزوعي :

(١) أن : نافية مؤكدة له ما ، وضحا : جميع واضح ، يمشي جلي إلى .

(٢) تنظري : النظري ، عيب الركاب : ضرب من سيرها يصعد الفيل فيه رجل إحدى
الرجلين وما يخالف جهتها من اليدين مرة ثم على الرجل الثانية وأوله المشاكلة
لما مرة أخرى وهكذا على التبادل . ينصها : ينصها ، محبي القريظ : الشاعر
لنفسه . ميسر المال : مدلوله الكريم .

حَسَدِيُ الْآجَالِ، آجَالُ وَالْمَسْأَلَةُ الْمَسْرُوعَةُ قَتَالُ
فَلَقَطَةُ الْآجَالِ، الْأَوَّلُ أَسْرَابُ الْبَقَرِ الْوَحْشِيَّةِ : وَالثَّانِيَّةُ مَتْنِي الْأَعْيَارِ وَبَيْنَهُمَا
مَشَاكِلَةٌ فِي الْفَنَنِ وَالْخَطِّ :

قَالَ الشَّيْخُ زَكِيُّ الدِّينِ بْنِ أَبِي الْأَصْبَعِ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ التَّحْيِيرِ هَذَا
الشَّاهِدُ وَأَمَّا هَذَا دَخَلَ فِي بَابِ التَّجَنُّسِ : قُلْتُ قَوْلَ الشَّيْخِ زَكِيِّ الدِّينِ ظَاهِرٌ لَيْسَ فِي
صِحَّتِهِ مَقَامٌ وَهَذَا الْبَيْتُ الَّذِي أَشْنَدَهُ التَّبْرِيزِيُّ مِنْ أَحْسَنِ الشَّوَاهِدِ عَلَى الْإِجْتِنَاسِ الثَّامِ
وَلَوْ اعْتَمَدَ الْبَدِيعِيُّ عَلَى الْمَشَاكِلَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ لَخَلَصُوا مِنْ هَذَا الْأَعْتَرَاثِ (١) :
مَيَّزَ فِي ضَوْءِ هَذَا كُلِّهِ مَا فِي النُّصُوصِ الْآتِيَةِ مِنْ مَشَاكِلَةٍ وَجَنَاسٍ ثَامٍ مَعْلَاً
لَا تَقْرَأُ :

- ١ - قَالَ تَعَالَى : « وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَهًا اللَّهُ وَأَفْضَلُ خَيْرٌ لِلْمُكَرِّمِينَ » (٢)
- ٢ - قَالَ تَعَالَى : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » (٣)
- ٣ - حَكَمِي أَنْ قَدِيرًا وَقَدْ عَلِمَ بِمَقْصِدِ الْوَلَاةِ وَهُوَ بِفَرَسٍ فَسِيلًا فَأَشْنَدَهُ :
« إِنَّ الْوَلَايَةَ لَا تَسْدُومُ لِوَاحِدٍ إِنْ كُنْتَ تَتَكْرَهُ فَأَيْنَ الْأَوَّلُ »
فَافْرَسَ مِنَ الْقَعْلِ الْجَمِيلِ غَرَامًا إِذَا عَرَّلَتْ قَانِيَا لَا تُعْزَلُ
٤ - قَالَ الشَّاعِرُ :
مَنْ مَلِغٌ أَفْسَادُ بِصَرْبٍ كُلِّهَا أَيْ بَيْتُ الْخَارِ قَبْلَ التَّنْزِيلِ
٥ - قَالَ صَمَوْدُ بْنُ كَلْتُومَ :
أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

(٦)

تَحَدَّثَ ابْنُ أَبِي الْأَصْبَعِ مِنَ الْإِسْطِرَافِ الَّذِي هُوَ خُرُوجُ مَنْ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى قَتَالٍ :
« هُوَ قَلِيلُ الْوُقُوعِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ كَوْنُهُ أَكْثَرُ مَاجَاءٍ فِي الشُّعْرِ دُونَ
النَّثَرِ ، وَغَالِبُ وَقْعِهِ فِي فَنِّ الْحِجَاةِ مِنْهُ ، وَلَمْ أَقِفْ مِنْهُ بِشَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ
إِلَّا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَلَا يُعْذِرُ لِمُعْذِرِيكُمْ كَمَا
يُعْذِرُكُمْ لَكُمْ » (٤) ..

(٢) آتِ حَرَانِ ٥٤

(٤) هُوَ ٩٥

(١) خَرَاهُ الْأَدَبُ ص ٣٥٠

(٢) الْبَقَرَةُ ١٩٤

ونحلت عن تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وقال : وهذا الباب أيضاً كالذي قبله في عزة وقوعه في هذا الكتاب العزيز ، ولهذا لم أجده إلا آية واحدة تحيل على تأويل تدخل به في هذا الباب ، وهي قوله تعالى : **«فَلْيَأْكُلْ»** الكتاب **«مَكْلٌ»** **«تَتَقَسَّمُونَ مِنْهُ»** إلا أن آتاه الله وما أنزل **«لَنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ»** ، (١) فإن الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ما عابوا به المؤمنين من الإيمان يومهم بأن يأتي بعد الاستثناء ما يجب أن ينضم على فاعله ، مما يذم به ، فلما أتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام منضمنا تأكيد المدح بما يشبه الذم (٢) .

وقد لاحظ البلاغيون أن هناك نوعاً آخر من أساليب الهجو يسمى **«الهجاء في معرض المدح»** وهو أن يؤتى بكلام ظاهره مدح وباطنه ذم ، كقول الشاعر :

أبو جعفر رجل عالم بما يصلح الصدقة القاسده
 تحرف تحفة أفسافه لغوهم أكله واحدة

تتبع أنواع أساليب المدح والهجاء مستكملاً ما مر بك في مبحث تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح ثم وازن بين أساليب القرآن الكريم وأساليب الأدب العربي في هذا الباب :

(٧)

لقد استخلصنا حدّ الجنس الذي يتفق عليه جمهور البلاغيين وأوردنا أنواعه الرئيسية وقد خرج بعضهم على هذا الحد موسماً في دائرته فألحق بالجناس شيتين (٣) : أحدهما : أن يجمع القاطن الاشتقاق كقوله تعالى **«وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ»** (٤) والثاني : أن تجمعهما التشابه وهي ما يشبه الاشتقاق وليس به كقوله تعالى : **«وَجَنَّاتُ الْجَنَّةِ دَانٌ»** (٥) .

(١) اللامعة ٥٩ .

(٢) راجع ٩٠٩ - ١٩٠ - ٥٠٠ .

(٣) راجع الأيضاح ص ٣٨٩ .

(٤) الروم ٤١ .

(٥) الرحمن ٥١ .

وبالنسبة إلى أنواع الجنس لم يكتف معظم علماء الديق (١) وبعض الباحثين المعاصرين (٢) بأنواع الجنس غير التام التي تتبدأ بها معشدين مخرجه على شرط من شروط الجنس التام الأربعة : ومن هنا ذكروا أنواعا واعتقلوا في تسمياتها وابتز هذه الأنواع :

الأول : المطلق : وهو أن تختلف الأحرف وتتفق الكلستان في أصل واحد يجمعهما الاشتقاق ، كقول البحرني :

صَدَقَ الغَرَابُ لَقَدْ رَأَيْتُ حَمُولَهُ بِالْأَمْسِ قَرِيبُ مِنْ جَوَالِيبِ غُرُوبِ
فجائس بثلاثة الشبه هي : الغراب ، وتغرب ، وغرب ؟

الثاني : المصحف : وهو الاتيان بكلمتين متشابهتين خطأ لا لفظاً ، ويقال له : تجنيس الخطأ كقول البحرني :

وَلَمْ يَكُنْ الْمَغْرَبُ بِإِلَّهٍ إِذْ شَرَى لِيَجِزَّ وَالْحَضْرُ بِإِلَّهٍ طَسَالِبِهِ
الثالث : المركب : وهو ما عمال ركناه وكان احدهما كلمة مفردة والآخر مركباً من كلمتين فصاعداً ، وهو على ثلاثة أنواع :

أحدها : الجنس للقرون ويسمى التشابه ، وهو ما اتفق ركناه لفظاً وخطأ ، كقول أبي الفتح البستي :

إِذَا مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ ذَاعِيَةً فَسَدَّ عَنْهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاعِيَةً

لأنها : الجنس المفروق - وهو ما اتفق ركناه لفظاً لا خطأ ، وعص باسم المفروق لأفراق الركنين في الخط ، نحو قول الحاكم الطوسي :

لَا تَحْرُغَنَّ عَلَى السَّرَوَةِ قَصِيدَةً مَا لَمْ تَكُنْ بِالْفَتْحِ فِي تَهْلِيلِهَا
فَدَعَى عَرَّضَتْ الشَّعْرَ غَيْرَ مَهْلَبٍ حُدُوهُ مِثْلُ وَسَاوِسِ تَهْلِي بِهَا

(١) عزارة الادب ص ٣٠ ، وانوار الربيع ج ١ ص ٩٧ .

(٢) فنون بلاغية ص ٢٢٥ .

ثالثها : الجنس للرق ، وهو ما كان أحد ركنيه مستقلاً والآخر مرفوعاً من كلمة أخرى ، كقول الحريري :

ولا تلتفتُ عن تذكاري فذلك وإبكه يمنع بما كي المزن حال مصابه
والعينيك الحسام ووقعه وروعة مله ومطعم صابه
الرابع : للفتحة ، وهو أن يكون كل من ركنيه مركباً من كلمتين فصاعداً كقول الحاكم الطوسي :

أرى مجلس السلطان تقضي عقابه الى روض مجد بالسماح سجود
وكم لجباه الواهين لديه من مجال سجود في مجالس سجود
الحساس : المنوي ، وهو قسام : تجنيس افعال وتجنيس اشارة : فتجنيس
الاعمال هو أن يفسر المتكلم ركني الجنس ويظهر في اللفظ ما يرادف أحد
الركنين ، ليدل على ما ضميره ، فان تكرر المرادف التي يلفظ فيه اشارة لطيفة
تدل على ذلك الضمير ، كقول أبي بكر بن عياد وقد اصطلح بضمرة وترك
بعضها الى الليل قصار خلا :

الا في سبيل اللهو كأس مدامة أتنا بطعم عهده غر شارب
حكمت بنت بطام بن قيس صبيحة وأمت كجسم الشنغري بعد ثابت
بنت بطام بن قيس اسمها الصها ، وقوله : كجسم الشنغري بعد ثابت ،
أشار به الى قول الشنغري يرثي خاله تأبط شرأ واسمه ثابت :

فاسقنيها أبا سواد بن صمسرو ان جسمي من بعد غالي لخل
والخل : التحيف الموزون : فصيح معه جناسان مضمران في صدر البيت وعجزه
فالاول في وصها ووصها ، والثاني في وغل وغل .

اما جناس الاشارة فسيب وروده في النظم ان الشاعر يقصد المجانسة في بيته
بين الركنين في الجنس فلا يوافق الوزن على ابرازهما فيفسر الواحد ويدل الى
مرادف فيه كناية لطيفة تدل عليه ، وهذا لا يتفق في النثر : ومنه قول دهل في
امرأته سلمى :

انني أحببتك حباً لو تضمنته سئمتي سيك ذلك الشايق الراسي
 فالكتابة في « سيك » لانها اشهرت أن الركن الضمر في « سلمي » يظهر منه
 جناس الاشارة بين الركن القاهر والضمر في سلمي وسلمي الذي هو الجبل .
 ١ - ناقش مسألة اللحن بالجناس مما ليس منه حدا وتريفا ، ومسألة كثرة
 التفرعات واختلاف البلاغيين في اعتماد المصطلحات الدالة عليها .

٢ - حدد الجنس وبين نوعه في النصوص الآتية مشدداً المصطلحات التي
 ارتضيها تسميات هذه الأنواع :

١ - قال أبو جعفر الاسكافي :

فرشت لثيبي أجلاً البساط فكم يستطبه مجلساً غير راسي
 قللت لنفسي لا تنكره فكم للمثيب كراسي كراسي
 ٢ - قال المصري :

رباً سهو على فتاتي فتاتي لثري هل سلا فتاها فتاها
 علمته جنونها أي سحر ما تلاها في حبها ما تلاها
 ٣ - قال الشاعر :

تشرق قلبي في هواء فعنده فريق وعندي شعبة وفريق
 اذا طمأت نفسي أقول له اسفني وان لم يكن ماء ليلتك فريق
 ٤ - قال ابو الفتح البستي :

إن هزاً أذلاء يوماً لعلها أنساك كل كسي هزاً عامله
 وان أقسر على رقي أنساك أقر بالرق كساب الانام له
 ٥ - قال الشاعر :

كف عن الناس اذا شئت أن تعلم من قول جهول سفيه
 من قذف الناس بما فيهم بقلبه الناس بما ليس فيه
 ٦ - قال الباعري :

عابت طيف الذي أهوى قلقت له كيف اهتفت وفتح الليل مفلول

فقال أبصرت نارا من جو الحكم
فلت نارا الخوى معنى وليس لها
فقال نبتنا في الامر واحدة
٧- قال الشاعر :

ولما تأبستم لسم أزل متربعا
واني اذا كان الفراق معالدي
٨- قال ابن الشرف المازني :

هلال في سروج المد سار
٩- قال الخليل بن أحمد :

يا وبع قلبي من دواعي المسوى
أنيحهم طرفي وقد أزمعوا
باتوا وفيهم طقلة حسرة
١٠- قال أبو فراس بن حمدان :

من بحر جودك أشعرو
١١- قال العمري :

تهارهم ابن يفسر في ضحاء

(٨)

قال عمر الخيام مفنخراً :

سبقت العالمين إلى المعالي
فلاح بحكمتي نور الهدى في
يسر يد الجاهلون ليظفرو
يقتبس الشاعر في هذه الآيات من قوله تعالى : « يريدون أن يطفئوا نور الله
بأفواههم ويأبى الله إلا أن يمش نوره ولو كره الكافرون » (٢)

(١) ابن بطر هو الأسود بن بطر ، وبنت الملقن اسمها ليلى
(٢) التوبة ٣١

وواضح انه يبالغ بمبالغة غير مقبولة في التصر بما أتى به في ميدان علم الفلك
والحكمة والفلسف ، اذ يقرن بين ذلك وبين نور الله سبحانه :
قال صاحب بن عباد :

أشكو اليك زماناً ظلّ يعركني حرك الاديم ، ومن يدعو على الزمن
وصاحباً كنت مفبوطاً بصحبته دهرأ فلا تدني فرداً بلا سكن
وباع صفتو وداد كنت القصرة عليه مجتهداً في السرّ والعسكر
كأنه كان مطوياً على إحسن ولم يكن في قديم الدهر انشدني
« ان الكرام اذا ما أسروا ذكروا من كان بالفهم في المنزل الخشن »
نلاحظ ان الشاعر في هذه الايات يروي تجربته مع صاحب أبدى له صفاء
الود وحسن العشرة زماناً ثم تغير عليه وهجره :

وهذه التجربة - بلا ريب - لانتاج إلى اليث اللقيس لتشكل صورته
وتعتم أثرها في السامع والقاريء بل ان اليث اللقيس يتحدث عن مسألة مثقراً
لاتصل اتصالاً عضوياً بتلك التجربة ذلك لانه يتحدث عن تذكّر المرء لاصحابه
في حالة تبدل وضعه يساراً بعد فقر فأين هذا من معاناة الشاعر على يدي صاحبه
الخوّن ؟ !

ثم ان هذا اليث اللقيس القضي أسلوب القياس أن يضحي الشاعر بالبيت
الذي قبله ممهداً به لايراد مقتضيه بتصوير صاحبه راوية
كأنه كان مطوياً على إحسن ولم يكن في قديم الدهر انشدني
ان الكرام اذا ما أسروا ذكروا من كان بالفهم في المنزل الخشن
وعليه فان هذين البيتين يبدوان رقعة رثى يهما الشاعر سائر أياته وأقبحهما على
تجربته القحماً شكلياً ، فبرزت مقطوعته كلها مهلهلة ضعيفة التماسك بعيدة
عن التماسق :

حلل في ضوء هذين المثالين مالي النصوص الآتية من اقتباس وتفسير مينا
الاسلوب الذي سلكه كل نص في ذلك ومنها على مدى افادته من لقن البيدي
الذي اعتمد :

١ - قال عبد المؤمن الاصبهاني في المقالة السادسة والثمانين من رسالته أطباق الذهب : (١) وذكر الله اشرف الاذكار ، فاذكروه بالعني والابتكار ، ذكره مقدحة الارواح الصدية ، كالصبا من وجه الاقاصي القدية ، فاذكروا الله ذكرا كثيرا وكثيرا تكبيرا . فاذا اخضعت الذكر فانرك الصوت والحرف ، وإذا شربت وسكرت فاكسر الطرف : السجود ماجل عن فقرات البغايا ، والذكر مانعي عن حركات الشفاء ، فجهز لطيفة (٢) الالنية إلى حفاظ قدمه ، واذكر ربك في نفسك بذكرك في نفسه ، وقل لمن يذكر الله بلسانه تورعا اذكر ربك في نفسك تضرعا : (٣)

٢ - قال الاحوص :

إذا رمت عنها سلوة قال سامع من الحب ميعاد المرور المقابر
متنبئ لها في مضمر القلب والحشا سراير ورد يوم تبتلى السرائر
٣ - قال ابن نباتة :

وأفيد جارت في القلوب لحاظه واسهرت الاجفان أبطانه الوسى
أجبل نظرا في حاجيه وطرفه نثر السحر منه قاب قوسين أو أدنى
٤ - قال ابن عبد القاهر في مشوقه نسيم :

إذ كانت العشاق من أشواقهم جعلوا نسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أنلو لهم باليتسي كنت اتخذت مع الرسول ميلا

٥ - قال الحريري ، يحكي ماقاله الغلام الذي عرضه (أبو زيد) للبيع
على أبي سائند عند يميني وأصاعوني وأي فني أصاعوا ،
٦ - قال أبو جعفر الاندلسي :

لأتعادي الناس في أوطانهم قلما يسرعني غريب الوطن
وإذا ما شئت عشا بينهم وعلاق الشمس بخلق حسن

(١) هذه الرسالة مائة مائة عارضا بها الحرف الذهب لزمستري .

(٢) اللطيفة : وعاء المسك .

(٣) الاحراف ٢٠٥ .

(٩)

انقبس الآيات للكرامة والاحاديث النبوية الشريفة الآتية مع اعادة الاتقياس واحكامه :

- ١ - قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .
- ٢ - قال تعالى : « ولا يحين المكرر لشيء إلا بأهله » (٢) .
- ٣ - قال تعالى : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٣) .
- ٤ - قال الرسول الكريم : « كل معروف صدقة » .
- ٥ - وقال أيضاً : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .
- ٦ - وقال أيضاً : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .
- ٧ - وقال أيضاً : « الارواح جنود مجتدة » .

(١٠)

ابن رشيح القيرواني من الباحثين القدامى الذين جمعوا بين مباحث حسن الابتداء وحسن التخلص وحسن الانتهاء في مبحث واحد عقد له عنوان « باب المبدأ، والخروج، والنهاية » (٤)، وقال فيه من بين ما قال : « قيل لبعض الخدّاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتهر ، فقال : لاني أمّلت الحزّ وطبقت القفص وأصبت مقاليل الكلام فوطئت لكت الاغراض بحسن القوائيم ولطف الخروج والخروايم إلى المدح والمجاء ، وقد صدق لان حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطية التناج ولطافة الخروج إلى المدح سبب ارتياح المدوح ، وعائنة الكلام أبقي في السمع ، والصدق بالنفس ، لقرب العهد بها ، وان الشعر قتل أوله مفتاحه ، وبنيها للشارح أن يتجيب « الآء وعائلي » ، وقد فلا يستكثر مناهي ابتدائه ، فانها من علاقات الضعف والتكلاّن ، ويرغب عن التقييد في الابتداء فقد حكى أن دعبل بن علي

(١) الحجرات ١٣ .

(٢) الطهر ١٣ .

(٣) الزمر ٩ .

(٤) جامع المصنف ج ١ ص ١٩١ - ٢١٣ .

الخزامي ورد حصص قصص دار عبدالسلام بن رغبان ذلك الخنزير فتناسلوا بالثدي
ذلك الخنزير ابتداء قصيدته :

كأنها ما كأنه غليل في حلقة وقصد الغلوك إذا بغما
فقال له دجيل : أسكت ، فوالله ما ظننتك تتم البيت إلا وقد غشي غلبك ؛
والعمرى ما ظلمه دجيل ، ولقد أبعد مسافة الكلام ، وعالث العادة ، وهذا بيت فيج
من جهات : منها احضار عالم يذكر قبل ، ولا جرت العادة بمثله فيعلم ، ولا
كثير استعماله فيشهر ، مع إحالة تشبيه على تشبيه ، ونقل بحالته الذي هو حشو
فارغ ، ولو طرح من البيت لكان أحزم ، واستدعى قافيه لشيء إلا لفساد المعنى
واستحالة التشبيه ، والذي يريد : (بنامه) في تشبيه الوقف - وهو السوار -
ولم كان وقف الغلوك خاصة ؟ ومعنى البيت أن عشيقته كأنها في جيبها وعينها
الفرأل الذي كأنه بين نبات الخلقة سوار البخارية الحسنة للشيء التيها لكة فيه ، وقيل :
الغلوك : البغي الفاجرة ، فما هذا كله ؟ وأي شيء محته ؟ ومن الشعر امن
لا يعمل لكلامه بسطاً من النسيب ، بل يهجم على ما يريد من مكافئة ، ويتناول مصافحة
وذلك عندهم هو : الوب ، والبئر ، والقطع ، والكعب ، والاقطاب ؛ كل ذلك
يقال : والقصيدة إذا كانت على تلك الحال براء كالخضلة البتراء والقطاء ، وهي
التي لا يبتدأ فيها بحمد الله عز وجل على عادتهم في الخطبة :

قال أبو الطيب :

إذا كان مكنحاً بالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً مكنحاً ؟
فأبكر النسيب ، وزعموا أن أول من فتح هذا الباب وفق هذا المعنى أبو نواس
بقوله :

لا تنكب ليلى ، ولا تطرب إلى هنتير واشترى على الوردين حمراء كالورد
وقوله وهو عند الخاقاني فيما روى عن بعض الشياخه أفضل ابتداء صنعه شاعر
من القدماء والمحدثين :

صفة الطول بلاغة التقديم فاجعل صفاتيك لائحة التكرم

ولا سجنه المطبقة على اشتهاؤه بالخمر، وأخذ عليه أن لا يذكرها في

شعره قال :

أمر شعرك الاطلال والنزل القفرا فقد طللت أزرى به نعلك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مسلط تطيق ذراعي أن أرد له أسرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا
فجاءه بان وصفه الاطلال والقفرا انما هو من خشية الامام ، والّا فهو عنده فراغ
وجهل ؟؟؟

أما الخروج فهو عندهم شبه بالاستطراد ، وليس به لان الخروج انما هو أن
تخرج من نسب إلى مدح أو غيره بلفظ تحييل ، ثم تصادى فيما خرجت اليه كقول
أبي عبادة البحرى :

سقيت ربك بكل نسوة عاجل من وبله حسفاً لها معلوما
ولو أني أعطيت فيهن التي لسقيتهن يسكفاً إبراهيم
وأكثر الناس استعمالاً لهذا الفن أبو الطيب ، فانه ما يكاد يفلت له ، ولا يند
عنه حتى ربما قبح سقوطه فيه ، نحو قوله :

ما قاتلني أو فطنتي بي ترى حرفاً من لم يلق طرفاً منها فقد والا
حل الأمير يرى ذلي فيشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلاً
وليس هذا من قول أبي نواس :

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هو انما لعل الفضل يجمع بيننا
في شيء ، لان أبا نواس قال : يجمع بيننا ، ثم أتبع ذلك ذكر المال والسقاء به ،
فقال :

أمير ! رأيت المال في نعمائه مهيناً ذليل النفس بالضم موقناً
فكانه أشار إلى أن جمع بينهما بلال خاصة : بفضل عليه ، ويجزل عطيه ،
فيزوجها ؟؟؟ أما الانتهاء فهو قاعدة التصديده ، وآخر ما يقى منها في الاسماع ،
وسيله أن يكون محكماً : لا يمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا
كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه ؟؟؟

ومن العرب من يتم التصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة ، وفيها رغبة مشتبهة ،
ويشك الكلام ميتوراً كأنه لم يعتمد جعله خاتمة ، كل ذلك رغبة في أصل لغوي ،
واسقاط اللفظة ، ألا ترى معلقة امرئ القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل
عن شدة المطر :

كَانَ السَّيَّاحُ فِيهِ غَرَسٌ غَدِيَّةٌ بِأَرْجَائِهِ الْقَصُورَى أَنَابِيشُ حَصَلْ
قَلَمٌ يَعْمَلُ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ الْمَلَقَاتِ ،
وقد كره المخدّاق من الشعراء ختم التصيدة بالدعاء ، لأنه من عمل أهل الضعف ،
الأمماليك ، قائم يشتهرون ذلك كما قلعت ، ما لم يكن من جنس قول أبي الطيب
يلذكر الخليل لسيف الدولة :

فَلَا حُجَّتْ بِهَا إِلَّا عَلَى الْقَتَرِ وَلَا وَصَلَتْ بِهَا إِلَّا إِلَى أَمْرِ
العرض في ضوء هذه الملاحظات البلاغية والظنية وما ذكرنا إليه من منهج بناء
نص الأدبي النصوص الشعرية الآتية :

١- قال أبو نوح بن حجر :

أَيْتُهَا النَّفْسُ أَجْشَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْلَرِينَ قَسْدٌ وَقَعَا

٢- قال أبو الطيب المتنبي :

كَلِمَى بِكَ دَاهٍ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَاظِيَا وَحَسَبُ الْمَنَاقِبِ أَنْ يَكُنْ أَمَانِيَا

٣- قال أبو النجم في مدح هشام بن عبد الملك :

وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ وَلَمْ تَفْعَلْ كَأَنَّمَا فِي الْأَقْنُ حَيْنُ الْأَحْوَكِ

٤- قال أبو تمام في المدح :

صَبَّ الْفَرَاقُ عَلَيَا صَبًّا مِنْ كَلْبٍ عَلَيْهِ اسْحَاقُ يَوْمِ الرُّوعِ مَتَقَا

سيف الإمام الذي سمّته هيته لَمْ تَحْرَمِ أَهْلَ الْأَرْضِ مَخْرَمَا

٥- قال النابغة الذبياني في آخر قصيدة احتضر بها إلى التعمان بن المنذر :

وَكَيْفَ بَكَتْ مِنِّي حَبِيرَةٌ فَرَدَدْتُهَا إِلَى التَّحْرِ مِنْهَا مَسْئَلُ وَدَاعِ

عَلَى حَيْنِ عَاتَيْتِ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلَا أَصَحُّ وَالشَّيْبُ وَالزَّعْ ١١٩

٦- قال ابو تمام:

ظلمتك ظلة البسرى ظلموم
زعمت هو لك صفا الغداة كما عفت
لا، والذي هو عالم أن القوي
مازلت عن سنن الوداد ولا عذت
٧- قال ابو الطيب المتنبي:

وفاؤكما كالربيع اشياء طامسه
بأن تُسعيبا والدمع أشقاء ساجمه

٨- قال احمد شوقي:

آذار أبل، ثم بنا يا صاح
حي الربيع حديشة الأرواح

١٠- قال الرصافي في قصيدته النهر والحقيقة:
أصوغ بها حُرَّ الكلام لخرعلل
مدحاً كمقدسه المؤثر المتناسل

المصادر والمراجع

- ١ - الاتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي؛ القاهرة ١٣٦٨ هـ.
- ٢ - أدب الصلير - آثار ابن المقفع (عبدالله بن المقفع) (بيروت).
- ٣ - أدب الكاتب: ابن قتيبة. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد؛ الطبعة الثالثة. القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م.
- ٤ - أساس البلاغة - جلال الدين السيوطي؛ القاهرة.
- ٥ - أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني؛ تحقيق د. و. استانبول ١٩٥٤ م.
- ٦ - إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي؛ تحقيق السيد أحمد صقره دار المعارف - القاهرة.
- ٧ - الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني؛ طبعة دار الكتب المصرية وطبعة القاهرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م (ج ١٩).
- ٨ - الأقصى القريب في علم البيان: محمد بن محمد بن عمرو التتري؛ القاهرة ١٣٢٧ هـ.
- ٩ - الامتاع والزينة: أبو حيان التوحيدي؛ تحقيق أحمد أمين وإحسان الدين؛ القاهرة.
- ١٠ - أنوار الريح في أنواع البديع: ابن معصوم المدني؛ تحقيق شاكر هادي شكر. قنجد ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
- ١١ - الأيضاح: الخطيب التزويني؛ (بإشراف محمد محيي الدين عبد الحميد). القاهرة.
- ١٢ - البديع: ابن المعتز؛ طبعة كراشكوفسكي. لندن ١٩٣٥ م.
- ١٣ - البديع في نقد الشعر. أسامة بن منقذ؛ تحقيق الدكتورين أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد؛ القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م.
- ١٤ - بديع القرآن: ابن أبي الأصميص المصري؛ تحقيق الدكتور حفي محمد شرف؛ القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م.

- ١٥ - البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي : تحقيق ابو الفضل ابراهيم : القاهرة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م :
- ١٦ - البرهان في وجوه البيان : ابن وهب الكاتب . تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة غديعة الحديثي : بغداد ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م :
- ١٧ - البرهان للكشف عن إعجاز القرآن : ابن الزمكاني . تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة غديعة الحديثي : بغداد ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م :
- ١٨ - البلاغة : البرد : تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب : القاهرة ١٩٦٥ هـ :
- ١٩ - بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : الدكتور ابراهيم سلامة : الطبعة الثانية القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م :
- ٢٠ - البلاغة تطور وتاريخ . الدكتور شوقي ضيف : القاهرة ١٩٦٥ م :
- ٢١ - البلاغة عند السكاكي . الدكتور أحمد مطلوب . بغداد ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م :
- ٢٢ - البلاغة الواضحة . علي الجارم ومصطفى أمين : الطبعة العاشرة . القاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- ٢٣ - بيان إعجاز القرآن : الخطابي (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) دار المعارف القاهرة
- ٢٤ - البيان العربي : الدكتور بدوي طهانه : الطبعة الرابعة - القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م :
- ٢٥ - البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون : القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م :
- ٢٦ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب : طه أحمد ابراهيم : الطبعة الثانية - بيروت :
- ٢٧ - التبيان في علم البيان : ابن الزمكاني . تحقيق الدكتور أحمد مطلوب ، والدكتورة غديعة الحديثي : بغداد ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م :
- ٢٨ - تحرير التعبير : ابن أبي الأصميصي . تحقيق الدكتور حفي محمد شرف : القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م :

- ٢٩ - النخيلص : الخطيب القزويني : تحقيق عبد الرحمن البرقوقي : الطبعة الثانية
القاهرة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م .
- ٣٠ - الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمثور : ضياء الدين بن الاثير
تحقيق الدكتورين مصطفى جواد وجميل سعيد : بغداد ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م
- ٣١ - الجامع لأحكام القرآن : القرطبي : دار الكتب - القاهرة :
- ٣٢ - البهائم في تشبيهات القرآن . ابن تالبا البغدادي : تحقيق الدكتور أحمد مطلوب
والدكتورة خديجة الحديدي : بغداد ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م
- ٣٣ - جواهر البلاغة . أحمد الهاشمي : الطبعة العاشرة . القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٦٠ م
- ٣٤ - حاشية الدسوقي : محمد بن محمد عرفة الدسوقي (شروح النخيلص) القاهرة
١٩٣٧ م
- ٣٥ - حدائق السحر في دقائق الشعر : رشيد الدين الوطواط : ترجمة الدكتور
ابراهيم أمين الشواربي - القاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م
- ٣٦ - حسن التوسل إلى صناعة التوسل : شهاب الدين محمود الحلبي : تحقيق الدكتور
أكرم عثمان : بغداد ١٩٨٠ م
- ٣٧ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . جلال الدين السيوطي : القاهرة
١٢٩٩ هـ .
- ٣٨ - الحيوان . الإحاطة : تحقيق عبد السلام محمد هارون : القاهرة ١٣٥٦ هـ -
١٩٣٨ م
- ٣٩ - غزاة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي : القاهرة ١٣٠٤ هـ
- ٤٠ - الخصائص : ابن جني : تحقيق محمد علي التجاره : القاهرة ١٣٧١ هـ -
١٩٥٢ م
- ٤١ - دراسات في علم النفس الأدبي : حامد عيد - القاهرة - ١٣٦٧ هـ -
١٩٤٩ م
- ٤٢ - دروس في البلاغة وتطورها . الدكتور جميل سعيد : بغداد ١٣٧٠ هـ -
١٩٥١ م

- ٤٣ - دلائل الإعجاز: عيد القاهر الجرجاني: تحقيق محمد رشيد رضا، القاهرة ١٣٧٢هـ.
- ٤٤ - ديوان جرير: القاهرة:
- ٤٥ - ديوان ابرصاني، القاهرة، وطبعة وزارة الثقافة والاعلام ببغداد.
- ٤٦ - ديوان الفرزدق، القاهرة:
- ٤٧ - رسائل البلاء محمد كرد علي: الطبعة الرابعة: القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م.
- ٤٨ - سر النصيحة: ابن سنان الخفاجي، تحقيق عبد الشعال الصعيدي القاهرة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.
- ٤٩ - سيرة ابن هشام (السيرة النبوية) ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وجماعته: القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
- ٥٠ - شرح ابن عقيل على آتية ابن مالك: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: الطبعة الرابعة عشرة، القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- ٥١ - الشرح الأطول: الاسفرائيني: تركيا ١٢٨٤هـ:
- ٥٢ - الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق احمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- ٥٣ - الصاحبى احمد بن فارس، تحقيق الدكتور مصطفى الشويبي: بيروت ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.
- ٥٤ - طبقات فحول الشعراء: ابن سلام الجهمي: تحقيق محمود شاكر: الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٤م.
- ٥٥ - الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: يحيى بن حمزة العلوي: القاهرة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م.
- ٥٦ - عيد القاهر الجرجاني: بلاغته وتقدمه: الدكتور أحمد مطلوب: بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- ٥٧ - عروض الافراح في شرح تلخيص الفتاح: بهاء الدين السبكي: القاهرة ١٣٧٠هـ.

- ٥٨ - العمدة: ابن رشيح القيرواني: تحقيق محمد عبيد الدين عيد الحميد.
القاهرة: الطبعة الثالثة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.
- ٥٩ - حيار الشعر: ابن طباطبغا العلوي: تحقيق الدكتور بن طه الخاجري ومحمد
زغلول سلام. القاهرة ١٩٥٦ م.
- ٦٠ - العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي.
- ٦١ - حيون الأختيار: ابن قتيبة. دار الكتب - القاهرة.
- ٦٢ - فن التشبيه: علي الجندى. الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٦٣ - فن الجناس: علي الجندى: القاهرة ١٩٥٤ م.
- ٦٤ - فنون بلاغية: الدكتور أحمد مطلوب: بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- ٦٥ - القوائد (المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان) ابن قيم الجوزية: القاهرة
١٣٣٧ هـ.
- ٦٦ - الميزان البلخيدي: الدكتور محمد مندور: القاهرة - الطبعة الثانية:
- ٦٧ - القاموس المحيط: الفيروز آبادي:
- ٦٨ - القزويني وشروح التلخيص: الدكتور أحمد مطلوب: بغداد ١٣٨٧ هـ -
١٩٦٧ م.
- ٦٩ - قواعد الشعر: ثعلب: تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي: القاهرة ١٣٦٧ هـ -
١٩٤٨ م.
- ٧٠ - الكامل: الميرد: تحقيق الدكتور زكي مبارك. القاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م.
- ٧١ - الكتاب: سيبويه: بولاق - القاهرة ١٣١٦ هـ وطبعة عبد السلام محمد هارون.
- ٧٢ - كتاب التمهيد: الباقلافي: تحقيق يوسف مكارني: بيروت ١٩٥٧ م.
- ٧٣ - كتاب الصنائع: أبو هلال العسكري: تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد
أبو الفضل إبراهيم: القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م.
- ٧٤ - للكشاف: جابر الله الرمضشري. القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م.
- ٧٥ - الباب - جميل صدقي الزهاوي: القاهرة:

- ٧٦ - لسان العرب : ابن منظور ؟
- ٧٧ - اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد : القاهرة ؟
- ٧٨ - النخل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير : تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م وطبعة الدكتورين أحمد الحوفي وبنوي طبانة : القاهرة ؟
- ٧٩ - مجاز القرآن : أبو عبيدة : تحقيق الدكتور فؤاد مزين : القاهرة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م ؟
- ٨٠ - الزهر في علوم اللغة واتواعها : جلال الدين السيوطي : تحقيق محمد أحمد جاد المولى وجماعته : القاهرة - الطبعة الثالثة .
- ٨١ - المصباح في علم المعاني والبيان والبدع : بدر الدين بن مالك : القاهرة ١٣٤١ هـ .
- ٨٢ - مصطلحات بلاغية : الدكتور أحمد مطلوب : بغداد ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ؟
- ٨٣ - المصون في الأدب : أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري : تحقيق عبد السلام محمد هارون : الكويت ١٩٦٠ م ؟
- ٨٤ - المطول : سعد الدين التفتازاني : تركيا ١٣٣٠ هـ
- ٨٥ - معجم الأدباء : ياقوت الحموي : طبعة مرغليوث وطبعة الرفاعي : القاهرة
- ٨٦ - ألفني في أبواب التوحيد والعمل (الجزء السادس عشر) القاضي عبد الجبار الأسدي آبادي : تحقيق أمين الخولي : القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م ؟
- ٨٧ - معنى التبيب : ابن هشام الاتصاري : تحقيق يحيى الدين عبد الحميد : القاهرة ؟
- ٨٨ - مفتاح العلوم : السكاكي : القاهرة ١٩٥٦ هـ - ١٩٣٧ م ؟
- ٨٩ - القدرات لغريب القرآن : الراغب الاصفهاني : تحقيق محمد سيد كيلاني : القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م ؟

- ٩٠ - مقاييس اللغة : أحمد بن فارس : القاهرة :
- ٩١ - مقدمة ابن خلدون : ابن خلدون : دار الكتابات - بيروت :
- ٩٢ - مناهج بلاغية : الدكتور أحمد مطلوب - بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م :
- ٩٣ - مناهج البلاغ وسراج الأدباء : حازم القرطاجني : تحقيق محمد الحبيب ابن النجوة : تونس ١٩٦٦ م :
- ٩٤ - الموزنة بين أبي تمام والبحتري : الأملاني : تحقيق السيد أحمد صقر : دار المعارف - القاهرة :
- ٩٥ - مرآة الفتح في شرح تلخيص المنهاج : ابن يعقوب المغربي (شروح تلخيص) - القاهرة ١٩٣٧ م :
- ٩٦ - الموضح : المرزبالي : تحقيق علي محمد الجبالي : القاهرة ١٩٦٥ م :
- ٩٧ - نقد الشعر : قدامة بن جعفر : تحقيق كمال مصطفى : القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م :
- ٩٨ - لكت الاتصال لنقل القرآن : الباقلاقي : تحقيق الدكتور محمد زحلول سلام : الاسكندرية ١٩٧١ م :
- ٩٩ - فتكت في إعجاز القرآن : الرماني (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) دار المعارف القاهرة :
- ١٠٠ - نهاية الإيجاز في دراية الأعجاز : فخر الدين الرازي : القاهرة ١٣١٧ هـ :
- ١٠١ - النهاية في غريب الحديث والأثر : أبو السعادات المبارك محمد بن محمد (ابن الأثير الجزري) تحقيق فراوي الطنحي : القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م :
- ١٠٢ - الوساطة بين النبي وعصومه : القاضي الجرجاني : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجبالي : الطبعة الثالثة - القاهرة :

الموضوعات

الفصل

الباب الأول
نشأة والتطور

٧ - ٧٩

٧	الفصل الأول : التاريخ
٧	البحث الأول : نشأة والتأثيرات
١٤	النشأة
١٤	الأهداف
١٤	الفرع البنيوي
١٦	الفرع التعليمي
١٦	الفرع النقدي
١٨	التأثيرات
١٨	تقرآن الكريم
٢١	القصور
٢٢	التزيين والجمالية
٢٤	الشعر والكتاب
٢٧	التكلمون
٣٠	البحث الثاني : المدارس البلاغية
٣٠	المدارس الكلامية
	المدارس الأدبية
٣٥	الفصل الثاني : النضج والبلاغة
٣٦	البحث الأول : النضج
	تقرآن والحديث

٢٧	الملاحظ
٤١	ابن تينة
٤٢	البرد
٤٢	تطبه
٤٣	ابن للمتر
٤٣	قدامة
٤٤	ابن وهب
٤٥	المسكري
٤٧	ابن سنان
٥٤	عبدالقادر
٥٩	الرازي
٥٩	ابن الاثير
٦٣	المسكاري
٦٤	ابن مالك
٦٤	القزويني
٧١	البحث الثاني : البلاغة
٧١	في اللغة
٧١	في القرآن
٧٢	في الحديث
٧٢	في التراث
٧٤	الملاحظ
٧٤	البرد
٧٤	المسكري
٧٥	ابن سنان
٧٧	عبدالقادر

٧٧	التركي
٧٧	ابن الاثير
٧٧	السكاكي
٧٨	القزويني
	الباب الثاني
	علم المعاني
	٨٣ - ٢٤٧
٨٣	الفصل الاول: المعاني
٨٤	البحث الاول : نظرية لتنظيم
٨٨	تطور النظرية
٩١	مجموع النظرية
٩٥	البحث الثاني : نقد للنهج
١٠٣	الفصل الثاني : للتجربة
١٠٣	البحث الاول : أضرابه
١٠٥	تعريفه
١٠٦	أضرابه
١٠٨	مؤكدااته
١١٥	البحث الثاني : أغراضه
١١٥	الأغراض الحقيقية
١١٨	الأغراض المجازية
١٢١	الفصل الثالث : الانشاء
١٢١	البحث الاول : الأمر والنهي
١٢١	اقسامه
١٢٣	الأمر
١٢٩	النهي

١٣١	بحث ثانى : الاستفهام
١٣٩	البحث الثالث : التثني والتداء
١٣٩	التثني
١٤٠	التداء
١٤٣	الفصل الرابع : أحوال الجملة
١٤٣	البحث الأول : التقديم والتأخير
١٥٢	البحث الثانى : الفصل والوصل
١٥٥	مواضع الفصل
١٦٠	مواضع الوصل
١٦٣	اقرآن الجملة الحالية بالواو
١٦٥	عصمت الوصل
١٦٦	الفصل والوصل في المفردات
١٦٩	البحث الثالث : التقصير
١٦٩	طرقه
١٧٠	أنواعه
١٧٢	شروطه
١٧٣	طرقه
١٧٧	الفصل الخامس : الأيجاز والاطناب والمساواة
١٧٧	البحث الأول : الأيجاز
١٧٩	الأيجاز
١٨٢	أنواعه
١٨٥	أداة الحذف
٢٠١	البحث الثانى : الاطناب
٢٠١	تعريفه

٢٠٣	أسماء
٢١٧	البحث الثالث : المناقشة
٢٢٤	الفصل السادس : تطبيقات عامة
	الباب الثالث
	علم البيان
٢٥١ - ٢٥٧	
٢٥١	الفصل الأول : البيان
٢٥١	البحث الأول : البيان لغة واصطلاحاً
٢٥٣	نشأة البيان
٢٥٥	جمود البيان
٢٥٩	البحث الثاني : أهمية البيان
٢٦١	الفصل الثاني : التشبيه
٢٦١	البحث الأول : تعريفه وأركانه
٢٦١	التشبيه لغة
٢٦٢	تشبيه اصطلاحاً
٢٦٨	طبيعة التشبيه
٢٦٩	طرق التشبيه
٢٨٠	وجه التشبه
٢٨١	أداة التشبيه
٢٨٦	البحث الثاني : أنواع التشبيه
٢٨٦	التشبيه للرمز والتشبيه للؤكد
٢٨٧	حذف أداة التشبيه
٢٨٩	التشبيه للفصل والتشبيه للجمل
٢٩٠	طبيعة وجه التشبه
٢٩١	التشبيه اللفظي وأنواعه

٢٩٢	البحث الثالث : تشبيه للرد والتشبيه للركب
٢٩٧	البحث الرابع : تشبيه التمثيل
٢٩٧	أقسام وجه تشبيه
٢٩٩	التمثيل اصطلاحاً
٣٠٦	تشبيه الصورة
٣٠٨	البحث الخامس : التشبيه للسمي
٣٠٨	فكرته
٣٠٩	خصائصه
٣٠٩	تحليل التشبيه اللفظي
٣١١	البحث السادس : الغرض التشبيه وبلاغته
٣١١	أغراضه
٣١٤	بلاغته
٣١٩	التفصيل الثالث : الحقيقة والجاز
٣١٩	تعريفهما
٣١٩	الحقيقة لغة
٣٢٠	الحقيقة اصطلاحاً
٣٢١	أنواع الحقيقة
٣٢٢	الجاز لغة
٣٢٨	مقومات الجاز
٣٣٢	البحث الثاني : للجاز المرسل
٣٣٢	تعريفه
٣٣٣	علاقاته
٣٣٧	البحث الثالث : الجاز العقلي
٣٣٧	بين الجاز العقلي واللفظي
٣٣٨	أركان الجملة

٣٣٩	أقسام المجاز
٣٤٠	أقسام المجاز العقلي
٣٤١	أقسام المجاز العقلي
٣٤٢	أقسام المجاز العقلي
٣٤٣	المبحث الرابع : المجاز بالاستعارة
٣٤٣	المبحث الأول : تعريفها وأركانها
٣٤٣	تعريفها
٣٤٦	أركانها
٣٤٧	بين التشبيه والاستعارة
٣٤٩	أقسام الاستعارة
٣٥١	المبحث الثاني : الاستعارة التصريحية
٣٥١	التصريح لغة واصطلاحاً
٣٥٢	أنواع الاستعارة التصريحية
٣٥٣	المبحث الثالث : الاستعارة اللمكنية
٣٥٣	اللمكنية لغة واصطلاحاً
٣٥٤	أقسام الاستعارة اللمكنية
٣٥٥	اللمكنية الحقيقية والاستعارة التخيلية
٣٥٥	حقيقة الاستعارة التخيلية
٣٥٥	غرض الاستعارة التخيلية
٣٥٧	المبحث الرابع : الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة
٣٥٧	الاستعارة المرشحة
٣٥٧	الاستعارة للمجردة
٣٥٨	الاستعارة المطلقة
٣٥٩	المبحث الخامس : الاستعارة التمثيلية
٣٥٩	تعريفها

٣٦٠	مضان الاستعارة التمثيلية
٣٦١	البحث السادس : بلاغة الاستعارة و سر جمالها
٣٦١	مدار بلاغة الاستعارة وجمالها
٣٦٢	أسس الاستعارة الجميلة
٣٦٣	سر بلاغة الاستعارة
٣٦٤	شروط حسن الاستعارة
٣٦٥	الظاهر الحقيقية لبلاغة الاستعارة
٣٦٧	الفصل الخامس : الكتابة والتعريض
٣٦٧	البحث الأول: الكتابة وأنواعها
٣٦٧	الكتابة لغة
٣٦٧	الكتابة اصطلاحاً
٣٦٩	تعريف الكتابة
٣٦٩	الفرق بين الكتابة والجار
٣٧٠	أركان الكتابة
٣٧١	أقسام الكتابة
٣٧١	أنواع الكتابة
٣٧٣	التعريض
٣٧٥	التلويح
٣٧٦	الرمز
٣٧٧	الأيحاء أو الإشارة
٣٧٨	البحث الثاني : بلاغة الكتابة
٣٧٨	مبادئ البلاغة
٣٧٨	سر بلاغة الكتابة
٣٧٩	تأثير الكتابة في المخاطب
٣٨٠	بلاغة الكتابة بين القديس والمعاصر

٢٨٢	الفصل السادس : تطبيقات عامة
	الباب الرابع
	علم البديع
	٤٤٠ - ٤٤١
٤٤١	فصل الأول : البديع
٤٤١	البحث الأول : نشأة وتطورة
٤٤١	البديع لغة
٤٤٢	تاريخ مصطلح البديع
٤٤٢	قرون البديع
٤٤٥	البديعيات
٤٤٧	أهمية البديع
٤٤٨	أصالة قرون البديع
٤٤٠	البحث الثاني : للحسنات العنبرية والنظمية
٤٤٠	السكائي وقسم البديع
٤٤٤	قرون البديع بين حسنات معنوية وحسنات نظمية
٤٤٧	فصل الثاني : الحسنات المعنوية
٤٤٧	البحث الأول : الثورية
٤٤٧	الثورية لغة
٤٤٧	الثورية اصطلاحاً
٤٤٨	ركنا الثورية
٤٤٨	أقسام الثورية
٤٤٣	البحث الثاني : حسن التعليل
٤٤٤	تعريف حسن التعليل
٤٤٥	أصرب حسن التعليل

٤٣٦	طبيعة حسن التعليل وأثره
٤٣٨	المبحث الثالث : الطباق
٤٣٨	الطباق لغة
٤٣٨	الطباق اصطلاحاً
٤٣٩	نصوص من فن الطباق
٤٣٩	أقسام الطباق
٤٤٠	بين الطباق والمقابلة
٤٤٢	ترشيح الطباق
٤٤٣	تأثير الطباق
٤٤٤	المبحث الرابع : المشاكلة
٤٤٤	المشاكلة لغة واصطلاحاً
٤٤٥	ضربا للمشاكلة
٤٤٦	المبحث الخامس : تأكيد المدح بما يشبه الذم
٤٤٦	وتأكيد الذم بما يشبه المدح
٤٤٦	حد تأكيد المدح بما يشبه الذم
٤٤٧	ضربا تأكيد المدح بما يشبه الذم
٤٤٧	طبيعة تأكيد الذم بما يشبه المدح
٤٤٨	بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم وتقليده
٤٤٩	الفصل الثالث : المحسنات اللفظية
٤٤٩	المبحث الأول : الجناس
٤٤٩	الجناس اشتقاقاً ولغة
٤٥٠	الجناس اصطلاحاً
٤٥١	أنواع الجناس
٤٥٤	سر جمال الجناس

٤٥٧	البحث الثاني : الاقتباس
٤٥٧	الاقتباس لغة واصطلاحاً
٤٥٧	الاقتباس بين النسخ والجواز
٤٥٨	أشرب أساليب الاقتباس
٤٥٩	الاقتباس من الحديث الشريف
٤٦٠	التضمين لغة واصطلاحاً
٤٦١	أهمية الاقتباس
٤٦١	حسن التضمين
٤٦٢	البحث الثالث : حسن الإهداء
٤٦٢	شروط حسن الإهداء
٤٦٣	براعة الاستهلال
٤٦٣	براعة المطلع
٤٦٤	وسائل اجادة مقالع القصائد
٤٦٥	البحث الرابع : حسن التخليص
٤٦٥	تعريف حسن التخليص
٤٦٦	موازنة بين الاستطراد وحسن التخليص
٤٦٦	مقاييس حسن التخليص
٤٦٧	البحث الخامس : حسن الانتهاء
٤٦٧	حد حسن الانتهاء
٤٦٧	بلاغة حسن الانتهاء
٤٦٨	وحدة قصص الأدبي
٤٧١	الفصل الخامس : تطبيقات عامة
٤٩١	المصادر والمراجع